# كون إيغلدن

# سادة البراري



الجزء الثاني من السيرة الملحمية للفاتح المغولي جنكيزخان

رواية



مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID AL MAKTOUM FOUNDATION



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

# سادة البراري

الجزء الثاني من
السيرة الملحمية للفاتح المغولي جنكيزخان

رواية



تأليف
كون إيغلدن

ترجمة
مروان سعد الدين

مراجعة وتحرير
مركز التعريب والبرمجة

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION


الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc.

إلى ابنتي صوفي

# القسم الأول



"انتـــبهوا، ســـيأتي شـــعب من الشمال، ويصبح أمة عظيمة. سوف يحمل أفراده الأقـــواس والرماح. إنهم قساة ولا يعرفون الرحمة. سيزأر صوتهم مثل هدير البحر، سيمتطون جيادهم، وكل منهم يعرف موقعه مثل رجل سيخوض معركة".

جيريمايا 50: 41، 42

# مقدمة



كان خان النيمنز عجوزاً، ويرتجف في الرياح التي تهب على التل. بعيداً إلى الأسفل، كان الجيش الذي جمعه يقف ضد رجل يدعو نفسه جنكيز. وقفت أكثر من اثنتي عشرة قبيلة مع النيمنز عند أسفل التل بينما كان العدو يهاجم مرة تلو الأخرى. كان الخان يسمع الصيحات والصرخات التي ينقلها إليه هواء الجبل، لكنه كان كفيفاً تقريباً ولا يمكنه رؤية المعركة.

تمتم مجدداً لكاهنه العرّاف: "أخبرني بما يحدث".

لم يكن كوكشو قد بلغ الثلاثين من عمره بعد، وكانت عيناه حادتين، إلا أن ظلالاً من الشك خيّمت عليه.

"سلّم مقاتلو جاجيرات أقواسهم وسيوفهم يا مولاي. لقد فقدوا شجاعتهم، كما توقعت".

قال الخان وهو يلف رداءه حول جسده النحيل: "لقد منحوه شرفاً كبيراً بإظهار خوفهم. أخبرني عن رجالنا: هل ما زالوا يقاتلون؟".

لم يجب كوكشو لوقت طويل بينما كان يراقب الحشد الكبير من الرجال والجياد في الأسفل. كان جنكيز قد فاجأهم جميعاً، ظهر من المراعي عند الفجر على الرغم من أن أفضل المستطلعين قال إنه لا يزال على بعد مئات الأميال. كان رجال اعتادوا على النصر قد ضربوا تحالف النيمنز بكل ضراوة، لكن كانت هناك فرصة لصدّ هجومهم. لعن كوكشو بصمت قبيلة جاجيرات، التي كانت قد جلبت الكثير من رجال الجبال والذين كان يعتقد أنهم ربما ينتصرون ضد أعدائهم. حتى وقت قصير، كان تحالفهم شيئاً بعيد المنال، ومستحيلاً قبل بضع سنوات؛ وصمد في وجه الهجمة الأولى فقط، ثم بعثره الخوف فتنحّت قبيلة جاجيرات جانباً.

فيما كان كوكشو يراقب، أطلق لعنة بصوت خافت، وشاهد كيف أن بعض الرجال الذين رحّب بهم خانه قد قاتلوا حتى ضد إخوانهم. كانت لديهم ذهنية قطعان الكلاب، التي تحوّل وجهتها وفقاً لقوة الرياح.

قال أخيراً: "ما زالوا يقاتلون يا مولاي. لقد صمدوا ضد الهجوم وسهامهم تصيب رجال جنكيز، وتقتلهم".

شبك خان النيمنز يديه النحيلتين معاً، وبانت براجم أصابعه البيضاء.

"ذلك جيد يا كوكشو، لكن ينبغي أن أنزل إليهم لتشجيعهم".

ألقى الكاهن العرّاف نظرة قلق شديدة على الرجل الذي خدمه طيلة حياته.

"ستموت إذا فعلت ذلك يا مولاي. لقد رأيت ذلك. سيدافع أتباعك عن هذا التل حتى ضد أرواح الموتى". أخفى خجله. كان الخان قد وثق بمستشاره، لكن عندما شاهد كوكشو أول خطوط النيمنز تتداعى، أدرك أن موته قادم مع السهام المتطايرة. كل ما كان يريده عندها هو الهرب بعيداً.

تنهد الخان: "لقد خدمتني بإخلاص يا كوكشو. أنا ممتن لك. أخبرني مجدداً الآن عمّا تراه".

سحب كوكشو نفساً سريعاً وعميقاً قبل أن يجيب.

"لقد انضم أشقاء جنكيز إلى المعركة الآن. يقود أحدهم الهجوم على جانبي محاربينا. إنه يخترق صفوفهم". توقف قليلاً، وعض شفتيه. مثل ذبابة تطنّ في الهواء، شاهد سهماً يتجه نحوهما وينغرس حتى ريشه في الأرض على بعد أقدام فقط من المكان الذي يجثمان فيه.

قال وهو ينهض على قدميه من دون أن يشيح ببصره بعيداً عن فوضى القتل العارمة بعيداً في الأسفل: "ينبغي أن نصعد إلى الأعلى يا مولاي".

نهض الخان العجوز معه، يساعده محاربان. كان وجهاهما خاليين من أي تعبير فيما كانا يشاهدان مصرع أصدقائهما وإخوانهما، لكنهما تسلقا التل عند إيماءة كوكشو، وساعدا الرجل العجوز على الصعود.

سأل بصوت متهدج: "هل قمنا بشن هجوم مضادّ يا كوكشو؟". استدار كوكشو وفزع مما رآه. كانت السهام تتطاير في الهواء تحته، وتبدو كما لو أنها تتحرك ببطء شديد. كانت قوة النيمنز قد انشطرت نصفين نتيجة الهجوم. كانت الدروع التي أمر جنكيز بصنعها وفقاً لنماذج تشن أفضل من الجلود المدبوغة التي يستعملها النيمنز. كان كل رجل يرتدي درعاً حديدياً طويلاً بسماكة إصبع ومحبوكاً بقماش سميك فوق رداء حريري. مع ذلك، لم يكن يستطيع صدّ ضربة قوية، على الرغم من أنه غالباً ما كان يوقف رأس السهم عن النفاذ. شاهد كوكشو محاربي جنكيز يقاومون عاصفة السهام. تمّ سحق صفوف مقاتلي قبيلة ميركيت تحت الأقدام، ورمى من تبقى منهم أسلحتهم وجثوا يلهثون بجهد. وحدهم مقاتلو الأويرات والنيمنز تابعوا القتال، ثائرين،

يعـــرفون أنهـــم لن يصمدوا طويلاً. كان التحالف الكبير قد تشكل لمقاومة عدو واحد وستنتهي بنهايته كل آمال الحرية. تقطب جاجبا كوكشو، مفكّراً في مستقبله.

"قاتـــل الــــرجال بكبرياء يا مولاي. لن يهربوا من هؤلاء، ليس وأنت تشاهدهم".

رأى مـــئة محــــارب لـــدى جنكيز يصلون إلى سفح التل ويحدّقون بخبث إلى خطوط الأتــــباع. كانـــت الرياح شديدة البرودة على مثل ذلك الارتفاع وشعر كوكشو باليأس والغضب. كان قد قطع شوطاً طويلاً ليلقى الفشل على تل جاف وأشعة الشمس الباردة تلفـــح وجهه. كل تلك الأسرار التي كان قد اكتسبها من والده، وأضاف إليها، ستضيع بـــضربة سيف أو سهم تُنهي حياته. للحظة، كره الخان العجوز الذي كان قد حاول أن يقاوم القوة الجديدة في السهول. كان قد فشل وجعله ذلك يبدو أحمق، بغض النظر عن القوة التي كان يتمتع بها من قبل. بصمت، لعن كوكشو الحظ السيىء الذي أصابه.

كـــان خـــان النيمنـــز يلهث فيما كانوا يتسلقون، ولوّح بيد متعبة للرجلين اللذين يمسكان ذراعيه. قال وهو يهز برأسه: "ينبغي أن أرتاح هنا".

ردّ كوكـــشو: "يـــا مولاي، إنهم قريبون للغاية". تجاهل التابعان الكاهن العرّاف، وساعدا الخان على الجلوس على حافة صخرية معشوشبة.

قال الخان: "إذاً، لقد خسرنا؟ كيف يمكن لكلاب جنكيز أن تصل إلى هذا التل إذا لم يكن فوق أجساد النيمنز الموتى؟".

لـــم ينظر كوكشو في عيني التابعين. كانا يعرفان الحقيقة مثله أيضاً، لكن لم يكن أحـــد يـــرغب بقول ذلك وتحطيم آخر أمل للرجل العجوز. في الأسفل، كانت الأرض مليـــئة بأشلاء القتلى، مثل مستند مخطوط بالدم على العشب. كان مقاتلو الأويرات قد قاتلوا بشجاعة وتصميم، لكنهم انهاروا أخيراً. تحرك جيش جنكيز برشاقة، واستفاد من كـــل نقطة ضعف في الخطوط. استطاع كوكشو رؤية مجموعات من مئات وعشرات الـــرجال الـــذين يتسابقون عبر ساحة المعركة، وقادتهم يتواصلون بسرعة مذهلة. لم يـــصمد في وجه العاصفة إلا مقاتلو النيمنز الذين يتمتعون بشجاعة كبيرة، لكن ذلك لم يكـــن كافـــياً. اختبر كوكشو لحظة أمل عندما تجمّع المحاربون مجدداً عند أسفل التل، لكـــن تلك كانت مجموعة صغيرة من الرجال المرهقين وتم القضاء عليهم في الهجمة التالية.

تمـــتم كوكشو: "لا يزال أتباعك مستعدّين للموت من أجلك يا مولاي". كان ذلك كل ما استطاع قوله. كان الباقي من الجيش الذي بدا ماهراً وقوياً جداً في الليلة السابقة قد تبعثر في الأرجاء. كان يستطيع سماع صرخات المحتضرين.

أومأ الخان برأسه، وأغلق عينيه.

قال بصوت أعلى قليلاً من الهمس: "كنت أعتقد أننا نستطيع الانتصار اليوم. إذا انتهـى الأمـر، قـل لأبنائي أن يلقوا أسلحتهم. لن أدعهم يلقون حتفهم من دون سبب وجيه".

كـان أبناء الخان قد لقوا حتفهم عندما اجتاحهم جيش جنكيز. حدّق التابعان إلى كوكشو عندما سمعا الأمر، وكانا يخفيان حزنهما وغضبهما. سحب الرجل الأكبر سناً سـيفه وتفقّـد نصله، وكانت الشرايين في وجهه وعنقه بادية للعيان، مثل خيوط دقيقة تحت الجلد.

"سأنقل الأمر لأبنائك يا مولاي، إذا سمحت لي بالذهاب".

رفع الخان رأسه.

"قل لهم أن يحافظوا على حياتهم يا موراخ حتى يروا إلى أين يقودنا جنكيز هذا".

كانـت هـناك دمـوع في عيني موراخ ومسحها بغضب بينما كان يواجه التابع الآخر، متجاهلاً كوكشو كما لو أنه ليس موجوداً هناك.

قـال بهـدوء: "احم الخان يا بني". أحنى الشاب رأسه، ووضع موراخ يداً على كـتفه، ومـال إلى الأمام حتى تلامس الجبينان للحظة. من دون أن ينظر إلى الكاهن العرّاف الذي كان قد أحضرهم إلى التل، نزل موراخ المنحدر بخطوات واسعة.

تـنهد الخـان، وكـان ذهـنه مليئاً بالشكوك. همس: "قل لهم أن يسمحوا للفاتح بالمرور". شاهد كوكشو أن نقطة عرق تتوقف على أنفه وترتعش هناك. "ربما سيكون رحيماً مع أبنائي بعد أن يقتلني".

بعـيداً فـي الأسـفل، شـاهد كوكشو التابع موراخ يصل إلى الثُلّة الأخيرة من المدافعين. وقفوا على أقدامهم بحضوره؛ وكانوا رجالاً مرهقين، محطمين على الرغم من أنهم رفعوا رؤوسهم وحاولوا عدم إظهار خوفهم. سمعهم كوكشو يودّعون بعضهم فيما كانوا يمشون بخطوات بطيئة نحو العدو.

عـند أسـفل الـتل، شاهد كوكشو جنكيز نفسه قادماً عبر حشد من المحاربين، ودرعـه ملطـخ بالـدماء. شعر كوكشو بالرجل يرمقه بنظرة عابرة. ارتعش ولمس مقـبض خنجره. هل سيحافظ جنكيز على حياة كاهن عرّاف كان قد مرّر سكينه على عنق خانه؟ كان الرجل العجوز يجلس مطأطأ الرأس، ورقبته نحيلة تماماً. ربما ستنقذ مثل تلك الجريمة حياة كوكشو، فقد كان في تلك اللحظة خائفاً جداً من الموت.

حـدّق جنكيـز إلـى الأعلى من دون أن يتحرك لوقت طويل وترك كوكشو يده تسقط إلى جانبه. لم يكن يعرف ذلك المحارب البارد الذي جاء من حيث لا يدري أحد مع شمس الفجر. جلس كوكشو إلى جانب خانه وشاهد مقاتلي مؤخّر حشد النيمنز يلقى

حــتفه. ردد تعويذة حماية قديمة كان والده قد علّمه إياها، تجعل الأعداء في صفه. بدا أن سماع الكلمات غير المترابطة يخفف من توتر الخان العجوز.

كان موراخ التابع الأول في النيمنز، ولم يكن قد قاتل ذلك اليوم. بصرخة عويل، اندفـع نحــو خطوط رجال جنكيز من دون التفكير بتوفير حماية لنفسه. صرخ مقاتلو مؤخّــر حشد النيمنز في أعقابه، فقد تلاشى تعبهم. تسببت سهامهم بفوضى بين رجال جنكيــز، لكنهم وقفوا بسرعة وأطلقوا سهامهم بشكل مفاجئ، وكشفوا عن أسنانهم في أثــناء تقدمهم. عندما قتل موراخ أول من وقف ضده، حاصره اثنا عشر رجلاً من كل جانب، وجعلوا أضلاعه مخضبة بالدماء من وقع ضربات سيوفهم.

اســتمر كوكــشو في إنشاده، واتسعت عيناه عندما نفخ جنكيز بوقاً وابتعد رجاله عن الناجين اللاهثين من النيمنز.

كــان مــوراخ لا يزال حياً، ويقف مصاباً بدوار. رأى كوكشو أن جنكيز صرخ بوجهه، لكنه لم يسمع الكلمات. هزّ موراخ رأسه، وبصق دماً على الأرض بينما كان يــرفع سـيفه مــرة أخرى. لم يكن هناك سوى قلة من مقاتلي النيمنز الواقفين وكانوا جميعاً جرحى، ودماؤهم تسيل حتى أقدامهم. رفعوا أيضاً سيوفهم، وكانوا يترنحون في أثناء قيامهم بذلك.

صرخ جنكيز: "لقد قاتلتم جيداً. استسلموا لي وسأرحب بكم إلى نيراني. سأمنحكم ذلك الشرف".

كشّر موراخ غضباً، وكانت أسنانه حمراء. قال: "أبصق على شرف الذئاب".

جلــس جنكيــز ساكناً، من دون حراك على جواده قبل أن يهزّ كتفيه استخفافاً، ويــشير بيده مرة أخرى. اندفع الخط إلى الأمام، واختفى موراخ والآخرون في حشد الرجال الذين قضوا عليهم.

عالياً على التل، نهض كوكشو على قدميه، سكنت أنشودته في حنجرته بينما كان جنكيــز يترجل ويبدأ صعود المنحدر. كانت المعركة قد انتهت. كان الموتى بالمئات، لكن آلافاً آخرين كانوا قد استسلموا. لم يكن كوكشو يهتم بما حدث لهم.

قــال كوكــشو بهــدوء وهــو ينظر إلى أسفل التل: "إنه قادم". انكمشت معدته، وارتعشت العضلات في ساقيه مثل جواد يزعجه الذباب. كان الرجل الذي وحّد قبائل الــسهول تحــت راياتــه يصعد المنحدر لغاية في نفسه، ووجهه خالٍ من أي تعبير. اســتطاع كوكــشو أن يرى أن درعه قد تعرض لضربات كثيرة وأن العديد من قطعه

المعدنيــة معلــق بخيوط. كان القتال صعباً، لكن جنكيز تسلق من دون أن ينبس ببنت شفة، كما لو أن الإجهاد لم يكن يعني شيئاً له.

همــس الخــان، محطماً السكون: "هل نجا أبنائي؟". مدّ يده وأمسك بردن رداء كوكشو.

قال كوكشو بنوبة مرارة مفاجئة: "لم ينجوا". تراجعت اليد، وسقط الرجل العجوز علــى الأرض. بينما كان كوكشو يراقب، نظرت إليه العينان ذات اللّون الحليبيّ مرة أخرى وكانت هناك قوة بالطريقة التي تماسك بها.

قال الخان: "إذاً، دع جنكيز هذا يأتي. ما الذي يهمني الآن؟".

لــم يــرد كوكشو، ولم يكن يستطيع أن يشيح بناظريه عن المحارب الذي تسلق الــتل. كانــت الــرياح باردة وتلسع عنقه، وكان يشعر بأنها عذبة أكثر من أي وقت مضى. كان قد شاهد رجالاً يواجهون الموت؛ وكان قد منحهم إياه في طقوس ظلامية، وحــرّر أرواحهــم مــن أجسادهم. كان يرى أن موته قادم مع الخطوات الثابتة لذلك الرجل، وكاد للحظة أن يجازف ويهرب. لم تكن الشجاعة التي أبقته هناك. كان رجل كلمات وتعاويذ، وأكثر إثارة للخوف بين النيمنز مما كان عليه والده. كان الهرب يعني المــوت المحقق في الشتاء التالي. سمع همساً بينما كان ابن موراخ يسحب سيفه، لكنه لــم يــشعر بالــراحة لذلك. كان هناك شيء مهيب بشأن تقدم المدمّر بشكل ثابت. لم تــستطع الجــيوش إيقافــه. رفــع الخان العجوز رأسه وشاهده يأتي، وشعر باقترابه بالطريقة نفسها التي تتلمس فيها عيناه الكفيفتان الشمس.

توقــف جنكيز عندما اقترب من الرجال الثلاثة، يحدّق إليهم. كان طويلاً وجلده يلمــع مــن الــدّهن وموفور الصحة. كانت عيناه صفراوين مثل عيني ذئب، ولم يرَ كوكشو رحمة فيهما. فيما وقف كوكشو متجمداً، سحب جنكيز سيفاً ما زال يقطر دماً. تقــدم ابن موراخ خطوة إلى الأمام ليقف بين الخانين. نظر إليه جنكيز بغضب شديد، وتوتّر الشاب.

قــال جنكيز: "انزل عن التل أيها الفتى، إذا أردت أن تعيش. لقد رأيت ما يكفي من أفراد شعبي يموتون اليوم".

هــزّ المحارب الشاب رأسه من دون أن ينبس ببنت شفة، وتنهد جنكيز. بحركة ســريعة، نحّــى الــسيف جانباً، ومدّ يده الأخرى في الهواء، ودفع بخنجر في حنجرة الــشاب. فــيما كانت الروح تغادر ابن موراخ، وقع على جنكيز وذراعاه مفتوحتان. همهــم جنكيــز بينما كان يلتقط الثقل ويدفعه بعيداً. شاهد كوكشو الجسد يتدحرج ببطء على المنحدر.

بهدوء، مسح جنكيز الخنجر ووضعها في غمد على خصره، وظهر عليه التعب فجأة.

قال: "كنت سأكرّم النيمنز لو أنك انضممت إلي".

حدّق إليه الخان العجوز بعينين خاليتين من أي تعبير.

أجاب بصوت قوي: "لقد سمعت ردّي. أرسلني الآن إلى أبنائي".

أومأ جنكيز برأسه. أنزل سيفه ببطء ظاهر. أزال رأس الخان عن كتفيه، وأرسله يتدحرج إلى أسفل التل. لم يرتعش الجسد كثيراً من قوة الضربة وانحنى قليلاً فقط إلى أحـد الجانبيـن. اسـتطاع كوكشو سماع الدماء تتقطّر على الصخور فيما كانت كل أحاسيـسه تـصرخ طلباً للحياة. شحب لونه عندما استدار جنكيز إليه، ونطق بكلمات متلاحقة يائسة.

"ربمـا لـن تريق دماء كاهن عرّاف يا مولاي. لن تفعل ذلك. أنا رجل سلطة، وأفهـم السلطة. اضربني وستجد أن جلدي حديد. بدلاً من ذلك، اسمح لي بأن أخدمك. دعني أعلن انتصارك".

أجاب جنكيز: "كيف أبليت مع خان النيمنز حتى أحضرته إلى هنا ليموت؟".

"ألـم أحضره إلى هنا بعيداً عن المعركة؟ رأيتك قادماً في أحلامي يا مولاي. لقد فـتحت لـك الطـريق بأفـضل ما أستطيع. ألست مستقبل القبائل؟ إن صوتي صوت الأرواح. أقف في الماء، فيما تقف أنت على الأرض والسماء. اسمح لي بأن أخدمك".

تـردّد جنكيـز، وكـان سيفه ثابتاً تماماً. كان الرجل الذي يواجهه يرتدي سترة رمادية داكنة فوق رداء وطماقات (أغطية جلدية للساقين) متسخة. كانت ملابسه مزينة بأشـكال مـن الخـيوط البنفسجية التي أضحى لونها أسود تقريباً نتيجة تراكم الدهون والأوسـاخ عليها. كان الحذاء الذي ينتعله كوكشو مربوطاً بحبل، ومن النوع الذي قد ينتعله رجل إذا قرر آخر مالك له عدم استعماله مجدداً.

علـى الرغم من ذلك، كان هناك شيء بالطريقة التي تلمع بها العينان في الوجه الـداكن. تذكـر جنكيز كيف كان إيلوك الذئاب قد قتل كاهن والده. ربما كان مصير إيلـوك قد تحدد في ذلك اليوم الدموي قبل عدّة سنوات مضت. راقبه كوكشو، منتظراً الضربة التي ستنهي حياته.

قـال جنكيـز: "لا أريـد قاصًّا آخر، لدي ثلاثة رجال يدّعون أنهم يتكلمون مع الأرواح".

شـاهد كوكشو الفضول في نظرة الرجل، ولم يتردد. قال: "إنهم أولاد يا مولاي. دعني أريك". من دون انتظار ردّ، مدّ يده داخل سترته وأخرج قطعة رفيعة من الفولاذ

مـــربوطة كـــيفما اتفق إلى مقبض بوق. شعر بأن جنكيز رفع سيفه ومدّ كوكشو راحة كفه الفارغة لإيقاف الضربة، وأغلق عينيه.

بجهـــد وإرادة كبيـــرين، تحمّل الكاهن العراف الرياح التي تلسع جلده والخوف الشديد الذي يعتصر جوفه. تمتم الكلمات التي كان والده قد علمه إياها وشعر بالسكينة تغمـــره بقـــوة وسرعة أكبر حتى مما كان يتوقع. كانت الأرواح معه، وقد هدّأت من روعه. في لحظة، كان في مكان آخر ويراقب ما يجري.

اتـــسعت عيـــنا جنكيز عندما وضع كوكشو الخنجر على ذراعه، وأدخل النصل الـــرفيع في اللحم. لم تظهر على الكاهن أي علامات ألم بينما كان المعدن يقطع لحمه؛ وراقـــب جنكيز، مذهولاً، بينما كان النصل يثقب الجلد إلى الطرف الآخر. أصبح لون المعـــدن أسود بينما كان ينغرس في اللحم، وطرفت عينا كوكشو ببطء، بكسل تقريباً، عندما سحبه.

راقب كوكشو عيني الخان الشاب عندما كان يُخرج الخنجر، وكانتا مثبتتين على الجرح. سحب كوكشو نفساً عميقاً، وشعر بالطمأنينة تزداد حتى لم يعد يشعر بأطرافه. همس، وكان يعرف الجواب: "هل هناك دماء يا مولاي؟".

تقطـــب حاجبا جنكيز. لم يكن قد أغمد سيفه، لكنه تقدم إلى الأمام ومرّر إبهامه القاســـي على الجرح البيضاوي في ذراع كوكشو. أقرّ بتحفظ: "لا. إنها مهارة مفيدة. هل يمكن تعلمها؟".

ابتسم كوكشو، ولم يعد يشعر بالخوف. "لن تأتي الأرواح إلى أولئك الذين لم يتم اختيارهم يا مولاي".

أومأ جنكيز، وتنحّى جانباً. حتى في الرياح الباردة، كانت رائحة الكاهن العرّاف مثل تيس كبير ولم يكن يعرف ما يفعله بالجرح الغريب الذي لم ينزف.

همهم جنكيز ومرّر أصابعه على طول سيفه، ووضعه في غمده. قال: "سأمنحك سنة تحياها أيها الكاهن العرّاف. إنه وقت كاف لتثبت كفاءتك".

جـــثا كوكـــشو على ركبتيه، ووضع وجهه على الأرض. قال والدموع تبلل الغـــبار على وجنتيه: "أنت الخان العظيم، كما توقعت". شعر بأن طمأنينة همسات الأرواح تغـــادره آنـــذاك. مدّ ردنه إلى الأمام ليخفي بقعة الدماء التي أخذت تكبر بسرعة.

رد جنكيـــز: "أنـــا كذلك". نظر إلى أسفل التل، إلى الجيش الذي ينتظر عودته. "سيـــسمع العالم اسمي". عندما تكلم مجدداً، كان ذلك بصوت خافت جداً، وبذل كوكشو جهداً لسماعه.

"هـذا لـيس وقت الموت أيها الكاهن العرّاف. نحن شعب واحد ولن تكون هناك معـارك أخـرى بينـنا. سأجمع شملنا جميعاً. ستقع المدن في قبضتنا، وستكون لدينا أراضٍ جديدة نمتطي جيادنا فيها. ستبكي النساء، وسأكون سعيداً لسماع ذلك".

نظـر إلى الأسفل إلى الكاهن الملقى على وجهه، وتقطب حاجباه. "ستعيش أيها العرّاف. لقد قلت ذلك. انهض من ركوعك، وسر معي".

عند أسفل التل، أومأ جنكيز إلى شقيقيه، كشيون وخاسار. كان نفوذ كل منهما قد ازداد بمـرور الـسنين مـذ بدأوا تجميع القبائل، لكنهما كانا لا يزالان يافعين وابتسم كشيون عندما مشى شقيقه بينهما.

سأل خاسار، وهو ينظر إلى كوكشو ويحدق بردائه الرث: "من هذا؟".

أجاب جنكيز: "كاهن وعرّاف قبيلة النيمنز".

قـاد رجل آخر جواده حتى أضحى قريباً منهم وترجل، وعيناه ثابتتان على كوكشو. كـان أرسلان سابقاً حداد قبيلة النيمنز وعرفه كوكشو عندما اقترب. كان الرجل قاتلاً، كما تذكر، وقد تم نفيه. لم يكن مفاجئاً وجود أمثاله بين ضباط جنكيز الموثوقين.

قال أرسلان: "أتذكرك. هل مات أبوك إذاً؟".

أجاب كوكشو، بنبرة غاضبة: "قبل سنوات، يا خائن العهد".

للمـرة الأولـى، أدرك أنه فقد السلطة التي كان قد اكتسبها بجهد كبير مع قبيلة النيمنز. لم يكن هناك الكثير من الرجال في تلك القبيلة الذين يتجرأون على النظر إليه من دون خفض أبصارهم، خوفاً من اتهامهم بعدم الولاء ومواجهة سكاكينه وناره. قابل كوكشو نظرة الخائن للنيمنز من دون أن يرف له جفن. سوف يعرفونه على حقيقته.

راقب جنكيز التوتر بين الرجلين بشيء من المتعة. "لا تتعمد الإساءة أيها الكاهن العـرّاف. لـيس لأول محـارب ينضوي تحت راياتي. لم يعد هناك نيمنز الآن، ولا صلات قبلية. لقد استحوذت عليها كلها".

أجاب كوكشو مباشرة: "لقد رأيت ذلك في الرؤيا. لقد باركتك الأرواح".

تجهـم وجـه جنكيـز لدى سماعه تلك الكلمات. "كانت نعمة قاسية. لقد تم جمع الجيش الذي تراه حولك بقوة ومهارة. إن كانت أرواح آبائنا تقودنا، فلا يمكنني رؤيتها لأنها رقيقة للغاية".

طـرفت عيـنا كوكشو. كان خان النيمنز ساذجاً وسهل الانقياد. أدرك أن رجله الجديـد لا يقـع بالقـدر نفسه تحت تأثيره. على الرغم من ذلك، كان الهواء عذباً في رئتيه. لقد عاش ولم يكن حتى يتوقع ذلك قبل ساعة مضت.

استدار جنكيز إلى شقيقه، وصرف كوكشو عن أفكاره.

قـال لخاسـار: "اجعـل الرجال الجدد يقسمون على الولاء لي هذا المساء، عند مغـيب الـشمس. وزّعهم بين الباقين حتى يشعروا بأنهم جزء منا، بدلاً من أن يكونوا أعداء مغلوبين. افعل ذلك بحرص. لا يمكنني الاحتراس من الخناجر في ظهري".

أحنـى خاسـار رأسه قبل أن يستدير مبتعداً بخطوات واسعة بين المحاربين إلى حيث كانت القبائل المهزومة لا تزال تجثو.

شـاهد كوكشو ابتسامة عطف بين جنكيز وشقيقه الأصغر كشيون. كان الرجلان صـديقين وكـان كشيون قد بدأ يتعلم كل ما يستطيعه. حتى أصغر التفاصيل ستكون مفيدة في السنوات القادمة.

قال جنكيز، وهو يربت على ظهر شقيقه: "لقد حطمنا التحالف يا كشيون. ألم أقل ذلك؟ جاءت جيادك المدرعة في الوقت المناسب".

أجاب كشيون، منتشياً بالمديح: "كما علمتني".

قال جنكيز مبتسماً: "مع الرجال الجدد، سيكون هذا جيشاً ينطلق في السهول. لقد حـان الـوقت لـتحديد الـدرب، أخيراً". فكّر للحظة. "أرسل فرساننا في كل اتجاه يا كشيون. أريد استطلاع الأرض بحثاً عن كل عائلة متجولة وقبيلة صغيرة. اطلب منهم المجيء إلى الجبل الأسود في الربيع القادم، قرب نهر اونون. إنه سهل منبسط سيتسع للآلاف من شعبنا. سنجتمع هناك، ونستعد للانطلاق".

سأل كشيون: "ما هي الرسالة التي سأنقلها إليهم؟".

قال بهدوء: "اطلب منهم المجيء إلي. قل لهم إن جنكيز يدعوهم للتجمّع. لم يعد هـناك أحد يقف ضدنا الآن. يمكنهم أن يلحقوا بي أو قضاء أيامهم الأخيرة ينتظرون ظهور محاربيّ في الأفق. قل لهم ذلك". نظر حوله برضا. خلال سبع سنوات، كان قد جمـع أكثـر من عشرة آلاف رجل. مع الناجين من قبائل التحالف المهزومة، كان قد أصبح لديه ضعف ذلك العدد تقريباً. لم يعد هناك أحد في السهول يمكنه تحدّي قيادته. أشاح بنظره بعيداً عن الشمس إلى الشرق، وتخيل مدن تشن الكبيرة الثرية.

"لقد أبقونا متفرقين ألف جيل يا كشيون. لقد قاموا باستغلالنا حتى لم نعد أكثر من كـلاب متوحـشة. ذلـك هـو الماضي. لقد جمعت الشمل، وسوف يرتعشون خوفاً. سأمنحهم سبباً لذلك".

# الفصل الأول



فـــي غـــسق يوم صيفي، امتد معسكر المغول أميالاً في كل اتجاه، وكان التجمع الكبيـــر لا يـــزال يبدو صغيراً مقارنة بالسهل الذي يمتد عليه في ظل الجبل الأسود. كانـــت الخيام تنتشر في كل مكان على مدّ النظر، وحولها آلاف النيران المشتعلة التي تـــستخدم للطهو تضيء الأرض. خلف ذلك، كانت قطعان الجياد، والماعز، والأغنام، والثيـــران ترعى العشب لسد جوعها الدائم. كان يتم سوقها مع بزوغ الفجر بعيداً نحو النهـــر والمراعـــي الجيدة قبل أن تعود إلى المضارب. على الرغم من أن جنكيز كان يضمن السلام، إلا أن التوتر والشبهة كانا يزدادان كل يوم. لم يكن أحد هناك قد شاهد مثل ذلك الحشد من قبل، وكان سهلاً أن يشعر المرء بأنه محاصر بتلك الأعداد الكبيرة مـــن الـــناس. كان يتم تبادل إهانات سرية وعلنية لأن الجميع كانوا يشعرون بالضغط الـــناجم عن العيش بالقرب من محاربين لا يعرفون بعضهم. في الأمسيات، كانت تقع مـــشاجرات كثيـــرة بين الشبان، على الرغم من منعها. كان يُعثر عند بزوغ كل فجر علـــى جثة واحد أو اثنين من أولئك الذين حاولوا تسوية نزاع أو ضغينة قديمة. كانت هناك همسات بين القبائل بينما كانت تنتظر سماع سبب قطعها كل تلك المسافة البعيدة عن أراضيها.

انتـــصبت خـــيمة جنكيز نفسه في وسط خيام وعربات الجيش، ولم تكن مثل أي شيء شاهده أحد من قبل في السهول. كانت أطول بمرة ونصف وأعرض بمرتين من الخـــيام الأخـــرى، ومبنية من موادّ أقوى من شبكات الأغصان الصغيرة للخيام التي حـــولها. كانـــت الخـــيمة ثقيلة جداً ولا يمكن تفكيكها بسهولة، ويتم نصبها على عربة مزوّدة بإطارات تجرها ثمانية ثيران. عندما يهبط الليل، كان مئات المحاربين يتجهون سيراً إليها، فقط لتأكيد ما قد سمعوه.

فـــي الداخل، كانت الخيمة الكبيرة تُضاء بمصابيح شحم الضأن، التي تشع وهجاً دافئاً على قاطنيها وتجعل الهواء ثقيلاً. كانت هناك رايات حربية معلقة على الجدران،

لكن جنكيز ترفّع عن كل ما يدل على الثروة، وكان يجلس على مقعد خشبي قاسٍ. كان أشــقاؤه يستلقون على بطانيات وسروج مصنوعة من شعر الجياد، يشربون وينشدون لتمضية الوقت.

كان يجلس أمام جنكيز محارب شاب يبدو عليه القلق، لا يزال يتعرق من الرحلة الطــويلة التــي كانت قد انتهت به إلى مثل ذلك الحشد. لم يكن يبدو أن الرجال حول الخــان يعيــرون اهتماماً له، لكن المبعوث كان يعرف أن أيديهم ليست بعيدة أبداً عن أســلحتهم. لــم يكن يبدو عليهم التوتر أو القلق من وجوده، وفكّر ملياً أن أيديهم ربما كانــت دائمــاً بالقرب من أحد السيوف. لقد كان شعبه قد اتخذ قراره، وكان يأمل أن يعرف الزعماء الأكبر سناً ما الذي يفعلونه.

قال جنكيز: "إذا كنت قد انتهيت من تناول الشاي، سأسمع الرسالة".

أومــأ المــبعوث، ووضع الكوب على الأرض عند قدميه. ابتلع الرشفة الأخيرة بينما كان يغلق عينيه ويقول: "هذه هي كلمات بارشوك، خان اليوغر".

تلاشــت الأحاديــث والــضحكات حوله عندما تكلم، وكان يعرف أنهم يصغون جمــيعاً. ازداد قلقــه. "عرفت مسروراً عن مجدك، يا مولاي جنكيزخان. كنا قد تعبنا بانــتظار أن يعرف شعبنا بعضه بعضه ويسمو. لقد أشرقت الشمس، والنهر خالٍ من الجليد. أنت الخان العظيم الذي سيقودنا جميعاً. سأكرس قوتي ومعرفتي لك".

توقف المبعوث، ومسح العرق عن جبينه. عندما فتح عينيه، شاهد أن جنكيز كان ينظر إليه بازدراء، فتقلصت معدته خوفاً.

قــال جنكيــز: "الكلمات رائعة، لكن أين أبناء اليوغر؟ لقد كانت لديهم سنة للوصول إلى هذا المكان. إذا كان ينبغي علي البحث عنهم...". ترك الوعيد يحوم في الأرجاء.

تكلم المبعوث بسرعة: "يا مولاي، استغرق الأمر شهوراً لبناء عربات السفر. لم نكن قد انتقلنا من أرضنا منذ عدة أجيال. كان ينبغي تفكيك خمسة معابد كبيرة، حجراً إثــر آخر، وترقيم كل واحد منها حتى نستطيع بناءها من جديد. تطلبت حمولة واحدة من الرقاع اثنتي عشرة عربة ولا يمكن نقلها بسرعة".

سأل جنكيز، بعد أن انحنى إلى الأمام مهتماً بما سمعه: "هل تعرفون الكتابة؟".

أومــأ المبعوث من دون تفاخر. "منذ سنوات عديدة يا مولاي. لقد جمعنا كتابات الأمم في الغرب، كلما كانوا يسمحون لنا بالمقايضة معهم. خاننا رجل علم عظيم، وقد نسخ حتى أعمال تشن وكزي كزيا".

قال جنكيز: "إذاً، سأرحب بتلاميذ ومعلمين في هذا المكان؟ هل تقاتلون بالرقاع؟".

تلّون وجه المبعوث عندما ضحك الرجال في الخيمة بصوت خافت. "هناك أربعة آلاف مقاتل أيضاً يا مولاي. سيتبعون بارشوك أينما يقودهم".

أجـاب جنكيز: "سيتبعونني، وإلا سنتركهم مثل الجيفة على العشب". للحظة، لم يكـن بوسـع المـبعوث سـوى أن يحدّق، لكنه بعد ذلك نظر إلى الأرضية الخشبية المصقولة، وبقي صامتاً.

كظم جنكيز غضبه، وقال: "لم تقل متى سيأتون، تلاميذ اليوغر هؤلاء".

"ربمـا يكونـون على بعد أيام فقط خلفي يا مولاي. لقد غادرت منذ ثلاثة شهور مضت وكانوا مستعدين تقريباً للرحيل. لن يطول الأمر الآن، إذا كان لديك صبر".

قـال جنكيز بهدوء، وهو يفكر: "سأنتظر من أجل أربعة آلاف. هل تعرف كتابة تشن؟".

"لم أتعلم القراءة يا مولاي. يمكن لخاني قراءة كلماتهم".

"هل تقول تلك الرقاع كيف يمكن بناء مدينة من الحجارة؟".

تردّد المبعوث عندما شعر بالاهتمام الشديد الذي يبديه الرجال من حوله.

"لـم أسـمع شيئاً مماثلاً من قبل يا مولاي. يكتب أبناء تشن عن الفلسفة، كلمات بـوذا، كونفوشيوس ولاو تسي. لا يكتبون عن الحرب، أو حتى إذا كانوا يفعلون ذلك، لم يسمحوا لنا برؤية تلك الأوراق".

قـال جنكيـز بحـدّة: "إذاً، لـن تفيدنا بشيء. احصل لنفسك على وجبة طعام، واحرص على ألا تبدأ شجاراً بتفاخرك. سأحكم على اليوغر عندما يصلون".

انحنـى المـبعوث قبل أن يغادر الخيمة، وتنهد بارتياح حالما أصبح خارج الجو المفعـم بالدخان. مرة أخرى، تساءل إن كان خانه يفهم ما كان قد وعد به بكلماته. لم يعد أفراد اليوغر يحكمون أنفسهم بعد ذلك.

نظـر المـبعوث حوله على المعسكر الشاسع، وشاهد أضواءً تتلألأ على امتداد أميال. ربما لم يكن أمام خان اليوغر أي خيار.

غمّـست هولن قطعة من القماش في دلو من الماء، ووضعتها على جبين ابنها. لطالما كان تيموج أضعف من أشقائه، وكان مرضه يبدو عبئاً إضافياً أكثر من خاسار أو كـشيون، أو تـيموجن نفـسه. ابتسمت باستياء من فكرة أنها ينبغي أن تنادي ابنها جنكيـز، وهي كلمة جميلة تعني المحيط لكنه تجاوز ذلك المعنى المعتاد بطموحه. لم يكـن قـد شـاهد البحر أبداً من قبل خلال ست وعشرين سنة من حياته، ولم تكن قد شاهدته بنفسها، بالطبع.

اضطرب تيموج في نومه، وفزع عندما تحسست معدته بأصابعها.

قالت بورت: "إنه هادئ الآن. ربما سأغادر لبعض الوقت".

نظرت هولن ببرود إلى المرأة التي كان تيموجن (جنكيزخان) قد اتخذها زوجة. كانت بورت قد منحته أربعة أبناء سالمين، وكانت هولن قد فكّرت لبعض الوقت أنهما ستكونان أختين، أو صديقتين على الأقل. كانت المرأة الشابة مليئة بالحياة والبهجة في مـــا مضى، لكن أحداثاً كانت تعتمل في مكان ما عميقاً داخلها حيث لا يمكن رؤيتها. كانـــت هولن تعرف الطريقة التي ينظر بها تيموجن إلى ابنه البكر. لم يكن يلعب مع جوشي الصغير أبداً، ويكتفي بتجاهله. كانت بورت قد كافحت ضد ذلك الارتياب، لكنه كـــان قد تطور بينهما مثل إسفين حديدي في خشب قاسٍ. لم ينفع أن كل أبنائه الثلاثة الآخـــرين كانـــوا قد ورثوا لون عينيه الصفراوين. كانت عينا جوشي بنيتين داكنتين، وبـــشرته سوداء مثل شعره في ضوء خافت. بينما كان تيموجن شغوفاً بالآخرين، كان جوشي يهرب إلى أمه من دون أن يستطيع فهم البرودة في تعبيرات وجه والده عندما ينظـــر إلـــيه. شاهدت هولن المرأة الشابة ترمق باب الخيمة، إنها تفكر من دون شك بأبنائها.

وبّختها هولن: "لديك خدم يضعونهم في أسرّتهم. إذا أفاق تيموج، سأكون بحاجة إليك هنا".

بيـــنما كانت تتكلم، مرّرت أصابعها فوق عقدة داكنة تحت جلد بطن ابنها، على بعد أصابع فقط من شعر فخذه الداكن. كانت قد رأت مثل ذلك الجرح من قبل، عندما يـــرفع الرجال أوزاناً ثقيلة جداً. كان الألم شديداً، لكن معظمهم كان يسترد عافيته. لم يكـــن تيموج يتمتع بمثل ذلك الحظ، ولم يسبق له ذلك. لم يكن يبدو كمحارب بينما كان ينـــتقل نحو الرجولة. عندما كان ينام، كان وجهه يبدو مثل شاعر، وكانت هولن تحبه لأجـــل ذلك. ربما لأن والده كان سيسر لرؤية الآخرين وقد أصبحوا رجالاً، فقد كانت دائماً حنونة بشكل خاص مع تيموج. لم يكن قد أصبح قاسياً، على الرغم من أنه تحمل الكثير مثلهم. تنهدت في قرارة نفسها، وشعرت بعيني بورت تنظران إليها في الدجنة.

قالت بورت: "ربما سيستعيد عافيته". فزعت هولن. كان جلد ابنها قد تقرّح تحت الشمس ونادراً ما حمل نصلاً أكبر من سكين طعام. لم تكن تعترض على ذلك خاصة بعد أن بدأت تعرف تاريخ القبائل التي تنضم إليهم بسرعة أذهلت حتى كبار السن. لا يمكـــن أن يكون الجميع مهرة في استعمال الأسلحة وامتطاء الجياد، كما قالت لنفسها. كانت تعرف أنه يكره السخرية والازدراء اللذين يلاحقانه في عمله، على الرغم من أن قلـــة كانـــت تجـــرؤ علـــى تحمّل مخاطرة أن يسمعها جنكيز. رفض تيموج أن يذكر

الإهانـــات وكانت تلك شجاعة خاصة به. لم يكن أحد من أبنائها يفتقر للروح المعنوية العالية.

نظـــرت كلـــتا المرأتين بينما كان باب الخيمة الصغير ينفتح. تقطب حاجبا هولن عـــندما شاهدت كوكشو يدخل ويحني رأسه لهما. جالت عيناه الثاقبتان على جسد ابنها المـــستلقي على ظهره، وكافحت حتى لا تُظهر امتعاضها، ولم تكن تفهم حتى ردّ فعله ذلــك. كان هناك شيء في الكاهن العراف، يجعلها تشمئز منه، وقد تجاهلت المبعوثين الذين بعث بهم. للحظة، تمالكت نفسها، تكافح بين السخط والإرهاق.

قالت ببرود: "لم أطلبك".

بدا كوكشو غافلاً عن تلك النبرة. "أرسلت عبداً لألتمس لحظة معك، يا أم الخان. ربما لم يصل بعد. المعسكر كله يتكلم عن مرض ابنك".

شـــعرت هـــولن أن نظـــرة الكـــاهن العراف تسمّرت عليها، وأنه ينتظر أن يتم التـــرحيب به بشكل رسمي، بينما كانت تنظر إلى تيموج مرة أخرى. كان يراقب دائماً كمـــا لـــو أن شخصاً آخر بالداخل ينظر إلى الخارج. كانت قد شاهدت كيف دفع نفسه إلـــى الدوائـــر الداخلـــية حول جنكيز ولم تكن تحبه. ربما كانت تنبعث من المحاربين رائحـــة روث الأغنام، ودهن الضأن، والعرق، لكن تلك كانت روائح رجال أصحاء. كانـــت رائحـــة كوكشو مثل اللحم المتعفن، على الرغم من أنها لم تكن تعرف إن كان ذلك من ملابسه أو لحمه.

بمـــواجهة صـــمتها، كـــان يجـــدر به مغادرة الخيمة، أو المخاطرة باستدعائها للحـــراس. بدلاً من ذلك، تكلم بصفاقة، متأكداً نوعاً ما أنها لن تطرده. "لدي مهارة في المداواة، إذا كنت تسمحين لي بفحصه".

حاولـــت هولن أن تبتلع اشمئزازها. لم يكن باستطاعة كاهن أولخونوت سوى أن ينشد بجانب تيموج، من دون نتيجة. قالت أخيراً: "مرحباً بك في بيتي يا كوكشو". رأته يـــسترخي تماماً ولم تستطع التخلص من الشعور بأنها قريبة للغاية من شيء بغيض. "ابني نائم. يشعر بألم شديد جداً عندما يستفيق، وأريده أن يرتاح".

عبـــر كوكشو الخيمة الصغيرة، وجثم بجانب المرأتين. ابتعدت كلتاهما عنه من دون وعي.

"يحتاج إلى المداواة أكثر من الراحة، على ما أعتقد". ألقى كوكشو نظرة على تـــيموج، وانحنى مقترباً ليشم رائحة أنفاسه. فزعت هولن عندما مدّ يده إلى بطن تـــيموج العـــاري وتحـــسس منطقة الكتلة، لكنها لم تمنعه. تأوّه تيموج في نومه، وحبست هولن أنفاسها.

بعد وقت، أومأ كوكشو لنفسه. "ينبغي عليك أن تجهّزي نفسك أيتها الأم العجوز. سيموت هذا الابن".

مدّت هولن يدها بسرعة، وأمسكت الكاهن العرّاف من معصمه. أدهشته قوتها.

"لقد أفرغ ما في معدته أيها الكاهن العرّاف. لقد سبق ورأيت ذلك عدّة مرات من قبل. رأيت ذلك حتى مع الجياد والماعز وكانت تعيش دائماً".

أبعـد كوكـشو قبـضتها المرتعشة بيده الأخرى. كان يسعده رؤية الخوف في عينيها. مع الخوف، يمكنه امتلاكها جسداً وروحاً. إن كانت أماً شابة من النيمنز، ربما كـان سعى لإقامة علاقة معها مقابل مداواة ابنها، لكن في هذا المعسكر الجديد، يحتاج إلى إثارة إعجاب الخان العظيم. أبقى وجهه خالياً من أي تعبير بينما كان يجيب.

"هل رأيت لون الكتلة الداكن؟ إنها شيء لا يمكن استئصاله. لو كانت على الجلد، لكـنت أحرقتها، لكنها ستنشب مثل المخالب في معدته ورئتيه. إنها تستهلكه تماماً ولن تتوقف حتى يموت".

قالت هولن بحدّة، والدموع في عينيها: "أنت مخطئ".

خفض كوكشو بصره حتى لا ترى نظرة انتصاره آنذاك.

"أتمنـى أن أكون كذلك أيتها الأم العجوز. لقد رأيت هذه الأشياء من قبل، وهي شـرهة جـداً. ستستمر في مهاجمته بعنف حتى يهلكا معاً". لتوضيح قصده، مدّ يده، وضغط على الورم. اضطرب تيموج، وأفاق يسحب نفساً عميقاً.

قال تيموج لكوكشو وهو يلهث: "من أنت؟". كافح ليجلس، لكن الألم جعله يصرخ ويـستلقي علـى الـسرير الضيق. سحبت يداه بطانية ليغطي عُريَه، وتوردت وجنتاه عندما أمعن كوكشو النظر فيه.

قالـت هـولن: "إنه كاهن عرّاف يا تيموج. سيجعلك تشعر بتحسن". كان تيموج يتصبب عرقاً، ووضعت قطعة القماش على جلده بينما كان يستلقي للخلف. بعد وقت، هدأ تنفسه، واستغرق في نوم عميق مرة أخرى. فقدت هولن بعضاً من توترها، إن لم يكن الرعب الذي أحضره كوكشو إلى بيتها.

قالت: "إن كان الأمر ميؤوساً منه أيها الكاهن العرّاف، لماذا لا تزال هنا؟ هناك رجال ونساء آخرون يحتاجون إلى مهارتك في المداواة". لم تستطع إخفاء المرارة في صوتها، ولم تتوقع أن يكون كوكشو يستمتع بذلك.

"لقـد حاربت ما ينهشه مرتين من قبل في حياتي. إنها إحدى الشعائر الشريرة، وهي خطيـرة علـى الرجل الذي يمارسها وعلى ابنك أيضاً. أقول لك هذا حتى لا تيأسي، لكن سيكون من الحماقة أن تتمتعي بالأمل. اعتبريه ميتاً وإذا استعدته، ستعرفين الفرح".

شـعرت هولن بقشعريرة تسري في جسدها، ونظرت في عيني الكاهن العرّاف. كانت تنبعث منه رائحة الدماء، كما أدركت، على الرغم من أن لا أثر لها يظهر على جلده. جعلتها فكرة أنه يقوم بلمس ابنها تشبك يديها بإحكام، لكنه كان قد أخافها بكلامه عن الموت وكانت عاجزة أمامه.

همست: "ماذا تريدني أن أفعل؟".

جلـس ساكناً من دون حراك بينما كان يفكر. "سيتطلب الأمر كل قوتي لإحضار الأرواح إلى ابنك. سأحتاج إلى معزاة لأوقف استفحال المرض وأخرى لأنظّفه بدمها. لدي الأعشاب التي أحتاج إليها، إن كنت قوياً بما يكفي".

سألت بورت فجأة: "ماذا إن فشلت؟".

سـحب كوكشو نفساً عميقاً، وأخرجه من بين شفتيه. "إذا أخفقت قوتي عندما أبدأ الإنشاد، سأنجو. إذا وصلت إلى المرحلة النهائية وأخذتني الأرواح، ستشاهدانني عندها أخـرج من جسدي. سأعيش لبعض الوقت، لكن من دون الروح، سأكون جسداً خاوياً. هذا ليس شيئاً سهلاً أيتها الأم العجوز".

نظـرت إلـيه هـولن، متـشككة مـرة أخرى. كان يبدو مقنعاً جداً، لكن عينيه السريعتين كانتا تراقبان دائماً، تشاهدان تأثير كلماته.

"اجلبي معزاتين يا بورت. ولنرَ ما يستطيع القيام به".

كـان الظـلام مخـيماً في الخارج وبينما كانت بورت تجلب الحيوانين، استعمل كوكـشو قطعـة القمـاش ليمسح صدر وبطن تيموج. عندما ضغط بأصابعه على فم تيموج، استيقظ الشاب مجدداً، وعيناه تمتلئان رعباً.

قال له كوكشو: "ابقَ مستلقياً أيها الفتى. سأساعدك إن كانت لديك القوة". لم ينظر حوله عندما كان يتم إدخال المعزاتين إلى الخيمة وسحبهما إلى جانبه، فقد كان تركيزه منصباً على الشاب الذي يعتني به.

بـبطء الـشعائر الدينية، أخرج كوكشو أربعة أوعية نحاسية من ثوبه، ووضعها على الأرض. وضع مسحوقاً أبيض في كل منها، وأشعل فتيلاً مشمعاً من الموقد. بعد وقـت قصير، جعلت أفاع من الدخان الرمادي-الأبيض الجو خانقاً في الغرفة. تنفس كوكـشو بعمق، ليملأ رئتيه. سعلت هولن في يدها وتورّد خدّاها. كان الدخان يجعلها تشعر بالدوار، لكنها لم تكن لتترك ابنها وحيداً مع رجل لا تثق به.

بـصوت خافـت، بدأ كوكشو ينشد بأقدم لغة لشعبهم، والتي كانت منسية تقريباً. اسـترخت هـولن عـندما سمعتها، وتذكرت أصوات المعالجين والكهنة العرافين في شـبابها. أعـادت تلك اللغة ذكريات بائسة لبورت، التي كانت قد سمعت زوجها يقول

الكلمات القديمة في إحدى الليالي قبل وقت طويل مضى وهو يذبح الرجال ويدفع قطعاً من قلب محترق بين شفتيها. كانت لغة الدم والقسوة، المناسبة تماماً للسهول في الشتاء. لم تكن هناك كلمة منها عن العطف، أو عن الحب. فيما كانت بورت تصغي السمع، تغلغلت خيوط من الدخان إليها، وجعلت جلدها خدراً. استحضرت الكلمات المشوشة مجموعة من الصور الشريرة وسدّت فمها بيدها.

تذمر كوكشو منها، وقد اتسعت عيناه: "اهدئي يا امرأة. اصمتي لأن الأرواح قادمة". تابع إنشاده بقوة أكبر، خدراً بينما كان يردد العبارات مراراً وتكراراً، ويرفع صوته ويزيد إلحاحه. أطلقت المعزاة الأولى ثغاءً يائساً عندما وضعها فوق تيموج، ونظرت في عيني الشاب الخائفتين. بسكينه، شق كوكشو حنجرة المعزاة وأمسك بها فيما كانت الدماء تسيل وتتبخر فوق ابن هولن. صرخ تيموج من الحرارة المفاجئة، لكن هولن لمست بيدها شفتيه فهدأ.

ترك كوكشو المعزاة تسقط من يده، وكانت لا تزال تركل. أصبح نشيده أسرع وأغلق عينيه، ومدّ يده نحو معدة تيموج. لدهشته، بقي الشاب ساكناً وكان على كوكشو أن يضغط الكتلة بقوة ليجعله يصرخ. أخفت الدماء الالتواء الحاد بينما كان يحل الجزء المتداخل من الأمعاء ويدفعه خلف جدار العضلات. كان والده قد علّمه الطريقة مع ورم حقيقي، وكان كوكشو قد شاهد الرجل العجوز ينشد فيما الرجال والنساء يصرخون، ويصيح أحياناً أمام أفواههم المفتوحة حتى يدخل ريقه حناجرهم. كان والد كوكشو قد مضى بهم بعيداً بعد إرهاقهم حتى شعروا بالضياع والجنون *وصدّقوا* ما يقوم به. كان قد شاهد ذلك الورم المنتفخ ينكمش ويموت بعد مرحلة الألم المبرّح والتصديق تلك. إذا منح رجل نفسه تماماً لكاهن عراف، تكافئ الأرواح أحياناً تلك الثقة.

لم يكن هناك شرف بالاستفادة من مهارة في خداع شاب بمعدة ممزقة، لكن المكافآت ستكون عظيمة. كان تيموج شقيق الخان ومثل ذلك الرجل سيكون دائماً حليفاً ثميناً. فكّر في تحذيرات والده بشأن أولئك الذين يسيئون الاستفادة من الأرواح بالأكاذيب والخدع. لم يفهم الإنسان أبداً القوة، أو كيف يمكنها الاستيلاء على المرء. تحوم الأرواح حول المعتقد مثل ذباب حول قطعة لحم. لم يكن من الخطأ نشر معتقد في معسكر الخان. لا يمكن لذلك سوى أن يزيد من سلطته.

تنفس كوكشو بجهد عندما كان ينشد، ورفع عينيه بينما كان يدفع بيده عميقاً في بطن تيموج. مع صرخة فرح، حرك يده بقوة وسحب قطعة صغيرة من كبد عجل كان قد خبّأها عن الأنظار. في قبضته، كانت تهتز مثل شيء حي، وتراجعت بورت وهولن عندما شاهدتاها.

استمر كوكشو بالإنشاد بينما كان يسحب المعزاة الثانية إليه. كافحت أيضاً، لكنه دفـع يده داخل أسنانها الصفراء، على الرغم من أنها أطبقت على مفاصله. دفع قطعة اللحـم الفاسـدة داخـل المريء حتى لم يعد بوسع الحيوان فعل شيء سوى ابتلاعها بنوبات تقلص لا إرادية. عندما شاهد الحنجرة تتحرك، ضربها بقوة، أرغم قطعة الكبد على النزول إلى معدة المعزاة قبل أن يفلتها من يده.

قـال، وهو يلهث: "لا تدعيها تلمس الحيوان الآخر، وإلا ستنتشر وتعيش مجدداً، وربما تعود إلى ابنك". تساقط العرق من أنفه بينما كان ينظر إليهما.

"سـيكون من الأفضل حرق المعزاة حتى تصبح رماداً. ينبغي عدم تناول لحمها لأنه يحتوي على المرض. كوني واثقة من ذلك. لا أملك القوة للقيام بذلك مجدداً".

تـرك نفسه يتداعى كما لو أنه فقد وعيه، على الرغم من أنه كان لا يزال يتنفس مثل كلب تحت الشمس.

سمع تيموج يقول مستغرباً: "لقد ذهب الألم. إنه مزعج، لكنه لم يعد كما كان من قبل". شعر كوكشو أن هولن تنحني فوق ابنها، وسمعه يلهث عندما لمست المكان الذي تلتقي فيه أحشاؤه بعضلات معدته.

قـال تـيموج: "الجلد سليم". كان كوكشو يسمع الدهشة في صوته، واختار تلك اللحظة ليفتح عينيه ويعدل جلسته. كانت عيناه باهتتين وجال ببصره في سديم الدخان.

كانـت أصابعه الطويلة تبحث في جيوب ردائه، وأخرجت قطعة من شعر فرس مجدول ملطخ بدم قديم.

قال لهم: "لقد كانت هذه مباركة. سأربطها فوق الجرح حتى لا يدخل إليه شيء".

لم يتكلم أحد عندما أخرج قطعة القماش الوسخة من ردائه، وجعل تيموج يجلس. أنشد كوكشو بصوت خافت بينما كان يلفها حول بطن الشاب، يخفي القطعة القاسية من الـشعر بلفـة إثر أخرى من القماش ويشدّها بإحكام حتى اختفت عن الأنظار. عندما عقدها، رجع كوكشو إلى الخلف، راضياً لأن البطن لن ينتفخ ويفسد كل عمله.

قـال بملـل: "حافظ على التعويذة في مكانها مقدار دورة قمر. إذا تركتها تسقط، ربما يجد المرض طريقه للظهور مرة أخرى". أغلق عينيه، كما لو أنه مرهق. "ينبغي أن أنـام الآن، هـذه اللـيلة ومعظم الغد. احرقوا تلك المعزاة قبل أن تتركوها تنشر المرض. ينبغي أن تكون ميتة في غضون ساعات على الأكثر". نظراً إلى أنه كان قد دهـن الكبد بسمٍ يكفي لقتل رجل راشد، كان يعرف أنه يقول الحقيقة. لن يكون هناك حيوان موفور الصحة ليفسد إنجازه.

قالت هولن: "شكراً لما فعلته. لا أفهم الأمر...".

ابتسم كوكشو متعباً.

"استغرقني الأمر عشرين سنة من الدراسة حتى أتقن ذلك، أيتها الأم العجوز. لا تعتقدي أنك تستطيعين فهمه بأمسية واحدة. سيتعافى ابنك الآن، كما لو أن المرض لم يصبه أبداً".

"ينبغي أن اطلب منك ألا تخبري أحداً عما شاهدته. لا تزال هناك قبائل تقتل أولئك الذين يمارسون السحر القديم. إنهم يعتبرونهم خطيرين جداً". هزّ كتفيه استخفافاً. "ربما يكون الأمر كذلك". بتلك الطريقة، كان يعرف أن الحكاية ستنتشر عبر المعسكر قبل أن يستيقظ في اليوم التالي. كان هناك دائماً من يطلب تعويذة ضد المرض، أو لعنة ضد عدو. سيجلبون حليباً ولحماً إلى خيمته، ومع القوة يأتي الاحترام والخوف. كان يتوق إلى أن يشعروا بالخوف منه، لأنهم سيمنحونه عندها أي شيء. هل يهم فعلاً إن لم يكن قد أنقذ حياة هذه المرة؟ سيكون هناك إيمان عندما تعلق حياة أخرى بين يديه. كان قد أسقط حجراً في النهر وستذهب التموجات بعيداً.

كان جنكيز وقادته لوحدهم في الخيمة الكبيرة عندما ارتفع القمر فوق حشد شعبه. كان اليوم حافلاً لهم جميعاً، لكنهم لم يكونوا لينالموا طالما بقي مستيقظاً وسيكون هناك تثاؤب وعيون مرهقة في اليوم التالي. بدا جنكيز نشيطاً كما كان ذلك الصباح، عندما رحب بمئتي رجل وامرأة من قبيلة توركيك التي كانت حتى ذلك الوقت إلى الشمال الغربي منهم ولم يستطع أفرادها فهم أكثر من بضع كلمات مما كان يقوله. على الرغم من ذلك، كانوا قد جاؤوا.

قال جنكيز، وهو ينظر بفخر حوله إلى الرجال الذين كانوا معه منذ الأيام الأولى: "يشهد كل يوم مجيء المزيد منهم، ولا يزال هناك شهران على انقضاء الصيف". بعمر الخمسين، كان أرسلان قد أصبح عجوزاً بعد سنوات الحرب. كان وابنه جيلم قد جاءا إلى جنكيز عندما لم يكن لديه شيء سوى دهائه وأشقائه الثلاثة. كان كلاهما قد بقيا مخلصين له تماماً طيلة سنوات قاسية، وكان جنكيز قد أفسح لهما طريق النجاح والحصول على زوجات وثروة. أومأ جنكيز لصانع السيوف الذي كان قد أصبح قائداً، سعيداً برؤية ظهر الرجل منتصباً كما كان دائماً.

لم يحضر تيموج نقاشاتهم، حتى عندما كان على ما يرام. من بين كل أشقائه، لم يكن يُظهر كفاءة للتكتيكات. كان جنكيز يحبه، لكنه لم يستطع الوثوق به لقيادة آخرين. هزّ رأسه، مدركاً أن الأفكار تتوارد في ذهنه. كان مرهقاً أيضاً، على الرغم من أنه لم يكن يسمح بإظهار ذلك.

قـال كـشيون: "لـم تسمع بعض القبائل الجديدة بتشن من قبل أبداً. القبائل التي جـاءت هذا الصباح ترتدي ملابس لم يسبق لي أن رأيتها من قبل. إنهم ليسوا مغولاً، مثلنا".

قـال جنكيز: "ربما. لكنني سأرحب بهم. دعهم يثبتون أنفسهم في الحرب قبل أن نحكم عليهم. إنهم ليسوا تتاراً، أو أعداء دم لأي رجل هنا. على الأقل لن يتم استدعائي لحل خلاف يعود إلى عشرات الأجيال. سيكون هذا مفيداً".

تناول جرعة من كوب فخاري، وتلمّظ بشفتيه من مرارة الشراب الأسود.

"توخوا الحذر في المعسكر يا إخواني. لقد جاؤوا لأنهم لا يرغبون بأن يتركوا لنا سـبباً للقضاء عليهم. إنهم لا يثقون بنا بعد. لا يعرف الكثيرون منهم سوى اسمي ولا شيء آخر".

قال كشيون: "لدي رجال يسترقون السمع عند كل نار. سيكون هناك دائماً بعض الأشـخاص الـذين يسعون لاستغلال الأمر لصالحهم في مثل هذا الحشد. حتى عندما نـتكلم هـنا، ستكون هناك ألف محادثة أخرى تتكلم عنا. سيتم سماع حتى الهمسات، وسأعرف إن كان عليّ التصرف".

أومأ جنكيز إلى شقيقه، فخوراً به. كان كشيون قد أصبح رجلاً مربوعاً مع كتفين عريضين للغاية من التدرب على الرمي بالقوس. كانا يرتبطان بعروة لا يمكن لجنكيز ادّعاء وجودها مع أي شخص آخر، حتى مع خاسار.

"على الرغم من ذلك، أشعر بالإثارة عندما أسير عبر المعسكر. فيما نحن ننتظر، يـصبحون قلقين، لكن هناك المزيد من القادمين ولا يمكنني التحرك بعد. أبناء اليوغر وحـدهم سـيكونون مفيدين للغاية. أولئك الموجودون هنا ربما يختبروننا، لهذا كونوا مـستعدين ولا تدعـوا أي إهانـة تمر من دون عقاب. سأثق بحكمكم، حتى إذا رميتم عشرة رؤوس عند قدميّ".

نظر القادة في الخيمة بأعين بعضهم من دون أن يبتسموا. مقابل كل رجل كانوا قـد أحـضروه إلـى السهل الكبير، كان اثنان آخران قد جاءا لوحدهما أيضاً. كانت الأفـضلية التي يتمتعون بها ألاّ أحد من أقوى القادة يعرف مدى دعمهم لبعضهم. كان كـل مـن يدخل ظل الجبل الأسود يشاهد حشداً واحداً ولا يفكر بحقيقة أنه مؤلف من مئات الفئات المختلفة، التي تراقب بعضها بارتياب متبادل.

أخيراً، تثاءب جنكيز.

قـال بإرهـاق: "نالـوا قسطاً من النوم يا إخواني. الفجر على وشك أن يبزغ، وينبغي نقل القطعان إلى مراعٍ جديدة".

قال كشيون: "سأعرّج على تيموج قبل أن أنام".

تنهد جنكيز.

"لـنأمل أن يمـنحه أب الـسماء العافـية. لا يمكننـي أن أفقد شقيقي المرهف الإحساس".

تأفـف كـشيون، فـتح الباب الصغير بقوة وخرج إلى الهواء الخارجي. عندما غادروا جميعاً، نهض جنكيز، فرك رقبته المتيبسة بحركة سريعة من يديه. كانت خيمة عائلـته قـريبة، لكـن أبـناءه سيكونون نائمين. كانت ليلة أخرى سيندس فيها داخل البطانيات من دون أن تعلم عائلته بأنه قد جاء إلى البيت.

# الفصل الثاني



حـدّق جنكيز إلى شقيقه الأصغر بانزعاج. كان تيموج قد أمضى الصباح يخبر كـل من يود الاستماع بشأن العلاج الذي يعرفه كوكشو. كان المعسكر مكاناً مزدحماً علـى الرغم من حجمه الكبير، وتنتشر فيه أي أنباء بسرعة. بحلول الظهيرة، سيكون النبأ في أفواه المتجولين الجدد خارج السهول.

قال جنكيز، وهو ينظر إليه: "إذاً، كيف تعرف أنه لم يكن سوى التواءٍ بسيطٍ في الأمعاء؟". بدا أن تيموج يقف واثقاً بنفسه أكثر من المعتاد في خيمة العائلة ووجهه يشع إثـارة وشيئاً آخر. كلما كان يذكر اسم كوكشو، كان صوته ينخفض إلى تمتمة تقريباً. وجد جنكيز دهشته مثيرة للغضب.

"رأيـتـه يـسحبه منــي يــا شقيقي! لقد تلوّى، وتقلّب في يده، وكدت أتقيأ عندما شاهدته. لقد ذهب الألم معه". لمس تيموج بيده المكان وانكمش من الألم.

علّق جنكيز: "لم يذهب تماماً، إذاً".

هــزّ تـيموج كتفيه استخفافاً. كان لون المنطقة فوق وتحت الضمادة مزيجاً من البنفسجي والأصفر، على الرغم من أنه كان على وشك أن يختفي.

"كان ينهشني حياً من قبل. هذا ليس أسوأ من كدمة".

قال جنكيز، مستغرباً: "على الرغم من ذلك، قلت إنه لم يكن هناك جرح".

هزّ تيموج رأسه، وقد عادت إليه الإثارة. كان قد استكشف المنطقة بأصابعه في الظلام قبل الفجر. تحت القماش المشدود بإحكام، كان يشعر بتمزق في العضلة التي لا تزال ضعيفة تماماً. كان واثقاً أنه تم تمزيق الورم هناك.

"يتمتع بالقدرة يا شقيقي، أكثر من أي دجّال رأيناه من قبل. أثق بما رأيته. تعرف أن العينين لا تخدعان".

أومأ جنكيز برأسه: "سأكافئه بجياد، وأغنام، وملابس جديدة. ربما خنجر وأحذية جديدة. لا يمكنني أن أترك الرجل الذي أنقذ شقيقي يبدو مثل متسول".

انــتاب تيموج شكّ مفاجئ. "لم يكن يريد أن تنتشر القصة يا جنكيز. إذا كافأته، سيعرف الجميع ما فعله".

أجاب جنكيز: "الجميع يعرفون ذلك. أخبرني كشيون عند الفجر وقد جاءني ثلاثة آخـرون لإخباري بشأن ما حدث قبل أن أراك. ليست هناك أسرار في هذا المعسكر، ينبغي أن تعرف ذلك".

أومأ تيموج برأسه، وقد استغرق في التفكير. "إذاً، لن يمانع، أو سيصفح إذا فعل ذلك". تردّد قبل أن يتابع كلامه، قلقاً من نظرة شقيقه. "بعد إذنك، سأتعلم منه. أعتقد أنه سـيقبلني تلميذاً، ولم يسبق لي أن شعرت بمثل تلك الرغبة إلى معرفة...". توقف عن الكلام عندما تقطب حاجبا جنكيز.

"كنت آمل أنك ستستأنف واجباتك مع المحاربين يا تيموج. ألا تريد أن تحارب معي؟".

تورّد تيموج خجلاً ونظر إلى الأرض.

"تعرف كما أعرف أنا أنني لن أصبح أبداً ضابطاً عظيماً. ربما أتعلم حتى أصبح جديراً بالقيادة، لكن الرجال سيعرفون دائماً أنني ارتقيت اعتماداً على صلة الدم وليس على مهارتي. اسمح لي بأن أتعلم من كوكشو. لا أعتقد أنه سيمانع".

جلـس جنكيز ساكناً من دون حراك بينما كان يفكر بالأمر. كان تيموج أكثر من مرة موضوعاً للتسلية بين القبائل. كانت رمايته سيئة للغاية، ولم يحظَ بالاحترام على الرغم من جهـوده لـتعلم استعمال السيف. كان يرى أن شقيقه الأصغر يرتعش، ووجهه يمتلئ خوفاً يرفـضه جنكيز. لم يكن هناك مكان لتيموج بين القبائل، وكان جنكيز قد تمنّى في أمسيات عديـدة أن يجـد لـه شيئاً يمكنه القيام به. على الرغم من ذلك، كان متردداً في السماح له بالمـضي قـدماً في ما يريده بسهولة كبيرة. كان رجال مثل كوكشو منعزلين عن القبائل. كـان الجمـيع يخشاهم بالتأكيد، وكان ذلك جيداً، لكنهم لم يكونوا جزءاً من العائلة. لم يكن مـرحباً بهـم كأصـدقاء قدماء. هزّ جنكيز رأسه باستخفاف. لقد كان تيموج يعد دائماً من خارج القبائل – مراقب– ربما كانت تلك هي الطريقة التي ستكون عليها حياته.

"شـرط أن تـتدرب على استعمال السيف والقوس ساعتين كل يوم. اقطع وعداً بذلك، وسأؤيد خيارك، دربك".

أومأ تيموج برأسه، وهو يبتسم باستحياء.

"سأفعل ذلك. ربما سأكون مفيداً لك كعرّاف أكثر مما لو كنت محارباً".

أصبحت عينا جنكيز قاسيتين. "لا تزال محارباً يا تيموج، على الرغم من أن ذلك لم يكن أبداً سهلاً بالنسبة لك. تعلم ما تريده من هذا الرجل، لكن في أعماق قلبك، تذكر أنك شقيقي وابن والدنا".

شعر تيموج بالدموع في عينيه، وخفض رأسه قبل أن يراه شقيقه ويخجل منه.
قال: "لن أنسى ذلك".

"إذاً، قـل لأسـتاذك الجديـد أن يأتي إلي ويحصل على مكافأته. سأحتضنه أمام قادتي وأجعلهم يعرفون أن مكانته عالية عندي. سيضمن ظلي أن تتم معاملتك باحترام في المعسكر".

انحنـى تيموج قبل أن يستدير مبتعداً، وبقي جنكيز وحيداً، وأفكاره تتوارد على نحو غـامض. كـان يأمل بأن يقسو عود تيموج ويحارب مع أشقائه. كان عليه أن يواجه كاهناً عـرافاً يحـبه، وكـان كوكشو متغطرساً جداً. تنهد جنكيز. ربما كان الأمر مبرراً. كانت المداواة استثنائية وتذكر كيف أن كوكشو كان قد مرّر سكيناً عبر لحمه من دون إراقة قطرة دم. يقـال إن لـدى تشن رجال يعملون بالسحر، كما يتذكر. ربما يكون مفيداً وجود رجال يماثلونهم. تنهد مجدداً. لم يكن وجود شقيقه كأحد هؤلاء الأشخاص في مخططاته أبداً.

مـشى خاسار الهوينى عبر المعسكر، يستمتع بالنشاط والضوضاء. كان يتم بناء خيم جديدة في كل مساحة خالية من الأرض، وكان جنكيز قد أمر بتجهيز حفر عميقة للمراحيض عند كل تقاطع. بوجود عدد كبير من الرجال، والنساء والأطفال في مكان واحـد، كـان ينبغـي معالجة مشكلات جديدة كل يوم ولم يكن خاسار يجد متعة في التفاصيل. بدا أن كشيون يستمتع بالتحديّات، وقد نظّم مجموعة من خمسين رجلاً قوياً لتجهيـز الحفـر والمساعدة في نصب الخيام. استطاع خاسار رؤية اثنين منهم يبنيان ملجـأ لمجموعة من السهام الجديدة المصنوعة من أشجار البتولا لحمايتها من المطر. صـنع العديـد مـن المحاربين سهامهم، لكن كشيون كان قد أمر بصنع أعداد كبيرة للجـيش، وكانت في كل خيمة مرّ بها خاسار نساء وأطفال مشغولون بالريش، الخيوط والـصمغ، ويربطون كل خمسين منها معاً ليتم أخذها بعيداً. كانت كِيَرَة(*) القبائل تجأر وتُخـرج مـا في جوفها كل الليل لصنع رؤوس السهام، وكان كل فجر يشهد خروج أقواس جديدة إلى الساحات لاختبارها.

كان المعسكر الشاسع مكاناً للحياة والعمل، وقد أسعد خاسار أن يرى شعبه مُجدّاً فـي عملـه. على مسافة بعيدة، بدأ مولود جديد الصراخ وابتسم لسماع صوته. تبعت قـدماه سـبلاً فـي الأعشاب كانت قد بليت حتى ظهر الطين تحتها. عندما يغادرون، سيبدو المعسكر مثل لوحة شاسعة من الأشكال كافح ليتخيلها.

---

(*) كِيَرَة: مفردها "كير" وهو زقّ ينفخ فيه الحدّاد.

مــسترخياً علــى تلك الحال، لم يلاحظ في البداية الاضطراب عند التقاء دروب أمامــه. وقف سبعة رجال غاضبين يصارعون لجعل فحل يجلس على الأرض. توقف خاسار ليراقبهم يخصون الحيوان، وفزع عندما ضرب بحافره رجلاً في معدته وتركه يــتلوى علــى الأرض. كان الحصان يافعاً وقوي العضلات. واجه الحصان الرجال مــستفيداً من قوته الهائلة لفك الحبال التي ربطوه بها. حالما يتم إرغامه على الجلوس علــى الأرض، سيقيدون قوائمه ويصبح عاجزاً أمام سكين الخصي. لم يكن يبدو أنهم يعــرفون تمامــاً مــا يقومــون به، وهزّ خاسار رأسه مستمتعاً، وبدأ المشي متجاوزاً المجموعة.

عــندما استدار حول الحصان الذي يركل بقوائمه، نشب على قائمتيه الخلفيتين، وأوقــع أحد الرجال الذين يمسكون به. صهل بغضب، وتراجع نحو خاسار حتى داس علــى قدمه فصرخ من الألم. استجاب أقرب رجل إليه للصوت، ودفعه بيده في وجهه لإبعاده عن طريقهم.

ثــار خاسار غضباً بصوت يماثل صهيل الحصان المقيد. وجّه ضربة بالمقابل. ترنّح الرجل بعد أن أصيب بدوار، ورأى خاسار الآخرين يلقون حبالهم، وفي عيونهم شــيء خطيــر. استفاد الحصان من الحرية غير المتوقعة لينفدع مبتعداً، وانطلق عبر المعــسكر ورأســه للأسفل. صهلت كل الأحصنة الأخرى التي حولهم استجابة لندائه، وبقــي خاســار بمــواجهة رجال غاضبين. وقف أمامهم من دون خوف، مدركاً أنهم سيتعرفون على درعه.

قال، متوقعاً أن يخفف من التوتر: "سيتم القبض على حصانكم وإعادته إليكم".

لــم يقولــوا شــيئاً فيما كانوا يتبادلون النظرات. كانوا جميعاً متشابهين، وأدرك خاسار أنهم أبناء خان ويلا. كان والدهم قد وصل قبل بضعة أيام فقط، مصطحباً معه خمسمئة محارب إضافة إلى العائلات. كان ويلا معروفاً بحدّة الانفعال وافتقاره لروح الدعابة. عندما تجمّع الرجال حول خاسار، فكّر بأن الطباع نفسها قد انتقلت إلى أبنائه.

راود خاســار أمل للحظة بأنهم سيتركونه يذهب من دون قتال، لكن الرجل الذي ضــربه كــان يشتعل غضباً، وكان هو من اقترب منه مدعوماً بوجود أشقائه. كانت علامة زرقاء قد ظهرت على جانب وجهه حيث لطمه خاسار.

قــال أحــد الآخرين بحدّة: "من الذي منحك الحق بأن تتدخل؟". كانوا يحتشدون حــوله عمداً، ورأى خاسار أن نشاط المعسكر قد توقف حوله. كانت هناك الكثير من العائلات تراقب الحديث، وكان يعرف عميقاً في داخله أنه لا يستطيع التراجع من دون إلحاق العار بجنكيز، وربما المخاطرة بموقعه في المعسكر.

قـال وهـو يـصرّ علـى أسنانه: "كنت أحاول المرور. لو أن شقيقك الثور لم يـضربني، لكـنت وضعت ذلك الحصان على الأرض الآن. في المرة القادمة، أوثق قوائمه أولاً".

بـصق أضــخمهم علـى الأرض قرب قدميه، وشدّ خاسار قبضتيه عندما سمع صوتاً.

"ما هذا؟". كان التأثير على الرجال مباشراً، ووقفوا ساكنين من دون حراك. نظر خاسـار إلى الرجل الأكبر سناً الذي يتمتع بالسمات المميزة نفسها. لا يمكن أن يكون سوى خان ويلا، ولم يستطع خاسار فعل شيء سوى أن يحني رأسه. لم يكن الأمر قد وصـل إلى السيوف بعد، وكان يعرف أنه من الأفضل عدم الإساءة إلى الرجل الذي يمكنه السيطرة على أبنائه.

قال الخان: "أنت شقيق الرجل الذي يدعو نفسه جنكيز. على الرغم من ذلك، هذا معسكر ويلا. هل أنت هنا لتثير غضب أبنائي وتفسد عملهم؟".

استـشاط خاسـار غـضباً. لا شك أنه تم إعلام كشيون بالمواجهة، وسيكون قد أرسـل رجـالاً في الطريق، لكنه لم يثق بنفسه ليردّ في البداية. كان واضحاً أن خان ويـلا يستمتع بالموقف، ولم يكن لدى خاسار شك بأنه شاهد ما كان يحدث منذ البداية. عندما سيطر على انفعاله، تكلم ببطء ووضوح إلى الخان.

"ضربت الرجل الذي ضربني. ليس هناك سبب لرؤية الدماء تسيل اليوم".

رداً علـى ذلك، زمّ الخان فمه ساخراً. كان لديه مئة محارب رهن إشارته وكان أبـناؤه مـستعدين لضرب الرجل الذي يقف أمامه متغطرساً وتعليمه التواضع. "كنت أتوقـع مثل ذلك الردّ. لا يمكن تنحية الشرف جانباً عندما لا يكون الوضع مناسباً. هذا الجزء من المخيم أرض ويلا. لقد تجاوزت حدودك".

حـافظ خاسـار علـى رباطة جأش المحارب ليخفي غضبه. قال: "كانت أوامر شـقيقي واضـحة. يمكـن لكل القبائل استعمال الأرض فيما نحن نجتمع. ليست هناك أرض لويلا هنا".

تمـتم أبناء الخان بين أنفسهم عندما سمعوا تلك الكلمات، وبدا أن الخان نفسه قد تـسمّر فـي مكانه. "قلت إنها موجودة ولست أرى أحداً بمنزلتي ليتحدى كلمتي. على الرغم من ذلك، ستختبئ في ظل شقيقك".

سـحب خاسار نفساً ببطء. إذا ادّعى حماية جنكيز، سينتهي الأمر. لم يكن خان ويـلا أحمـق ليتحدى شقيقه في المعسكر، مع وجود جيش ضخم رهن إشارته. على الرغم من ذلك، كان الرجل يراقبه مثل أفعى تستعد لتوجيه ضربة، وتساءل خاسار إن

كانــت الــصدفة قد وضعت الخان وأبناءه في دربه ذلك الصباح. سيكون هناك دائماً أولــئك الــذين يــرغبون باختبار الرجال الذين يفترض أن يقودوهم في الحرب. هزّ خاســار رأسه لتصفية ذهنه. كان كشيون يستمتع بالسياسة والمناورة، لكن لم يكن لديه ميل إليهما، أو للشجار مع الخان وأبنائه.

شرع بالقول بعد أن رأى انتصاراً في عيني الخان: "لن أريق دماءً هنا، لكنني لن أحــتاج إلــى ظــل شقيقي". بينما كان يتكلم، ضرب بقبضته ذقن أقرب الأشقاء إليه، وجعلــه يفقــد الوعــي. جأر الآخرون، ووثبوا عليه وثبة رجل واحد تقريباً. انهمرت الضربات على رأسه وكتفيه وتراجع إلى الخلف، ثم ثبّت قدميه على الأرض وضرب بقــوة أحــد الوجوه، وشعر بأن الأنف قد انكسر. كان خاسار يستمتع بالقتال مثل أي رجــل ترعــرع بين أشقاء، لكن التكافؤ كان مستحيلاً وكاد يقع عندما ارتد رأسه إلى الخلــف بيــنما كــان يتلقى ضربات قاسية على درعه. كان على الأقل محمياً هناك، وطالما بقي واقفاً على قدميه، يستطيع المراوغة وتفادي لكماتهم بينما يضربهم بكل ما لديه من قوة.

حتــى عــندما فكّــر بالأمر، أمسك به أحدهم من خصره، وأوقعه أرضاً. ركل خاســار بقدميه بقوة، وسمع صرخة عندما كان يحمي رأسه من الأحذية التي تضربه. أيــن كان كشيون، بحق الأرواح؟ شعر خاسار بالدماء تسيل من أنفه وشفتيه وكان قد بدأ يتورم. كان رأسه يرنّ من ركلة على أذنه اليمنى. المزيد من ذلك وسيصاب بعاهة دائمة.

شــعر خاســار بــثقل أحدهم يجثم عليه، ويحاول إبعاد ذراعيه عن وجهه. نظر خاســار عبــر فجــوة إلى الرجل. تحيّن اللحظة المناسبة ودفع بإبهامه بقوة في عين المهــاجم، وبــدا أن الضربة كانت موفقة، وتمنّى أن يكون قد جعله كفيفاً. تدحرج ابن ويلا بعيداً يصرخ، واشتدت الركلات.

جــاءت صــرخة ألــم من مكان قريب، وللحظة، أصبح خاسار وحيداً وحاول الوقــوف على قدميه. رأى أن غريباً كان قد قفز بين أشقاء ويلا، طرح أحدهم أرضاً وركــل آخر بقوة على ركبته. كان القادم الجديد أكثر من فتى بقليل، لكنه يلكم بكل ما أوتــي من قوة. ابتسم خاسار له بشفتين متورمتين، لكنه كان يشعر بالدوار ولم يستطع الوقوف.

جــاء صــوت من خلفه يقول: "أوقفوا هذا!"، وعرف خاسار لحظة أمل قبل أن يــدرك أن تــيموج لم يصل مع اثني عشر رجلاً لمساعدته. لقد جرى شقيقه الأصغر وحده مباشرة إلى ساحة العراك وأبعد أحد رجال ويلا عنه.

صـــرخ خاســـار، وقلبه يخفق بقوة: "أحضر كشيون". لم يكن تيموج ليفعل شيئاً ســوى أن يتعرض للضرب ثم سيكون هناك دم. ربما يقبل جنكيز بشجار يشارك فيه أحــد أشــقائه، لكن أن يشارك فيه الثاني، فهذا سيعني هجوماً شخصياً على عائلته لا يمكــن له تجاهله. بدا خان ويلا غافلاً عن الخطر، وسمعه خاسار يضحك عندما وجه أحــد أبــنائه ضــربة قوية على وجه تيموج، وجعله يجثو على ركبتيه. كان الشقيق الأصــغر قد فقد أيضاً أفضلية المفاجأة، ويعاني من سيل من الركلات واللكمات. كان أبــناء ويــلا يضحكون فيما يتناوبون على الوافدين الجديدين وثار خاسار غضباً لدى سماعه تيموج يصرخ ألماً وإذلالاً، وحاول اتقاء ضرباتهم بينما كان يكافح للوقوف.

جــاء صــوت آخر عندها، وسلسلة من الضربات القاسية التي جعلت أبناء ويلا يصرخون ويتراجعون إلى الخلف. استمر خاسار بحماية رأسه على الأرض حتى سمع صوت كشيون، حازماً وغاضباً. كان قد أحضر رجالاً معه، حاملين عصيّهم التي سمع خاسار وقع ضرباتها.

قــال كــشيون بحدّة لخاسار: "قف، إذا كنت تستطيع يا شقيقي. قل لي من الذي تــريده ميتاً". بينما كان خاسار يخفض رأسه، بصق بلغماً أحمر على العشب، ووقف علــى قدمــيه بجهد كبير. كان وجهه مليئاً بالكدمات والدماء، وتسمّر خان ويلا مكانه عندما رأى ذلك، وقد تلاشت متعته.

قــال الخان بسرعة عندما حدّق كشيون به: "كانت تلك مسألة خاصة. لم يطالب شقيقك باحترام مكانته الرسمية".

نظر كشيون إلى خاسار، الذي هزّ كتفيه استخفافاً، وانكمش من الألم عندما احتج جسده المليء بالكدمات.

كــان تيموج أيضاً قد وقف على قدميه، بدا لونه شاحباً بلون الحليب. كانت عيناه باردتين وقد جعله خجله يبدو أكثر غضباً مما رآه خاسار أو كشيون من قبل. انتصب الــرجل الــثالث متألماً، وأومأ خاسار له شاكراً. كان قد تعرض للضرب أيضاً، لكنه ابتسم بينما كان يضع يديه على ركبتيه ويلهث.

تمتم كشيون لشقيقيه، بصوت يكاد يكون مسموعاً: "توخيا الحذر". كان قد أحضر اثني عشر فقط من أتباعه، وكان ذلك كل ما استطاع القيام به لدى سماعه نبأ العراك. لــن يصمدوا سوى لحظات أمام رجال ويلا المسلحين. راقبت عيون قاسية في الحشد المشهد، واستعاد الخان بعضاً من ثقته بنفسه.

وأعلــن: "تمــت تــسوية مسألة الشرف. ليست هناك ضغينة بيننا". استدار إلى خاسار ليرى وقع كلماته عليه. وقف خاسار يبتسم بامتعاض. تسمر كل الواقفين هناك

في أماكنهم متحفّزين لدى سماعهم جلبة المحاربين المدرعين. لا يمكن أن يكون سوى جنكيز.

همس كشيون للخان: "ليست هناك ضغينة؟ لا يعود لك تقرير ذلك يا ويلا".

استدارت كل العيون لرؤية جنكيز قادماً. مشى مع أرسلان وخمسة رجال آخرين بكامل دروعهم. كانوا يحملون جميعاً سيوفاً قد شهروها ونظر أبناء ويلا إلى بعضهم بقلق بالغ نتيجة ما فعلوه. كانوا قد تكلموا عن اختبار أحد أشقاء جنكيز، وتم ذلك الجزء بشكل جميل. وحده وصول تيموج كان قد سحبهم إلى مياه أعمق ولم يكن أحدهم يعرف كيف سيتم حل المشكلة.

وصل جنكيز إلى المكان، ووجهه جامد مثل قناع. ألقى نظرة خاطفة على تيموج، وللحظة، ضاقت عيناه الصفراوان لرؤية يدي شقيقه الصغير ترتعشان. تكلم خان ويلا قبل أي شخص آخر.

قال: "لقد تمت تسوية المسألة يا مولاي. كان مجرد لهو، وشجاراً على حصان". ابتلع ريقه بصعوبة. "لا حاجة لأن تقوم بالبت في هذه المسألة".

تجاهله جنكيز وصرخ: "كشيون؟".

سيطر كشيون على غضبه ليجيب بصوت هادئ. "لا أعرف كيف بدأ الأمر. يمكن لخاسار أن يخبرك".

فزع خاسار لدى سماع اسمه. أمعن التفكير بكلماته عندما شاهد جنكيز يحدّق إليه. سيسمع المعسكر كله أخيراً ولا يريد أن يبدو مثل طفل يشتكي إلى والده. ليس إن كان يتوقع أن يقودهم في الحرب بعد ذلك.

قال وهو يصكّ أسنانه: "أنا راضٍ عن دوري بهذا الأمر يا شقيقي. إذا احتجت للمزيد من النقاش مع هؤلاء الرجال، سأفعل ذلك في يوم آخر".

قال جنكيز بحدّة، متفهماً الخطر الكامن في ذلك إضافة إلى أبناء ويلا أنفسهم: "لن تفعل شيئاً. أنا أمنع ذلك".

أحنى خاسار رأسه، وأجاب: "كما تشاء يا مولاي".

نظر جنكيز إلى تيموج، ولاحظ خجله من تعرضه للضرب علانية والذي ترافق مع غضب شديد كان قد أدهش خاسار وكشيون من قبل.

"تحمل علامات أيضاً يا تيموج. لا أصدق أنك كنت جزءاً من ذلك".

أجاب كشيون: "حاول إيقافهم. ضربوه حتى جثا على ركبتيه و...".

صرخ تيموج: "كفى! في الوقت المناسب، سأرد كل ضربة". تورّد خجلاً، وبدا أنه على وشك البكاء مثل طفل. حدّق به جنكيز، واختفى غضبه فجأة. همهم لنفسه،

هـزّ رأسـه، وشـق طريقه بخطوات واسعة بين الأشقاء ويلا. كان أحدهم بطيئاً جداً ودفعه جنكيز أرضاً بكتفه، من دون أن يبدو أنه قد شعر بذلك. رفع الخان يديه ملتمساً العـذر، لكـن جنكيـز أمسك به من ردائه وسحبه إليه. عندما سحب سيفه من غمده، سحب محاربو ويلا سيوفهم التي صدر عنها صوت معدني.

صرخ جنكيز بهم بصوت كان قد سُمع في مئة معركة: "توقفوا!". تجاهلوا الأمر، وعـندما اقتربوا، رفع جنكيز الخان مثل غرير في قبضته. بضربتين سريعتين، أعمل سيفه عبر فخذي الرجل وأحدث جروحاً بليغة في العضلات.

قـال: "إذا كـان قد تم إرغام شقيقي على الجثو يا ويلا، فلن تقف مجدداً". كان الخـان يـصرخ والـدماء تسيل على قدميه عندما سقط. قبل أن يستطيع المحاربون الوصول إليه، حدق جنكيز إليهم.

"إذا رأيت سيفاً واحداً مرفوعاً خلال عشر دقات للقلب، لن يعيش رجل أو امرأة أو طفل واحد من ويلا بعد هذا المساء".

تـردّد الـضباط بـين المحاربين، ورفعوا أيديهم لإيقاف الآخرين. وقف جنكيز أمامهم من دون وجل بينما وقع الخان عند قدميه على أحد جانبيه، يئن. كان الأبناء لا يزالون يقفون ساكنين من دون حراك، يتملكهم الرعب مما كانوا قد رأوه. بجهد وإرادة كبيـرين، صدرت عن الخان إيماءة جعلت ضباطه يتراجعون. أغمدوا سيوفهم وتبعهم المحاربون، وقد اتسعت عيونهم دهشة. أومأ جنكيز برأسه.

قـال: "عندما ننطلق، ستكونون يا أبناء ويلا حراساً لشقيقي". تمتم خاسار موافقاً، ووجهه المتورم خالٍ من أي تعبير: "إذا أردتهم أن يكونوا كذلك".

"إذاً، لقد انتهى هذا. ليس هناك نزاع دم وقد رأيت أن العدالة تحققت".

نظـر جنكيز في عيون أشقائه الذين بادلوه إياها بينما كان يعود بخطوات واسعة إلـى الخـيمة الكبيرة وأعمال ذلك اليوم. ربّت خاسار على كتف الشاب الذي كان قد ساعده، واصطحبه معه بدلاً من تركه يتعرض للضرب مجدداً.

قـال خاسـار بينما كانوا يمشون: "لقد جاء هذا الرجل لمساعدتي. إنه لا يعرف الخوف يا شقيقي".

للحظـة، نظر جنكيز إلى الشاب، ولاحظ افتخاره بنفسه. سأل بفظاظة، وكان لا يزال منزعجاً مما رآه: "ما اسمك؟".

"تسوبودي من يوريانخي يا مولاي".

قـال جنكيـز: "تعال لرؤيتي عندما ترغب بالحصول على جواد ودرع جيدين". ابتـسم تسوبودي، ولكزه خاسار بلطف في كتفه، موافقاً على ذلك. خلفهم، تركوا خان

ويـلا لتـرعاه نـساؤه. مع مثل تلك الجروح، لن يقف منتصباً أبداً، أو حتى ربما لن يمشي مجدداً.

بينـما كـان جنكيز وأشقاؤه يمشون بين القبائل المجتمعة في ظل الجبل الأسود، كـان الكثيـرون ينظرون إليهم برهبة وإعجاب. كان قد أظهر أنه لا يقبل التحدي وتم تحقيق نصر صغير آخر.

شوهدت قبيلة اليوغر بينما كان الصيف ينقضي ومياه الفيضانات من التلال تملأ نهـر اونـون إلى حافة الطوفان. كانت السهول لا تزال خضراء نضرة والقبّرة تقفز وتطير عندما تتجاوزها عربات اليوغر.

كان عرضاً مؤثراً للقوة، وردّ عليه جنكيز بجعل خمسة آلاف من فرسانه يقفون في صفوف أمام المعسكر الكبير. لم يأتِ لملاقاتهم بنفسه، وكان يعرف أن غيابه سيُعدّ اسـتنكاراً لتأخـرهم. اتخذ أبناء ويلا وضعاً حول خاسار عندما مضى للقاء الوافدين الجدد ولم يجرؤ أحد من أبناء الخان على أكثر من التحديق إلى مؤخّر رأسه.

عـندما اقترب اليوغر، دنا خاسار من العربة التي كانت تقود الأفعى الداكنة من الـناس والحـيوانات. جال ببصره على المحاربين ليحكم عليهم. كانوا مسلحين جيداً ويـبدون أشدّاء ومتأهبين، على الرغم من أنه كان يعرف أن المظهر قد يكون خادعاً. سيتعلمون التكتيكات التي حققت النصر لجنكيز، أو تكليفهم بنقل الرسائل ضمن الحشد.

كـان اليوغـر تجـار جياد ومعلّمين، وكان خاسار سعيداً لرؤية القطيع الكبير الذي يـرافقهم. كانـت هناك ثلاثة جياد لكل محارب، وكان يعرف أن المعسكر سيكون مشغولاً خلال الشهر التالي عندما تأتي القبائل الأخرى للمقايضة وتجديد سلالات أنسابها.

عـندما ارتفعـت يده، اتخذ المحاربون حول عربة القيادة موقفاً دفاعياً، وأياديهم علـى مقابض سيوفهم. فكّر خاسار أن اليوغر كان لديهم من دون شك إمدادات جيدة من الفلز حتى يحمل ذلك العدد الكبير منهم سيوفاً. ربما ستكون هناك مقايضة بالفولاذ أيـضاً. كـان لا يزال هناك كثيرون في المعسكر لا يحملون سوى خناجر إلى جانب أقواسـهم. نظر خاسار إلى رجل صغير الحجم أشيب الشعر أمام العربة. كان هو من رفـع ذراعــه لإيقاف القافلة، ورأى خاسار كيف أن المحاربين ينظرون إليه بانتظار الأوامر. على الرغم من أن رداء الرجل كان بسيطاً، إلا أنه كان بالتأكيد خان اليوغر، بارشوك. قرّر خاسار تشريفه بأن يتكلم أولاً.

قال بشكل رسمي: "أهلاً بك في المعسكر يا مولاي. أنتم آخر قبيلة كبيرة تصل، لكن مولاي جنكيز كان قد استلم رسالتك الوديّة وخصص مرعى لعائلاتكم".

أومــأ الــرجل النحــيل مستغرقاً في التفكير بينما كان ينظر إلى الفرسان الذين ينتظرون بالتشكيل خلف خاسار.

"أرى أنــنا آخــر الواصــلين. لا يمكــن أن أصدّق بسهولة أن هناك المزيد من المحاربين في العالم، نظراً لحجم الحشد في هذا السهل. أنتم أوائل الرجال الذين نراهم مــنذ أيــام عديدة". هزّ رأسه مندهشاً من الفكرة. "سيقدم اليوغر ولاءهم لجنكيز، كما وعدت. دلّنا على مكان ننصب فيه خيامنا وسنتكفل بالباقي".

مقارنة ببعض زعماء القبائل الآخرين، قدّر خاسار فظاظة الرجل، وابتسم. قال: "أنا شقيقه، خاسار. سأدلّك بنفسي".

"تعــال اجلس بجانبي إذاً يا خاسار. أنا متعطش للأنباء". ضرب الخان بيده على المقعــد الخشبي للعربة، ترجل خاسار، وأرسل جواده إلى الصف الأول من محاربي ويلا بضربة على ردفه.

قــال الخــان لخاسار الذي صعد ليجلس إلى جانبه: "إذا كنا الأخيرين، ربما لن يطــول الأمــر قبل أن يصوّب جنكيز هذا السهم العظيم إلى أعدائه". طقطق بارشوك للثور وتحركت العربة متمايلة. شاهد خاسار كيف حافظ محاربو اليوغر على التشكيل حوله وكان سعيداً بذلك. يستطيعون ركوب الجياد على الأقل.

"وحده من يستطيع تحديد ذلك يا مولاي". كانت الكدمات التي سببها له أبناء ويلا على وشك أن تختفي، على الرغم من أنه شعر بأن عيني بارشوك تنظر إليها من دون تعلــيق. كــان المعــسكر هادئــاً لبعض الوقت بعد رؤية ما حلّ بويلا، لكن مع نهاية الــصيف، كان النشاط قد عاد إليه مجدداً؛ وبعد وصول اليوغر آنذاك، اعتقد أن شقيقه ســيتحرك خــلال بــضعة أيام فقط. شعر بأن الإثارة تدبّ فيه عندما خطرت له تلك الفكــرة. كانــت لــديهم القبائل، وسيأخذ منها جنكيز عهود الولاء. بالمحصلة، ستأتي الحرب، وسيرفع وأشقاؤه أقدام تشن عن أعناق شعبهم.

لاحــظ بارشــوك بيــنما كــان يــوجّه العــربة حــول أكمة في العشب: "تبدو مبــتهجاً يــا خاســار". كــان الرجل العجوز نحيلاً لكن قوياً، وبدت عيناه تشعان ألقاً باستمرار.

"كــنت أفكر أننا لم نجتمع أبداً من قبل يا مولاي. كان هناك دائماً عداوة دم، أو رشوة من تشن لإبقائنا منشغلين بعضنا ببعض". أشار بيده ليدل على كل المعسكر في السهل. "هذا؟ هذا شيء جديد".

تمتم بارشوك، يراقبه عن كثب: "ربما ينتهي بتدمير شعبنا". كشّر خاسار، وتذكر أن كــشيون وجنكيز قد أثارا المسألة نفسها وردّد كلماتهما. "نعم، لكن لن يكون هناك

واحـد منا، سواء أكان رجلاً، أو امرأة أو طفلاً حياً خلال مئة سنة. كل من تراهم هنا سيكونون عظاماً".

شـاهد بارشـوك يتجهم محتاراً، وتمنّى أن تكون لديه قدرة كشيون على الكلام عندما تابع القول: "ما هدف الحياة إذا لم يكن الانتصار؟ سبي النساء واحتلال الأرض؟ أفضّل أن أكون هنا وأرى ذلك على أن أقضي حياتي بسلام".

أومأ بارشوك برأسه. "أنت فيلسوف يا خاسار".

ضـحك خاسار بصوت خافت. "أنت الوحيد الذي يعتقد ذلك. لا، أنا شقيق الخان العظيم وهذا زماننا".

# الفصل الثالث



تكلــم بارشــوك اليوغــر طيلة ساعات بينما كانت الشمس تغرب خارج الخيمة الكبيــرة. كان جنكيز مفتوناً بمعرفة الرجل وإذا سمع شيئاً لم يفهمه، كان يجعل الخان يعيده مراراً وتكراراً حتى يتضح معناه.

من بين كل الموضوعات، كان كل ما يتعلق بتشن يجعل جنكيز ينحني إلى الأمام فــي مقعــده مثل صقر، وعيناه تشعّان اهتماماً. كان أفراد قبيلة اليوغر قد جاؤوا من أرض بعــيدة فــي الجــنوب الغربي، تحدّوا صحراء غوبي ومملكة كزي كزيا. وجد جنكيــز متعة بالغة في كل تفصيل استطاع بارشوك تقديمه عن قوافل تشن التجارية، ملابسهم وعاداتهم، والأهم من ذلك كلّه أسلحتهم ودروعهم. كان صحيحاً أن التجار قد لا يكــون لــديهم أفضل الحرّاس، لكن كل معلومة صغيرة كانت تجري في صحراء مخيلة جنكيز مثل مياه نبع، وتغوص عميقاً.

قال جنكيز عندما توقف بارشوك ليتنحنح برشفة من الشاي: "لقد جلب لك السلام الثــروة والطمأنيــنة. ربمــا كنت تستطيع التقرب من ملك كزي كزيا والتحالف معه ضدي. هل فكّرت بالأمر؟".

أجــاب بارشــوك، مخففــاً من التوتر بصدقه: "بالطبع. لكن إذا كنت قد منحتك الانطباع بأنني صديقهم، سيكون ذلك شيئاً زائفاً. إنهم يعملون بالتجارة معنا لأن لديهم أســواقاً لجلــود النمور الثلجية من الجبال، الخشب القاسي، وحتى بذور نباتات نادرة لتساعدهم في دراستهم للمداواة. بالمقابل، يبيعوننا الحديد الخام، السجاد، الشاي وأحياناً رُقــع يكونــون قــد كتبوا عليها عدّة مرات". توقف قليلاً، وابتسم بمرارة على تجمع الــرجال. "أحــضروا محقّــاتهم وحرّاسهم إلى بلدات اليوغر، لكن كنا نستطيع قراءة الامــتعاض في كل وجه، حتى أولئك الذين يدعونهم عبيداً". كانت الذكريات قد جعلت وجهــه يستشيط غضباً، ومسح جبينه قبل أن يتابع. "نظراً إلى أنني تعلمت لغتهم، كنت أعــرف تماماً أنني لا أستطيع طلب مساعدتهم. ينبغي أن تراهم لتفهم ذلك يا مولاي.

حتـــى أفراد إمبراطورية تشن يعتبرونهم شعباً منفصلاً، على الرغم من أنهم يشتركون فـــي الكثير من العادات نفسها. إنهم يدفعون جزية لإمبراطور تشن، وعلى الرغم من تمـــتعهم بحمايته، إلا أنهم يعتبرون أنفسهم منفصلين عن جارهم القوي. إن غطرستهم كبيرة يا مولاي".

انحنى بارشوك إلى الأمام، ومدّ يده ليمس ركبة جنكيز. لم يبدُ أنه لاحظ الطريقة التي انتصب بها الرجال المحيطون بهما.

"كنا نحصل على الفتات منهم طيلة أجيال عديدة يا مولاي، بينما كانوا يحتفظون بأفضل اللحم خلف قلاعهم وأسوارهم".

تمتم جنكيز: "وتودّ رؤيتهم مهزومين".

"أودّ ذلك. كل ما أطلبه هو تسليم مكتباتهم إلى اليوغر لدراستها. إضافة إلى ذلك، كـــنا قـــد رأيـــنا جواهر نادرة وحجراً مثل الحليب والنار. إنهم لا يقايضون مثل تلك الأشياء بغض النظر عما نعرضه عليهم مقابلها".

راقـــب جنكيز الخان عن كثب عندما كان يتكلم. كان بارشوك يعرف أنه ليس له الحـــق بالمطالبة بغنائم الحرب. لم تكن القبائل تحصل على أموال مقابل القتال وكانت تكـــسب تقليدياً كل ما تفوز به أو تغنمه. كان بارشوك قد طلب الكثير، لكن جنكيز لم يستطع التفكير بمجموعة أخرى ربما ترغب بالحصول على مكتبات مملكة كزي كزيا. جعلته الفكرة نفسها يرغب بالابتسام.

"تـــستطيع الحصول على الرِّقاع يا بارشوك. أعدك بذلك. أي شيء آخر سيذهب للمنتـــصرين وســـيتم تقديمـــه بين يدي أب السماء. لا يمكنني منحك أي شيء بشكل خاص".

تراجع بارشوك إلى الخلف، وأحنى رأسه بتردد.

"ســـيكون ذلـــك كافـــياً، مع كل شيء آخر سنأخذه منهم. لقد رأيت أفراد قبيلتي يُـــساقون على الطريق بجيادهم يا مولاي. كنت قد رأيتهم يتضورون جوعاً فيما يزداد أفـــراد مملكة كزي كزيا بدانةً من تناول محاصيل لا يشاركون بها أحداً. لقد أحضرت محاربـــيّ لأجعلهم يدفعون ثمن غطرستهم، وبلداتنا وحقولنا فارغة خلفنا. أبناء اليوغر معك بخيامهم، جيادهم، ملحهم ودمائهم".

مـــدّ جنكيـــز يده، ووثق الرجلان العهد بمصافحة سريعة، أخفت جدّية مثل ذلك الإعـــلان. انتظرت القبائل خارج الخيمة، وكان جنكيز سيطلب عهداً مماثلاً منها كلها حالمـــا يـــصبح مستعداً. كان تقديمها في خلوة برهاناً على الدعم الذي لم يكن جنكيز يستخفّ به.

قـــال: "أطلب منك شيئاً واحداً يا بارشوك، قبل أن نخرج إليهم". توقف بارشوك في وسط الحشد وقد أصبح وجهه جامداً مثل قناع عندما أدرك أن حديثه لم ينته بعد.

قـــال جنكيـــز: "كان شقيقي الأصغر قد عبّر عن اهتمامه بالتعلّم. قف يا تيموج بحـــيث يـــستطيع رؤيتك". نظر بارشوك إلى الشاب النحيل الذي وقف وانحنى له. ردّ على الإيماءة بخفض رأسه قليلاً قبل أن يستدير إلى جنكيز.

"سيقود كاهني العرّاف كوكشو خطواته في هذا المجال عندما يحين الوقت، لكنني أودّ أن يقـــرأا ويتعلما كل ما يعتبرانه جديراً بالاهتمام. يتضمن ذلك الرّقاع التي لديك الآن وأي أوراق قد نحصل عليها من أعدائنا".

قـــال بارشوك: "اليوغر تحت إمرتك يا مولاي". لم يكن ذلك بالشيء الكبير، ولم يفهـــم لماذا بدا جنكيز محرجاً من إثارة ذلك الموضوع. ابتسم تيموج من خلفه، وأحنى كوكشو رأسه كما لو أنه نال شرفاً عظيماً.

قـــال جنكيـــز: "تم الأمر إذاً". كانت عيناه متعبتين، تطرفان في الأضواء التي تم إشـــعالها في دجنة المساء. "إذا كان أفراد كزي كزيا أثرياء كما تقول، سيكونون أول من يرانا عندما نتحرك. هل يدعمهم أبناء تشن؟".

هـــزّ بارشوك كتفيه استخفافاً. "لا يمكنني تأكيد ذلك. أراضيهم تحدّ بعضها، لكن أفراد كزي كزيا كانوا دائماً منفصلين في مملكتهم. ربما يحشد أبناء تشن جيشاً ضدك لمـــواجهة أي تهديد لاحق. أو ربما يتركونهم يموتون عن آخرهم من دون أن يحركوا ساكناً. لا يستطيع أحد أن يتوقع كيف يفكرون".

هزّ جنكيز كتفيه استخفافاً.

"لـــو أنك أخبرتني قبل عشر سنوات أن قبيلة كيريت ستواجه حشداً عظيماً، كنت سأضحك، وأعتبر نفسي محظوظاً لأنني لم أكن في طريق المعركة. أدعوهم الآن إخوانـــي. لـــيس مهماً أن يقف محاربو تشن ضدنا. إذا فعلوا ذلك، سأحطمهم جمـــيعاً بـــسرعة. في الحقيقة، أفضّل مواجهتهم جميعاً في سهل على تسلق أسوار مدنهم".

قال بارشوك بهدوء، وشعوره بالإثارة يتصاعد: "حتى المدن تسقط يا مولاي".

رد جنكيـــز: "وستـــسقط. سيحدث ذلك في الوقت المناسب. لقد أظهرت لي نقطة ضـــعف تـــشن بمحاربـــي كـــزي كزيا هؤلاء. سأمزقهم هناك ثم أستخرج قلوبهم من أجسادهم".

رد بارشـــوك: "لي الشرف بأن أخدمك يا مولاي". وقف وانحنى، وبقي على تلك الحال حتى أشار له جنكيز بأن ينتصب في وقفته.

قـال جنكيـز، وهـو يقف ويتمطّى: "لقد اجتمعت القبائل. إذا كان علينا عبور الـصحراء، سنحتاج إلى الماء والعلف لجيادنا. حالما أتلقى العهود، لن يكون هناك ما يجعلنا نبقى في هذا المكان". توقف عن الكلام لحظة.

"جئنا إلى هنا كقبائل يا بارشوك. سنغادر كأمة. إذا كنت تسجل الأحداث في تلك الرقاع كما وصفت، تأكد من كتابة ذلك".

تألقت عينا بارشوك، مفتوناً بالرجل الذي يقود الحشد العظيم.

"سأحرص على فعل ذلك يا مولاي. سأعلم الكتابة لكاهنك العراف وشقيقك حتى يستطيعا قراءتها لك".

طرفت عينا جنكيز دهشة، وتخيل صورة شقيقه يكرر كلمات مكتوبة على جلود عجول مدبوغة.

قـال: "سيكون مثيراً للاهتمام رؤية مثل ذلك الشيء". أمسك بارشوك من كتفه، ومـنحه شرف مغادرة الخيمة برفقته، والقادة يسيرون خلفهما. في الخارج، استطاعوا سماع الهمس بين القبائل المجتمعة التي تنتظر الرجل الذي سيقودها.

حتى في ظلمة الصيف، كان المخيم يشع بلون أصفر تحت النجوم، تضيئه عشرة آلاف شـعلة ترفرف في الهواء. كان قد تم إخلاء الوسط على شكل حلقة واسعة حول خـيمة جنكيـز، وكان المحاربون من مئة قبيلة قد تركوا عائلاتهم للوقوف معاً تحت الـضوء المتقطع. من رجل إلى الذي يقف بجانبه، كانت دروعهم مصنوعة من الجلد القاسي أو قطع أنيقة من الحديد المنسوخة عن دروع تشن. حمل بعضهم وَشمَ قبائلهم، بينما كان معظمهم خالين من أي علامة مميزة، وكان ذلك يدل على أنهم جدد، وأنه لا تـوجد سوى قبيلة واحدة تحت السماء. كان العديد منهم يحملون سيوفاً جديدة، خرجت مـن الكيـر التي كانت تعمل ليلاً ونهاراً منذ مجيئهم إلى السهل. قام رجال يتعرقون تحـت الـشمس بتجهيز حفر كبيرة، ونقلوا الفلز إلى اللهب، وراقبوا بمتعة بينما كان الحـدّادون يصنعون أسلحة يمكنهم حملها. كان أكثر من رجل قد أحرق أصابعه لأنه مـسّها قـبل أن تبـرد تماماً، لكن لم يسبق لهم أبداً أن حلموا باقتناء سيف طويل ولم يمانعوا ذلك.

كانت الرياح تعصف بالسهل دائماً، لكن النسيم ذلك المساء كان عليلاً بينما كانوا ينتظرون جنكيز.

عندما جاء، نزل بارشوك اليوغر على درجات العربة، ووقف في الصف الأول حـول إطـارات الخشب والحديد. وقف جنكيز للحظة، ينظر من فوق رؤوس الحشد

ســعيداً بحجمه. نزل أشقاؤه، وأرسلان، وجيلم وأخيراً كوكشو من العربة، وتوقف كل منهم قليلاً لينظر إلى الصفوف التي تمتد بعيداً تحت الضوء.

أصبح جنكيز وحيداً، وأغلق عينيه للحظة. شكر أب السماء لأنه أحضره إلى ذلك المكـان، مـع مثل ذلك الجيش الذي سيتبعه. قال كلمات مقتضبة لروح والده في حال كـان الرجل يراه. كان يعرف أن ياسوجي سيكون فخوراً بابنه. كان قد جهّز أرضية جديـدة لـشعبه، ووحدها الأرواح يمكنها القول أين سينتهي الدرب. عندما فتح عينيه، شاهد أن بورت كانت قد أحضرت أبناءه الأربعة ليقفوا في الصف الأول، وكان ثلاثة منهم أصغر من أن يُتركوا لوحدهم. أومأ جنكيز بحدّة لهم، وتوقف بصره عند أكبرهم جوشـي، وتشاغاتي الذي كان قد أطلق عليه اسم عرّاف الذئاب. بعمر التاسعة تقريباً، كان جوشي يخاف والده وقد خفض بصره فيما حدّق تشاغاتي به، وكان قلقه واضحاً.

صــرخ جنكيز: "جئنا إلى هنا من مئة قبيلة مختلفة". أراد أن يصل صوته بعيداً، لكن حتـى حنجـرة مدرّبة في ساحة المعركة لا يمكن أن تدفع الصوت إلى أقصى حدود ذلك الحشد. ينبغي بأولئك الذين لا يستطيعون سماعه الانتباه إلى الذين يستطيعون ذلك.

"لقـد أحـضرت الـذئاب، وأولخونوت، وكيريت إلى هذا السهل. لقد أحضرت ميـركيت، وجاجيـرات، واويـرات، والنيمنز. كانت قبائل ويلا، وتوفان، واليوغر، ويوريانخـي قد جاءت إلى هنا". عندما كان يقول اسم كل مجموعة، كان يعلو الهتاف مــن حـيث تجلـس. لاحظ كيف أنهم بقوا معاً حتى في تلك الليلة. لن يكون استيعاب أولئك الذين يعتبرون الانتماء للقبيلة فوق كل اعتبار آخر سهلاً. لم يكن ذلك مهماً، كما قــال لنفسه. سيجعل أبصارهم تشمخ عالياً. كانت ذاكرته قوية عندما أخذ يلفظ اسم كل قبيلة كانت قد قطعت مسافة طويلة للانضمام إليه في ظل الجبل الأسود. لم يترك أحداً، وكان يعرف أن إغفال أي اسم سيكون ملحوظاً وسيتذكره الجميع.

تابع: "علاوة على ذلك، كنت قد استدعيت أولئك الذين لا قبيلة لهم، لكن لا يزال لـديهم كـرامة، واستجابوا لنداء الدم. لقد جاؤوا ليكونوا برعايتنا. وأقول لكم جميعاً، ليست هناك قبائل تحت أب السماء. هناك أمة مغولية واحدة وقد تجمّعت هذه الليلة، في هذا المكان".

هــتف بعـض أولئك الذين كانوا يستمعون، بينما بقيت وجوه آخرين قاسية مثل الحجـر. حافظ جنكيز على قناع المحارب في كل ملامحه. كان بحاجة لأن يفهموا أن لا انتقاص في الكرامة في ما يطلبه.

"نحــن إخوان بالدم، وقد بقينا منفصلين لوقت أطول كثيراً مما يعرفه أي شخص هــنا. أقــول إن هناك عائلة كبيرة من كل القبائل، وصلة دم بينكم جميعاً. أدعوكم يا

إخواني إلى رايتي، وسنمضي قدماً عائلة واحدة، أمة واحدة". توقف قليلاً، ليحكم على رد الفعـل. كانوا قد سمعوا الفكرة من قبل والتي تم تناقلها همساً في التجمع من قبيلة إلـــى أخرى. على الرغم من ذلك، أدهشهم سماعها منه. لم يهتف أغلبية الرجال وكان علـيه أن يثور نوبة غاضب مفاجئة. كانت الأرواح تعرف أنه يحبهم، لكن شعبه كان يثير الغضب أحياناً.

"ستكتسـون غـنائم تعـادل الجبل الذي خلفكم. سيكون لديكم جياد، وزوجات، وذهب، وزيوت، وطعام. ستحصلون على أرض خاصة بكم، وسيخافكم كل من يسمع باسمكم. سيكون كل رجل هنا خاناً لأولئك الذين ينحنون له".

هــتفوا عــند سماع ذلك، على الأقل، وخاطر جنكيز برسم ابتسامة صغيرة على وجهه سعيداً بأنه قد عثر على النبرة الصحيحة. سيدع القادة الأقل منزلة يقلقون بشأن طموح أولئك الذين من حولهم، فقد كان يعني كل كلمة مما يقوله.

صــرخ بهـم: "الصحراء العظيمة إلى الجنوب". عمّ الصمت فوراً، وشعر بأن انتـباههم مثل قوة تجذبه. "سنعبرها بسرعة لا تتخيلها ممالك تشن. سننقض على أولها كما تنقض الذئاب على الحملان، وسيتبعثرون أمام سيوفنا وأقواسنا. سأمنحكم ثرواتهم ونساءهم. هناك سأثبّت رايتي، وستهتز الأرض بينما أقوم بذلك. ستعرف أمنا الأرض أن أبناءها وإخوانها قد عثروا على ميراثهم وستكون سعيدة بسماع الرعد في السهول".

تعالـــى الهتاف مجدداً، ورفع جنكيز ذراعيه طالباً منهم السكوت، على الرغم من أن ذلك أسعده.

"سنتحرك إلى بلد جاف، وسنأخذ كل الماء الذي نحتاج إليه لهجوم واحد مفاجئ. بعد ذلك، لن نتوقف حتى يحدّنا البحر من كل اتجاه. أنا جنكيز الذي يقول هذا وكلمتي حديد".

صــرخوا إعجابـــاً، وأشار جنكيز بإصابعه إلى خاسار، الذي وقف ينتظر على الأرض تحته. رفع خاسار سارية ثقيلة من أغصان البتولا الفضية مربوط إليها ثمانية ذيول جياد. تمتم الحشد عندما رآها. عرف البعض الذيل الأسود الخاص بميركيت أو الأحمــر العائد للنيمنز، مربوطة مع الأخرى. كانت كل منها راية خان إحدى القبائل الكبيرة، وكان جنكيز قد جمعها كلها في السهل. بينما كان جنكيز يتناول السارية، رفع إليه خاسار ذيل جواد مصبوغ باللون الأزرق الخاص بالبوغر.

ضاقت عينا بارشوك عندما شاهد تلك الرموز القوية، لكن مع الحشد الذي خلفه، كـــان لا يزال يشعر بالإثارة، ويتطلع قدماً نحو المستقبل. عندما شعر أن عيني جنكيز تقعان عليه، أحنى رأسه.

بأصـــابع رشيقة، عقد جنكيز طرف ذيل الحصان الأخير مع البقية ووضع قاعدة الـــسارية علـــى الخـــشب عند قدميه. داعب النسيم الراية الملونة، وتحرّكت الذيول، واهتزّت كما لو أنها حيّة.

صـــرخ قـــائلاً: "لقد جمعت الألوان. عندما تتحول إلى اللون الأبيض، لن يكون هناك فروق بيننا. ستكون راية الأمة".

عـــند قدمـــيه، رفع ضباطه سيوفهم واستجاب الحشد لهم. ارتفعت آلاف الأسلحة نحـــو الـــسماء، وأومـــأ جنكيـــز لهـــم، متأثراً. تطلب الأمر وقتاً طويلاً حتى هدأت الضوضاء، على الرغم من أنه رفع يده الحرّة، ولوّح بها في الهواء.

"العهـــد الذي ستقطعونه مُلزم يا إخواني، إلا أنه ليس أقوى من الدم الذي يجمعنا الآن. اجثوا لي".

جثت الصفوف الأولى مباشرة، وتبعتها الأخرى مشكّلة أمواجاً بشرية بينما كانت تـــتابع ما يجري. راقب جنكيز عن كثب بحثاً عن أي تردد، لكنه لم يرَ شيئاً. كان قد امتلكهم جميعاً.

صـــعد كوكـــشو الـــدرجات إلى العربة، ووجهه خالٍ من أي تعبير. في أفضل أحلامه، لم يكن قد تخيل مثل تلك اللحظة. كان تيموج قد مهّد له الطريق، وهنأ كوكشو نفسه لأن علاقته بالشاب وصلت إلى مرحلة يقدم فيها اقتراحات.

عـــندما جثت القبائل، استمتع كوكشو بمكانته. تساءل إن كان جنكيز قد فكّر بأنه الوحـــيد بينهم الذي لم يقطع له عهداً. جثا خاسار، وكشيون، وتيموج على العشب مع الآخرين، والخانات والمحاربون على حدٍّ سواء.

صـــرخ كوكـــشو من فوق رؤوسهم وقلبه ينبض إثارة: "بقيادة خان واحد، نحن أمة". عاد صدى الكلمات إليه، وملأت الوادي بأمواج عندما ردّدها أولئك الموجودون في الخلف. "أقدّم الخيام، الجياد، الملح والدم بكل شرف".

أمسك كوكشو بحاجز العربة بينما كانوا ينشدون. بعد تلك الليلة، سيعرفون جميعاً الكـــاهن العراف للخان العظيم. نظر إلى الأعلى بينما كانت الكلمات تندفع من الأفواه مـــن مـــسافة بعـــيدة. تحت تلك السماء الصافية، ستهيم الأرواح بحماس شديد ومتعة كبيـــرة، ولـــن يراها أو يشعر بها سوى أولئك الذين يتأثرون بقوة بكلماته. عندما أنشد الآلاف، شـــعر كوكشو بأنهم يدورون في الهواء وتهلل فرحاً. أخيراً، صمتت القبائل، وأخرج زفيراً طويلاً.

تمـــتم جنكيز من خلفه: "دورك الآن أيها الكاهن العراف". حدّق كوكشو مندهشاً، قبل أن يخرّ على ركبتيه، ويكرر العهد نفسه.

عــندما انــضم كوكــشو إلى الآخرين حول العربة، سحب جنكيز سيف والده. بالنسبة لأولئك الذين كانوا يستطيعون رؤيته، كانت عيناه تلمعان ارتياحاً.

"انتهــى الأمــر. نحن أمة وسنمضي قدماً. منذ الليلة، لن يفكر أي رجل بقبيلته وينتابه الحزن. نحن عائلة كبيرة وستصبح كل الأراضي لنا".

أنــزل ذراعــه بيــنما كانوا يصرخون، كشخص واحد هذه المرة. كانت رائحة الــضأن المــشوي قوية في الهواء العليل، نزل عن العربة ببطء بينما كان المحاربون يــستعدون للــيلة يتــناولون فــيها الشراب وما يكفي من الطعام لجعل بطونهم تنتفخ. سيشرع المحاربون السكارى بإنجاب ألف طفل قبل الفجر. فكّر جنكيز في العودة إلى بــورت في خيمته، وشعر بانزعاج من فكرة ملاقاة عينيها المليئتين بالاتهام. كانت قد قامت بواجبها نحوه، ولا يمكن لرجل إنكار ذلك، لكن أبوّة جوشي بقيت موضع تساؤل مثل شوكة في جلده.

هزّ رأسه لتنقيته من الأفكار التي لا طائل منها، وتناول قربة من الشراب الأسود مــن كشيون. الليلة، سيشرب حتى الثمالة، كخان لكل القبائل. في الصباح، سيستعدون لعــبور الأراضــي الجافة في صحراء غوبي والسير على الدرب الذي كان قد اختاره لهم.

# الفصل الرابع



عـصفت الـرياح حـول العربات، وحملت رمالاً ناعمة جعلت الرجال والنساء يبـصقون باسـتمرار، ويفزعون من الرمل في طعامهم. عذّبهم الذباب جميعاً. خلال النهار، كان أفراد قبيلة اليوغر قد علّموهم كيف يحمون وجوههم بالقماش، وأن يتركوا عيونهم فقط مكشوفة حتى يبصروا البراري المقفرة أمامهم، التي تومض من الحرارة. اكتـشف أولئك الذين يرتدون دروعاً أن خوذاتهم والقطع التي يضعونها على أعناقهم حارة للغاية ولا يمكن لمسّها، لكنهم لم يشتكوا.

بعـد أسبوع، صعد جيش جنكيز سلسلة من التلال البنية لدخول سهل شاسع من الكثبان الـرملية. علـى الرغم من أنهم كانوا قد اصطادوا عند سفوح التلال، إلا أن الصيد أصبح نادراً عندما ارتفعت الحرارة. على الرمال الحارة، كانت الإشارة الوحيدة علـى الحياة وجود عقارب سوداء صغيرة تهرب بعيداً عن جيادهم وتختفي في حفر. بـين الحين والآخر، كانت العربات تغوص في الرمال وينبغي عليهم إخراجها في قيظ حر النهار. كان عملاً شاقاً جداً، لكن كل ساعة تضيع كانت تعني قرب نفاد الماء.

كانـوا قـد ملأوا آلاف القرب المصنوعة من جلود الماعز، التي تمت دباغتها وتعريـضها لشمس قوية. نظراً لعدم وجود مصدر آخر، تراجعت كميات المياه بشكل ملحوظ، ونتيجة الحرارة، تم العثور على العديد من القرب وقد انشقّت بفعل ثقل البقية. كانت معهم قرب تكفي لعشرين يوماً فقط وقد مرّ اثني عشر آنذاك. شرب المحاربون دمـاء مطـياتهم، كل يومين، إضافة إلى بضعة أكواب من الماء الدافئ الأجّاج، لكنهم كانـوا قـد وصلوا إلى حافة الاحتمال، وأصيبوا بالدوار وفتور الهمة، وكانت شفاههم جافة على وشك أن تنزف.

سار جنكيز مع أشقائه في مقدمة الجيش، يبحثون بأبصارهم عن علامة تدل على الجـبال التـي قيل له أن يتوقع وجودها. كان أفراد قبيلة اليوغر قد أوغلوا عميقاً في الـصحراء، واعـتمد علـى بارشوك لإرشادهم. تقطب حاجباه عندما فكّر بالحوض

المنبسط الذي لا ينتهي من الأمواج الصفراء والسوداء، التي تمتد على كل الطريق إلى الأفــق. كانــت حرارة النهار أسوأ شيء عرفه، لكن بشرته كانت قد أضحت داكنة، وبــدت علــى وجهه خطوط جديدة من الأوساخ والرمال. كان سعيداً تقريباً بالبرد في الليلة الأولى، حتى أضحى قارساً جداً ولم تعد الفراء في الخيام تحمي منه تماماً. كان أفراد قبيلة اليوغر قد علّموا رجال القبائل الأخرى كيف يسخّنون الصخور في النار ثم ينامون على طبقة منها فيما تبرد تدريجياً. ظهرت علامات بنية على ظهور الكثير من المحاربــين حــيث كانت الحجارة قد أحرقت ملابسهم، لكنهم كانوا يستطيعون التغلب علــى البرد، إذا نجوا من العطش المستمر، ولن يكون هناك في الصحراء شيء يمكنه إيقــافهم عــندها. مــسح جنكيز فمه بين الحين والآخر بينما كان يقود حصانه، وينقل حصاة بين خدّيه لإبقاء لعابه يسيل.

نظر خلفه بينما كان بارشوك يدفع بجواده إلى جانبه. كان أفراد قبيلة اليوغر قد غطّوا أعين جيادهم بالقماش وكانت الحيوانات تسير عمياء. كان جنكيز قد حاول القيام بالــشيء نفسه في ما يخص جياده، لكن الحيوانات التي لم تكن قد اختبرت شيئاً مماثلاً من قبل قاومت وصهلت عند وضع القماش على أعينها حتى تم رفعه، ثم عانت خلال الأيــام الحــارة. كانت العديد من الحيوانات قد عانت من وجود قشور أوساخ بيضاء مــصفرّة علــى جفــونها وكانت بحاجة إلى مراهم مهدّئة إذا استطاعوا الخروج من الــصحراء. كانت الحيوانات تتحمل مثلهم، لهذا كان ينبغي تزويدها بحصتها من الماء الثمين. سيراً على الأقدام، كانت الأمة الجديدة ستموت في الصحراء.

أشــار بارشــوك إلى الأرض، ضرب إحدى يديه بالأخرى، ورفع صوته فوق الرياح التي لا تهدأ. "هل ترى النقاط الزرقاء في الرمل يا مولاي؟".

أومأ جنكيز برأسه، وحرك فمه الجاف حتى يتمكن من الرد. "إنها تشير إلى بداية المــرحلة الأخيرة قبل جبال ينشان. يوجد نحاس هناك. كنا قايضناه مع مملكة كزي كزيا".

سأل جنكيز بصوت أجش، من دون أن يسمح لآماله بأن تزداد: "ما هي المسافة التي سنقطعها قبل أن نرى تلك الجبال؟".

هزّ بارشوك كتفيه من دون مبالاة مغولية. "لا نعرف بشكل مؤكد، لكن تجاراً من كــزي كــزيا كانــوا لا يزالون نشيطين عندما قابلوا قوافلنا في هذا المكان، ولم تكن جيادهم مغطاة بالغبار. لم يعد المكان بعيداً الآن".

نظــر جنكيز إلى الخلف من فوق كتفه على الحشد الصامت للفرسان والعربات. كــان قــد أحــضر ستين ألف محارب إلى الصحراء، ومثل ذلك العدد من زوجاتهم

وأولادهـم. لـم يكن يستطيع رؤية نهاية القافلة التي امتدت إلى الخلف مسافة أميال، وكانت الأشكال تتداخل بعضها مع بعض حتى لم يعد هناك سوى بقع داكنة تتمايل في الحـرارة. كان الماء على وشك النفاد تقريباً وسيكون عليهم ذبح القطعان قريباً، وأُخذ اللحـم الذي يستطيعون حمله، وتُرك الباقيَ على الرمال. تبع بارشوك نظرته وضحك بصوت خافت.

"لقـد عانـوا يـا مولاي، لكن لن يطول الأمر قبل أن نقرع أبواب مملكة كزي كزيا".

تأفـف جنكيـز مرهقاً. كانت معرفة خان اليوغر قد أحضرتهم إلى هذا المكان المقفـر، لكـن لـيس لـديهم سوى كلمته بأن المملكة ثرية وخصبة كما قال. لم يكن مسموحاً لمحاربي اليوغر السفر خلف الجبال التي تحدّ الصحراء إلى الجنوب ولم تكن لـدى جنكيـز طريقة لوضع خطة هجومه. فكّر بذلك بغضب بينما كان جواده يسحق عقرباً آخر فوق الرمال. كان قد جمعهم كلهم على أمل إيجاد نقطة ضعف في دفاعات محاربـي تـشن، لكـنه كـان لا يزال يتساءل كيف سيكون منظر مدينة عظيمة من الحجـارة، مـرتفعة مثل جبل. بمواجهة مثل ذلك الشيء، ربما لا يسع فرسانه سوى التحديق بإحباط.

تحـول لـون الرمال تحت حوافر جواده إلى الأصفر المائل إلى الأخضر بينما كانوا يسيرون، وامتدت شرائط كبيرة من ألوان غريبة بعيداً في كل اتجاه. عندما كانوا يـتوقفون لتـناول الطعـام، كان الأطفال يذرون الرمل في الهواء ويرسمون صوراً بواسـطة العصي. لم يكن جنكيز ليشعر بسعادتهم بينما كميات المياه تتناقص وكل ليلة يقضونها تعني الارتعاش برداً على الرغم من الصخور الحارة.

لم يكن هناك شيء يسلي الجيش قبل أن يخلد أفراده إلى النوم. مرتين خلال اثني عـشر يـوماً، تـم استدعاء جنكيز لتسوية نزاع ما بين القبائل لأن الحرارة والعطش يجعـلان الأعصاب مشدودة. وفي المرتين، كان قد أعدم الرجال المتورطين في ذلك، وأوضح أنه لن يسمح لأي شيء بأن يهدد السلم في المعسكر. كان يعتبر أنهم قد دخلوا أراضـي العدو وإذا لم يستطع الضباط معالجة الشغب، فإن تدخله سيكون قاسياً. كان الـتهديد كافـياً لإبعاد معظم المحاربين حادّي الطباع عن العصيان، لكن حكم شعبه لم يكـن سـهلاً أبـداً مـن قبل وكان قضاء ساعات طويلة صامتين يجعلهم أكثر عناداً والتعامل معهم أكثر صعوبة.

عـندما بزغ فجر اليوم الرابع عشر، وحمل معه الحرارة العالية مرة أخرى، لم يـسع جنكيـز سـوى أن يفزع عندما أبعد عنه بطانياته وبعثر الحجارة تحته ليجمعها

خدمـــه لاســتعمالها فـــي الليلة التالية. شعر بأنه متيبس ومتعب، مع طبقة من الرمال الـــناعمة على جلده والتي جعلته يحك نفسه. عندما تعثر جوشي الصغير به بينما كان يلعب مع أشقائه، صفعه جنكيز بقوة، وأرسله يبكي إلى أمه ملتمساً السلوان منها. كانوا جميعاً حادي الطباع في حرارة الصحراء ووحدها وعود بارشوك بوجود سهل أخضر ونهر في نهاية المطاف هي التي أبقت عيونهم معلقة بالأفق، وتخيلوهما في أذهانهم.

في اليوم السادس عشر، ظهرت تلال سوداء. كان محاربو اليوغر الذين خرجوا مــستطلعين قـــد عادوا يقودون جيادهم خبباً والتي تلهث من الرمل والإجهاد. حولهم، كانـــت الأرض خضراء تقريباً مع نحاس وصخور سوداء تبدو مثل نصال حادة. مرة أخـــرى، رأت العـــائلات الأشنّة والشيح تتشبث بالحياة في ظل الصخور، وعند الفجر أحـــضر الـــصيادون أرانب وجرذان برية علقت في شراكهم الليلية. ارتفعت معنويات العائلات كثيراً، لكنها كانت تعاني كلها من العطش وتقرّح العيون لهذا بقيت الأعصاب مشدودة في المعسكر. على الرغم من تعبهم، زاد جنكيز الدوريات حول القوة الرئيسية وجعـــل الـــرجال يـــتدربون باســـتعمال الأقواس والسيوف. كانت بشرة المحاربين قد أصبحت داكنة وأصابهم الإرهاق من الصحراء، لكنهم اندفعوا للعمل بقدرة كبيرة على الاحـــتمال، وقد عقد كل رجل منهم العزم على عدم الفشل تحت عيون الخان العظيم. بـــبطء، ازدادت سرعة القافلة بشكل غير محسوس مرة أخرى، بينما تم دفع العربات الثقيلة إلى مؤخر الركب.

عندما اقتربوا من التلال، شاهد جنكيز أنهم في مكان أعلى مما كان يتخيل. كانت الـــتلال تتشكل من الصخور السوداء نفسها التي تنتشر في الرمال حولها، وكانت حادة وشديدة الانحدار. لم يكن تسلقها ممكناً، وكان يعرف أنه لا بد من وجود ممر بين القمم وإلا ســـيكون مـــرغماً على السير حول قاعدتها. مع نفاد كميات المياه التي يحملونها تقـــريباً، أضـــحت العربات أخف وزناً، لكنه كان يعرف أن عليهم العثور على وادي بارشوك بسرعة وإلا سيواجهون خطر الموت. كانت القبائل قد قبلت به خاناً، لكن إذا كان قد أحضرهم إلى مكان حار يتربصهم فيه الموت، وتسبب بمقتلهم، فسيثورون فيما لا تـــزال لديهم قوة. قاد جنكيز جواده منتصباً على سرجه، فمه مليء بالتقرحات. أما في الخلف، فكانت القبائل تتذمر بتجهم.

جـــال كـــشيون وخاسار ببصرهما عبر الهواء الحار عند قاعدة الصخور شديدة الانحـــدار. مـــع اثنين من المستطلعين، كانوا قد ساروا أمام الجيش الرئيسي بحثاً عن ممـــر. كان المستطلعان رجلين خبيرين وقد التقطت العينان الحادتان لأحدهما ما يمكن

أن يكــون ممراً بين القمم. بدا الطريق جيداً تماماً لأن المنحدر الصخري كان يتصل بــوادٍ ضــيقٍ تــرددت في جنباته أصداء وقع حوافر جياد الفرسان الأربعة. على كلا الجانبين، كانت الصخور تمتد عالياً نحو السماء، ترتفع إلى مسافة لا يمكن لأي رجل أن يتــسلقها، ناهــيك عن العربات والجياد. لم يكن الأمر يتطلب مهارة خاصة بتقفي الآثــار لملاحظــة أن الأرض ممهدة جيدة ودفعت المجموعة الصغيرة جيادها للسير خبباً، متوقعة العثور على طريق إلى مملكة كزي كزيا خلف التلال.

عــندما تقدمــوا إلــى الأمــام، ألقــى المستطلعان اللجامين اللذين يمسكان بهما مــشدوهين، ولــزما الــصمت. كانت نهاية الوادي مسدودة بسور عظيم من الصخور الــسوداء نفــسها التي تتشكل منها التلال. كانت كل صخرة لوحدها أثقل من أي شيء يمكــن للقبائل زحزحته وبدا السور غريباً، وغير صحيح بطريقة ما لأعينهم. لم يكن بينهم حرفيون يعملون على الصخور. بحوافه الأنيقة وسطوحه المصقولة، كان واضحاً أن الــسور من صنع الإنسان، لكن حجمه الكبير كان شيئاً لم يروا له مثيلاً سوى في الــصخور الطبيعــية والوديان. عند القاعدة، كان هناك إثبات أخير على أنه ليس شيئاً طبيعــياً. كانت هناك بوابة من الحديد الأسود والخشب في قاعدة السور، وتبدو عتيقة وقوية.

قــال كــشيون وهو يهزّ رأسه: "انظروا إلى حجمها! كيف سنعبر من خلال ذلك الشيء؟".

هزّ المستطلعان كتفيهما ببساطة وصفر خاسار بهدوء.

"سيكون سهلاً إيقاعنا في فخ في هذا المكان الكئيب. ينبغي إخبار جنكيز بسرعة، قبل أن يلحق بنا إلى هنا".

"سيرغب بأن يعرف إن كان يوجد محاربين في الأعلى يا شقيقي. تعرف ذلك".

نظــر خاســار إلى الصخور شديدة الانحدار على كلا الجانبين، وشعر بأنه غير حــصين فجــأة. كان سهلاً أن يتخيل رجالاً يُلقون حجارة من الأعلى ولن تكون هناك طريقة لتفاديها. فكّر في المستطلعين اللذين رافقاهما إلى الوادي. لقد كانا محاربين في كيــريت قبل أن يستولي جنكيز على القبيلة. كانا ينتظران الأوامر من دون أن يظهر عليهما شيء، ويخفيان رهبتهما من حجم السور الذي يقف أمامهما.

قــال خاســار لــشقيقه: "ربما بنوه فقط لصد جيش من الصحراء. ربما لا يوجد رجال عليه".

بينما كان يتكلم، أشار أحد المستطلعين مما جعل أبصارهم تتجه إلى شكل ضئيل يتحــرك أعلى السور. لا يمكن أن يكون سوى جندي، وشعر خاسار بقلبه ينقبض. إن

كان هناك ممر آخر فإن بارشوك لم يكن يعرفه، وكان العثور على طريق حول الجبال يعني رؤية جيش جنكيز يتداعى. اتخذ خاسار قراره، وكان يعرف أنه قد يعني خسارة حياة المستطلعين.

قـــال لهمـــا: "قـــودا جواديكما إلى قاعدة السور ثم عودا إلى هنا مباشرة". أحنى الرجلان رأسيهما، تبادلا نظرة بوجهين خاليين من أي تعبير. معاً، دفعا عقبي قدميهما علـــى جـــواديهما وصرخا "تشو!" ليجعلاهما يجريان بسرعة. ارتفع الرمل في الهواء عندما بدأا سباقهما إلى قاعدة السور الأسود، وراقب خاسار وكشيون ما يجري بعيون تكافح وهج الشمس.

ســـأل كـــشيون: "هل تعتقد أنهما سيصلان إليه؟". هزّ خاسار كتفيه من دون أن ينبس ببنت شفة، مشغولاً تماماً بمشاهدة السور.

اعتقد كشيون أنه شاهد إشارة حادة من الحارس البعيد. كان لدى المستطلعين إحساس بعـــدم الـــسير معاً، وأبقيا على مسافة بينهما بينما كان جواداهما يعدوان بأقصى سرعتهما، ويغيـــران اتجاهيهما يميناً ويساراً لتفادي إصابتهما من أي رماة سهام. لوقت طويل، لم يكن هناك صوت سوى صدى حوافر الجوادين، وراقب الشقيقان ما يجري بأنفاس محبوسة.

أطلـــق كـــشيون لعنة عندما ظهر صف من رماة السهام على السور. قال وهو يـــصك أسنانه: "عودا". اندفعت نقاط داكنة إلى الأسفل على المستطلعين اللذين يقودان جواديهما بسرعة كبيرة، وشاهد كشيون أحدهما ينحرف بتهور عندما وصل إلى البوابة الكبيـــرة. استطاعا رؤيته يضرب بقبضته على الخشب بينما كان يوجه جواده للعودة، لكن الرماة كانوا يطلقون أمواجاً من السهام، وبعد لحظة، كان قد أُصيب وجواده باثني عـــشر سهماً. صرخ الرجل المحتضر، وبدأ جواده رحلة العودة، وكانت تزل وتتعثر كلما أصابها سهم جديد. وقعا أخيراً معاً تقريباً، واستلقيا من دون حراك على الرمل.

كـــان المـــستطلع الثانـــي أوفر حظاً، على الرغم من أنه لم يمس السور. لوقت قصير، بدا كما لو أن بوسعه الهروب من السهام، وصرخ خاسار وكشيون به. ثم اهتز فـــي الـــسرج ورفع جواده قائمتيه الأماميتين وانهار، وأخذت قوائمه تركل في الهواء بينما كان يتدحرج فوق فارسه.

استطاع الجواد الوقوف على قوائمه، وعاد مترنحاً إلى الشقيقين، وترك المستطلع جثة هامدة على الأرض خلفه.

تـــرجل خاسار، وأمسك باللجام. كانت قائمتاه مكسورتين ولم يكن ممكناً امتطاء الجواد مجدداً. بصمت، ربط خاسار اللجام إلى سرجه. لم يكن ليترك الحيوان خلفه مع وجود أفواه كثيرة ينبغي إطعامها في المعسكر.

تمـتم خاسـار: "حـصلنا على الجواب يا شقيقي، على الرغم من أنه لم يكن ما أردته. كيف سنتمكّن من العبور؟".

هزّ كشيون رأسه. قال، وهو يلقي نظرة إلى الخلف إلى الصف الداكن من رماة الـسهام الذين يراقبونهما: "سنجد طريقاً". رفع بعضهم أذرعهم، على الرغم من أنه لم يكـن يعـرف إن كـان ذلـك يعني السخرية منهم أو توديعهم. "حتى وإن كان علينا تحطيمه، صخرة بعد أخرى".

حالما شوهد خاسار وكشيون عائدين يمتطيان حصانيهما لوحدهما، تأهبت قوات جنكيـز تحـسباً لوجـود أحـد فـي أعقابهما. قبل أن يصلا إلى الصفوف الخارجية للمحاربـين الذين يمتطون جيادهم، كان الشقيقان قد تجاوزا مجموعات المناوشة التي بقـيت تحـدق إلى الجبال التي تركوها خلفهم. كان جنكيز وضباطه قد تعلموا دروساً قاسـية فـي سنوات تحويل القبائل إلى جيش واحد وتسابق الفتية على جيادهم بأقصى سرعة أمامهم لإخباره بقدومهما.

لـم يـرد أي مـن الرجلين على أولئك الذين نادوهما. متجهمين وصامتين، قادا حصانيهما إلى خيمة شقيقهما، التي تجثم مثل بزّاقة بيضاء على عربتها. عندما وصلا إلـيها، تـرجل خاسـار عن جواده قفزاً، ونظر إلى الرجل الذي تقدم متجهماً ليمسك اللجام.

قـال محيـياً إياه وقد أرغم نفسه على الابتسام: "تسوبودي". بدا المحارب الشاب متوتراً، وتذكر خاسار أنه كان قد تلقى وعداً بالحصول على درع وحصان جيد. فكشّر من التوقيت.

"لدينا أشياء عديدة نناقشها مع الخان. طالب بحصانك في وقت آخر".

ظهـرت خيـبة الأمل على وجه تسوبودي، وتأفف خاسار، وأمسك به من كتفه بيـنما كـان يستدير مبتعداً. تذكر شجاعة الفتى عندما قفز بين أبناء ويلا. كان صنيعاً يمكن أن يجازيه عليه.

"ربمـا تحـين اللحظـة المناسبة عندما ننتهي مما نحن فيه. تعال معي إذا كنت تـستطيع البقاء صامتاً". استعاد تسوبودي ابتسامته خلال لحظة، والتي امتزجت بالقلق مـن لقاء الخان العظيم نفسه. بفم جاف، صعد درجات العربة وتبع الشقيقين إلى الظل الداخلي.

كان جنكيز مستعداً لهما، ومراسله الشاب لا يزال يلهث إلى جانبه.

سأل بعد أن لاحظ تعبيرات وجهيهما الجادة: "أين المستطلعان؟".

"قتلا يا شقيقي. والممر محروس بسور من الصخور السوداء بارتفاع مئة خيمة، وربما أكثر".

أضاف كشيون: "شاهدنا ربما خمسين من رماة السهام هناك. ليسوا ماهرين جداً، كما نعرف الآن، لكن لا يمكن تجاوزهم بسهولة. يقع السور في نهاية ممر ضيق، وهو درب بين جانبين صخريين شديدي الانحدار. لم أشاهد طريقاً للالتفاف عليه".

عــبس جنكيــز، ونهض من مقعده. أصدر صوت طقطقة من حنجرته بينما كان يمــشي عبــر الخــيمة ويتجاوزهما إلى الشمس الساطعة. تبعه خاسار وكشيون، ولم يلاحظا تسوبودي الذي مشى في أعقابهما وقد اتسعت عيناه.

وقــف جنكيز على الرمل الأزرق المائل للخضرة أسفله، ينظر إلى الأعلى. كان يحمــل عصا في يديه وأشار بها، وقام برسم خط على الأرض. قال بحزم: "اشرحوا لي". كان كشيون من أخذ العصا ورسم بضربات أنيقة. راقب خاسار بذهول بينما كان شــقيقه يرســم الــوادي الذي كان قد رآه قبل بضع ساعات. إلى أحد الجانبين، رسم كشيون نسخة عن البوابة المقوّسة وحكّ جنكيز ذقنه بغضب.

قال متشككاً: "يمكننا تفكيك العربات لصنع دروع خشبية وجعل الرجال يقتربون".

هزّ كشيون رأسه. "سيجعلنا ذلك نقترب من البوابة على الرغم من سهامهم، لكن حالمــا نصل إلى هناك، يمكنهم إلقاء الحجارة علينا. من ذلك الارتفاع، ستتحطم ألواح الخشب إلى قطع صغيرة".

رفــع جنكيز رأسه، وجال ببصره على صفوف العائلات إلى الصحراء الشاسعة الخالية من الأشجار في كل الاتجاهات. لم يكن لديهم شيء يمكنهم الاستفادة منه.

قال: "إذاً، سيكون علينا أن نسحبهم إلى الخارج. انسحاب على مراحل، مع ترك مــواد ثمينــة في أجساد الموتى. سأبعث برجال يرتدون أفضل الدروع وسينجون من السهام، لكنهم سيتراجعون خوفاً مع الكثير من الصراخ". ابتسم من الفكرة. "سيعلم ذلك محاربينا القليل من التواضع، ربما".

داس كشيون بحذائه على طول حافة الرسم. "ربما ينفعنا أن نعرف متى يفتحون الــبوابة، لكن الوادي ملتوٍ. حالما يغيبون عن أنظارنا، لن تكون هناك طريقة لمعرفة متى يخرجون. إذا استطعتَ وضع فتيين خلف صخرتين على الجانبين، يمكنهما إرسال إشــارة لــنا، لكن التسلق صعب وليس هناك مخبأ على تلك الصخور. سيتمكنون من رؤيتهما".

قال تسوبودي فجأة: "هل تسمح لي بالكلام يا مولاي؟".

حدّق به خاسار ساخطاً.

"قلت لك أن تلزم الصمت. ألا ترى أن هذا الأمر مهم؟". تحولت أنظار الرجال الثلاثة إلى المحارب الشاب وتورّد خجلاً.

"أنا آسف. فكّرت في طريقة يمكننا من خلالها معرفة متى يخرجون".

سأل جنكيز: "من أنت؟".

ارتعش صوت تسوبودي بينما كان يحني رأسه. "تسوبودي من يوريانخي يا مولاي". أوقع نفسه في ورطة. "من الأمة يا مولاي. أنا...".

رفع جنكيز يداً. "أتذكر. قل لي بماذا تفكر".

بجهد ملحوظ، أخفى تسوبودي توتره وأخبرهم. فاجأه أنهم لم يكونوا قد فكروا بالأمر. بدت نظرة جنكيز على وجه الخصوص كأنها تخترقه، وأنهى كلامه يشيح ببصره إلى منتصف المسافة بينهم.

عانى تسوبودي بصمت بينما كان الرجال الثلاثة يفكرون. بعد وقت بدا طويلاً، أومأ جنكيز برأسه.

قال بتحفّظ: "ربما ينفع ذلك". بدا أن ثقة تسوبودي بنفسه قد ازدادت قليلاً.

ابتسم خاسار للمحارب الشاب، كما لو أنه مسؤول عن ذكائه.

قال جنكيز: "انظر في الأمر يا كشيون". ابتسم عندما شاهد زهو تسوبودي بنفسه. "ثم سأذهب لرؤية المكان الذي وصفته". تغير مزاجه عندما فكّر بتحطيم بعض العربات التي كانت قد حملت العائلات عبر الصحراء. نظراً لندرة الخشب، كان الكثير منها قد تم إصلاحه وتناقله عبر الأجيال. لم يكن هناك نفع منها.

"خذ أول عشر عربات تراها واصنع من خشبها متراساً يمكن حمله ونقله".

لاحظ أن نظرة كشيون قد استقرت على خيمة الخان خلفه وتأفف.

"ابدأ بالعربة التالية التي تراها يا شقيقي. لا تفكر بأن تحصل على عربتي".

تحرك كشيون بسرعة بعيداً ليجمع الرجال والمواد التي سيحتاج إليها. بقي جنكيز بمواجهة المحارب الشاب.

"كنت قد وعدتك بحصان ودرع. ما الذي تريده مني غير ذلك؟".

شحب وجه تسوبودي من الارتباك. لم يكن قد فكر بما سيطلبه من الخان، وإنما أراد فقط حل المشكلة التي تزعجه.

"لا شيء يا مولاي. يكفيني أن أقاتل مع شعبي".

حدّق إليه جنكيز، وحك جانب وجهه. "يتمتع بالشجاعة والذكاء يا خاسار. اجعله يقود عشرة رجال في الهجوم على السور". لمعت عيناه الصفراوان عندما وقع بصره على تسوبودي الذي وقف متسمراً في مكانه من الصدمة.

"ســـأراقب كيف تقود محاربين أكثر خبرة". توقف قليلاً حتى يستوعب تسوبودي مـــا يقـــال لـــه، وأضاف ملاحظة لاذعة ليهز ثقة الشاب المتزايدة. قال: "إذا جعلتهم يفشلون، لن تعيش بعد مغيب شمس ذلك اليوم".

انحنـــى تسوبودي كثيراً رداً على ذلك من دون أن يؤثر التحذير بقوة في شعوره بالإثارة. همهم جنكيز لنفسه.

"اجعلهـــم يجلـــبون حـــصاني يا خاسار. سأرى هذا السور ورماة السهام الذين يعتقدون أنهم يستطيعون الوقوف في طريقي".

# الفصل الخامس



لم يكن لدى مدافعي كزي كزيا أي فكرة عن عدد المغول الذين عبروا الصحراء لمهاجمتهم. على الرغم من أن جنكيز وصل إلى حافة السلسلة الصخرية مع اثني عشر ضابطاً، إلا أنه أبقى الجيش الرئيسي خلفه في الوادي المتعرج. كان قد قرر عدم إرسال متسلقين للصعود على قمة السفوح الشديدة الانحدار. اعتمدت الخطة على أن المدافعين سيعتقدون أن المهاجمين رعاة بسطاء. كان وجود المراقبين على القمم سيعني بعض الذكاء في التخطيط على الأقل، ويجعل جنود الحصن يشتبهون بالأمر.

عض جنكيز على شفته السفلى بينما كان ينظر إلى حصن كزي كزيا. تجمع رماة السهام مثل النمل على السور، وبين الفينة والأخرى كان أحدهم يطلق سهماً عالياً في الهواء ليحدد المدى الذي يمكن أن يصل إليه في أي هجوم قد يقع عليهم. شاهد جنكيز آخر السهام يغوص في الأرض على بعد اثنتي عشرة خطوة أمامه. كان باستطاعة رجاله إطلاق سهامهم إلى أبعد من ذلك، وبصق باستخفاف باتجاه رماة سهام العدو.

كان الهواء ثقيلاً وساكناً في الوادي الذي لا تهب رياح فيه. كانت حرارة الصحراء لا تزال مرتفعة عندما ترتفع الشمس فوق الرؤوس وتجعل ظلالهم صغيرة جداً. لمس سيف والده طلباً للحظ، ثم أدار جواده في مكانه، وقاده عائداً إلى حيث كان مئة محارب ينتظرونه.

كانوا صامتين، كما أمرهم، لكن الإثارة كانت بادية للعيان على وجوههم الشابة. مثل كل المغول، كانوا يستسيغون فكرة خداع العدو أكثر حتى من التغلب عليه بالقوة.

قال خاسار من وراء كتفه: "تم بناء المتراس الخشبي. إنه قاسٍ، لكنه سيوصلهم إلى قاعدة السور. زوّدتهم بمطارق حديدية ليحاولوا كسر البوابة. من يعرف، ربما يخترقونها".

قال جنكيز: "إذا حدث ذلك، اجعل مئة آخرين مستعدين للهجوم دعماً لهم". استدار إلى كشيون، الذي يقف قريباً للإشراف على التفاصيل الأخيرة. "أبقِ الآخرين

فـي الخلف يا كشيون. سيكون القضاء عليهم سهلاً فيما لن يتمكن سوى عدد قليل من تسلق السور. لا أريدهم أن يركضوا على غير هدى".

رد كـشيون: "سأضـع أرسلان على رأس المجموعة الثانية". كان خياراً جيداً، وأومأ جنكيز موافقاً. كان الحدّاد يستطيع اتّباع الأوامر في عاصفة من السهام.

خلفهـم، بـدا أن الـسور يخيم عليهم على الرغم من أنهم لم يكونوا يستطيعون رؤيـته بشكل مباشر. لم تكن لدى جنكيز أي فكرة عما يقع خلف الحجارة الداكنة، أو عدد الرجال الذين يدافعون عن الممر. لم يكن ذلك مهماً. في أقل من يومين، ستصبح آخـر قـرب المـاء فارغـة. سـتبدأ القبائل بالتداعي بعد ذلك، وتموت من العطش وطموحاته. ينبغي أن يتم إسقاط الحصن.

كـان العديد من الرجال يحملون سيوفاً ورماحاً جميلة لتركها على الرمل، وأي شـيء يلفـت نظر المدافعين ويجعلهم يخرجون للحصول عليه. كانوا جميعاً من دون استثناء يرتدون أفضل الدروع التي كانت نسخاً عن دروع محاربي تشن. في الحرارة، كانـت القطـع المعدنية بسماكة إصبع تلسع الجلد العاري، وكانت الملابس الحريرية تحـتها سرعان ما تبلى من العرق. تجرعوا الماء من القرب التي كاد ينفد ما بداخلها. كان جنكيز قد ألغى حصص الماء للرجال الذين كانوا على وشك المخاطرة بحياتهم.

قـال خاسـار مقاطعـاً أفكـاره: "لقد قمنا بكل ما نستطيع يا شقيقي". راقب كلا الـرجلين عـندما ظهر كوكشو بين المحاربين، ينثر الماء الثمين فوقهم وينشد. أحنى الكثيـر مـن الـرجال رؤوسهم لتلقي بركته وتقطب حاجبا جنكيز. تخيل تيموج يقوم بالشيء نفسه في المستقبل ولم يجد مجداً في ذلك.

تمتم جنكيز: "ينبغي أن أكون بين المحاربين".

سمع كشيون وهزّ رأسه. "لا يمكن لأحد أن يراك تهرب من أي شيء يا شقيقي. قـد لا تـنجح الخطـة وتثور علينا القبائل. لا يمكن رؤيتك كجبان ونصف الجيش لا يعـرف الخطة هنا بعد. يكفيهم أن يروك تراقب ما يجري. لقد اخترت أكثرهم رباطة للجأش وشجاعة. سيتبعون الأوامر".

رد جنكيز: "يجدر بهم ذلك".

افترق شقيقاه لإفساح المجال أمام مجموعة الهجوم والمتراس الخشبي العريض. حمله الرجال فوق رؤوسهم بفخر وازداد التوتر بصمت.

قـال جنكيز لهم: "أودّ رؤية هذا السور يسقط. إن لم يكن ذلك باستعمال السيوف والمطارق، ليكن ذلك بالخداع. سيموت بعضكم، لكن أب السماء يحب روح المحارب، وسـتكون موضـع تـرحيب. ستفتحون طريقاً إلى مملكة جميلة في الخلف. لتصدح

الطبول والأبواق. لنجعلهم يسمعون ويقلقون في حصنهم الثمين. ليحمل الصوت الرعب إلى قلوب محاربي كزي كزيا وحتى إلى قلوب محاربي تشن في مدنهم".

سحب المحاربون أنفاساً عميقة، وجهّزوا أنفسهم للجري بأقصى سرعة. من بعيد، أطلق طائر صوتاً حاداً من ارتفاع عالٍ في الجو الحار فوق التلال. هتف كوكشو إن ذلك فأل خير، ونظر معظم الرجال إلى الأعلى نحو الطائر الأزرق فوق رؤوسهم. بدأ اثنا عشر طبّالاً قرع أنغام الحرب وحفّزهم الصوت المألوف جميعاً، وجعل قلوبهم تخفق بسرعة. أشار جنكيز بيده، وجأر الجيش، وصدحت الأبواق. مشت المجموعة الأولى إلى حيث يمكنها دخول الوادي ثم تسارعت خطواتها، مطلقة صرخات تحدٍّ بأصوات خشنة. تُردد في الأنحاء صرخات تحذير من الحصن.

قال جنكيز وهو يشد يده ويفلتها عن قبضة سيفه: "سنرى الآن".

تحطمت أصوات المحاربين على جانبي الممر بينما كانوا يندفعون عبره. كانوا يعانون من ثقل المتراس فوق رؤوسهم، وقد تشوشت رؤيتهم من العرق. أثبت المتراس أنه يستحق العناء خلال لحظات بعد أن تلقى سهاماً سوداء يهتز ريشها الملون. كان رماة السهام منضبطين، كما لاحظ جنكيز، يطلقون معاً بعد إصدار أمر لهم. كانت رمية أو اثنتان محظوظتين وفي الوقت الذي وصل فيه المتراس إلى السور، كانت هناك ثلاثة أجساد تستلقي من دون حراك ووجوهها في الرمل.

ملأ دوي مكتوم الممر عندما هاجم رجال المطارق البوابة في السور. احتشد رماة السهام فوق، وانحنوا لإرسال سهامهم إلى الأسفل على المجموعة الصغيرة. صرخ الرجال وتراجعوا عن حافة المتراس الخشبي، وأجسادهم تهتز بينما كانت تتلقى السهم تلو الآخر.

أطلق جنكيز لعنة في قرارة نفسه، وشاهد صخوراً ثقيلة تُرفع إلى حاجز السور. كان قد ناقش ذلك الاحتمال مع قادته، لكنه فزع على الرغم من ذلك عندما رفع ضابط يرتدي خوذة عليها ريش ذراعه وصرخ بأمر. بدا أن الصخرة الأولى تقع لوقت طويل وسمع جنكيز طقطقة عندما دفعت أولئك الموجودين في الأسفل للجثو على ركبهم. بينما كانوا يكافحون للوقوف، ضرب رجال المطارق بقوة أكبر، وكانت ضرباتهم بسرعة ضربات الطبّالين الذين تركوهم خلفهم.

وقعت صخرتان أخريان قبل أن ينكسر المتراس الخشبي. تم إلقاء المطارق على الرمل، وصعدت صرخة رعب كبيرة عندما وجد رماة السهام المتواجدون فوق أهدافاً جديدة. شدّ جنكيز قبضتيه بينما كان يشاهد رجاله يتبعثرون. كانت البوابة في السور

قـد صـمدت، ولم يكن بوسعهم فعل شيء سوى هزّ أسلحتهم بغضب على العدو فوق رؤوسـهم. سـقط رجل تلو الآخر، ومن دون سابق إنذار، اندفعوا عائدين عبر الممر وكل منهم يسابق الآخرين بيأس.

بينـما كانـوا يركـضون، سقط المزيد منهم صرعى نتيجة موجات السهام التي أصـابتهم. تمكـن أكثـر مـن اثني عشر رجلاً بقليل من الابتعاد عن مرمى السهام، وضعوا أياديهم على ركبهم وهم يلهثون. خلفهم، كان الممر مليئاً بكل شيء تركوه في أثناء الانسحاب، وكانت الجثث محددة بالسهام التي تبرز منها.

مـشى جنكيز ببطء إلى وسط الممر، يحدّق بالمدافعين المبتهجين. استطاع سماع هـتافهم وكان صعباً أن يدير ظهره لهم. عندما فعل ذلك، زادت حدّة الصوت ومشى بصلابة مبتعداً حتى وصل إلى مكان كان يعرف أنهم لا يستطيعون رؤيته فيه.

علـى أعلـى نقطة في السور، شاهده ليو كين يذهب، وخفف ارتياحه من تعبير وجهـه الجامـد الـذي أظهره للجنود من حوله. كانوا يبتسمون علانية ويربتون على ظهور بعضهم كما لو أنهم أحرزوا نصراً عظيماً. شعر بأنه يفقد أعصابه من غبائهم.

قـال بحدّة: "غيروا الفريق، وأحضروا خمس مجموعات من رماة سهام جدد إلى هـنا". اخـتفت الابتسامات. "لقد خسرنا ألف سهم في الممر، لهذا تأكدوا من ملء كل كنانة مرة أخرى. امنحوا كل رجل كوباً من الماء".

وضـع ليو يديه على الحجر العتيق، ونظر إلى الممر. كانوا قد قتلوا كل أولئك الـذين جاؤوا إلى الجبال تقريباً، وكان مسروراً من رماة السهام. سجل ملاحظة لتهنئة الضابط المسؤول عن السور. كانت أصوات المطارق قد أقلقته، لكن البوابة صمدت. ابتـسم ليو كين بتحفظ. لو لم تكن قد صمدت، كان المغول سيدخلون مباشرة في بناء عالـي الأسـوار مع رماة سهام إلى كلا الجانبين فوقهم. كان الحصن مصمماً بشكل جميل وكان سعيداً أن مدة خدمته لم تنته قبل أن يشهد اختبار تشييده.

تقطـب حاجـباه لرؤية قطع الخشب المكسورة على الأرض. كان كل ما قيل له عـن القبائل يوحي بأنهم إذا جاؤوا، سيهاجمون مثل حيوانات برية. كان المتراس يدل علـى تخطـيط بارع وقد أزعجه ذلك. سيتأكد من ذكر ذلك في تقريره لحاكم الإقليم، وسـيترك له قرار الرد بأفضل ما يمكن على ذلك. استغرق ليو في تأملاته بينما كان ينظـر إلـى الأسفل إلى الموتى المبعثرين. لم يكونوا قد استعملوا الصخور من قبل، وكـان معظمها مغطى بالطحالب منذ سنوات عندما تم وضعها على السور لاستعمالها عند الحاجة. كان ينبغي سد النقص بالحصول على صخور أخرى من المخازن، على

الــرغم من أن هناك موظفين لذلك النوع من النشاط العادي. فكر بأن ذلك هو الوقت الذي يقومون فيه بما هو أكثر من توزيع الطعام والماء للرجال.

استدار ليو على وقع خفٍ يصعد الدرج إلى السور. كان تشن تي إدارياً أكثر منه جندياً، وأسند ليو نفسه للإجابة عن أسئلته التافهة. كان الصعود على الدرج إلى السور قــد ترك الرجل البدين يلهث، لهذا كان على ليو أن ينظر بعيداً بدلاً من مراقبة ضعف قائــده. انتظــر مــن دون كلام بينما كان تشن تي ينضم إليه على السور وينظر إلى الأسفل بعينين لامعتين، وتنفسه لا يزال مجهداً.

قال تشن لي وهو يستعيد أنفاسه: "لقد جعلت الكلاب تهرب".

أمال ليو رأسه بموافقة صامتة. لم يكن قد شاهد القائد خلال الهجوم. لا شك أنه كــان يجلــس مرتعشاً مع خليلاته في غرفه الخاصة إلى الجانب الآخر من الحصن. بدعابــة ســاخرة، فكرّ ليو بكلمات سن تزو عن الحرب الدفاعية. كان تشن تي ماهراً بالتأكـيد في الاختباء في *موضع منعزل من الأرض*، لكن فقط لأن ليو متواجد هناك لصد المهاجمين. على الرغم من ذلك، كان يدين بالاحترام لمنزلة الرجل.

"ســأترك الجـثث حتى آخر النهار يا مولاي، حتى أكون متأكداً أن الأمر ليس خدعة. سأرسل رجالاً لجمع الأسلحة واسترجاع السهام عند الفجر".

نظــر تــشن تــي إلى الجثث في الوادي. كان يرى صناديق ملقاة على الأرض إضافة إلى رمح جميل بطول رجل. كان يعرف أنه إذا ترك الأمر للجنود، سيؤول كل مــا هــو ثمين إلى مجموعاتهم الخاصة. لمع شيء ما في الرمال الخضراء والذهبية وركّز بصره عليه.

"ستــشرف علــيهم يــا لــيو. أرسل رجالاً الآن للتأكد من أن البوابة لم تصب بأضرار. اجعلهم يجلبون لي كل ما هو ثمين لأتفحصه".

أخفـــي ليو انزعاجه من جشع القائد البدين الظاهر. لم يكن لدى اليوغر أي شيء ثمين من قبل، كما فكر. لم يكن هناك سبب لأن يتوقع العثور على أكثر من بضع قطع من المعدن المصقول التي تركها رجال القبائل البائسون هؤلاء. على الرغم من ذلك، لم يكن نبيلاً، وانحنى قدر ما يستطيع بدرعه الكامل.

"كمــا تأمــر يــا مــولاي". ترك تشن تي الذي كان لا يزال يحدق إلى الأسفل، وابتــسامة باهتة ترتسم على شفتيه البدينتين. طقطق ليو بأصابعه للفت انتباه مجموعة من رماة السهام الذين كانوا يصطفون بالدور لتناول الماء من دلو.

"ســأخرج لتعرية الموتى". سحب نفساً عميقاً، مدركاً أنه سمح لمرارته من الأمر المخجل بالظهور. "عودوا إلى مواقعكم واستعدوا لهجوم آخر".

انطلــق الرجال مسرعين لتلبية الأمر، وسقط دلو الماء محدثاً رنيناً، ودار كيفما اتفــق بيـــنما كانوا يعودون إلى السور. تنهد ليو لنفسه، قبل أن يركز على المهمة بين يديـــه. لا شــك أن محاربي اليوغر سيدفعون ثمن الهجوم غالياً عندما يسمع الملك بما حـــدث. فـــي أراضـــي كزي كزيا المسالمة، سيكون الهجوم حديث البلاط، ربما طيلة شـــهور. سيتم إيقاف التجارة لجيل، وإرسال غارات عقابية ضد كل مستوطنة اليوغر. لـــم يكـــن ليو يحب ذلك النوع من الحروب، وفكّر بأن يطلب نقله إلى مدينة ينشوان. كانوا بحاجة دائماً لحرّاس جيدين يتمتعون بالخبرة.

أصدر أوامر حازمة لاثني عشر رمّاحاً بأن يتبعوه، ونزل على الدرجات الباردة إلـــى الـــبوابة الخارجية. من الداخل، كانت تبدو سليمة لم يؤثر فيها الهجوم، وفي ظل الـــسور أمعن التفكير في مصير كل من يكون أحمق بما يكفي ليحاول تحطيمها. فكّر بأنه لن يودّ أن يكون بينهم. كان معتاداً على التأكد من أن البوابة الداخلية آمنة قبل أن يرفع يده لرفع عارضة الإغلاق. ربما كان سن تزو أعظم مفكّر عسكري أنجبته تشن علـــى الإطلاق، لكنه لم يكن يفكر بالصعوبات التي يمثلها قيام رجال جشعين مثل تشن تي بإصدار الأوامر.

ســـحب لـــيو نفساً عميقاً، ودفع الباب ليفتحه، مما سمح بمرور شعاع من ضوء الشمس. تأهب الرجال خلفه وأومأ لقائدهم.

"أرى أن يبقـــى رجـــلان لحراســـة البوابة. ليقم الباقون بجمع السهام التي يمكن اســـتعمالها مجـــدداً وأي شـــيء آخر قد يكون ثميناً. إذا كانت هناك مشكلة، ألقوا بكل شـــيء، واركضوا إلى البوابة. لن يكون هناك كلام، ولن يتجاوز أحدكم مسافة خمسين خطوة، حتى إذا كان هناك زمرد بحجم بيض البط في الرمل. ترقبوا أوامري".

حـــيّاه الجـــنود معاً، وربت قائدهم على كتفي اثنين منهم ليبقيا متأهبين عند الـــبوابة. أومـــأ ليو برأسه، ونظر إلى أشعة الشمس في الخارج بينما كانت عيناه تـــضيقان. لـــم يكـــن يتوقع مهارات عالية من الجنود الذين ينتهي بهم الأمر في الحـــصن. كانوا جميعاً تقريباً قد ارتكبوا أخطاء في الجيش النظامي، أو أغضبوا شخصاً ذا شأن. حتى تشن تي كان قد اقترف خطأً غير معلن في ماضيه السياسي، وكان واثقاً من ذلك على الرغم من أن الرجل البدين لم يكن ليبوح بمكنونات نفسه لجندي عادي، بغض النظر عن مرتبته.

أخرج ليو زفيراً طويلاً وضعيفاً، وتفقد قائمة الدفاعات في ذهنه. كان قد قام بكل مـــا يـــستطيع، لكن على الرغم من ذلك كان لا يزال هناك شعور لا يحبه في قرارة نفـــسه. خطـــأ فـــوق جثة، ولاحظ أن الرجل يرتدي درعاً شبيهاً تماماً بدرعه. تقطب

حاجباه من ذلك. لم يقم اليوغر بنسخ درع تشن من قبل. كان قاسياً، لكن جودته معقولة واكتشف ليو أن شعوره بالاضطراب يزداد.

مستعداً للقفز إلى الخلف، داس بقوة على يد ممتدة. سمع صوت عظم ينكسر، وعندما لم يلاحظ أي حركة، أومأ برأسه، وتقدم لمسافة أطول. كانت أعداد الجثث عند البوابة كبيرة، واستطاع رؤية رجلين ممدّين والسهام قد اخترقت حنجرتيهما. كانت مطارق ثقيلة قد سقطت قربهما وحمل ليو إحداها، وأسندها على السور حتى يتم أخذها في طريق عودته. كانت مصنوعة بإتقان.

بينما كان يركّز بصره على نهاية الممر، تهللت أسارير رجاله وتوقفوا لالتقاط الأسلحة من الرمل. بدأ ليو يرتاح قليلاً، وشاهد اثنين منهم ينزعان سهاماً من جثة تشبه النيص (حيوان من القوارض له أشواك كثيرة) لكثرة الضربات التي تلقتها. خطا خارج ظل السور، وفزع من سطوع الشمس المفاجئ. كان هناك صندوقان على بعد ثلاثين خطوة أمامه، وكان يعرف أن تشن تي يراقب ما يجري ليرى إن كان قد عثر على شيء ثمين فيهما. لم يستطع ليو أن يجد سبباً يدفع برجال القبائل على حمل الذهب أو الفضة إلى معركة، لكنه مشى على الرمال الحارة إليهما، ويده مستعدة على سيفه. هل يوجد فيهما أفاعٍ أو عقارب؟ كان قد سمع عن مثل تلك الأشياء التي يتم استعمالها لمهاجمة المدن، على الرغم من أنه كان يتم إلقاؤها في العادة فوق الأسوار. لم يكن رجال القبائل قد جلبوا معهم منجنيقات أو سلالم لاستعمالها في الهجوم.

سحب ليو سيفه، ودفع مقدمة النصل في الرمل، وقلب الصندوق على جانبه. اندفعت عصافير من الصندوق، وطارت إلى الأعلى عندها رمى بنفسه إلى الخلف مصدوماً.

للحظة، وقف ليو وحدّق إلى الطيور، من دون أن يستطيع فهم سبب تركها في تلك الحرارة على الرمل. رفع رأسه ليراقبها تطير ثم أدرك ما يجري واتسعت عيناه رعباً. كانت الطيور الإشارة. وصل صوت قعقعة مكتوم إلى أذنيه، وبدا أن الأرض تهتز تحت قدميه.

صرخ ليو وهو يلوح بسيفه: "عودوا إلى البوابة!". حوله، شاهد أن جنوده يحدّقون به مصدومين، وبعضهم يحمل ملء ذراعيه سهاماً وسيوفاً. جأر ليو مجدداً: "اركضوا! عودوا!". عندما ألقى نظرة خاطفة على الممر، شاهد الصف الداكن الأول من الجياد التي تعدو بأقصى سرعتها، واستدار إلى البوابة بنفسه. فكّر وذهنه يعمل بسرعة أنه إذا كان الحمقى بطيئين للغاية، لن يكون بمقدورهم إلقاء اللوم سوى على أنفسهم. تباطأ حتى توقف من شدّة خوفه قبل أن يكون قد قطع أكثر من بضع خطوات.

حـــول البوابة، كانت بعض الجثث تثب من الأرض، والسهام لا تزال معلقة بها. كان أحـــدهم قد استلقى من دون حراك حتى عندما كسر ليو يده تحت خفّه. ابتلع ليو خوفه مـــن الهديـــر الذي يزداد خلفه، وبدأ يجري مجدداً. رأى أن الحراس قد بدأوا إغلاق الـــبوابة، لكـــن واحداً من العدو كان هناك ليدفع ذراعه في الفتحة. صرخ القبلي ألماً عـــندما انقطعت يده في الداخل، لكن كان هناك آخرون معه ليفتحوها بالقوة ويجعلوها تسقط على المدافعين.

رفـــع لـــيو صوته بثورة غضب ولم يرَ أبداً السهم الذي أصابه في مؤخر عنقه. وقع على الرمل، وشعر بوخزه حتى عندما كان الظلام يطبق عليه. كان متأكداً أنه تم إغـــلاق الـــبوابة الداخلـــية. كان قد رأى أنه تم إغلاقها خلفه وكانت الفرصة لا تزال سانحة. شوّشت دماؤه أفكاره وتلاشى وقع الحوافر حتى لم يعد يسمع شيئاً.

نهـــض تـــسوبودي مـــن حيث كان يستلقي على الرمل. كان السهم الذي أسقطه أرضاً قد تبعه اثنان آخران علقا في درعه. كانت أضلاعه تؤلمه وكل خطوة تعني ألماً جيـــداً وإحساساً دافئاً بدم يسيل على فخذه. كان الوادي مليئاً بصوت يشبه الرعد بينما كـــان صف الجياد التي تعدو بأقصى سرعتها يقترب منهم. نظر تسوبودي إلى الأعلى عـــندما ســـمع أقواساً تطن وشاهد سهاماً سوداء تندفع إلى الأسفل. صهل جواد خلفه وشاهد تسوبودي البوابة تُفتح من ضغط الأجساد عليها، وترنح في سيره نحوها.

نظـــر حـــوله بحثاً عن الرجال العشرة الذين وضعهم جنكيز تحت إمرته. عرف أربعـــة مـــن الأشكال التي تندفع نحو البوابة، بينما رقد الآخرون ساكنين في الرمل، ميتـــين فعـــلاً. ابـــتلع تسوبودي ريقه بألم بينما كان يخطو فوق رجل كان يعرفه من يوريانخي.

ازداد صـــوت الفرسان حتى أضحى قوياً خلفه، وتوقع أن يسقطوه أرضاً. اعتقد بأن جروحه قد جعلته يصاب بالدوار، لأن كل شيء بدا كما لو أنه يجري ببطء وكان يستطيع سماع أنفاسه المجهدة من فمه المفتوح. أغلقه، غاضباً من الضعف الذي ظهر علـــيه. أمامـــه، كـــان أولئك الذين نجوا من الهجوم يندفعون عبر البوابة وقد شهروا ســـيوفهم. سمع تسوبودي طقطقة أقواس، تكتمها صخور السور السميكة. كان قد لمح رجـــالاً يسقطون بينما كانوا يتقدمون، يبصقون على السهام بينما ينظرون إلى الأعلى ويـــصرخون. فـــي تلك اللحظة، صفا ذهنه، وتنبهت أحاسيسه. كانت السهام لا تزال تـــضرب الـــرمل حـــوله، لكنه تجاهلها. جأر بأمر للتراجع إلى الوراء عندما وصل محاربوه إلى البوابة. كان صوته خشناً، لكن لارتياحه، استجاب الرجال.

قال لهم تسوبودي، مشيراً بيده: "اصنعوا متاريس من الخشب. التقطوا المطارق".
سمع جلجلة الدروع عندما قفز الرجال إلى الرمل الذي يحيط به. ترجل خاسار بسرعة وأمسك تسوبودي بذراعه.

"هناك رماة سهام في الداخل. لا يزال بإمكاننا استعمال الخشب المكسور".

اختفت السهام في الرمل حولهم، ولم يبقَ منها سوى ريش أسود. بهدوء، نظر خاسار إلى الأسفل إلى يد تسوبودي مدة كافية لتذكير المحارب الشاب بمكانته. عندما أفلت تسوبودي قبضته، أصدر خاسار الأوامر بسرعة. حمل كل من حولهما قطعاً من المتراس الأصلي ورفعوها فوق رؤوسهم بينما كانوا يندفعون نحو البوابة.

عندما تم حمل المطارق مجدداً، أطلق رماة السهام فوق رؤوسهم على الجزء الواقع بين البوابتين. حتى مع المتراس القاسي، وجدت بعض السهام أهدافاً لها. على الرمل الساخن في الخارج، أمر خاسار بإطلاق أمواج من السهام إلى الأعلى ضد رماة السهام على السور الخارجي، لإبقاء جنود تشن منشغلين وإفساد هدفهم حتى يستطيع الجيش التحرك. عض شفته من الموقع المكشوف، لكنهم كانوا جميعاً عالقين هناك حتى يتم كسر البوابة الداخلية. علت ضربات المطارق المكتومة على صرخات الرجال المحتضرين.

صرخ خاسار بتسوبودي: "ادخل إلى هناك وتأكد أنهم لن يرتاحوا بينما نحن ننتظر". أحنى المحارب الشاب رأسه، وجرى لينضم إلى الرجال.

مرّ تحت ظل إلى ضوء الشمس الساطع، وألقى نظرة خاطفة على صف رماة السهام باردي العيون الذين يطلقون سهماً إثر آخر على نفق القتل.

لم يكن لدى تسوبودي وقت للتواري تحت قطعة من لوح خشبي مكسور. خدش سهم ذراعه بينما كان يفعل ذلك، وأطلق لعنة بصوتٍ عالٍ. عرف فقط واحداً من الرجال العشرة الذي كان لا يزال حياً.

كانت المسافة بين البوابتين قصيرة عمداً ولم يكن أكثر من اثني عشر محارباً يستطيعون الوقوف فيها في وقت واحد. ما عدا أولئك الذين كانوا يحسنون استعمال المطارق بقوة كبيرة، وقف الآخرون مع قطع من الخشب فوق رؤوسهم، مجتمعين معاً بأفضل ما يستطيعون. كانت الأرض لا تزال رملية وقد امتلأت بسهام مكسورة أكثف من الشعر على كلب. على الرغم من ذلك، لقي المزيد من الرجال حتفهم وسمع تسوبودي أوامر بلغة غريبة فوق رأسه. فكّر وهو يكافح خوفه بأنه إذا كانت لديهم حجارة يلقونها عليهم، سيتم سحق الهجوم كله قبل فتح البوابة الداخلية. شعر بأنه محاصر وعالق في فخ. كان الرجل الأقرب إليه قد فقد خوذته في الهجوم. زعق من

الألـــم وسقط وريش سهم يبرز من عنقه والذي كان قد انطلق من فوقه مباشرة تقريباً.

التقط تسوبودي قطعة الخشب التي كان يحملها ذلك الرجل ورفعها إلى الأعلى، وفزع مـــع تأثيـــر كـــل ضربة. استمرت ضربات المطارق ببطء يثير الجنون، وفجأة، سمع تسوبودي تنهيدة ارتياح من أحد المحاربين وتغير الصوت عندما بدأ أولئك الأقرب إلى البوابة يركلون ألواح الأخشاب المتداعية.

انهـــارت البوابة، وسقط الرجال على الأرض الترابية خلفها. لقي أوائل من دخـــل حتفهم مباشرة عندما قابلهم وابل من السهام أطلقه عليهم صف من الجنود. خلفهـــم، جـــأر رجال خاسار بشكل همجي بعد أن شعروا بوجود طريق للدخول. اندفعـــوا إلـــى الأمام، وضغطوا على المجموعة عند البوابة بينما كانوا يتعثرون بالرجال القتلى.

لم يصدّق تسوبودي أنه لا يزال حياً. سحب السيف الذي منحه إياه جنكيز بنفسه، وجـــرى إلى الأمام في رهط من الرجال الثائرين، متحرراً أخيراً من قيد أرض القتل. لـــم يكن لدى أولئك الذين يستعملون القوس والنشاب فرصة لتكرار ما قاموا به، وقتل تـــسوبودي أول أعدائـــه بضربة مباشرة على حنجرته عندما وقف الجندي متجمداً من خـــوفه. كان نصف أولئك الذين وصلوا إلى الحصن جرحى والدماء تسيل منهم، لكنهم كانوا قد نجوا وتهللوا عندما التقوا بالصفوف الأولى للمدافعين. تسلق بعض أوائل من دخـــل درجـــات خشبية إلى مستوى أعلى، وكشّروا غضباً عندما شاهدوا أن الرماة ما زالـــوا يطلقـــون الـــسهام على نفق القتل. أطلقت أقواس المغول سهاماً فوق القتال في الأسفل، والتي أصابت رماة سهام كزي كزيا كما لو أن مطارق ضربتهم.

بدأ جيش جنكيز يتدفق عبر البوابة، وينتشر في الحصن. لم يكن هناك أمر في ما يخـــص الهجوم في المرة الأولى. حتى يتولى ضباط بارزون مثل خاسار أو أرسلان القـــيادة، كان تسوبودي يعرف أن بمقدوره قتل العدد الذي يريده من الرجال، وصرخ بعنف ممتلئاً بالإثارة.

بغـــياب لـــيو كين لتنظيم الدفاع، انهار محاربو كزي كزيا، وهربوا أمام الغزاة وتبعثـــروا خائفين. ترك جنكيز جواده في الممر، عبر البوابة الخارجية، ودخل إلى ما وراء البوابة الداخلية المكسورة. كان وجهه مبتهجاً بالنصر والمجد بينما كان محاربوه يمـــزقون جند الحصن. في كل تاريخهم، لم تحظَ القبائل بفرصة الرد على أولئك الذين أبقـــوهم تحـــت ســـيطرتهم. لم يكن جنكيز يهتم بأن جنود كزي كزيا يعتبرون أنفسهم مختلفـــين عـــن جـــنود تشن. بالنسبة لشعبه، كانوا جميعاً جزءاً من ذلك العرق القديم

المكــروه. رأى أن بعض المدافعين قد وضعوا أسلحتهم أرضاً وهزّ رأسه، واستدعى أرسلان إليه، فمشى الحدّاد نحوه مسرعاً.

قال جنكيز: "لا أسرى يا أرسلان". أحنى القائد رأسه.

أصــبح القــتل منهجياً بعد ذلك. كان يتم العثور على الرجال مختبئين في أقبية الحــصن وسحبهم لإعدامهم. بينما كان النهار ينقضي، تم تكديس الجنود الموتى على الحجارة الحمراء في الساحة الرئيسية. أصبح بئر هناك عين العاصفة عندما وجد كل رجــل جــف حلقه وقتاً ليروي عطشه بالماء، دلواً إثر آخر، حتى أخذ كل منهم يلهث لكثرة ما شرب. لقد قهروا الصحراء.

عــندما بدأت الشمس بالغروب، مشى جنكيز بنفسه إلى البئر، وصعد فوق أكوام القتلى. صمت المحاربون عندما فعل ذلك، وملأ أحدهم دلواً جلدياً وسلّمه للخان. بينما كان جنكيز يشرب ويبتسم، صرخوا وزعقوا بأصوات عالية بما يكفي لتعود أصداؤها من الأسوار المحيطة بهم. كانوا قد عثروا على طريقهم عبر متاهة الغرف، والقاعات، والممرات، والأروقة والتي كانت كلها غريبة على عيونهم. مثل مجموعة من الكلاب البــرية، كانــوا قد وصلوا إلى الطرف البعيد من الحصن، وتركوا الحجارة السوداء المغطاة بالدماء خلفهم.

تــم العثور على قائد الحصن في جناح من الغرف المزينة بالحرير والقماش الذي لا يقــدر بثمن. تطلب الأمر ثلاثة رجال لخلع الباب المصنوع من الحديد والسنديان للوصول إلـــى تشن تي الذي كان يختبئ مع اثنتي عشرة امرأة خائفة. عندما دخل خاسار بخطوات واســعة إلى الغرفة، حاول تشن تي الانتحار باستعمال خنجر. لشدة خوفه، انزلق الخنجر من يديه المتعرقتين ولم ينجح سوى بإحداث جرح في حنجرته. أغمد خاسار سيفه، وأمسك بيد الرجل البدينة على المقبض، ووجه الخنجر إلى عنقه مرة أخرى. فقد تشن تي أعصابه وحــاول أن يكــافح، لكــن قبضة خاسار كانت قوية، وسحب الخنجر بقوة عبر الحنجرة، وتراجع إلى الخلف عندما تدفق الدم وخرّ الرجل صريعاً.

قــال خاســار: "هذا آخرهم". نظر إلى النساء وأومأ لنفسه. كن كائنات غريبة، جلودهن مطلية بمساحيق بيضاء مثل حليب الفرس، لكنه وجدهن جذّابات. امتزج عبق الياســمين برائحة الدم في الغرفة، وابتسم خاسار بخبث عليهن. كان شقيقه كشيون قد ظفــر بفتاة من أولخونوت لتكون زوجة له وكان هناك طفلان في خيمته آنذاك. كانت زوجة خاسار الأولى قد توفيت، ولم تكن لديه واحدة. تساءل إن كان جنكيز سيسمح له بالزواج من اثنتين أو ثلاثة من تلك النساء الغريبات. أسعدته الفكرة كثيراً، ومشى إلى النافذة البعيدة، ونظر إلى أراضي كزي كزيا.

كـــان الحصن عالياً في الجبال، ورأى خاسار وادياً شاسعاً، مع منحدرات شاهقة تمــتد بعيداً على كلا الجانبين. بعيداً في الأسفل، شاهد أرضاً خضراء، مليئة بالمزارع والقرى. تنفس خاسار الصعداء ارتياحاً.

قال وهو يستدير إلى أرسلان والرجال الآخرين الذين دخلوا: "سيكون الأمر مثل قطف فاكهة ناضجة. أرسلوا رجلاً لإحضار شقيقيّ. ينبغي أن يشاهدا هذا".

# الفصل السادس



جلس الملك في أعلى غرفة في قصره، ينظر إلى وادي كزي كزيا المنبسط. مع تلاشـــي ضباب الفجر عن الحقول، كان منظراً بديعاً للغاية. لو أنه لم يكن يعرف أن هــناك جيشاً خارج مرمى الأبصار، ربما بدت الأرض مسالمة مثل أي صباح آخر. كانــت القــنوات تلمع في ضوء الشمس مثل خطوط من ذهب، تحمل الماء الثمين إلى المحاصيل. كان هناك حتى أشكال بعيدة لمزارعين يعملون من دون التفكير في الجيش الذي كان قد دخل بلادهم من الصحراء الشمالية.

لملـم راي تشيانغ ثوبه المصنوع من الحرير الأخضر المطرّز بالذهب. وحيداً، كــان تعبيــر وجهه هادئاً، لكن بينما كان يحدق إلى الفجر، عثرت أصابعه القلقة على خيط، وانزعج منه حتى التقطته أظفاره، وسحبه من ثوبه. تقطب حاجباه عبوساً عندما نظــر إلـــى الضرر الذي أحدثه. كان الثوب من نسيج تشن، بالياً ليجلب له الحظ في حــالات الطوارئ. كان قد بعث برسالة مع اثنين من أسرع مستطلعيه حالما سمع بنبأ الغزو، لكن الرد تأخر في الوصول.

تــنهد، وتابعت أصابعه بحثها من دون أن يعير اهتماماً للأمر. لو أن إمبراطور تــشن العجــوز كان حياً، لكان هناك خمسون ألف جندي يزحفون للدفاع عن مملكته الــصغيرة، وكان واثقاً من ذلك. كانت الآلهة متقلبة لأنها أخذت حليفه في اللحظة التي أصــبح فيها بحاجة لمساعدته. كان الأمير وي غريباً، ولم يكن راي تشيانغ يعرف ما إذا كان الابن المتغطرس يتمتع بكرم والده.

فكّــر راي تشيانغ بالاختلافات بين أراضيهما، متسائلاً عما إذا كان بمقدوره فعل المــزيد لــضمان دعــم تــشن. كان أحد أسلافه البعيدين أميراً من تشن وحكم الإقليم كإقطاعــية شخــصية. لم يكن يرى عاراً في طلب المساعدة. كانت مملكة كزي كزيا منسية في النزاع الكبير قبل قرون مضت، ولم يلاحظها أحد بينما كان الأمراء الأقوياء يقاتلــون بعــضهم حتى انقسمت إمبراطورية تشن إلى اثنين. كان راي تشيانغ الحاكم

الـرابع والـستين منذ تلك الفترة الدموية. منذ موت والده، كان قد أمضى قرابة ثلاثة عقـود في الحفاظ على حرية شعبه من ظل تشن، وبنى علاقات مع حلفاء آخرين من دون توجيه إهانة ربما تقود إلى إخضاع مملكته بالقوة للآخرين. كان أحد أبنائه سيرث يـوماً مـا ذلك السلام الصعب. كان راي تشيانغ يدفع الجزية، يرسل تجاره للمقايضة ومحاربـيه للانـضمام إلى صفوف الجيش الإمبراطوري. بالمقابل، كان يلقى معاملة الحليف المكرّم.

كـان صحيحاً أن راي تشيانغ قد أمر بوضع أبجدية جديدة لشعبه، والتي لا تشبه كثيراً كتابة تشن. كان إمبراطور تشن العجوز قد أرسل إليه نصوصاً نادرة تخص لاو تزو وبوذا ساكياموني لتتم ترجمتها. كانت تلك بالتأكيد إشارة قبول، إن لم تكن موافقة. كان وادي كزي كزيا منفصلاً عن أراضي تشن، تحدّه الجبال والنهر الأصفر. مع لغة جديـدة، كـان أبـناء كزي كزيا سيتحررون تماماً من نفوذ تشن. كانت لعبة خطيرة وحسّاسة، لكنه كان يعرف أنه يتمتع بالرؤية والنشاط لتلمس المستقبل الصحيح لشعبه. فكّـر فـي طرقات التجارة الجديدة التي كانت قد فُتحت إلى الغرب، والثروة التي كانـت تأتي منها. كل ذلك كان معرضاً للخطر من قِبَل تلك القبائل التي تجأر في الصحراء.

تـساءل راي تشيانغ إن كان الأمير وي سيدرك أن المغول قد وصلوا إلى حدود سوره العظيم في الشمال الشرقي بدخولهم مملكة كزي كزيا. لم يكن مفيداً لتشن آنذاك أن الذئب قد عثر على البوابة المؤدية إلى الحقل.

همـس لنفـسه: "ينبغي أن تدعمني". أغضبه الاعتماد على جنود تشن ليدعموه عـسكرياً، بعـد عدّة أجيال من إبعاد شعبه عن التبعية لهم. لم يكن يعرف بعد إن كان يـستطيع تحمـل ما سيطلبه الأمير وي مقابل ذلك الدعم. كان ممكناً إنقاذ المملكة فقط لتصبح إقليماً مجدداً.

نقـر راي تشيانغ بأصابعه غاضباً من فكرة وجود جيش تشن على أرضه. كان بأمس الحاجة إليه، لكن ماذا إن لم يغادر بعد انتهاء المعركة؟ ماذا إن لم يأتِ أصلاً؟

كـان هـناك مئـتا ألف شخص يحتمون ضمن أسوار ينشوان، وآلاف آخرون يتجمعون خارج البوابات المغلقة. في الليل، كان أكثرهم يأساً يحاول تسلق الأسوار إلى المديـنة وكان حراس الملك يجدون أنفسهم مرغمين على إبعادهم بسيوفهم، أو إطلاق وابـل مـن الـسهام علـى وسطهم. كانت الشمس تشرق كل يوم على جثث جديدة، ويضطر المزيد من الجنود إلى مغادرة ينشوان لدفنها قبل أن تنتشر الأمراض، والعمل تحت نظرات الباقين الغاضبة. كان عملاً كئيباً وغير سار، لكن المدينة لم تكن تستطيع

إطعــام سوى عدد محدود لهذا بقيت البوابات مغلقة. فتل راي تشيانغ الخيوط الذهبية حتى ظهرت بقع من الدم تحت أظفاره.

نام أولئك الذين كانوا قد وجدوا ملاذاً في الشوارع، وأسرّة كل خان ونُزل. كانت أســعار الطعام ترتفع كل يوم، وانتعشت السوق السوداء، على الرغم من أن الحراس كانوا يشنقون أي شخص يحتكر المؤونة. كانت ينشوان مدينة الخوف وانتظر ساكنوها هجوم البرابرة، لكن ثلاثة شهور كانت قد انقضت من دون ظهور شيء سوى تقارير عــن الدمار بينما كان جيش جنكيز يخرّب كل شيء في طريقه. لم يكن قد وصل بعد إلى ينشوان، على الرغم من أن مستطلعيه كانوا يظهرون على مسافة بعيدة.

رن جــرسٌ مما جعل راي تشيانغ يفزع. لم يكن يصدق بسهولة أنها كانت ساعة التنين. كان ضائعاً في تأملاته، لكن ذلك لم يجلب له الشعور المعتاد بالطمأنينة قبل أن يــبدأ الــيوم حقاً. هزّ رأسه من الأفكار الخبيثة التي تضعف عزيمة الرجال الأقوياء. ربمــا سيجلب الفجر معه أنباءً أفضل. جهّز نفسه ليراه الآخرون، انتصب في عرشه المــصنوع مــن الذهب المصقول وقام بطي الردن الذي سحب منه الخيط في الآخر. عــندما ســيتكلم إلى وزرائه، سيكون قد ارتدى ثوباً جديداً واستحمّ بمياه منعشة تجعل دمه يتدفق بسهولة أكبر.

رن الجــرس مجدداً وفُتحت أبواب القاعة بصمت تام. دخل صف من مستشاريه الــذين يــثق بهــم، ووقع خطواتهم مكتوم لارتدائهم أحذية من اللباد حتى لا يخدشوا الأرضــية المــصقولة. نظــر إليهم راي تشيانغ من دون اكتراث، وكان يعرف أنهم يستمدون ثقتهم من مزاجه. إن أظهر إشارة واحدة على القلق، سيشعرون برعب العامة المنتشر في شوارع المدينة في الأسفل.

اتخــذ عبدان موقعيهما إلى جانبي الملك، وأرسلا نسيماً رقيقاً من مراوح كبيرة. لــم يعــر راي تشيانغ اهتماماً كبيراً لوجودهما، ولاحظ أن وزيره الأول بالكاد يحافظ علــى هدوئــه. أرغــم نفسه على الانتظار حتى وضع الرجال جباههم على الأرض وأقسموا عهد الولاء. كانت الكلمات قديمة ومريحة. كان والده وجدّه قد سمعاها آلاف المرات في تلك الغرفة نفسها.

أخيراً، كانوا جاهزين للشروع في عمل النهار وتم إغلاق الأبواب الكبيرة خلفهم. كــان من الحماقة التفكير أنهم لوحدهم تماماً، كما فكر راي تشيانغ. كان كل ما يحدث في غرفة العرش يصبح أقاويل في السوق قبل أن تغرب الشمس. راقب الوزراء عن كــثب، بحــثاً عن إشارة على أنهم يشعرون بالخوف الذي يعتمل في صدره. لم يظهر شيء، فتهللت أساريره قليلاً.

شــــرع وزيـــره الأول يقول: "جلالة الإمبراطور، ابن السماء، ملكنا ووالدنا جميعاً. أحمل رسالة من الإمبراطور وي تشن". لم يقترب بنفسه، لكنه سلّم الرقعة لعــبد. جـــثا الشاب ورفع لفة الورق الثمينة وعرف راي تشيانغ الختم الشخصي للأميـــر وي. أخفـــى راي تشيانغ بارقة الأمل في صدره بينما كان يمسك بالورقة ويفض الختم الشمعي.

لم يستغرق الأمر منه وقتاً طويلاً لقراءة الرسالة، وعلى الرغم من سيطرته على نفسه، إلا أن حاجبي راي تشيانغ تقطّبا عبوساً. استطاع أن يشعر بالتعطش للأنباء في الغرفة وكان هدوؤه قد تأثر سلباً بما يكفي ليقرأ الرسالة بصوت عالٍ.

"إن من مصلحتنا أن يهاجم أعداؤنا بعضهم. أين يكمن الخطر بالنسبة لنا؟ أثخنوا الجراح في هؤلاء الغزاة وسيثأر تشن لذكراكم".

أطـــبق الصمت على الغرفة بينما كان الوزراء يفكرون في الكلمات. شحب لون واحـــد أو اثنين منهم، وظهر الانزعاج بادياً عليهم. لن تكون هناك تعزيزات. الأسوأ مـــن ذلـــك، كان الإمبراطور الجديد قد وصفهم بالأعداء ولم يعد حليفاً كما كان والده. كان ممكناً أنهم سمعوا نهاية مملكة كزي كزيا في تلك الكلمات القليلة.

قال راي تشيانغ بهدوء محطماً الصمت: "هل جيشنا مستعد؟".

انحنـــى وزيـــره الأول كثيراً قبل أن يرد، مخفياً خوفه. لم يكن يستطيع أن يقول للملـــك عن مدى سوء استعداد الجنود للحرب. كانت أجيال من السلام قد جعلتهم أكثر خبرة في التعامل مع غانيات المدينة من الفنون الحربية.

"الثكـــنات مليئة يا صاحب الجلالة. مع حرّاسك الملكيين لقيادتهم، سيعيدون تلك الحيوانات إلى الصحـــراء".

جلس راي تشيانغ ساكناً من دون حراك، وكان يعرف ألا أحد هناك سيجرؤ على مقاطعة أفكاره.

قـــال أخيــــراً: "هل سنحافظ على المدينة آمنة إذا خرج حراسي الشخصيون إلى الـــسهول؟ الفلاحـــون؟ لا، لقد أويت وأطعمت الميليشيا سنوات. لقد حان الوقت لرد ما كانـــوا قـــد *اكتسبوه من يدي*". تجاهل التوتر الذي ظهر على وجه وزيره الأول. كان الرجل ابن عمه فقط، وعلى الرغم من أنه كان يدير المدينة بانضباط شديد، إلا أنه لم يكن يفكر بمثل عمقه عندما يتعلق الأمر بأي شيء يتطلب فكرة مبدعة.

قـــال راي تـــشيانغ: "أرسلوا بطلب قائد جيشي، لأنني سأخطط لهجوم. يبدو أن وقـــت الكـــلام والرسائل قد انتهى. سأفكر بكلمات... الإمبراطور وي، وردّي بعد أن نكون قد انتهينا من التعامل مع الخطر الذي يقترب منا".

خرج الوزراء والقلق باد على محياهم. كانت المملكة قد نعمت بالسلام لأكثر من ثلاثة عقود، ولم يكن هناك أحد يتذكر فظائع الحرب.

قـال كـشيون وهو ينظر إلى سهل كزي كزيا: "هذا المكان يناسبنا". من خلفه، كانـت الجـبال تلـوح من بعيد، لكن نظرته جالت فوق الحقول الخضراء والذهبية، الخـصبة بالمحاصـيل الزراعية. كانت القبائل قد قطعت المسافة بسرعة كبيرة خلال الشهور الثلاثة الماضية، وانتقلت من قرية إلى أخرى من دون أن تلقى مقاومة تقريباً. كانـت ثلاث بلدات كبيرة قد سقطت في أيديهم قبل أن تمضي الأنباء قدماً، وبدأ شعب المملكـة الصغيرة يهرب من الغزاة. في البداية، كانت القبائل تأخذ أسرى، لكن عندما وصل عددهم إلى قرابة الأربعين ألفاً، كان جنكيز قد تعب من أصوات عويلهم. لم يكن جيـشه يـستطيع إطعـام ذلك العدد الكبير منهم ولم يكن يستطيع تركهم خلفه، بيد أن المـزارعين البؤسـاء لم يكونوا يشكلون أي تهديد. كان قد أصدر الأمر واستمر القتل يـوماً بأكملـه. كانت الجثث تُترك لتتعفن في الشمس، وزار جنكيز تلال الموت مرة واحدة فقط ليشاهد ما يقوم به جنوده. بعد ذلك، لم يفكر فيهم مجدداً.

لم يتم الإبقاء على حياة سوى النساء اللواتي تم توزيعهن كمكافآت، وكان كشيون قـد عثـر علـى اثنتين تتمتعان بجمال نادر في صبيحة ذلك اليوم. كانتا تنتظرانه في خيمـته واكتـشف أن أفكاره تشرد باتجاههما بدلاً من التركيز على الخطوة التالية في الهجوم. هزّ رأسه لتنقية أفكاره.

تابـع وهو يلقي نظرة خاطفة على شقيقه الأكبر: "لا يبدو أن الفلاحين مجهزون للحرب على الإطلاق وتلك القنوات ممتازة لسقاية جيادنا".

كـان جنكيز يجلس على كومة من السروج إلى جانب خيمته، ويضع ذقنه على يديـه. كان مزاج القبائل مرحاً حول الرجلين وشاهد مجموعة من الفتية يثبتون عصياً مـن شـجر البتولا في الأرض. رفع رأسه باهتمام عندما شاهد أن ابنيه الكبيرين كانا ضمن المجموعة التي تتبادل أطراف الحديث ويدفع بعضهم الآخر فيما يتجادلون حول أفضل السبل لتثبيت العصي. كان جوشي وتشاغاتي يمثلان رفقة خطيرة لفتية القبائل، وغالـباً مـا كانا يوقعانهم في متاعب ومشاجرات ينجم عنها تلقيهم للصفعات من قبل النساء في الخيام.

تنهد جنكيز، ومرّر لسانه فوق شفته السفلى بينما كان يفكر. "نحن مثل دب مخلبه فـي العسل يا كشيون، لكنهم سيرتقون بأنفسهم. أخبرني بارشوك أن تجار كزي كزيا تفاخروا بوجود جيش كبير ينتظرنا. لم نلتقِ بهم بعد".

هــزّ كــشيون كتفيه بلا مبالاة من ذلك الاحتمال. "ربما. لا تزال هناك مدينتهم العظــيمة. ربمــا يختبئون خلف الأسوار هناك. يمكننا جعلهم يتضورون جوعاً حتى يخرجوا منها، أو تحطيم الأسوار عليهم وهم بالداخل".

تقطــب حاجبا جنكيز من شقيقه. "لن أكون ليناً جداً يا كشيون. أتوقع التهور من خاســار. أبقــيك قــريباً مني لتكون صوت التنبيه والإدراك عندما يمتلئ المحاربون غــروراً بأنفــسهم. لم نخض معركة واحدة في هذه المملكة ولا أريد أن يكون الرجال بدينين وبطيئين عندما نخوضها. اجعلهم يعودون إلى التدريب واطرد الكسل منهم. أنت أيضاً".

تورّد كشيون خجلاً من التوبيخ.

قــال وهو يحني رأسه: "كما تشاء يا مولاي". رأى أن جنكيز يراقب أولاده بينما كانوا يمتطون أفراسهم. كانت لعبة مهارة تعلموها من أولخونوت، وتحول انتباه جنكيز عــنهم بينما كان جوشي وتشاغاتي يجهّزان نفسيهما لقيادة فرسيهما بأقصى سرعة إلى ما وراء صف العصي في التربة.

أدار جوشــي فرسه بسرعة أكبر وانطلق بمحاذاة الخط وقوسه الطفولي مشدود عــن آخــره. راقــبه جنكيز وكشيون بينما كان يطلق سهمه وهو يقود جواده بأقصى سرعة، وقد أصاب النصل العصا الرفيعة. كانت ضربة جيدة، وفي اللحظة نفسها، مدّ جوشي يده اليسرى إلى الأسفل وانتزع قطعة الخشب التي أطلقها، ورفعها مبتهجاً بينما كان يستدير عائداً إلى رفاقه. هتفوا له، إلا أن تشاغاتي تأفف قبل أن يبدأ دوره.

تمــتم كــشيون: "سيكون ابنك محارباً رائعاً". فزع جنكيز من الكلمات ولم ينظر كشيون إليه لأنه كان يعرف التعبير الذي سيراه.

قــال جنكيــز بعــناد: "يستطيعون التراجع خلف أسوار أعلى من رجل بخمس مرات، ويمكنهم أن يضحكوا علينا فيما نجوب السهول. لماذا سيهتم ملكهم ببضع مئات مــن القــرويين؟ لقد لسعناه بالكاد فيما لا تزال مدينة ينشوان تلك تقبع آمنة وهو يقيم فيها".

لــم يجب كشيون بينما كان تشاغاتي يقود جواده إلى صف العصي. قطع سهمه العــصا، لكن يده فشلت في انتزاعه قبل أن يسقط. ضحك جوشي على شقيقه، ورأى كشيون وجه تشاغاتي يستشيط غضباً. كانا يعلمان أن والدهما يشاهد السباق.

من خلفه، اتخذ جنكيز قراره، ونهض ليقف على قدميه. "اجمع الرجال واجعلهم يــستعدون للمسير. سأرى مدينة الحجارة تلك التي تركت تأثيراً قوياً لدى المستطلعين. بطــريقة أو بأخرى، لا بد من وجود سبيل للدخول". لم يُظهر لشقيقه القلق الذي يعتمل

في داخله. لم يكن قد شاهد من قبل مدينة محمية بأسوار عالية كما وصفها مستطلعوه. كان يأمل بأن تثير رؤيتها فكرة عن كيفية الدخول إليها من دون أن يدمر الجيش نفسه من غير جدوى على الأسوار.

عندما كان كشيون يغادر لنقل الأوامر، رأى أن تشاغاتي كان قد قال شيئاً لشقيقه الأكبر. قفز جوشي عن فرسه عندما مرّ تشاغاتي بجانبه، ووقع كلاهما على الأرض يتشاجران بالمرافق والأقدام العارية. ابتسم كشيون عندما مرّ بجانبهما وقد تذكر طفولته.

كانت الأرض التي اكتشفوها خلف الجبال خصبة وثرية. ربما سيكون عليهم خوض معارك للحفاظ عليها، لكنه لم يستطع أن يتخيل قوة يمكنها إلحاق الهزيمة بالجيش الذي جعلوه يقطع ألف ميل بعيداً عن وطنه. عندما كان فتى، كان قد دحرج مرة صخرة كبيرة على سفح تل ورأى كيف تزداد سرعتها. في البداية، كانت بطيئة لكن بعد وقت قصير فقط، لم يعد ممكناً إيقافها.

كان القرمزي لون كزي كزيا للحرب. كان جنود الملك يرتدون دروعاً مطلية بلون أحمر زاه، ولم تكن الغرفة حيث يجتمع راي تشيانغ بقائد الجيش مزينة غير أن أسوارها كانت مطلية باللون نفسه. كانت هناك طاولة واحدة فقط تتخلل الفراغ الذي يتردد الصدى في أرجائه، وقد وقف كلا الرجلين يحدّقان إلى خرائط المنطقة، المثبتة بأثقال رصاصية. كان قد تم التخطيط للانفصال الأصلي عن تشن ضمن تلك الأسوار الحمراء، والتي كانت مكاناً لإنقاذ المملكة الغنية بتاريخها. كان درع القائد جيام مصقولاً ويتوافق تماماً مع الغرفة حتى إنه كاد يختفي بين الأسوار. كان راي تشيانغ نفسه يرتدي قميصاً من الذهب فوق سروال من الحرير الأسود.

كان الجنرال أشيب، ورجلاً يتمتع بالوقار. كان يشعر أن تاريخ كزي كزيا معلق في هواء تلك الغرفة العتيقة، ثقيلٌ مثل المسؤولية التي سيتحملها بنفسه. وضع علامة أخرى من العاج على خطوط الحبر الأزرق الداكن.

"إن معسكرهم هنا يا صاحب الجلالة، ليس بعيداً عن المكان الذي دخلوا منه إلى المملكة. لقد أرسلوا محاربيهم لشن غارات على مسافة مئة وحدة طول في كل اتجاه".

تمتم راي تشيانغ: "لا يمكن للرجل قطع مسافة أطول في يوم واحد، لهذا لا بد أن لديهم معسكرات أخرى لقضاء الليل. ربما نستطيع مهاجمتهم هناك".

هزّ القائد رأسه قليلاً، ولم يكن يرغب بأن يعارض ملكه علانية.

"إنهم لا يرتاحون يا صاحب الجلالة، أو يتوقفون لتناول الطعام. لدينا مستطلعون يقولـــون إنهم يقطعون تلك المسافة ثم يعودون من الفجر إلى المغيب. عندما يقبضون علـــى أســـرى، يصبحون أبطأ، ويدفعونهم أمامهم. ليس لديهم مشاة ويحملون إمدادات معهم من المعسكر الرئيسي".

تقطب حاجبا راي تشيانغ عبوساً، وكان يعرف أن ذلك سيكون انتقاداً كافياً لجعل القائد يتصبب عرقاً في حضوره.

"إن معـــسكرهم لـــيس مهمــــاً أيها القائد. ينبغي أن يشتبك الجيش ويصدّ هؤلاء المغيـــرين الـــذين تسببوا بالكثير من الدمار. لدي تقرير عن كومة من الفلاحين القتلى بارتفـــاع جبل. من سيحصد المحاصيل؟ يمكن أن تتضور المدينة جوعاً حتى إذا تركنا هؤلاء الغزاة اليوم!".

جعل القائد جيام وجهه جامداً مثل قناع بدلاً من المخاطرة بزيادة غضب ملكه.

"ســيحتاج جيشنا إلى وقت لتشكيل وتجهيز الأرضية. مع وجود الحرس الملكي لقيادتهم، يمكنني جعل الحقول مليئة بأوتاد معدنية ستصد أي هجوم. إذا كان الانضباط جيداً، سنسحقهم".

قال راي تشيانغ: "كنت سأفضّل لو أن جنود تشن كانوا مع المليشيا الخاصة بي". تنحنح القائد، وكان يعرف أنه موضوع حسّاس.

"كـــل ما نحتاجه هو حرسك الملكي يا صاحب الجلالة. المليشيا أفضل قليلاً من الفلاحين الذين يحملون أسلحة. لا يمكن لأفرادها الصمود لوحدهم".

أدار راي تشيانغ عينيه الشاحبتين إلى قائد جيشه.

"كان لدى والدي أربعون ألف جندي مدرّب لبناء أسوار ينشوان. عندما كنت طفلاً، شاهدت الصفوف الحمراء تقدم عرضاً عسكرياً عبر المدينة بمناسبة ذكرى مـــيلاده، وبدا ألا نهاية لهم". كشّر بغضب. "لقد استمعت إلى حمقى وقمت بخفض التكاليف كثيراً نظراً لغياب المخاطر التي قد تواجهنا. لا يوجد سوى عشرين ألفاً من حرسي الخاص وتريد مني إرسالهم للقتال؟ من سيدافع عندها عن المدينة؟ من سيشكل فرق الأقواس العظيمة ويدافع عن الأسوار؟ هل تعتقد أن الفلاحين والتجار ســـيكونون نافعين حالما أرسل حرسي للقتال في الخارج؟ ستندلع حرائق وأعمال شـــغب مـــن أجل الطعام. خطط للنصر من دونهم أيها القائد. ليست هناك طريقة أخرى".

كـــان القائـــد جيام ابن أحد أعمام الملك، وقد حصل على منصبه بسهولة. على الرغم من ذلك، كان يتمتع بشجاعة كافية لمواجهة رفض راي تشيانغ.

"إذا زوّدتنـــي بعشرة آلاف من حرسك يا صاحب الجلالة، سيدعمون الآخرين. سيكونون النواة التي لا يمكن للعدو تحطيمها".

ردّ راي تشيانغ بحدّة: "حتى عشرة آلاف عدد كبير جداً".

ابتلع القائد جيام ريقه.

"لا يمكننـــي تحقيق النصر من دون الفرسان يا مولاي. مع خمسة آلاف حارس وثلاثـــة آلاف من أولئك الذين يمتطون جياداً مدرعة، ستكون لدي فرصة. إذا لم يكن بمقدورك منحي ذلك، ينبغي أن تعدمني الآن".

رفـــع راي تـــشيانغ عينيه عن الخريطة، ووجد نظرة القائد جيام الثابتة. ابتسم، مسروراً من نقطة العرق التي كانت تسيل على خد الرجل.

"حـــسناً. يتطلب الأمر موازنة بين منحك أفضل ما لدينا والإبقاء على الرغم من ذلك على عدد يكفي للدفاع عن المدينة. خذ ألفاً من رماة القوس والنشاب، وفرقتين من الفرســـان وأخـــريين من حاملي الرماح. ستكون تلك النواة التي ستقود الآخرين ضد العدو".

أغلـــق القائـــد جيام عينيه بصمت شاكراً للحظة. لم يلاحظ راي تشيانغ ذلك لأنه استدار عائداً إلى الخريطة.

"يمكنك تفريغ مخازن الدروع. ربما لا تكون المليشيا حرسي الأحمر، لكن ربما إذا ظهـــروا بمظهـــرهم سيجعلهم ذلك شجعاناً. لا شك لدي بأن ذلك سيخفف من الملل الناجم عن شنق الاستغلاليين ويموّه الثكنات العسكرية. لا تخذلني في هذا أيها القائد".

"لن أفعل ذلك يا صاحب الجلالة".

انطلـــق جنكيـــز في مقدمة جيشه، المؤلف من خط طويل من الفرسان الذي يمتد عبـــر ســـهل كزي كزيا. عندما وصلوا إلى القنوات، انتفخ الخط عندما تسابق الرجال للغـــوص فيها وهم يضحكون وينادون على كل من يقع في الماء الأسود، وكان عليه الجري بسرعة لتدارك ما فاته.

كانت مدينة ينشوان تبدو مثل بقعة في الأفق طيلة ساعات قبل أن يصدر جنكيز الأمر بالتوقف. تعالت الأبواق، وهدأت على امتداد الخط ثم توقف الحشد، وكانت هناك أوامـــر تتـــردد لتنبيه الرجال على الأجنحة. كان ذلك بلداً معادياً ولن يكونوا عرضة للمفاجأة.

لاحـــت المدينة من بعيد. حتى على بعد أميال، بدت بناءً ضخماً، مهولاً بحجمه الكبيـــر. حدّق جنكيز في سديم شمس بعد الظهيرة. كانت الصخور التي استعملها البناة

رماديـــة داكنة، واستطاع رؤية أعمدة يمكن أن تكون أبراجاً داخل الأسوار. لم يستطع تخمين مهمتها وبذل جهده حتى لا يُظهر رهبته أمام الرجال.

نظـــر حـــوله، ورأى أنه لا يمكن مهاجمة شعبه في مثل تلك الأرض المنبسطة. ربما كانت المحاصيل تخفي جنوداً يجثمون بينها، لكن مستطلعيه سيكتشفونهم قبل وقت طـــويل مـــن اقتـــرابهم. كانت الأرض آمنة مثل أي مكان آخر لإقامة معسكر واتخذ القرار، وترجل عن جواده بينما كان يصدر الأوامر.

خلفـــه، انطلقت القبائل لتأدية المهام التي تعرفها تماماً. كانت الخيام مربوطة معاً وتتـــصبها عائلات اعتادت على ذلك العمل منذ وقت طويل. أُقيمت قرية، بلدة، مدينة خاصة بهم مليئة بالعربات وقطعان الحيوانات. لم يمضِ وقت طويل قبل أن يتم تجهيز عربة جنكيز الخاصة، وملأت رائحة الضأن المشوي الهواء.

ســـار أرسلان على طول الخط مع ابنه جيلم. تحت عيونهما، وقف محاربو كل القبائل باستعداد، ولم يتكلموا سوى بالحد الأدنى. استحسن جنكيز ذلك وكان مستعداً مع ابتسامة عندما وصلا إليه.

قـــال أرســـلان: "لم أرَ أبداً مثل تلك الأرض المنبسطة. ليس هناك مكان للدفاع عنه، أو للانسحاب إليه إذا أردنا التراجع. نحن مكشوفون تماماً هنا".

رفـــع ابـــنه جـــيلم عينيه لدى سماعه تلك الكلمات، لكنه لم يتكلم. كان أرسلان بـــضعف عمر كل القادة الآخرين ويعمل بحرص وذكاء. لم يكن أبداً مثيراً للقلاقل بين القبائل، وكانت مهارته موضع احترام والجميع يخشى عصبيته.

ردّ جنكيز وهو يربت على كتفه: "لن يلتقُوا علينا يا أرسلان. ليس هنا. سنجعلهم يخـــرجون من تلك المدينة، أو في حال لم يفعلوا، ربما سأبني منحدراً من التراب إلى قمة أسوارهم وأدخل إليهم. سيكون ذلك شيئاً يستحق المشاهدة، أليس كذلك؟".

كانت ابتسامة أرسلان متكلفة. كان واحداً من أولئك الذين اقتربوا من ينشوان بما يكفي ليطلقوا عليه سهامهم.

"إنهـــا مثل جبل يا مولاي. سترى ذلك عندما تقود جوادك بالقرب من الأسوار. هـــناك بـــرج عـــند كل زاوية والأسوار مجهزة بكوّات يمكن لرماة السهام أن يطلوا بوجـــوههم منها لرؤيتك تمر. سيكون صعباً إصابتهم، بينما سنكون صيداً سهلاً بالنسبة إليهم".

فقد جنكيز بعضاً من حس دعابته.

"ســـأراها أولاً قـــبل أن أقـــرر. إذا لـــم تسقط المدينة بين أيدينا، فسأجعلهم يتضورون جوعاً".

أومـــأ جــيلم برأسه موافقاً على الفكرة. كان قد سار بالقرب من والده بما يكفي ليشعر بظل المدينة على عاتقه. بالنسبة لرجل معتاد على السهول المكشوفة، وجد نفسه يستشيط غضباً من فكرة وجود مثل تلك الأشياء. كانت الفكرة بحد ذاتها تزعجه.

قـــال جيلم: "القنوات تصل إلى المدينة يا مولاي، عبر أنفاق مغطاة بالحديد. قيل لي إنها تجرف براز الناس وروث الحيوانات. ربما يكون هناك نقطة ضعف فيها".

أشـــرق وجه جنكيز. كان قد امتطى جواده طوال النهار ويشعر بالتعب. سيكون هناك وقت لتخطيط الهجوم في الغد بعد أن يكون قد تناول الطعام وارتاح.

وعدهم: "سنجد طريقة".

# الفصل السابع



مــن دون إشارة على أي مقاومة، أمضى المحاربون الشباب بقيادة جنكيز أيامهم فــي امتطاء جيادهم والاقتراب قدر ما يجرؤون من المدينة، يختبرون شجاعتهم. كان أشــجعهم يقود جواده للجري بأقصى سرعته تحت ظل الأسوار بينما السهام تطن فوق رأســه. كانــت صــرخات هتافهم تتردد عبر الحقول بتحدٍّ، وعلى الرغم من ذلك لم يــستطع سوى رامي سهام واحد من كزي كزيا تسديد ضربة موفقة خلال ثلاثة أيام. حتى عندها، استطاع رجل القبائل الجلوس على سرجه والابتعاد، ثم أخرج السهم من درعه ورماه باستخفاف على الأرض.

قاد جنكيز جواده بالقرب من المدينة أيضاً، مع قادة وضباط جيشه. لم يجلب ما رآه أي إلهـام. حتــى القنوات التي تدخل المدينة كانت محمية بعوارض حديدية بسماكة ذراع رجل، ومغروســة عمــيقاً فــي الصخر. فكّر بأنهم ربما يستطيعون شق طريقهم إلى الداخل، على الرغم من أن فكرة الزحف داخل قنوات شديدة الرطوبة كانت بغيضة لرجل من السهول.

عندما حل الليل، اجتمع جنكيز مع شقيقيه وقادته في الخيمة الكبيرة لتناول الطعام ومناقشة المشكلة. كان مزاجه قد ازداد سوءاً مرة أخرى، لكن أرسلان كان يعرفه منذ بداية ارتقائه ولم يكن يخاف من التكلم بصراحة قاسية.

قــال أرســلان وهــو يفكر ملياً: "مع نوع المتراس الخشبي الذي استعملناه ضد الحــصن، يمكننا حماية رجال مدة كافية لنشق طريقنا باستعمال المطارق عبر فتحات القــنوات. على الرغم من أنني لا أحب مظهر تلك الأشياء على الجدران، إلا أنني لا أعــتقد أن قوساً قد يكون بذلك الحجم. إذا كانت حقيقية، ينبغي أن تطلق سهاماً بطول رجل. من يعرف حجم الأضرار التي يمكن أن تتسبب بها؟".

تمــتم كــشيون: "لا يمكننا البقاء هنا إلى الأبد، فيما يبعثون برسائل إلى حلفائهم؛ ولا يمكنــنا الالــتفاف حــولهم وترك جيشهم حراً ليضرب مؤخرتنا. ينبغي أن ندخل المدينة، أو نعود إلى الصحراء ونتخلى عن كل ما حققناه".

نظـر جنكيز إلى شقيقه الأصغر، ووجهه متجهم. قال بثقة أكبر مما يشعر: "لن يحـدث ذلـك. لديـنا محاصيلهم. إلى متى يمكن لمدينة أن تقاوم قبل أن يأكل شعبها بعضه؟ الوقت إلى جانبنا".

رد كـشيون: "أعـتقد أنـنا لم نؤذهم بعد. لديهم قنوات تحمل لهم الماء، وكل ما نعـرفه أن المدينة مليئة بالحبوب واللحم المقدد". شاهد جنكيز يتجهم من الموقف، لكنه تابـع: "يمكنـنا الـبقاء هـنا سنوات، ننتظر، ومن يعرف عدد الجيوش التي تزحف لمـؤازرتهم؟ في الوقت الذي يصلون فيه إلى مرحلة التضور جوعاً، يمكن أن نواجه جيش تشن نفسه ونجد أنفسنا عالقين بينهما".

ردّ جنكيز بحدّة: "إذاً، أجبني عن سؤالي! قال لي تلاميذ اليوغر إن كل مدينة في أرض تـشن تشبه هذه المدينة، أو حتى أكبر منها، إذا استطعت تخيلها. إذا كان رجال قد بنوها، يمكن لرجال أن يدمروها، وأنا واثق من ذلك. قل لي كيف؟".

قـال خاسار وهو يمد سكينه إلى قطعة أخرى من اللحم: "يمكننا تسميم المياه في القنوات". تناول اللحم بينما أطبق صمت مفاجئ عليهم، ونظر حوله إلى الآخرين.

"ماذا؟ هذه ليست أرضنا".

وبّـخ كشيون شقيقه بينما كان يتكلم مع الآخرين: "هذا فعل شرير. ماذا سنشرب نحن عندها؟".

هزّ خاسار كتفيه استخفافاً: "سنشرب مياهاً نظيفة من مكان أبعد".

استمع جنكيز وهو يفكر بالأمر. قال: "ينبغي أن نجعلهم يخرجون إلينا. لن أسمح بتـسميم مـاء نظـيف، لكـن يمكننا تحطيم القنوات وجعل المدينة تعطش. سنجعلهم يشاهدون تدمير عمل استغرق أجيالاً، وربما سيخرجون للقائنا في السهل".

قال جيلم: "سأحرص على القيام بذلك".

أومأ له جنكيز. "وأنت يا خاسار. سترسل مئة رجل ليتسللوا عبر القضبان حيث تدخل القنوات إلى المدينة".

قـال خاسار: "حمايتهم تعني تفكيك المزيد من العربات. لن تحب العائلات ذلك على الإطلاق".

تأفـف جنكيـز. "سأبني المزيد منها عندما ندخل تلك المدينة اللعينة. سيشكروننا عندها".

سـمع كل الرجال في الخيمة وقع حوافر جواد يقترب بسرعة. توقف جنكيز مع قطعـة مـن لحـم الضأن المشبعة بالدهن في أصابعه. نظر إلى الأعلى عندما صدر صوت على الدرجات في الخارج وفُتح باب الخيمة. "إنهم يخرجون يا مولاي".

قال جنكيز متشككاً: "في الظلام؟".

"لــيس هناك قمر، لكنني كنت قريباً بما يكفي لأسمعهم يا مولاي. إنهم يثرثرون مثل الطيور وتصدر عنهم ضوضاء أكثر من أطفال".

قذف جنكيز قطعة اللحم إلى الطبق أمامه في وسط الخيمة.

"عــودوا إلــى رجالكم يا إخواني، وليكونوا مستعدين". جال ببصره عبر الخيمة حتى وصل إلى أرسلان وجيلم، وكان الأب وابنه يجلسان معاً.

"أرســلان، ستقود خمسة آلاف لحماية العائلات. سيذهب الباقي معي". كشّر من ذلك الاحتمال، وبادلوه الابتسامات.

"ليس سنوات يا كشيون. ليس *يوماً* واحداً بعد. اجعل أسرع المستطلعين ينطلقون. أريد أن أعرف ما يقومون به حالما يبزغ الفجر. سأصدر الأوامر لكم عندها".

بعيداً في الجنوب، كان الخريف لا يزال حاراً، والمحاصيل التي لم يتم حصادها بعد مثقلة بما تحمله بينما بدأت تفسد في الحقول. أطلق مستطلعو المغول صرخات تحدٍّ باتجاه الجيش الأحمر الذي كان قد زحف من ينشوان، فيما عاد آخرون إلى جنكيز مع التفاصــيل. كانــوا يدخلــون الخيمة الكبيرة بمجموعات من ثلاثة رجال، وينقلون ما يعرفونه.

كان جنكيز يسير بخطوات واسعة جيئة وذهاباً، يصغي إلى كل رجل فيما يصف المشهد.

قــال لكــشيون: "لا أحــب هــذا العمل مع السلال. ما الذي يزرعونه في هذه الأرض؟". كان قد سمع عن مئات من الرجال الذين يمشون معاً بتشكيلات معينة أمام الجــيش مــن ينــشوان. كان كل منهم يحمل سلة على كتفيه بينما يمد رجل خلفه يده داخلها، مراراً وتكراراً، ويرمي ما في ذراعيه بعيداً.

تم استدعاء خان اليوغر ليكشف السر. كان بارشوك قد استفسر من المستطلعين، وسأل عن كل معلومة يمكنهم تذكرها.

قــال أخيــراً: "ربما يكون شيئاً لإعاقة جيادنا يا مولاي. حجارة حادة، ربما، أو حديــد. لقــد نشروا الكثير من تلك الأشياء خارج طريق الجيش، ولم تظهر عليهم أي إشارة على وطئها. إذا كانوا ينوون استدراجنا إلى هناك، ربما يتوقعون صد الهجوم".

ربّــت جنكيــز على كتفه. قال: "مهما يكن الأمر، لن أترك لهم اختيار الأرض. ستحصل على الرقاع يا بارشوك". نظر حوله إلى الوجوه المتألقة للرجال موضع ثقته. لــم تكــن مذبحــة الحصن لدخول أراضي كزي كزيا على علاقة كبيرة بالتشكيلات

المقاتلــة لمديــنة الملك. كان يشعر بقلبه ينبض بسرعة من فكرة الوقوف أخيراً ضد أعــداء شــعبه. بالتأكيد لن يفشلوا، بعد ذلك الاستعداد الطويل؟ قال كوكشو إن النجوم نفــسها تعلن قدراً جديداً لشعبه. مع وجود كاهنه العراف بجانبه، كان جنكيز قد ضحّى بمعزاة بيضاء لأب السماء، مستعملاً اسم أقدم لغة للعرافين. لن يرفضهم تانغري. لقد كانــوا ضعفاء لوقت طويل، وكان ذلك بسبب أبناء تشن في مدنهم الذهبية. هم أقوياء الآن وسيرون المدن تسقط.

وقــف القادة ساكنين دونما حراك عندما مد كوكشو يده إلى قدور صغيرة ورسم خطــوطاً علــى وجــوههم. عــندما نظــر بعضهم الى بعض، لم يروا الرجال الذين يعرفونهم. كان كل ما شاهدوه أقنعة الحرب وعيون قاسية تبث الرعب في القلوب.

تــرك الكــاهن العــراف جنكيز ليكون الأخير، رسم خطاً أحمر في أعلى جبين الخان، فوق العينين نزولاً إلى جانبي فمه.

"لن يمسك الحديد يا مولاي. لن يحطمك الصخر. أنت الذئب وأب السماء يراقب".

حدّق جنكيز من دون أن يرف له جفن، وكانت الدماء حارة نوعاً ما على جلده. أخيراً، أومأ برأسه وغادر الخيمة، امتطى جواده وكانت صفوف المحاربين تمتد على كــلا الجانبين. استطاع رؤية المدينة من بعيد، وقبلها، حشد ضبابي من رجال يرتدون ملابــس حمــراء ينتظرون قهر طموحاته. نظر يساراً ويميناً وإلى الأمام على طول الخط ورفع ذراعه.

قــرعت الطــبول، التي يحملها مئة فتى غير مسلح. كان كل منهم قد قاتل رفاقه لاكتساب حق الخروج مع المقاتلين، وكان العديد منهم يحملون علامات شجارهم. شعر جنكيــز بقــوته عندما مسّ قبضة سيف والده طلباً للحظ. أنزل ذراعه، وكرجل واحد، تحركوا إلى الأمام فوق سهل كزي كزيا، نحو مدينة ينشوان.

قــال وزير راي تشيانغ الأول بإثارة: "إنهم قادمون يا مولاي". كان يمكن رؤية الــسهل مــن مركز المراقبة في برج الملك بشكل أفضل من أي مكان آخر، ولم يكن راي تشيانغ قد اعترض على حضور مستشاريه في قاعاته الخاصة.

بــدروعهم المــصقولة، كان الجنود يشبهون بقعة لامعة من الدماء على الأرض أمــام المدينة. اعتقد راي تشيانغ أنه يستطيع رؤية شكل القائد جيام الأبيض اللحية من بعيد وهو يسير جيئة وذهاباً أمام الصف. كانت الحراب تلمع في شمس الصباح عندما أخــذت الفرق مواقعها، وشاهد أن حرسه الملكي قد تولى أمر الجناحين. كانوا أفضل فرسان كزي كزيا، ولم يندم على جعلهم يقومون بتلك المهمة.

كـــان قد آلمه كثيراً الاختباء في المدينة فيما يتم تدمير أراضيه. كان مجرد رؤية جـــيش يـــواجه الغـــازي قـــد رفع من معنوياته. كان جيام مفكراً صلباً، ورجلاً يمكن الاعتماد عليه. كان صحيحاً أنه لم يخض معركة خلال ارتقائه سلم السلطة في الجيش، لكـــن راي تـــشيانغ كان قد راجع خططه ولم يجد عيباً فيها. كان الملك يشرب شراباً أبـــيض في أثناء انتظاره، مستسيغاً فكرة رؤية القضاء على أعدائه أمام ناظريه. كانت أنـــباء النـــصر ستصل إلى الإمبراطور وي وسيشعر بالمرارة. لو أن أبناء تشن كانوا قدموا له التعزيزات، كان راي تشيانغ سيبقى مديناً لهم إلى الأبد. كان الإمبراطور وي ذكياً بما يكفي ليعرف أنه قد تخلى عن تفوقه في التجارة والسلطة، وقد أسعدت الفكرة راي تشيانغ. كان سيعمل على إبلاغ تشن بكل تفاصيل المعركة.

شـــاهد القائـــد جـــيام سحابة من الغبار عندما تقدم العدو. أدرك أن الأرض كانت قد جفّـــت تمامـــاً لأن المزارعين لم يعودوا يجرؤون على ري محاصيلهم. كان أولئك الذين حاولـــوا القيام بذلك قد لقوا حتفهم على يد مستطلعي الغازي، وكان من الواضح أن الأمر تم بهدف التسلية أو إراقة دماء شباب. فكّر جيام بأن الأمر سيتوقف في ذلك اليوم.

تـــم نقـــل أوامـــره للـــصفوف على رايات عالية، ترفرف في النسيم حتى يراها الجمـــيع. عـــندما نظر على طول الصفوف، كانت الشارات السوداء تختلط بالرايات الحمراء كرمز يعني أنهم سيحافظون على الأرض. خلف الجيش، كانت الحقول مليئة بمـــئة ألف وتد كبير من الحديد، المتوارية في الأعشاب. انتظر جيام بنفاد صبر حتى يهـــاجمهم رجـــال القبائل. ستكون مذبحة ثم سيرفع الرايات لشن هجوم والالتحام مع العدو، فيما لا يزال المغول مذهولين.

تولـــى الفرســـان الملكـــيون أمر الجناحين، وأومأ جيام لنفسه من رؤية جيادهم الـــرائعة، تصهل وتضرب الأرض بحوافرها بهياج. وقف حراس الملك الذين يحملون رماحـــاً متأهبـــين في وسط جيشه، وكان منظرهم بديعاً بملابسهم الحمراء التي تشبه حراشـــف أسماك غريبة. ساعدت وجوههم الكئيبة في تثبيت الآخرين عندما أصبحت ســـحابة الغـــبار أكبـــر وشعروا جميعاً بالأرض تهتز تحت أقدامهم. شاهد جيام إحدى ســـواري الـــرايات تسقط وأرسل رجلاً لمعاقبة حاملها. كان جيش كزي كزيا متوتراً، وكـــان يستطيع رؤية ذلك في وجوههم. عندما يشاهدون صف العدو ينهار، سيمنحهم ذلـــك الشجاعة. شعر جيام بأن مثانته تؤلمه، وأطلق لعنة بصوت خافت، وكان يعرف أنـــه لا يـــستطيع أن يترجل عن جواده فيما العدو يندفع نحوهم. في الصفوف، شاهد الكثير من الرجال يتبولون على الأرضية الرملية، ويجهزون أنفسهم.

كان عليه أن يصرخ بأوامره فوق وقع حوافر الجياد التي تعدو بأقصى سرعتها. كان ضباط الحرس منتشرين على طول الصف، وكرّروا الأمر بالوقوف والانتظار.

تمتم: "قليل من الوقت فقط". كان يستطيع رؤية أفراد بين الجيش وتقلصت معدته من كثرة عددهم. شعر بنظرات المواطنين خلفه وكان يعرف أن الملك يشاهد مع كل رجل وامرأة أخرى استطاعت إيجاد مكان لها على الأسوار. كانت ينشوان تعتمد عليهم في بقائها، ولن يخذلوها.

وقف نائبه مستعداً لنقل أوامر جيام. قال: "سيكون نصراً مؤزراً أيها القائد". استطاع جيام سماع التوتر في صوت الرجل، وأرغم نفسه على الاستدارة بعيداً عن العدو.

"مع وجود الملك يراقبنا، ينبغي ألا يفقد الرجال شجاعتهم. هل يعرفون من يراقب ما يجري؟".

"لقد تأكدت من ذلك أيها القائد. إنهم...". اتسعت عينا الرجل، وأعاد جيام بصره إلى الصف المهاجم الذي يندفع عبر السهل.

من وسط الصف، تقدم مئة جواد إلى الأمام، وشكّل الفرسان رتلاً مثل رأس سهم. راقب جيام من دون أن يفهم فيما كانوا يقتربون من خط المسامير المخبأ في الأعشاب. تردد، غير واثق كيف سيؤثر التشكيل الجديد في خططه. شعر بخط من العرق يسيل من شعره وشهر سيفه لإبقاء يديه ثابتتين.

همس: "وصلوا تقريباً...". كان الفرسان جاثمين على صهوات جيادهم، ووجوههم مجهدة من الرياح. راقب جيام بينما كانوا يعبرون الخط الذي أنشأه، وخلال لحظة مرعبة، فكّر أنهم سيندفعون بطريقة ما مباشرة عبر الأوتاد. ثم صرخ أول جواد، وتعثر فوق نفسه وسقط على الأرض. سقط العشرات غيره عندما انغرست الأجزاء اللينة من الحوافر في الأوتاد ولقي الرجال على ظهورها حتفهم. ترنّح الرتل الضئيل واختبر جيام لحظة فرح غامر. شاهد صف الجياد التي تجري بأقصى سرعة يتمايل عندما شدّ المحاربون في الخلف لجام جيادهم بعنف. أصيب تقريباً كل أولئك الذين كانوا يقودون جيادهم بأقصى سرعة في حقل الأوتاد بإصابات بالغة أو لقوا حتفهم على الأعشاب، وارتفع الهتاف من الصفوف الحمراء.

شاهد جيام أن رايات الرماح كانت ترفرف عالياً وشدّ قبضته اليسرى بسعادة. ليأتوا سيراً على الأقدام ويروا ما سيقدمه لهم!

خلف الرجال والجياد التي تطلق الصرخات، تبعثرت كتلة الجيش من دون تشكيل منتظم، وقد فقد أفرادها كل دافع بموت إخوانهم. بينما كان جيام يراقب ما

يجري، دبّ الذعر في قلوب رجال القبائل غير المدربين. لم تكن لديهم تكتيكات سوى الهجـوم الـشرس وقد خسروا ذلك. من دون سابق إنذار، استدار المئات إلى الخلف ليتـسابقوا عائـدين عبر خطوطهم. انتشر حشد الرعاع بسرعة استثنائية وشاهد جيام ضـباطاً مغـولاً يصرخون بأوامر متناقضة على رجالهم الهاربين، يضربونهم بجانب سيوفهم كلما مرّوا بهم. خلفه، قهقه شعب ينشون من ذلك المنظر.

اهتز جيام على السرج. كان صفه الأول بكامله قد تقدم نصف خطوة إلى الأمام، مجهدين مثل كلاب مربوطة بلجام. استطاع أن يشاهد تصاعد الرغبة للدماء فيهم وكان يعرف أن عليه السيطرة على ذلك.

صـرخ: "توقفوا! أيها الضباط، سيطروا على رجالكم. آمركم بالتوقف!". لم يكن ممكـناً إيقـافهم. حطمـت خطوة أخرى القيد الأخير واندفعت الصفوف الحمراء التي تصرخ إلى الأمام، ودروعهم الجديدة تلمع. امتلأ الهواء بالغبار. وحدهم حراس الملك حافظوا على مواقعهم، وحتى عند ذلك، تم إرغام الفرسان في الجناحين على التقدم إلى الأمام مع الآخرين أو تركهم من دون حماية. صرخ جيام مراراً وتكراراً بيأس وجأر ضـباطه الـذين جالوا على طول الخطوط، محاولين جعل الجيش يتراجع. كان ذلك مـستحيلاً. كانـوا قد شاهدوا العدو يجول في ظل المدينة طيلة شهرين تقريباً. كانت هناك أخيراً فرصة لإثخانهم بالجراح. صرخ أفراد المليشيا متمردين عندما وصلوا إلى حاجـز الأوتـاد الحديدية. لم تكن تلك الأوتاد لتشكل خطراً على الرجال وعبروا تلك المنطقة بسرعة، وقتلوا أولئك المحاربين الذين كانوا لا يزالون على قيد الحياة وطعنوا الموتى مراراً وتكراراً حتى ظهرت بقع من الدم على الأعشاب.

اسـتعمل جـيام جـواده لإيقاف خطوط من الرجال بأفضل ما يستطيع. بغضب شديد، جعل الأبواق تصدح مطالبة بالانسحاب، لكن الرجال لم يعودوا يسمعوا أو يروا أي شيء سوى العدو والملك الذي يراقبهم. لم يكن ممكناً إعادتهم إلى الخلف.

علـى صهوة جواده، شاهد جيام تغيراً مفاجئاً في القبائل قبل أيٍّ من رجاله الذين يركـضون نحـوهم. أمام ناظريه، اختفى الحشد المضطرب، وتشكلت خطوط مغول جديـدة بانـضباط مرعب. كان جيش كزي كزيا القرمزي قد قطع مسافة نصف ميل وراء الشراك والحفر التي قاموا بتجهيزها في الليلة السابقة، ويتسابق أفراده إلى الأمام لـتلويث سـيوفهم بالـدماء وإبعاد هؤلاء الأعداء عن مدينتهم. من دون سابق إنذار، واجهـوا جيشاً واثقاً من الفرسان على أرض مكشوفة. أصدر جنكيز أمراً واحداً ودفع أفـراد القـوة كلهـم جيادهم للجري هرولة. سحب محاربو المغول أقواساً من حقائب جلديـة علـى الـسروج، وتـناولوا أول السهام الطويلة من كنانات على أردافهم أو

ظهـورهم. قادوا الجياد بركبهم وحدها، وكانت السهام تتجه إلى الأسفل. عند صدور أمـر آخر من جنكيز، دفع الفرسان جيادهم للجري خبباً ثم بأقصى سرعة، وارتفعت السهام إلى مستوى وجوههم استعداداً لإطلاق الضربة الأولى.

عالقـين فـي مكـان مكشوف، اكتسح الخوف صفوف الجيش الأحمر. تدافعت خطوط كزي كزيا وكان البعض في الخلف لا يزال يهتف من دون أن يعرف أن جيش المغول قام بهجوم مضاد. جأر جيام بأوامر يائسة لزيادة المسافة بين الصفوف، لكن لم يستجب له سوى حرس الملك. عندما واجهوا هجوماً واسعاً للمرة الثانية، اقترب أفراد المليشيا بعضهم من بعض، خائفين ومشوشين.

ضرب عشرون ألف سهم الصفوف الحمراء وجعلوا أفرادها يجثون على ركبهم. لـم يكونـوا يـستطيعون الرد على الضربات بوجه مثل ذلك الدمار. لم يستطع رماة القـوس والنـشاب إطلاق سوى سهام طائشة نحو العدو، وأعاقهم تعثر رفاقهم. سحب المغـول سهاماً من كناناتهم وأطلقوها عشر مرات كل ستين ضربة قلب وكانت دقتهم قاتلـة. أنقـذت الـدروع الحمراء بعض الجنود، لكن عندما نهضوا يصرخون، تلقوا ضربات مراراً وتكراراً حتى تم دفعهم إلى الأرض. عندما اندفع المغول للاشتباك في قتال قريب، دفع جيام قدميه في جانبي جواده وأسرع عبر الخطوط النازفة إلى رمّاحي الملك، محاولاً جعلهم يصمدون. بطريقة ما، مرّ من دون أن يصاب بأذى.

لـم يكن حرّاس الملك يبدون مختلفين عن المليشيا بدروعهم الحمراء. عندما تولـى جـيام القيادة، شاهد أن بعض أفراد المليشيا يندفعون عائدين من صفوفهم، يلاحقهـم فرسان المغول وهم يصرخون. لم يركض الحراس، وأصدر جيام أمراً حاسـماً لـرفع الـرماح، والذي تم تناقله على طول الصف. شاهد رجال القبائل متأخـرين كثيراً فهؤلاء لم يصابوا بالذعر مثل الآخرين. تم توجيه نصال الرماح بـزاوية يمكـنها شـطر الرجل نصفين عندما يندفع مهاجماً، وسقط العشرات من المغيـرين المغـول عندما حاولوا اختراق الصف. شعر جيام بالأمل يزداد بأنهم يستطيعون النجاة ذلك اليوم.

كان فرسان الحرس قد خرجوا للدفاع عن الأجنحة ضد العدو المتحرك. عندما تم سـحق المليـشيا، لم يبقَ مع جيام سوى بضع آلاف من رجال الملك المدربين وبضع مئات الأفراد المتفرقين. بدا المغول مسرورين بضرب فرسان كزي كزيا. كلما حاول فرسـان الحـرس شـن هجوم، كان رجال القبائل يندفعون بسرعة كبيرة ويصطادون الرجال بالسهام. كان أشرسهم يشتبك مع الحراس بالسيوف، ويتقدمون ويتأخرون مثل حـشرات تلـسع. على الرغم من أن الفرسان حافظوا على انضباطهم، إلا أنهم كانوا

مدربين على ملاحقة مشاة في حقل مكشوف ولم يكونوا يستطيعون التعامل مع هجمات من كل الاتجاهات. كانوا عالقين بعيداً عن المدينة، وتعرضوا لمذبحة.

نجـــا الرمّاحون من الهجمات الأولى ضدهم، وبقروا بطون جياد المغول. عندما تــم سحق وبعثرة فرسان الملك، أصبح أولئك الذين يقاتلون على أقدامهم مكشوفين. لم يــستطع الرمّاحون الاستدارة لمواجهة الجيش بسهولة وفي كل مرة حاولوا فيها، كانوا بطيئــين للغاية. صرخ جيام بالأوامر يائساً، لكن المغول طوقوهم وشتّتوهم إلى أجزاء بعاصفة من السهام التي فشلت على الرغم من ذلك في إلحاقه بهم. سقط كل رجل لقي حــتفه مــع اثني عشر سهماً فيه، أو وقع عن سرجه بضربة من سيف فارس يمتطي جــواداً يعــدو بأقصى سرعة. كسرت الرماح وسحقها الحشد. حاول أولئك الذين بقوا علــى قــيد الحياة الهرب إلى ظل الأسوار حيث يمكن لرماة السهام حمايتهم، لكن تم القضاء على معظمهم تقريباً.

أُغلقــت الــبوابات. عــندما نظر جيام إلى الخلف على المدينة، وجد نفسه مكللاً بالعـــار. لا بد أن الملك كان يراقب ما يجري برعب. لقد تبعثر الجيش وتم تدميره. لم يــصل سوى بعض الرجال المرهقين إلى الأسوار. بطريقة ما، بقي جيام على سرجه، أكثــر إدراكـــاً من ذي قبل لنظرة ملكه. ببؤس، رفع سيفه ووجهه بهدوء نحو صفوف المغول حتى لاحظوه.

اختـــرق ســـهم إثر آخر درعه الأحمر بينما كان يقترب منهم. قبل أن يصل إلى الــصف، خرج محارب شاب على جواد يعدو بأقصى سرعته للقائه، وقد شهر سيفه. صــرخ جــيام مرة، لكن المحارب استطاع تفادي ضربته، وأحدث جرحاً بليغاً تحت ذراع القائــد اليمنـــى. تــرنح جيام على السرج، وتباطأت سرعة جواده إلى المشي. اســـتطاع ســـماع المحـــارب يستدير عائداً إليه، لكن ذراعه كانت معلقة بالأوتار ولم يــستطع رفع سيفه. سالت الدماء على فخذيه ونظر إلى الأعلى للحظة، ولم يشعر أبداً بالضربة التي بترت رأسه وأنهت عاره.

قـــاد جنكيـــز جـــواده مبـــتهجاً بالنصر عبر تلال الموتى الذين يرتدون الدروع القرمزية التي تشبه جثث الخنافس اللامعة. بيده اليمنى، كان يحمل رمحاً طويلاً ورأس قائــد جــيش كزي كزيا في الأعلى، ولحيته البيضاء ترتعش في النسيم. سالت الدماء علـــى طـــول المقبض حتى وصلت يده، وجفّت هناك وجعلت أصابعه دبقة معاً. كان بعــض أفـــراد الجيش قد هربوا جرياً عائدين عبر حقل الأوتاد حيث لا يمكن لفرسانه اللحاق بهم. حتى عند ذلك، كان قد أرسل محاربين يقودون جيادهم سيراً على الأقدام.

كان عملاً بطيئاً وربما استطاع ألف فقط من جنود العدو الاقتراب بما يكفي من المدينة ليكونوا بحماية رماة السهام. ضحك جنكيز من منظر الرجال المتسخين الواقفين في ظل ينشوان. بقيت البوابات مغلقة ولم يكن بوسعهم فعل شيء سوى التحديق بيأس مطلق على محاربيه بينما كانوا يسيرون بين الموتى، يضحكون وينادون بعضهم.

ترجل جنكيز عندما وصل إلى العشب، وأسند الرمح الملطخ بالدماء على ردف جواده. انحنى إلى الأسفل والتقط أحد الأوتاد، وتفحّصه بفضول. كان شيئاً بسيطاً مصنوعاً من أربعة قطع معدنية متصلة معاً وتبقى للأعلى كيفما سقطت. لو تم إرغامه على اتخاذ موقف دفاعي، فكّر بأنه كان سيضع مجموعات منها في دوائر تصبح أوسع فأوسع حول الجيش، لكن مع ذلك لم يكن المدافعون محاربين كما كان يعرفهم. كان رجاله يتمتعون بانضباط أفضل، تدربوا على أرض أقسى من وادي كزي كزيا الآمن.

عندما مشى جنكيز، استطاع رؤية قطع من دروع ممزقة ومكسورة على الأرض. فحص قطعة منها باهتمام، وشاهد كيف أن الطلاء الأحمر قد تساقط عند الأطراف. كان بعض جنود كزي كزيا قد قاتلوا جيداً، لكن سهام المغول أصابتهم على الرغم من ذلك. كان فأل خير للمستقبل والمواجهة الأخيرة التي كان قد أحضر محاربيه لأجلها إلى المكان المناسب. كان الرجال يعرفون ذلك فيما كانوا ينظرون إلى خانهم بإعجاب. كان قد سار بهم عبر الصحراء ليواجهوا أعداءً لا يقاتلون بشكل جيد. كان يوماً رائعاً.

وقع بصره على عشرة رجال يرتدون ملابس مطرزة باللون الأزرق الخاص باليوغر بينما كانوا يمشون بين الموتى. كان أحدهم يحمل كيساً وشاهد الآخرين يمدون أيديهم التي تحمل سكيناً إلى الجثث بحركة سريعة مرتعشة.

ناداهم قائلاً: "ماذا تفعلون؟". وقفوا بفخر عندما شاهدوا الذي يتكلم معهم.

رد أحدهم: "قال بارشوك اليوغر إنك ستوّد معرفة عدد الموتى. نحن نقطع الآذان ليتم عدّها لاحقاً".

طرفت عينا جنكيز. نظر حوله وشاهد أن العديد من الجثث القريبة تحمل علامات جروح بليغة ملطخة بالدماء حيث كانت آذانها في صبيحة ذلك اليوم. كان الكيس ممتلئاً آنذاك.

شرع بالقول: "يمكنكم أن تشكروا بارشوك نيابة عني"، لكنه صمت بعد ذلك. بينما كان الرجال يتبادلون نظرات قلقة، مشى جنكيز ثلاث خطوات بين الجثث، مما جعل الذباب يطن في الهواء حوله.

قـال جنكيـز: "هـناك رجل من دون أي أذن هنا". أسرع محاربو اليوغر إليه، وحالما شاهدوا الجندي من دون أذنين، بدأ الرجل الذي يحمل الكيس يشتم رفاقه.

"أيهـا الحمقـى البائسـون! كـيف نستطيع إجراء تعداد صحيح إذا قطعنا كلتا الأذنين؟".

ألقـى جنكيـز نظـرة واحدة على وجوههم وانفجر ضاحكاً بينما كان يعود إلى جواده.

كـان لا يـزال يضحك بصوت خافت عندما أمسك بالرمح وقذف بمجموعة من الأوتـاد الـسوداء علـى العـشب. قاد جواده ليسير بهدوء نحو الجدران مع غنيمته المروّعة، مقدّراً المسافة التي يمكن لرماة كزي كزيا إيصال سهامهم إليها.

علـى مـشارف أسوار المدينة، غرز الرمح في الأرض بكل ثقله، وتراجع إلى الخلف عنه بينما كان يحدق إلى الأعلى. كما كان قد توقع، طارت سهام رفيعة نحوه، لكـن المـدى كـان بعيداً جداً ولم يفزع منها. بدلاً من ذلك، شهر سيف والده ورفعه نحوهم، بينما كان جيشه ينشد ويصرخ خلفه.

أصـبح تعبير وجه جنكيز متجهماً مرة أخرى. كان قد أنجز عملية صهر الأمة الجديـدة. كان قد أظهر أنهم يستطيعون الصمود حتى ضد جنود تشن. على الرغم من ذلـك، لم تكن أمامه طريقة لدخول مدينة تسخر منه بقوتها. قاد جواده ببطء إلى حيث كان شقيقاه قد اجتمعا. أومأ جنكيز لهما، وقال: "حطّما القنوات".

# الفصل الثامن



علـــى الـــرغم من عمل كل رجل قوي البنية بالحجارة ومطارق الحديد، إلا أن الأمـــر اســـتغرق ستة أيام لتحويل القنوات حول ينشوان إلى أنقاض. في البداية، نظر جنكيز إلى الدمار بسعادة غامرة، وكان يأمل بأن تغمر أنهار الجبال المدينة.

أزعجـــه ارتفاع المياه السريع في السهول، حتى أضحى محاربوه يغوصون فـــيها حتـــى الكاحل قبل أن ينتهوا من تدمير آخر القنوات. لقد نجم عن الحرارة الشديدة تلك الأيام ذوبان كميات كبيرة من الثلوج فوق قمم الجبال، ولم يكن قد فكّر فعـــلاً أيـــن ســـيذهب كل ذلك الماء طالما أنه لن يجري عبر القنوات نحو المدينة والحقول.

حتى الأرض المائلة قليلاً أصبحت مغطاة بالطين بحلول ظهيرة اليوم الثالث، وعلى الرغم من أن الحقول فاضت إلا أن مستوى المياه استمر بالارتفاع. استطاع جنكيز رؤية الارتباك بادياً على وجوه قادة جيشه عندما أدركوا الخطأ. في البداية، كـــان الصيد ممتازاً عندما أصبح بالإمكان رؤية حيوانات صغيرة تهرب من مياه الفيـــضان من بعيد. تم اصطياد مئات الأرانب البرية وإحضارها إلى المعسكر في حزمٍ جميلة من الفرو الرطب، لكن بعد ذلك، أصبحت الخيام عرضة للخطر. كان جنكيـــز مـــرغماً على نقل المعسكر أميالاً إلى الشمال قبل أن تُغرق المياه السهل بأكمله.

بحلـــول المـــساء، كانت المياه قد وصلت إلى مستوى فوق نظام القنوات المحطم حـــيث كانت التربة لا تزال متماسكة. كانت مدينة ينشوان علامة داكنة تلوح من بعيد، وفي الوسط، كانت بحيرة جديدة قد انبثقت من العدم. لم يكن عمقها أكثر من قدم، لكنها عكست أشعة الشمس الغاربة ولمعت بلون ذهبي على بعد أميال.

كان جنكيز يجلس على الدرجات التي تؤدي إلى خيمته عندما جاء شقيقه خاسار، ووجهه خالٍ من أي تعبير. لم يكن أي أحد آخر يجرؤ على قول أي شيء للرجل الذي

يقـودهم، لكن كانت هناك الكثير من الوجوه المتعبة في المعسكر تلك الأمسية. أحبت القبائل المرح وكان إغراق السهل بالمياه يناسب حس الدعابة لديها.

تابـع خاسـار نظرة شقيقه الغاضبة على امتداد المياه. تمتم خاسار: "حسناً، لقد علّمـنا ذلـك درسـاً قيّماً. هل ينبغي أن أجعل الحراس يترقبون سبّاحي العدو، الذين يتسللون إلينا؟".

نظـر جنكيز بغضب إلى شقيقه. كان كلاهما يستطيعان رؤية أطفال من القبائل يمـرحون عـند حافة المياه، بشرتهم سوداء من الطين اللزج، ويدفعون بعضهم إليها. كـان جوشـي وتشاغاتاي في الوسط كالمعتاد، مسرورين بالميزة الجديدة لسهل كزي كزيا.

رد جنكيز مقطب الحاجبين: "ستغور المياه في الأرض".

هزّ خاسار كتفيه استخفافاً.

"إذا حولـنا مسار المياه، نعم. أعتقد أن المسار سيكون مريحاً جداً للفرسان بعـد ذلك. يخطر لي أن تحطيم القنوات ربما لم يكن أفضل خطة استطعنا التفكير بها".

استدار جنكيز ليشاهد شقيقه ينظر إليه بتعبير ساخر على وجهه، وأطلق ضحكة بينما كان ينهض على قدميه.

"لقـد تعلمنا يا شقيقي. معظم ما يجري جديد بالنسبة إلينا. في المرة القادمة، *لن* نحطم القنوات. هل أنت راضٍ الآن؟".

رد خاسـار مبتهجاً: "أنا راضٍ. كنت قد بدأت أعتقد أن شقيقي لا يرتكب خطأً. لقد كان اليوم ممتعاً بالنسبة لي".

قـال جنكيز: "أنا سعيد من أجلك". راقبا الفتيان اللّذان شرعا في الشجار مجدداً علـى حافـة المياه. رمى تشاغاتاي بنفسه على شقيقه، وتعاركا معاً في المياه الطينية الضحلة، أحدهما فوق ثم الآخر.

قال جنكيز: "لا يمكن مهاجمتنا من الصحراء ولا يستطيع جيش الوصول إلينا هنا والبحيرة الجديدة في الطريق. لنُقم مأدبة الليلة ونحتفل بانتصارنا".

أومأ خاسار وهو يبتسم. "هذه فكرة رائعة يا شقيقي".

قبض راي تشيانغ على ذراعي كرسيه المطلي بالذهب، يحدّق إلى السهل الغارق بالمـياه. كـان في المدينة مخازن من اللحم المقدد والحبوب، لكن مع فساد المحاصيل الـزراعية، لن يكون هناك المزيد. قلّب المشكلة مراراً وتكراراً في ذهنه من دون أن

يعثـــر على بارقة أمل. على الرغم من أن أحداً لم يكن يعرف بذلك، إلا أن العديد في المدينة كانوا سيتضورون جوعاً حتى الموت. كان الجوع سيتغلب على حراسه الباقين عندما يحل الشتاء، وقد تنهار ينشوان من الداخل.

إلـــى أبعد مدى يمكن لبصره الوصول إليه، كانت المياه تمتد حتى الجبال. خلف المديـــنة إلى الجنوب، كانت لا تزال هناك حقول وبلدات لم يصلها الغزاة أو الفيضان، لكـــنها لم تكن كافية لإطعام شعب كزي كزيا. فكّر في المليشيات في تلك الأماكن. إذا سحب كل رجل من تلك البلدات، سوف يستطيع تجميع جيش آخر، لكنه سيفقد الأقاليم لصالح قطاع الطرقات حالما تبدأ المجاعة. كان الأمر مثيراً للحنق، لكن لم يكن هناك حل آخر لمشاكله.

تنهد لنفسه، مما جعل وزيره الأول ينظر إليه.

قـــال راي تـــشيانغ بـــصوت عال: "لطالما قال لي والدي أن أعمل على إطعام الفلاحـــين. لم أفهم أهمية الأمر في ذلك الوقت. ماذا يهم إن تضور بعضهم جوعاً كل شتاء؟ ألا يدل ذلك على سخط الآلهة؟".

أومـــأ الوزير الأول بوقار. "من دون مثال المعاناة يا صاحب الجلالة، لن يعمل شـــعبنا. طالمـــا أنهـــم يستطيعون رؤية نتائج الكسل، سيكدحون تحت الشمس لإطعام أنفـــسهم وعائلاتهم. إنها الطريقة التي رتّبت بها الآلهة العالم، ولا يمكننا الوقوف ضد رغبتها".

قـــال راي تشيانغ بحدّة، متعباً من نبرة صوت الرجل: "لكنهم *جميعاً* سيختبرون الجـــوع الآن. بـــدلاً من أن يكون ذلك مجرد مثال، أو درساً أخلاقياً، سيصرخ نصف شعبنا مطالباً بالطعام ويقاتلون بعضهم في الشوارع".

رد الوزيـــر دونمـــا اهـــتمام: "ربما يا صاحب الجلالة. سيموت الكثيرون، لكن المملكـــة ســـتبقى. ستنمو المحاصيل مجدداً السنة القادمة، وستكون هناك وفرة لأفواه الفلاحين. سيصبح أولئك الذين ينجون من الشتاء بدينين ويقدّسون اسمك".

لـــم يـــستطع راي تشيانغ العثور على كلمات مناسبة للجدال. نظر من برج قـــصره إلـــى الازدحـــام فـــي الشوارع. كان أدنى المتسولين قد سمع أنباء ترك المحاصـــيل تفسد في المياه من الجبال. لم يكونوا يشعرون بالجوع بعد، لكن لا بد أنهم كانوا يفكرون بشهور البرد، وكانت أحداث شغب قد وقعت آنذاك. كان حراسه قساة بتنفيذ أوامره، يقتلون المئات عند أدنى إشارة على حدوث قلاقل. كان الشعب قد اعتاد أن يخاف من الملك، وعلى الرغم من ذلك كان الملك في أفكاره الخاصة يخاف منهم أكثر.

ســأل أخيــراً: "هل يمكن إنقاذ أي شيء؟". ربما كان ذلك من بنات خياله، لكنه اعتقد بأنه يشم رائحة قوية لنباتات متعفنة في النسيم.

أمعن الوزير الأول التفكير، ينظر في سلسلة من الأحداث في المدينة كما لو أنه سيجد الإلهام هناك.

"إذا غادر الغزاة اليوم يا صاحب الجلالة، يمكننا من دون شك إنقاذ بعض كميات الحــبوب القاسية. يمكننا زراعة الأرز في الحقول المغمورة بالمياه وحصاد محصول واحــد. ينبغــي إعادة بناء القنوات، أو يمكننا إعادة توجيه مجرى الماء حول السهل. ربما يمكن إنقاذ عُشر المحصول".

تابــع راي تــشيانغ قـــائلاً: "لكن الغزاة لن يغادروا". ضرب بقبضته على ذراع الكرسي.

"لقد هزمونا. وصل رجال القبائل الكريهون المليئون بالقمل إلى قلب كزي كزيا، وأنا قابع هنا أتابع ما يجري وأشم رائحة القمح المتعفن الكريهة".

أحنى الوزير الأول رأسه من التقريع، خائفاً أن يتكلم. كان قد تم إعدام اثنين من زملائه في صبيحة ذلك اليوم عندما أصبح مزاج الملك حاداً. لم يكن يرغب بالانضمام إليهما.

نهــض الملك، وشبك يديه خلف ظهره. "لم يتبقَ لي خيارات. إذا جرّدت بلدات الجــنوب من المليشيا، فلن يعادلوا بعددهم عدد الذين سقطوا في المعركة السابقة. كم ســيطول الأمر قبل أن تصبح تلك البلدات معاقل قوية لقطّاع الطرقات من دون وجود جــنود الملك للحفاظ على السلم فيها؟ سأخسر الجنوب إضافة إلى الشمال، ثم ستسقط المدينة". أطلق لعنة بصوت خافت، فشحب وجه الوزير.

"لــن أجلس وانتظر أن يثور الفلاحون، أو أن تملأ رائحة العفن الكريهة هذه كل غــرفة في المدينة. أرسل مبعوثين إلى قائد ذلك الشعب. قل له إنني أريد الاجتماع به حتى نناقش مطالبه من شعبي".

قــال الوزيــر بصوت متقطع: "يا صاحب الجلالة، إنهم ليسوا أفضل من كلاب همجية. لا يمكننا التفاوض معهم".

أدار راي تشيانغ عينيه الغاضبتين نحو وزيره.

"ابعث بهؤلاء المبعوثين. لم أستطع تدمير جيش الكلاب الهمجية هذا. كل ما لدي هو حقيقة أنه لم يستطع الاستيلاء على مدينتي مني. ربما يمكنني رشوته حتى يغادر".

احمّــر وجــه الوزير خوفاً من عار المهمة، لكنه انحنى حتى الأرض، ووضع رأسه على الخشب البارد.

عـندما حـل المـساء، كانت القبائل ثملة وتغني. كان الرواة مشغولين بحكايات المعركة وكيف استطاع جنكيز سحب العدو إلى خارج منطقة الأوتاد الحديدية. جعلت قـصائد هـزلية الأطفـال يقهقهـون، وقبل أن يختفي الضوء، كانت هناك العديد من مـسابقات المـصارعة ورمي السهام، وكان الأبطال يضعون أكاليل من العشب على رؤوسهم حتى يفقدوا وعيهم أيضاً من فرط تناول الشراب.

أشـرف جنكيـز وقادة جيشه على الاحتفال. بارك جنكيز اثني عشر زواجاً جديـداً، ومنح أسلحة وجياداً من قطيعه الخاص لمحاربين كانوا قد تميزوا. كانت الخـيام مليـئة بالنـساء اللواتي تم أسرهن من البلدات، على الرغم من أن بعض الزوجات لم يرحبن بالوافدات الجديدات. كان أكثر من شجار بين النساء قد انتهى بإراقـة الـدماء، وكانـت الغلـبة كـل مرة للنساء المغوليات القويات ضد سبايا أزواجهن. قبل أن يحل الظلام، تم استدعاء كشيون إلى ثلاثة مواقع شهدت حالات قتل بعد أن ثار الغضب نتيجة الشراب الأسود في عروق المحاربين. كان قد أمر بتقييد رجلين وامرأة إلى عمود وضربهم حتى تسيل الدماء منهم. لم يكن يهتم بشأن أولئك الذين لقوا حتفهم، لكنه لم يكن يرغب برؤية القبائل تنغمس في عربدة شهوة وعـنف. ربمـا بسبب يده الحديدية، بقي مزاج القبائل معتدلاً بينما كانت النجوم تبزغ؛ وعلى الرغم من أن بعضهم افتقد لسهول الوطن، إلا أنهم كانوا ينظرون إلى قادتهم بفخر.

كـان إلـى جانب الخيمة التي يلتقي فيها جنكيز قادة جيشه بيت عائلته، ولم يكن أكبـر أو أكثـر زخرفة من أي خيمة أخرى تنصبها عائلات الأمة الجديدة. بينما كان يهتف لحلبات المصارعة، تمت إضاءة المشاعل حول المعسكر الكبير، وجلست زوجته بـورت مـع أبنائه الأربعة، تغني لهم بصوت رقيق بينما يتناولون الطعام. مع حلول الغـسق، أضـحى العـثور على جوشي وتشاغاتي صعباً، وكانا يفضلان الضوضاء والمرح على الطعام والنوم. كانت بورت مرغمة على إرسال ثلاثة محاربين ليطوفوا بالخيام بحثاً عنهما، وتم إعادتهما وهما لا يزالان يتعاركان. جلس كلا الصبيين يحتكان ببعضهما في الخيمة الصغيرة بينما كانت بورت تغني لأوجيدي وتولي الصغير ليناما. كان النهار مرهقاً بالنسبة لهما ولم يمضِ وقت طويل حتى استغرق الابنان الصغيران بأحلامهما في بطانيتهما.

اسـتدارت بورت إلى جوشي، وتقطب حاجباها من الغضب في وجهه. قالت له: "لم تأكل أيها الشاب". تأفف من دون أن يرد، وانحنت بورت للاقتراب منه. سألته: "لا

يمكـــن أن يكـــون الشراب الأسود هو ما أشم في أنفاسك؟". تغير مزاج جوشي بلحظة واحدة، ورفع ركبتيه مثل حاجز.

قـــال تشاغاتي، سعيداً لرؤية شقيقه يرتبك: "لا بد أنه كذلك. أعطاه بعض الرجال شراباً وتقيأ على الأعشاب".

صـــرخ جوشـــي، وهو يقفز من مكانه: "أغلق فمك!". أمسكت به بورت من ذراعـــه، وكانت قوتها تضاهي بسهولة قوة الفتى الصغير. ابتسم تشاغاتي راضياً عما يراه.

قـــال جوشـــي بحـــدّة وهو يكافح للتخلص من قبضة أمه: "إنه منزعج لأنه كسر قوسه المفضل هذا الصباح. دعيني!".

صـــفعت بورت جوشي على وجهه رداً على ذلك، وألقت به على البطانيات. لم تكن صفعة قاسية، لكنه رفع يده إلى خده مصدوماً.

قالت بغضب: "لقد سمعت عن مشاجراتك طيلة النهار. متى ستدرك أنه لا يمكنك القـــتال مثل الجراء فيما القبائل تراقبك؟ ليس أنت. هل تعتقد أن ذلك يسعد والدك؟ إذا قلت له، سوف...".

قال جوشي بسرعة، والخوف باد على وجهه: "لا تقولي له".

رقّـــت بورت مباشرة. "لن أفعل، إذا أحسنت التصرف. لن ترثا منه شيئاً لأنكما ببساطة ابناه. هل أرسلان من لحمه ودمه؟ إذا كنتما تصلحان للقيادة، سيختاركما، لكن لا تتوقعا منه تفضيلكما على رجال أفضل منكما".

كـــان كلا الصبيين يصغيان باهتمام، وأدركت أنها لم تكن قد تكلمت معهما بتلك الطـــريقة من قبل. فاجأها كيف أنهما تشبثا بكل كلمة وأمعنت التفكير في ما يمكن أن تقوله أيضاً قبل أن يشرد ذهناهما.

قالت: "تناولا طعامكما فيما تستمعان". لسعادتها، تناول كلا الصبيين طبقي اللحم وباشـــرا التهامه، على الرغم من أنهما كانا باردين منذ وقت طويل. لم تفارق عيونهما ناظري أمهما بينما كانا ينتظرانها لتتابع ما تقول.

تمـــتمت: "كنت أعتقد أن والدكما ربما يكون قد شرح هذا لكما. لو أنه خان قبيلة صغيرة، ربما كان متوقعاً أن يرث البكر سيفه، جواده، وأتباعه. توقع هو في مـــا مـــضى الشيء نفسه من جدّكما ياسوجي، على الرغم من أن شقيقه بكتر كان أكبر منه".

سأل جوشي: "ماذا حدث لبكتر؟".

قال تشاغاتي بمتعة: "قتله والدي وكشيون".

فزعت بورت فيما اتسعت عينا جوشي دهشة.
"حقاً؟".
تنهدت والدته.
"تلك قصة مختلفة. لا أعرف أين سمعها تشاغاتي، لكن ينبغي أن يعرف ما هو أفضل من الاستماع إلى الإشاعات التي تقال حول نيران المخيم".
أومأ تشاغاتي بسرعة إلى جوشي خلف ظهرها، وابتسم من انزعاج شقيقه. ألقت عليه بورت نظرة غاضبة، وأمسكت به قبل أن يتمالك نفسه.
قالت: "والدك ليس خاناً صغيراً من التلال. لديه قبائل أكثر مما يمكن عدّه على اليدين. هل تتوقع منه تسليمها إلى شخص ضعيف؟". استدارت إلى تشاغاتي: "أو إلى أحمق؟". هزّت رأسها. "لن يفعل ذلك. لديه أشقاء أصغر منه وسينجبون جميعاً أولاداً. ربما يكون الخان القادم منهم، إن لم يكن والدكما راضياً عنكما عندما تصبحان رجلين".
أخفض جوشي رأسه بينما كان يمعن التفكير في الأمر.
تمتم: "أنا أفضل باستعمال القوس من أي شخص آخر. وفرسي بطيء فقط لأنه صغير جداً. عندما أحصل على مطية لرجل، سأكون أسرع".
تأفف تشاغاتي.
قالت بورت غاضبة: "لا أتكلم عن المهارات الحربية. ستكونان محاربين رائعين، فقد رأيت ذلك فيكما". قبل أن يستطيعا الزهو بالمديح النادر، تابعت قائلة: "سينظر والدكما ليرى إن كنتما تستطيعان قيادة الرجال والتفكير بسرعة. هل رأيتما الطريقة التي جعل بها تسوبودي يقود مئة رجل؟ الفتى غير معروف، وليست لديه صلة دم مهمة، لكن والدكم يحترم ذكاءه ومهارته. سيتم اختباره، لكن ربما يصبح قائداً عندما تكتمل رجولته. يمكنه قيادة ألف، وحتى عشرة آلاف محارب في الحرب. هل ستفعلان الشيء نفسه؟".
قال تشاغاتي مباشرة: "لم لا؟".
استدارت بورت إليه.
"عندما تلعبان مع أصدقائكما، هل أنتما من يتطلع إليهما الآخرون؟ هل تتبعان أفكارهم أم يتبعون أفكاركما؟ فكّرا جيداً الآن، لأن الكثيرين سيتوددون إليكما بسبب والدكما. فكّرا في أولئك الذين *يحترمونكما*. هل يصغون إليكما؟".
عض تشاغاتي شفته بينما كان يفكر. هزّ كتفيه استخفافاً. "بعضهم. إنهم أولاد".

قالــت وهـــي تــضغط عليه: "لماذا سيتبعونك بينما تقضي أيامك في الشجار مع شقيقك؟".

بــدا الفتـــى الصغير ممتعضاً بينما كان يكافح مع أفكار كبيرة للغاية بالنسبة إليه. رفع ذقنه بتحدٍّ. "لن يتبعوا جوشي. يعتقد أنه ينبغي بهم ذلك، لكنهم لن يتبعوه أبداً".

شعرت بورت ببرودة تسري في صدرها لدى سماعها تلك الكلمات.

قالت بلطف: "حقاً يا بني؟ لماذا لن يتبعوا شقيقك الأكبر؟".

أدار تــشاغاتي رأســـه بعــيداً، ومدّت بورت يدها، وأمسكت به بشكل مؤلم من ذراعه. لم يصرخ، على الرغم من أن الدموع ظهرت في زاويتي عينيه.

سألت بورت بصوت متهدج: "هل هناك أسرار بيننا يا تشاغاتي؟ لماذا لن يتبعوا جوشي أبداً؟".

صـــرخ تــشاغاتي: "لأنه وغد تتاري". هذه المرة، لم تكن الصفعة التي وجهتها بورت لابنها لطيفة، فقد أدارت رأسه إلى الجانب الآخر، واستلقى على السرير، مصاباً بدوار. سال الدم من أنفه، وبدأ ينتحب مصدوماً.

تكلــم جوشـــي بهدوء خلفها وقال: "إنه يقول لهم ذلك طيلة الوقت". كان صوته كئيباً ويمتلئ غضباً ويأساً، ووجدت بورت دموعاً في عينيها من الألم الذي كان يعانيه. كان بكاء تشاغاتي قد أيقظ ولديها الصغيرين وبدأا النحيب أيضاً، متأثرين بالمشهد في الخيمة من دون أن يفهماه.

مـــدّت بورت يدها إلى جوشي واحتضنته بذراعيها. تمتمت في شعره: "لا يمكنك أن تتمنـــى عودة الكلمات إلى فم شقيقك الأحمق". تراجعت إلى الخلف بعد ذلك لتنظر فـــي عيني جوشي، تريد منه أن يفهم. "يمكن لبعض الكلمات أن تشكل عبئاً ثقيلاً على الرجل، إلا إن تعلم تجاهلها. سيكون عليك أن تكون أفضل من الجميع لتفوز باستحسان والدك. تعرف ذلك الآن".

همـــس، وهـــو يشيح ببصره بعيداً: "هل هذا صحيح إذاً؟". شعر بأن ظهرها قد تيبّس فيما كانت تفكر بالإجابة، وبدأ ينشج بهدوء لنفسه.

"لقـــد بُـــذرتَ فـــي أحشائي في سهل في الشتاء، بعيداً مئات الأميال عن التتار. صـــحيح أنني ضعت عنه لبعض الوقت وأنه... قتل الرجال الذين أخذوني، لكنك ابنه وابني. ولده البكر".

قال: "عيناي مختلفتان".

تأففت بورت.

"كـذلك كانـت عيـنا بكتر عندما كان يافعاً. كان ابن ياسوجي، لكن عيناه كانتا داكنتـين كعينيك. لم يجرؤ أحد أبداً على التشكيك بنسبه. لا تفكر بذلك يا جوشي. أنت حفيد ياسوجي وابن جنكيز. ستكون خاناً يوماً ما".

بينما كان تشاغاتي يتنفس بصوتٍ مسموع ويمسح الدم بيده، كشّر جوشي وانحنى إلى الخلف لينظر إلى أمه. بشكل ظاهر، استجمع شجاعته، وسحب نفساً عميقاً قبل أن يتكلم. تهدّج صوته، وجعله يشعر بالخزي أمام أشقائه.

قـال: "قـتل شـقيقه، وقـد رأيت الطريقة التي ينظر بها إلي. هل يحبني على الإطلاق؟".

ضمت بورت الفتى الصغير إلى صدرها، وفؤادها محطم عليه.

"بالطبع يحبك. ستجعله يراك كوريثٍ له، يا بني. سيكون فخوراً بك".

# الفصل التاسع



اسـتغرق تحويل مسار القنوات بالتراب والحجارة من خمسة آلاف محارب وقتاً أطول حتى من تحطيمها. كان جنكيز قد أصدر الأمر عندما شاهد أن مستويات الغمر تهـدد حتـى أرض المعـسكر الجديد المرتفعة. عندما تم إنجاز العمل، شكلت المياه بحيرات جديدة إلى الشرق والغرب، لكن الطريق إلى ينشوان كان يجف تحت الشمس أخيراً. كانت الأرض مليئة بنباتات سوداء لزجة وأسراب من الذباب الذي كان يزعج القبائل. غاصت جيادهم إلى ركبها في الطين اللزج، مما صعّب من مهمة المستطلعين وزاد من شعور العزلة في الخيام. كانت هناك نقاشات وشجارات عديدة بين القبائل كل مساء، وكان كشيون يتدخل بقسوة للحفاظ على السلم.

كانـت الأنـباء التي ينقلها ثمانية فرسان عبر السهل المشبع بالمياه موضع تـرحيب كـل أولـئك الذين تعبوا من عدم قيامهم بأي نشاط. لم يكونوا قد عبروا الـصحراء للـبقاء فـي مكـان واحد. حتى الأطفال كانوا قد فقدوا الاهتمام بمياه الفيـضان، وأصـيب العديد منهم بأمراض من شرب المياه الآسنة. شاهد جنكيز فرسـان كـزي كزيا يكافحون عبر الطين. كان قد حشد خمسة آلاف من محاربيه لمقابلتهم على أرض جافة، ووضعهم على حافة الطين مباشرة حتى لا يكون لجنود العـدو مكان يرتاحون فيه. كانت جياد كزي كزيا تلهث آنذاك من جهد سحب كل قائمة من التربة الطينية وكان الفرسان يعانون الأمرّين للحفاظ على وقارهم لأنهم كانوا معرضين لخطر السقوط.

لـسعادة جنكيز البالغة، وقع أحدهم فعلاً عن السرج عندما ترنحّت مطيته نتيجة تعثرها بحفرة. صرخت القبائل ساخرة بينما كان الرجل يشد بقوة على لجامه ويمتطي جواده، مغطّى بالطين. نظر جنكيز إلى بارشوك إلى جانبه، ولاحظ تعبير الرضا على وجـه الـرجل. كان هناك كمترجم، لكن كوكشو وتيموج وقفا معهما أيضاً لسماع ما سـيقوله مـبعوث الملك. كان كلا الرجلين قد اهتما بدراسة لغة تشن وهو ما اعتبره

جنكيز متعة غير لائقة. كان واضحاً أن الكاهن العرّاف وشقيق جنكيز الصغير يشعران بالإثارة من فرصة اختبار معرفتهما المحدثة.

توقف الفرسان عندما رفع جنكيز راحة يده مبسوطة. كانوا قد اقتربوا بما يكفي بالنسبة له لسماع كلماتهم، بيد أنهم بدوا غير مسلحين، إلا أنه لم يكن رجلاً يثق بالآخرين. لو أنه مكان ملك كزي كزيا، لكان سيفكر بتنفيذ محاولة لاغتياله بالتأكيد في ذلك الوقت. خلفه، كانت القبائل تراقب بصمت، وأقواس أفرادها جاهزة في أيديهم.

صرخ بهم جنكيز: "هل أنتم ضائعون؟". راقب فيما كانوا ينظرون إلى أحدهم، وكان جندياً يرتدي درعاً رائعاً يمتد ليتصل بخوذة من قطع الحديد. أوماً جنكيز لنفسه، وكان يعرف أن الرجل سيتكلم نيابة عنهم جميعاً. لم يكن قد خاب أمله.

رد الجندي: "أحمل رسالة من ملك كزي كزيا". لخيبة أمل تيموج وكوكشو، كانت الكلمات واضحة تماماً بلغة القبائل.

نظر جنكيز متسائلاً إلى بارشوك وتكلم خان اليوغر متمتماً، بالكاد يحرك شفتيه. "لقد رأيته من قبل، في أيام التجارة. إنه ضابط من منزلة متوسطة، ومغرور جداً".

رد جنكيز قبل أن يرفع صوته لمخاطبة الجنود: "يبدو كذلك بهذا الدرع الرائع".

صرخ جنكيز: "ترجلوا إذا أردتم التكلم معي". تبادل الفرسان النظرات، وأخفى جنكيز سعادته فيما كانوا يترجلون إلى الطين السميك. أصبحوا تقريباً غير قادرين على الحركة من لزوجة الطين، وزادت تعبيرات وجههم من حيويته.

تابع جنكيز قائلاً وهو يحدّق إلى الضابط: "ماذا لدى ملككم ليقوله؟". كان الرجل قد احمرّ وجهه غضباً لأن الطين أفسد حذاءه الرائع واستغرق منه الأمر لحظة ليسيطر على مشاعره قبل أن يجيب.

"يطلب منك لقاءه في ظل أسوار ينشوان، في هدنة. سيضمن لك بشرفه ألا تتعرض لهجوم في أثناء وجودك هناك".

قال جنكيز مجدداً، كما لو أنه لم يسمع الرد: "ماذا لديه ليقوله لي؟".

ازداد غضب الرجل. وقال بحدّة: "لو كنت أعرف ما في ذهنه، لما كانت هناك فائدة كبيرة من مثل ذلك اللقاء". نظر أولئك الذين كانوا معه بقلق على حشد المحاربين المغول الذين ينتظرون مع أقواسهم. كانوا قد رأوا الدقة الاستثنائية لتلك الأسلحة، والتمست عيونهم من متحدثهم عدم توجيه أي إهانة ربما تقود إلى تعرضهم لهجوم.

ابتسم جنكيز. "ما اسمك أيها الرجل الغاضب؟".

"هو سا. أنا هسياو-وي من ينشوان. يمكن أن تناديني بالخان، أو ربما بالضابط".

رد جنكيــز: "لن أدعوك خاناً. لكن أهلاً بك في معسكري يا هو سا. أعد هؤلاء الماعز إلى البيت، وسأرحب بك في خيمتي، وأقدم لك الشاي والملح".

اســتدار هــو سا إلى رفاقه، وأمال رأسه إلى الخلف نحو المدينة البعيدة. أطلق أحدهم مجموعة من المقاطع الصوتية الغريبة التي جعلت كوكشو وتيموج ينحنيان إلى الأمــام لــسماعها. هزّ هو سا كتفيه استخفافاً لمرافقه، وراقب جنكيز بينما كان السبعة الآخرون يمتطون جيادهم ويستديرون عائدين إلى المدينة.

قــال بارشوك من خلف كتفه: "تلك جياد جميلة". نظر جنكيز إلى خان اليوغر. أومــأ برأسه، وشاهد أرسلان حيث كان يقف أمام صف من المحاربين. أشار جنكيز بإصبعين على المجموعة المنسحبة، مثل أفعى تهاجم فريسة.

بعد لحظة، طار مئة سهم في الهواء أوقع الفرسان السبعة عن سروجهم. قُتل أحد الجـياد، وسمع جنكيز أرسلان يصرخ على محارب غير محظوظ لعدم كفاءته. بينما كــان جنكيز يراقب، أخذ أرسلان قوس الرجل وقطع الوتر بضربة من خنجره قبل أن يعيده إليه. أخذ المحارب القوس، وقد طأطأ رأسه إذلالاً.

اســتلقت الجثث من دون حراك في السهل، وجوهها إلى الأسفل في الطين. على مــثل تلــك الأرض، لم تكن الجياد تستطيع الانطلاق بسهولة. من دون فرسانها لحثّها على متابعة الطريق، وقفت الجياد ساكنة تنظر إلى الخلف إلى القبائل. حكّ اثنان منها أنفيهما بجثتي الرجلين اللذين كانا يعرفانهما، وفزعا من رائحة الدم.

حدّق هو سا بغضب مكبوت بينما استدار جنكيز لمواجهته.

قال جنكيز: "إنها جياد جيدة". لم يتغير تعبير وجه الجندي، وهزّ الخان كتفيه من دون اكتراث. "الكلمات ليست ثقيلة. لا يتطلب الأمر أكثر من واحد منكم لنقل ردّي".

تــرك هــو سا ليتم اصطحابه إلى الخيمة الكبيرة وتقديم الشاي اللاذع الطعم له. بقي جنكيز في المكان لرؤية الجياد بعد أن تم الإمساك بها وإعادتها.

قال لبارشوك: "سيكون لي الخيار الأول". أومأ خان اليوغر برأسه، ورفع عينيه للحظة. الخيار الأول سيمنح جنكيز أفضلها، لكنها كانت جياداً جيدة وتستحق اقتناءها.



علــى الرغم من أن الفصل كان في آخره، إلا أن الشمس كانت حارة في وادي كــزي كزيا والتربة قد تحولت إلى قشرة رقيقة في الوقت الذي تحرك فيه جنكيز نحو المديــنة. كــان الملك قد طلب ألا يحضر معه سوى ثلاثة مرافقين، لكن خمسة آلاف آخــرين ساروا معه الأميال القليلة الأولى. في الوقت الذي اقترب فيه بما يكفي لتمييز

تفاصيـــل السُرادق المقام أمام المدينة، كان فضول جنكيز قد أصبح كبيراً. ما الذي قد يطلبه الملك منه؟

ترك مرافقيه في الخلف متردداً قليلاً، على الرغم من أنه كان يعرف أن خاسار سيهب لنجدته إذا أشار بيده. كان قد أمعن التفكير في خيارات شن هجوم مفاجئ على الملـك فــي أثـنـاء حديثهما، لكن راي تشيانغ لم يكن أحمق. كان قد تم إقامة المظلة الـــوردية قـــريباً جداً من أسوار المدينة. كانت هناك أقواس ضخمة مزودة بسهام لها نـــصال حديديـــة بطـــول رجـــل ويمكنها تدمير المظلة في لحظات وضمان عدم نجاة جنكيز. كان الملك أقل حصانة خارج الأسوار، لكن التوازن كان معقداً.

جلـــس جنكيز مستقيماً على السرج بينما كان يقود جواده إلى الأمام مع أرسلان، كـــشيون وبارشـــوك اليوغر. كانوا مسلحين جيداً ويحملون خناجر إضافية مخفية في دروعهم تحسباً من إصرار الملك على تجريدهم من سيوفهم.

حاول جنكيز التخفيف من تجهمه بينما كان يدقق في كل تفاصيل المظلة الوردية. أحـــب اللـــون، وتساءل أين يمكن أن يجد حريراً بذلك العرض والنوعية. صك أسنانه معـــاً عـــندما فكّر في المدينة المنيعة التي يراها. لو أنه وجد طريقة للدخول إليها، لما كـــان قد جاء للقاء ملك كزي كزيا. أزعجته فكرة أن كل مدينة في أراضي تشن، كما يقال، كانت محصنّة جيداً ولم يكن قد اكتشف بعد طريقة لاختراق دفاعاتها.

لم يتكلم الفرسان الأربعة عندما عبروا إلى الظل الوردي البارد وترجلوا. أخفتهم المظلـــة عـــن عيون رماة السهام على الجدران، ووجد جنكيز نفسه يسترخي، ويقف بصمت متجهماً أمام حرّاس الملك.

فكر وهو يحدّق إليهم أنه تم اختيارهم من دون شك ليثيروا الإعجاب. كان أحدهم قـــد فكّر بصعوبات اللقاء. كان المدخل إلى السُرادق عريضاً واستطاع أن يلاحظ عدم وجود قتلة ينتظرون للقبض عليه حالما يدخل. كان الحرّاس أقوياء البنية، ولم ينظروا إلى الرجل الذي يقف أمامهم. بدلاً من ذلك، حدّقوا مثل تماثيل بصف المحاربين الذين يمتطون جيادهم وكان جنكيز قد أبقاهم على مسافة بعيدة.

علـــى الـــرغم من وجود الكراسي في الداخل، إلا أن السُرادق لم يكن يضم بين جنباته سوى رجل واحد وأومأ له جنكيز.

"أين ملكك يا هو سا؟ هل الوقت مبكر جداً في الصباح بالنسبة له؟".

"سيأتي يا مولاي الخان. الملك لا يأتي أولاً".

رفع جنكيز حاجبه بينما كان يفكر بالإهانة التي تلقاها.

"ربما ينبغي أن أغادر. لم أطلب منه المجيء إلي، بالمحصلة".

احمرّ وجه هو سا وابتسم جنكيز. كان الرجل سريع الغضب، لكن جنكيز كان قد اكتـشف أنه يحبه، لاعتزازه الشديد بنفسه. قبل أن يرد، صدحت الأبواق على أسوار المدينة، ومدّ المغول الأربعة أيديهم إلى سيوفهم. رفع هو سا يده.

"الملك يضمن السلامة يا مولاي الخان. الأبواق لتعرفوا أنه يغادر المدينة".

قـال جنكيز لأرسلان: "اخرج وراقبه يأتي. أخبرني عن عدد الرجال معه". بذل جهـداً ليجعل عضلاته التي تشنجت تسترخي. كان قد قابل زعماء قبائل من قبل وقتل بعـضهم في خيامهم. لم يكن هناك جديد في ذلك، كما قال لنفسه، لكن على الرغم من ذلـك كـان هـناك شيء من الرهبة داخله، مشابهاً لما كانت عليه حال هو سا. ابتسم جنكيـز مـن سخفه، مدركاً أنه جزء من كونه بعيداً عن البيت. كان كل شيء جديداً ومخـتلفاً عـن السهول التي يتذكرها، لكنه لم يكن قد اختار مكاناً آخر يقف عليه ذلك الصباح.

عاد أرسلان مسرعاً.

"إنه قادم بمحفّة يحملها عبيد. تبدو مثل تلك التي كان وين تشاو يستعملها".

رد جنكيز متجهماً: "كم عدد العبيد؟". سيفوقونهم عدداً وظهر غضبه على وجهه.

رد هـو سا قبل أرسلان. "إنهم مخصيون يا مولاي. ثمانية رجال أقوياء، لكنهم ليسوا محاربين. إنهم ليسوا أكثر من حمّالين وممنوع عليهم حمل السلاح".

فكّـر جنكيز في الأمر. إذا غادر قبل أن يصل الملك، سيعتقد أولئك الموجودون فـي المدينة أنه قد فقد أعصابه. ربما سيعتقد محاربوه الشيء نفسه، لهذا تمالك نفسه. كـان هـو سـا يـضع سيفاً طويلاً في حزامه وكان الحارسان مسلحين جيداً. وازن المخاطر ثم صرف ذهنه عنها. أحياناً، قد يقلق الرجل كثيراً بشأن ما سيحدث. ضحك بصوت خافت، وطرفت عينا هو سا من المفاجأة، ثم جلس ينتظر الملك.

حمل العبيد حمولتهم الثمينة عند مستوى الخصر بينما كانوا يقتربون من سُرادق الحريـر. من الداخل، راقب جنكيز ومرافقوه الثلاثة باهتمام بينما كان العبيد يضعون المحفّـة علـى الأرض. وقف ستة منهم صامتين، فيما وضع اثنان قطعة من الحرير الأسـود علـى الطـين. لدهشة جنكيز، سحب العبيد مزامير خشبية من أحزمة على خصورهم، وبدأوا يعزفون لحناً خافتاً بينما كان يتم فتح الستائر. كان سماع الموسيقى فـي النسيم يبعث على الطمأنينة بشكل غريب، ووجد جنكيز نفسه مفتوناً عندما خرج راي تشيانغ.

كـان الملـك رجـلاً قوي البنية، ويرتدي درعاً يناسب جسده تماماً. كانت قطع الحديـد مـصقولة تماماً ولمعت في الشمس. على ردفه، كان يضع سيفاً بقبضة مزينة

بالمجوهرات وتساءل جنكيز إن كان قد شهره بنوبة غضب من قبل. ارتفعت الموسيقى عند ظهوره، واكتشف جنكيز أنه يستمتع بالعرض.

أومأ ملك كزي كزيا إلى حارسين، وابتعدا عن السُرادق، ليأخذا موقعين إلى جانبـيه. عندها فقط مشى الخطوات القليلة إلى السُرادق. نهض جنكيز ومرافقوه لتحيته.

قـال راي تـشيانغ مـع إمالة رأسه: "مولاي الخان". كانت لهجته غريبة، وقال الكلمات كما لو أنه يحفظها من دون فهم.

رد جنكيـز: "صـاحب الجلالة". استعمل كلمة كزي كزيا التي كان بارشوك قد علّمه إياها. لسعادته، رأى وميض اهتمام يظهر في عيني الملك. للحظة قصيرة، تمنّى جنكيز لو أن والده كان حياً ليراه يلتقي ملكاً في أرض غريبة.

اتخـذ الحارسـان موقعـين في مواجهة كشيون وأرسلان، وكان واضحاً أنهما يحـددان الـرجلين اللذين سيشتبكان معهما في حال وقوع مشكلة. من جانبهما، حدّق إلـيهما القائـدان دونمـا اكتراث. كانا مجرد شاهدين على اللقاء، لكن لم يكن أي من الرجلين ليؤخذ على حين غرة. إن كان الملك قد خطط لموتهم، فلن ينجو من ذلك.

تقطب حاجبا أرسلان من الفكرة المفاجئة. لم يكن أحدهم قد شاهد الملك من قبل. إن كان هذا الشخص محتالاً، يمكن لجيش ينشوان أن يسحق السُرادق من الجدران ولا يخسر سوى بعض الرجال الأوفياء. حدّق إلى هو سا ليرى إن كان متوتراً بشكل غير اعتيادي، لكن لم تظهر على الرجل أي علامة على توقع موت وشيك.

بـدأ راي تـشيانغ الكلام بلغة شعبه. كان صوته حازماً، كما يتوقع من شخص اعـتاد علـى الـسلطة. قابل نظرة جنكيز بواحدة مماثلة ولم يبدُ أن أي من الرجلين سـتطرف عيـنه. عندما أنهى الملك الكلام، تنحنح هو سا، وكان وجهه خالياً من أي تعبير بينما كان يترجم كلمات الملك.

"لماذا أتلف اليوغر أرض كزي كزيا؟ ألم نتعامل معكم بإنصاف؟".

أصدر بارشوك صوتاً من حنجرته، لكن نظرة الملك لم تترك جنكيز أبداً.

رد جنكيز: "أنا خان كل القبائل يا صاحب الجلالة. قبيلة اليوغر بيننا. نقاتل لأننا نتمتع بالقوة لنحكم. ماذا غير ذلك؟".

تقطـب حاجـبا الملـك بينما كان يستمع إلى ترجمة هو سا. كان رده متزناً ولم يحمل أي إشارة على غضبه.

"هـل ستمكث خارج مدينتي حتى نهاية العالم؟ هذا غير مقبول يا مولاي الخان. ألا يفاوض شعبك في الحرب؟".

انحنـــى جنكيـــز إلى الأمام وقد ازداد اهتمامه. "لن أفاوض إمبراطورية تشن يا صـــاحب الجلالة. شعبك عدو لنا منذ نشأت الأرض، وسأشهد تحويل مدنكم إلى غبار. أرضكم لي، وسأسير فيها طولاً وعرضاً كيفما أشاء".

انتظر جنكيز بصبر بينما كان هو سا يترجم الكلمات لملكه. كان كل الرجال في الخـيمة يـرون الانطباع المفاجئ الذي ارتسم على محيا راي تشيانغ عندما سمعها. جلـس منتـصباً وأصـــبح كلامه موجزاً. وقد ظهر التوتر على وجه جنكيز، وتأهب بانتظار أن يتكلم هو سا. بدلاً من ذلك، كان بارشوك من تولى الترجمة.

قال بارشوك: "يقول إن شعبه ليس من عرق تشن. إذا *كانوا* أعداءك، لماذا تتأخر هـنا في وادي كزي كزيا؟ تقع مدن تشن العظيمة إلى الشمال والشرق". أومأ بارشوك لنفسه عندما تكلم الملك مجدداً.

"أعـتقد أنهـم لم يعودوا أصدقاء كما كانوا من قبل، يا مولاي الخان. لن يشعر الملك بالانزعاج إذا قمت بشن حرب على مدن تشن".

زمّ جنكيز شفتيه مستغرقاً في أفكاره.

قال: "لماذا سأترك عدواً خلف ظهري؟".

تكلم راي تشيانغ مجدداً حالما فهم ما سمع. كان هو سا قد أصيب بالشحوب بينما كان يستمع، لكنه تكلم قبل أن يستطيع بارشوك ذلك.

"اتـرك حلـيفاً يا مولاي الخان. إذا كان عدوك الحقيقي هو تشن، سنرسل جزية لقـبائلك طالما كنا مرتبطين معاً كأصدقاء". ابتلع هو سا ريقه بعصبية. "يعرض ملكي حريـراً، وصـقوراً، وحجارة ثمينة، وإمدادات، ودروعاً". سحب نفساً عميقاً. "جمالاً، وجياداً، وملابسَ، وشاياً، وألف قطعة نقدية من البرونز والفضة يتم دفعها كل سنة. إنه يقدم العرض إلى حليف لن يعتبره عدواً".

تكلـم راي تـشيانغ مجدداً، بنفاد صبر، وأصغى هو سا السمع. تسمّر في مكانه تمامـاً بيـنما كان ملكه يتكلم وجرؤ على طرح سؤال. أشار راي تشيانغ بيده، وأحنى هو سا رأسه، منزعجاً بشكل واضح.

"إضافة إلى ذلك، يعرض ملكي عليك تزويجك بابنته تشاكاهي".

طـرفت عينا جنكيز، يفكر في الأمر. تساءل إن كانت الفتاة قبيحة للغاية حتى لم يتـزوجها أحـد من شعب كزي كزيا. كانت الهبة ستسعد القبائل وتبعد زعماء القبائل الـصغيرة عن حياكة المكائد. لم تكن فكرة الجزية جديدة على القبائل، على الرغم من أنهـم لـم يكونوا من قبل في موقع للمطالبة بها من عدو ثري حقاً. كان يفضل رؤية حجارة المدينة تدك، لكن لم يستطع أحد من رجاله اقتراح خطة ربما تكون ناجعة. هز

جنكيز كتفيه دونما اهتمام. إذا اكتشف يوماً طريقة للقيام بذلك، يمكن أن يعود. حتى ذلك الوقت، سيتركهم يعتقدون أنهم قد اشتروا السلام. يمكن حلب المعزاة عدّة مرات، لكن لا يمكن قتلها سوى مرة واحدة فقط. كان كل ما تبقى هو التوصل إلى أفضل صفقة يستطيع إبرامها.

قال ساخراً: "قل لسيدك إن كرمه مقبول لدينا. إذا استطاع إضافة ألفين من أفضل جنوده، مسلحين جيداً مع جيادهم، سأترك الوادي قبل حلول الظهيرة. سيقوم رجالي بتفكيك الحصن القائم على ممر الصحراء. لا يحتاج الحلفاء إلى أسوار بينهم".

بدأ هو سا يترجم، وتذكر جنكيز اهتمام بارشوك بمكتبات كزي كزيا. توقف هو سا ليسمع عندما تكلم جنكيز مجدداً، مقاطعاً تدفق كلماته.

قال جنكيز: "بعض رجالي علماء. سيستمتعون بالحصول على فرصة قراءة رقاع كتابات كزي كزيا". بينما كان هو سا يفتح فمه، تابع جنكيز قائلاً: "لكن ليس الفلسفة. أشياء عملية، وموضوعات تهم المحارب، إذا كانت لديكم".

لم يكن ممكناً تفسير تعبير وجه راي تشيانغ بينما كان هو سا يكافح لتكرار كل ما سمعه. بدا أن اللقاء على وشك الانتهاء، ولم يقدم راي تشيانغ عرضاً آخر. في ذلك، رأى جنكيز يأسه. كان على وشك أن ينهض عندما قرر تجريب حظه.

"إذا أردت دخول مدن تشن، سأحتاج إلى أسلحة تهدم الأسوار. اسأل ملكك إن كان يستطيع تقديم تلك الأسلحة مع كل الباقي".

تكلم هو سا بعصبية، وشعر بغضب راي تشيانغ عندما فهم ما كان يقال. بتردد، هزّ رأسه.

قال هو سا، من دون أن ينظر إلى عيني جنكيز: "يقول ملكي إن عليه أن يكون أحمق".

رد جنكيز مبتسماً: "نعم، لا بد أن يكون كذلك. لقد جفت الأرض ويمكنكم تحميل الهدايا على عربات جديدة، لها محاور تم تشحيمها بشكل جيد لقطع رحلة طويلة. يمكنك أن تقول لملكك إنني سعيد بعرضه. سأظهر تلك السعادة لتشن".

ترجم هو سا ولم تظهر على وجه راي تشيانغ أي علامة على رضاه. نهض كل الرجال معاً، وغادر جنكيز ومرافقوه أولاً، تاركين راي تشيانغ وهو سا وحدهما مع الحراس. شاهدوا قادة المغول يمتطون جيادهم ويقودونها مبتعدين.

فكّر هو سا في البقاء صامتاً، لكن كان لديه سؤال واحد بعد ينبغي عليه أن يطرحه. "يا صاحب الجلالة، ألم ننقل الحرب إلى تشن؟".

ألقـى راي تشيانغ نظرة باردة على ضابطه. "ينكينغ على بعد ألف ميل وتحدّها الجبال وتحرسها الحصون التي تجعل ينشوان تبدو مثل بلدة صغيرة. لن يستولي على مـدنهم". ارتعـش فم الملك قليلاً، على الرغم من أن تعبير وجهه كان جامداً. "علاوة على ذلك، إن من مصلحتنا أن يهاجم أعداؤنا بعضهم. أين يكمن الخطر بالنسبة لنا في ذلك؟".

لم يكن هو سا حاضراً في اجتماع الوزراء، ولم يفهم الكلمات.



كان المزاج بين القبائل احتفالياً تقريباً. كان صحيحاً أنهم لم يستولوا على المدينة الحجـرية التـي تلـوح من بعيد، لكن إن تدمّر المحاربون من ذلك، ستكون عائلاتهم مسرورة من الحرير والغنائم التي كسبها جنكيز لهم. كان قد مر شهر منذ لقاء الملك، وكانـت العـربات قد جاءت من المدينة. لعبت الجمال مع الفتية وبصقت بين قطعان الأغـنام والماعز. كان بارشوك قد اختفى في خيمته مع كوكشو وتيموج لتفكيك رموز كـتابات شعب كزي كزيا الغريبة. كان راي تشيانغ قد قدّم رقاعاً بنصوص تشن بناءً على رغبتهم، لكن ذلك كان عملاً مجهداً.

كـان الشتاء قد حل أخيراً، على الرغم من أنه كان معتدلاً في ذلك الوادي. كان خاسـار وكـشيون قد بدأا تدريب المحاربين الذين قدّمهم راي تشيانغ لهم. كان جنود كـزي كـزيا قد احتجوا على تجريدهم من جيادهم الرائعة، لكن تلك الحيوانات كانت أفـضل مـن أن يتم تخصيصها لرجال لا يجيدون امتطاءها أكثر من الأولاد المغول. بـدلاً مـن ذلك، تم منحهم جياداً احتياطية من القطعان. عندما مرّت الأسابيع وأصبح الجـو أكثـر بـرودة، تعلموا كيف يتعاملون مع الحيوانات القاسية السيئة المزاج في الصف الحربي. جهّز الجيش نفسه للتحرك، لكن جنكيز أصيب بالقلق في خيمته بينما كـان ينتظـر أن يرسل له راي تشيانغ آخر الجزية وابنته. لم يكن يستطيع أن يتوقع كيف ستستقبل بورت الأنباء. كان يأمل بأن تكون أميرة كزي كزيا جذّابة، على الأقل.

في اليوم الأول من الشهر الجديد، جاءت محمولة في محفّة شبيهة جداً بتلك التي استعملها والدها للحضور إلى اللقاء. راقب جنكيز بينما كان حرس الشرف المؤلف من مـئة رجل يحافظون على تشكيل قريب حولها. أسعده أن الجياد لم تكن جيدة جداً كما كان يتوقع. لم يكن راي تشيانغ ينوي خسارة تلك الجياد أيضاً، حتى لمرافقة ابنته.

تم وضع المحفّة على الأرض على بعد خطوات فقط من جنكيز بينما كان ينتظر بدرعه الكامل. كان سيف والده على ردفه ومسّه طلباً للحظ، مسيطراً على نفاد صبره.

لاحظ أن جنود المدينة كانوا غاضبين لأنهم اضطروا لمنحها له، وابتسم بسعادة غامرة ســاخراً منهم، وتركهم يتجرعون الإحباط. كما طلب، كان هو سا قد خرج من المدينة معهم. كان تعبير وجهه، على الأقل، جامداً ونال ذلك استحسان جنكيز، لأنه لا يظهر شيئاً من مشاعره الداخلية.

عــندما خطــت ابــنة الملك بقدمها على الأرض، كانت هناك تمتمة إعجاب من المحاربين الذين كانوا قد تجمعوا لمشاهدة تلك العلامة الأخيرة على انتصارهم. كانت ترتدي ثوباً من الحرير الأبيض المطرز بالذهب، لهذا لمعت في الشمس. كان شعرها مــربوطاً إلـــى أعلى رأسها بدبابيس من فضة، وسحب جنكيز نفساً من الجمال الآخّاذ لجلــدها الأبيض. مقارنة بنساء شعبه، كانت حمامة بين غربان، على الرغم من أنه لم يقل ذلك بصوت عال. كانت عيناها بركتين داكنتين من اليأس بينما كانت تمشي نحوه. لم تنظر إليه، لكنها بدلاً من ذلك جثت بأناقة على الأرض، وشبكت معصميها أمامها.

شــعر جنكيــز بالغــضب يتصاعد من جنود والدها، لكنه تجاهلهم. إذا تحركوا، سيقتلهم رماة سهامه قبل أن يستطيعوا شهر سيف واحد.

قــال جنكيــز بلطــف: "أهلاً بك في خيمتي يا تشاكاهي". تمتم هو سا الترجمة، بــصوت يكــاد يكون همساً. مدّ جنكيز يده ليمس كتفها فنهضت، ووجهها خالٍ من أي تعبيــر. لم تكن تتمتع بالقوة التي كان يتوقعها من نسائه وشعر بنفسه يرتفع في الهواء عندما وصل شذا عطرها إلى منخاريه.

قــال مانحاً إياها شرفاً أمام محاربيه، على الرغم من أنها لم تستطع فهم كلماته: "أعتقد أنك أكثر قيمة من كل هدايا والدك الأخرى". بدأ هو سا يتكلم، لكن جنكيز أشار إليه بحركة حادة كي يصمت.

مــدّ يــداً جعلتها الشمس داكنة، وتعجب من التفاوت بينما كان يرفع ذقنها حتى تنظر إليه. استطاع رؤية خوفها وشيئاً من الاشمئزاز أيضاً عندما شعرت بجلده القاسي يمس جلدها.

قال: "لقد أبرمت صفقة جيدة أيتها الفتاة. ستلدين لي أطفالاً رائعين". كان صحيحاً أنهــم لـــن يكونـــوا ورثة له، لكنه وجد نفسه منجذباً إليها. لم يكن يستطيع إبقاءها في الخــيمة نفــسها مـــع بورت وأولاده، كما أدرك. لن تنجو مثل تلك الفتاة الرقيقة جداً. سيأمر ببناء خيمة أخرى لها وحدها وللأطفال الذين ستنجبهم.

انتــبه إلى أنه كان يقف صامتاً لوقت طويل وأن القبائل تراقب رد فعله باهتمام متــزايد. دفـــع المحاربون بالمرافق وهمسوا إلى أصدقائهم وهم يبتسمون بعضهم إلى بعض. رفع جنكيز بصره إلى الضابط الذي يقف مع هو سا. كان كلا الرجلين شاحبين

وغاضـبين، لكن عندما أشار لهما جنكيز بالعودة إلى المدينة، استدار هو سا بحدة مثل الآخرين. أصدر له الضابط أمراً، وفغر هو سا فمه دهشة.

قال له جنكيز، مسروراً بدهشته: "أنت من أريد يا هو سا. لقد منحني إياك ملكك لسنة".

تحـول فـم هو سا إلى خيط رفيع عندما فهم ما يجري. بعينين مريرتين، شاهد باقـي المرافقين يعودون إلى المدينة، ويتركونه هناك مع الفتاة المرتعشة التي كان قد جاء بها لمنحها إلى الذئاب.

استدار جنكيز ليواجه الريح من الشرق، استنشق رائحتها وتخيل مدن تشن وراء الأفق. كانت لديهم أسوار لا يمكن تحطيمها ولن يخاطر بشعبه مجدداً بجهل.

قـال هو سا فجأة، وكانت الكلمات تخرج منه في الصمت الذي بدا أن جنكيز لا يشعر به: "لماذا طلبتني؟".

"ربما سنجعل منك محارباً". بدا أن جنكيز وجد الفكرة مسلية وضرب ساقه. نظر هو سا من دون أي انفعال إليه حتى هزّ جنكيز كتفيه استخفافاً.

"سترى".

* * *

كـان المعـسكر صاخباً بصوت تفكيك الخيام بينما كانت القبائل تستعد للتحرك. عندما حل منتصف الليل، لم تبقَ سوى خيمة الخان واقفة من دون أن يمسها أحد على عـربتها الكبيرة، مضاءة من الداخل، وكانت تتوهج في الظلام ويمكن رؤيتها من قبل كل أولئك المستلقين على دثارهم وفرائهم للنوم تحت النجوم.

انحنـى جنكيـز فـوق طاولـة منخفضة، ينظر إلى خريطة في الأسفل. كانت مرسومة على ورق سميك، ورأى هو سا أخيراً أنها منسوخة على عجل من مجموعة راي تـشيانغ. كان ملك كزي كزيا رجلاً شديد الحذر حتى يترك خريطة تحمل ختمه تقـع في أيدي إمبراطور تشن المدعو وي. كانت حتى الأحرف بلغة تشن، ومنسوخة بعناية.

أمال جنكيز رأسه إلى جانب ثم إلى الآخر بينما كان يحاول تخيل خطوط ورسوم المـدن أماكن حقيقية. كانت أول خريطة حقيقية يراها على الإطلاق، على الرغم من أنه بحضور هو سا لم يكن ليكشف قلة خبرته.

مـرّر جنكيـز إصبعه الداكن على طول خط أزرق نحو الشمال. قال: "هذا هو النهر العظيم الذي وصفه المستطلعون". رفع عينيه الشاحبتين إلى هو سا مستفسراً.

أجــاب هــو سا: "هوانغ هي. النهر الأصفر". أوقف نفسه عند ذلك، وامتنع عن المــتابعة بحضور قادة جيش المغول. كانوا يملأون الخيمة: أرسلان، خاسار، كشيون، وآخــرون لا يعرفهم. كان هو سا قد تراجع عن كوكشو عندما عرّفه جنكيز به. كان الكاهن العرّاف النحيل يذكّره بمتسولي ينشوان المخبولين، وانتشرت رائحته في الخيمة حتى وجد هو سا نفسه مضطراً لأن يحبس أنفاسه.

راقــب كل أولئك الحاضرون بينما كان جنكيز يسحب إصبعه شمالاً وشرقاً على طول النهر حتى توقفت عند رمز صغير ونقرت عليه.

تمــتم جنكيز: "هذه المدينة هنا على طرف أراضي تشن". نظر مرة أخرى إلى هو سا لتأكيد ما يقوله، وأومأ الضابط متردداً.

قــال كوكشو وهو يقرأ الاسم تحت الرسم الصغير: "باوتو". لم ينظر هو سا إلى الكاهن العرّاف، واستقر بصره عند جنكيز الذي ابتسم.

سأل جنكيز: "هذه العلامات إلى الشمال، ما هي؟".

رد هو سا: "إنها قسم من السور الخارجي".

تقطب حاجبا جنكيز مندهشاً. "لقد سمعت بذلك الشيء. إن أبناء تشن يختبئون منا خلفه، أليس كذلك؟".

كظــم هــو سا غيظه. "إنهم لا يختبئون. لم يتم بناء السور من أجلك، وإنما لإبقاء مملكتي تشن منفصلتين. لقد عبرت أضعف الاثنتين. لن تعبر السور الداخلي حــول ينكينغ. لم يسبق لأحد أن نجح في ذلك". كشّر جنكيز لدى سماعه ذلك، قبل أن يــستدير إلـــى الخلف لدراسة الخريطة. حدّق به هو سا، غاضباً من ثقة الخان المفرطة.

عــندما كان فتى، كان هو سا قد سافر مع والده إلى النهر الأصفر. كان الرجل العجــوز قــد جعلــه يرى سور تشن إلى الشمال، وحتى في ذلك الوقت، كانت هناك فجــوات فيه وأقسام تحولت إلى أنقاض. لم تكن هناك صيانة له منذ عقود. بينما كان جنكيز يشير بإصبعه إلى المخطوط، تساءل هو سا كيف أصبح أبناء تشن غير مبالين بأمــنهم. لم تكن لسورهم الخارجي أي قيمة – ابتلع ريقه بعصبية – خاصة أن القبائل كانــت خلفــه آنذاك. كانت كزي كزيا نقطة الضعف وقد تدفقت القبائل جنوباً. اعتمل العار في نفسه بينما كان يتفحص جنكيز، متسائلاً عما يخطط له.

تفوه هو سا من دون سابق إنذار: "هل ستهاجم باوتو؟".

هــزّ جنكيــز رأســه. "وأصرخ خارج الأسوار كما فعلت هنا؟ لا. سأذهب إلى موطني في جبال خينتي. سأسير إلى تلال طفولتي، أطلق نسري وأتزوج ابنة ملكك".

انفـرجت أسـاريره مـن تلك الفكرة. "ينبغي أن يعرف أبنائي الأرض التي أنجبتني وسيصبحون أقوياء هناك".

رفع هو سا بصره عن الخريطة محتاراً.

"إذاً، ما هذا الكلام عن باوتو؟ لماذا أنا هنا؟".

"قلت إنني ذاهب إلى وطني يا هو سا. لن تذهب *أنت*. تلك المدينة بعيدة جداً عن هـنا لتخاف جيشي. ستكون أبوابهم مفتوحة وسيدخل التجار ويخرجون كما يشاؤون".

رأى هو سا أن أرسلان وخاسار يبتسمان وأرغم نفسه على التركيز.

ربت جنكيز على كتفه. "سيكون في مدينة محاطة بأسوار مثل باوتو بناة ماهرون في مهنتهم، أليس كذلك؟ رجال يفهمون كل أشكال الدفاعات".

لم يرد هو سا، وضحك جنكيز بصوت خافت.

"لن يمنحهم لي ملكك، لكنك ستجدهم هناك يا هو سا. ستسافر إلى باوتو تلك مع خاسار وشقيقي تيموج. يمكن لثلاثة رجال الدخول إلى حيث لا يستطيع جيش. ستطرح أسـئلة حتى تعثر على هؤلاء الرجال الذين يبنون الأسوار وتعرف العديد من الأشياء المفيدة. وستجلبهم لي".

لاحظ هو سا أنهم جميعاً يبتسمون عندها، سعيدين بتعبير وجهه الخائف.

قـال جنكيـز بهدوء: "أو سأقتلك الآن وأطلب شخصاً آخر من ملكك. ينبغي أن يكـون للـرجل دائماً الخيار الأخير في الحياة والموت. يمكن أخذ كل شيء آخر منه، لكن ليس ذلك الشيء أبداً".

تذكـر هو سا كيف لقي مرافقوه حتفهم من أجل الجياد التي كانوا يمتطونها، ولم يشك بأن حياته معلقة على كلمة واحدة.

قال أخيراً: "أنا ملزم بطاعتك وفقاً لأمر ملكي".

تأفف جنكيز واستدار عائداً إلى الخريطة.

"إذاً، أخبرني عن باوتو وأسوارها. قل لي كل ما كنت قد سمعته أو رأيته".

كـان المعسكر ساكناً عند الفجر، لكن الضوء كان لا يزال يخفق ذهبياً في خيمة الخـان واسـتطاع أولـئك الذين استلقوا بالقرب منها على العشب البارد سماع تمتمة الأصوات مثل طبول حرب بعيدة.

# الفصل العاشر



اقتـــرب الفرسان الثلاثة من حافة نهر داكن، ترجلوا بينما بدأت جيادهم تشرب. بـــدا القمـــر كبيراً ومعلقاً على ارتفاع منخفض فوق التلال، يعكس ضوءاً رمادياً ينير الـــصحراء الواسعة. كان السطوع كافياً لتشكيل ظلال سوداء خلف الرجال بينما كانوا يحدّقون إلى أشكال قوارب صغيرة في ميناء صغير، تهتز وتتمايل في الليل.

ســـحب خاسار قطعة قماش كتانية من حيث كان قد وضعها تحت سرجه. كانت رحلـــة النهار قد جعلت اللحم داخلها طرياً، ومدّ يده إليها، وسحب قطعة منها وضعها فـــي فمـــه. كانت رائحتها كريهة، لكنه كان جائعاً فمضغها ببطء بينما كان ينظر إلى مـــرافقيه. كان تيموج متعباً بما فيه الكفاية ليترنح قليلاً عندما وقف إلى جانب شقيقه، وعيناه مثقلتان بتوق إلى النوم.

تمـــتم هـــو سا: "يبقى البحارة بعيدين تماماً عن الشاطئ في الليل. إنهم يخافون قطّاع الطرقات في الظلام، ولا بد أن يكونوا قد سمعوا بجيشكم إلى الغرب. ينبغي أن نجد مكاناً ننام فيه ونتابع الطريق في الصباح".

قال خاسار: "ما زلت لا أفهم لماذا تريد استعمال النهر للوصول إلى باوتو". ابتلع هـــو ســـا غضبه. كان قد أوضح ذلك ست مرات منذ مغادرتهم القبائل، لكن كان من الصعب التغلب على ارتباط المحارب المغولي بجواده.

رد محافظاً على هدوء صوته: "قيل لنا ألا نلفت الانتباه لأنفسنا، وأن ندخل باوتو بصفة تجار أو زوّار. لا يمتطي التجار جياداً مثل نبلاء تشن، ولا يأتي الزوّار ومعهم جواد واحد".

قـــال خاسار بعناد: "سيكون الأمر أسرع. إذا كانت الخريطة التي رأيتها دقيقة، يمكننا قطع النهر والوصول إلى هناك في غضون بضعة أيام".

قـــال هو سا بحدّة: "ويشاهدنا كل قروي في الحقول وكل مسافر على الطرقات". شعر بأن خاسار انزعج من نبرة صوته، لكنه كان قد تحمّل تذمره بما يكفي. "لا أعتقد أن شقيقك يرحب بفكرة قطع مسافة ألف لي عبر أرض مكشوفة".

تأفف خاسار، لكن كان تيموج من رد.

"معـه حـق فـي ذلك يا شقيقي. سيأخذنا هذا النهر العظيم شمالاً إلى باوتو وسنـضيع فـي حـشد مـن المسافرين. لا أريد أن نشق طريقنا عبر جنود تشن المشككين".

لـم يكن خاسار يثق بأنه يستطيع الرد. في البداية، كان يشعر بالإثارة من فكرة التـسلل بـين شـعوب تشن، لكن تيموج كان يمتطي جواده مثل امرأة عجوز متيبسة المفاصـل ولـم يكن مرافقاً مناسباً لمحارب. كان هو سا أفضل قليلاً، لكن بعيداً عن جنكيـز، كـان الغضب من المهمة التي تم تكليفه بها قد جعله مرافقاً فظاً. كان الأمر أسوأ عندما أخذ تيموج وهو سا يثرثران بلغة تشبه زقزقة العصافير ولم يستطع خاسار مجاراتهمـا في ذلك. كان قد طلب من هو سا تعليمه شتائم وإهانات، لكن الرجل حدّق إلـيه فقـط. بعـيداً عن كونها مغامرة، كانت الرحلة تتحول إلى منافسة في الشجار، وأرادهـا أن تنتهي بأسرع ما يمكن. كانت فكرة الصعود ببطء إلى أحد تلك القوارب الغارقة في الظلال قد جعلت مزاجه أكثر سوءاً.

شرع بالقول: "يمكننا جعل الجياد تقطع النهر سباحة الليلة، ثم...".

زفـر هو سا بقوة، ثم قال بحدّة: "سيجرفك التيار! إنه النهر الأصفر، وهناك لي كاملة من ضفة إلى أخرى وتلك ليست مسافة قصيرة. إنه ليس أحد جداول المغول. لا يوجد مراكب نقل هنا وفي الوقت الذي نكون قد وصلنا فيه إلى شيزويشان لحجز مكان علـى أحـدها، سـيكون قد تم الإبلاغ عن رحلتنا. أبناء تشن ليسوا حمقى يا خاسار. سـيكون لديهم جواسيس يراقبون الحدود. لن يكون ممكناً تجاهل ثلاثة رجال يمتطون جيادهم".

تأفـف خاسـار بينما كان يضع قطعة أخرى من لحم الضأن في فمه ويمضغها. قال: "النهر ليس عريضاً جداً. يمكنني إرسال سهم فوقه".

رد هو سا مباشرة: "لا يمكنك ذلك". شدّ قبضتيه عندما مدّ خاسار يده إلى قوسه، وقال: "ولن نراه يصل إلى الأرض في الظلام".

ردّ خاسار بسرعة: "سأريك إذاً في الصباح".

سـأل هـو سا: "وكيف سيساعدك ذلك؟ هل تعتقد أن البحّارة سيتجاهلون رامياً مغولياً يطلق السهام فوق نهرهم؟ لماذا أرسلك شقيقك للقيام بهذا العمل؟".

تـرك خاسار يده تبتعد عن حيث كان يقبض على قوسه. استدار إلى هو سا في ضـوء القمر. في الحقيقة، كان قد تساءل عن الشيء نفسه، لكنه لن يعترف أبداً بذلك لهو سا أو لشقيقه المهتم بالدراسة.

قـال: "الحمايــة تـيموج، كما أتخيل. إنه هنا لتعلم لغة تشن وحتى أتأكد أنك لن تخونــنا عــندما نصل إلى المدينة. أنت هنا حتى تتكلم فقط وقد أثبتّ ذلك مرات كافية اليوم. إذا هاجمنا جنود تشن، سيكون قوسي أكثر أهمية من فمك".

تنهد هو سا. لم يكن يريد أن يفتح الموضوع، لكن مزاجه كان سيئاً ويشعر بالقلق أيضاً.

"سيكون عليك ترك قوسك هنا. يمكنك دفنه في طين النهر قبل الفجر".

أطبق الصمت على خاسار لدى سماعه ذلك. قبل أن يستطيع التعبير عن غضبه، وضع تيموج يده على كتفه لتهدئته، وشعر به يهتز.

"إنه يعرف هؤلاء الناس يا شقيقي، وقد حافظ على ولائه لنا حتى الآن. ينبغي أن ننتقل عبر النهر، وسيثير قوسك الشبهات منذ البداية. لدينا برونز وفضة لشراء بضائع علــى طــول الطريق لهذا سيكون لدينا شيء نقايض به في باوتو. التجار لن يحملوا أقواساً مغولية".

رد خاســار: "يمكــن أن نتظاهــر بأننا نريد بيعه". في الظلام، وضع يده على الــسلاح الذي كان مربوطاً بسرجه كما لو أن تلك اللمسة تجعله يرتاح. "سأتخلى عن جــوادي، نعــم، لكنني لن أتخلى عن قوسي، ليس من أجل اثنتي عشرة رحلة نهرية سرية. لا تختبراني في ذلك، لأن جوابي سيكون نفسه بغض النظر عما تقولانه".

بــدأ هو سا الجدال مجدداً، لكن تيموج هزّ رأسه، متعباً من كليهما. قال: "اترك الأمر يا هو سا. سنلف القوس في الملابس وربما لن يلاحظه أحد". أبعد يده عن كتف خاســار وابــتعد عــنه لتحرير فرسه من عبء السرج واللجام. كان دفن تلك الأشياء يــتطلب وقــتاً، ولــم يكن يستطيع المخاطرة بالخلود إلى النوم قبل إنجاز ذلك العمل. تــساءل مجــدداً لماذا اختاره جنكيز لمهمة مرافقة المحاربين. كان هناك آخرون في المعــسكر يعــرفون لغــة تشن، وكان بينهم بارشوك اليوغر. ربما كان ذلك الشخص طاعناً في السن، كما فكر تيموج. تنهد بينما كان يفك الحبال عن فرسه. نتيجة معرفته بشقيقه، كان تيموج يشك بأن جنكيز لا يزال يأمل بأن يصنع منه محارباً. كان كوكشو قد أطلعه على درب مختلف وتمنّى لو أن معلّمه هناك لمساعدته في التأمل قبل النوم.

بيــنما كــان يقود الجواد نحو ظلمة أشجار النهر، سمع تيموج مرافقيه يستأنفان جــدالهما بهمــسات حــادّة. تساءل إن كانت لديهم فرصة للنجاة من الرحلة إلى مدينة باوتو. بعد أن دفن السرج، واستلقى على ظهره، حاول جاهداً إبعاد الأصوات المتعبة عــنه، مكــرراً العبارات التي كان كوكشو قد قال له إنها تجلب السكينة. لكنها لم تُجد نفعاً، والنوم جاء بينما كان لا يزال ينتظر.

في الصباح، رفع هو سا ذراعه إلى قارب آخر يسير بعكس اتجاه الرياح نحو أعلى النهـر. كان قد تم تجاهل الإشارة تسع مرات من قبل، على الرغم من أنه كان يحمل كيساً جلـدياً مـن النقود ويخشخش المحتويات. تنفس الثلاثة الصعداء عندما غير القارب الأخير اتجاهه فوق الماء نحوهم. على متنه، كانت ستة وجوه لفحتها الشمس تحدق بشبهة نحوهم.

تمتم هو سا لتيموج بينما كانوا يقفون في الطين وينتظرون اقتراب القارب منهم: "لا تقـل شيئاً لهم". كان والشقيقان يرتدون أثواباً بسيطة مربوطة إلى الخصر ولا تبدو غـريبة جـداً لأطقم قوارب النهر. كان خاسار يحمل لفة من قماش السرج على أحد كتفـيه تحـتوي علـى قوسـه بغطائه الجلدي وكنانة كاملة. حدّق إلى القارب ببعض الاهتمام، ولم يكن قد شاهد أبداً مثل ذلك الشيء في ضوء النهار من قبل. كان ارتفاع الـشراع مساوياً لطول القارب، وربما يبلغ 40 قدماً من الطرف إلى الآخر. لم يعرف كيف استطاع الاقتراب منهم بما يكفي ليصعدوا على متنه.

قال: "يبدو الشراع مثل جناح طائر. يمكنني رؤية عظامه".

استدار هو سا بحدّة نحوه. "إذا سألوا، سأقول إنك أبكم يا خاسار. ينبغي ألا تتكلم مع أي منهم. هل تفهم؟".

عبس خاسار بوجه جندي كزي كزيا. "أفهم أنك تريد مني قضاء أيام من دون أن أفتح فمي. أقول لك، عندما ينتهي هذا، سنذهب أنا وأنت إلى مكان ما بهدوء...".

قال تيموج: "صه! لقد اقتربوا بما يكفي لسماعنا". صمت خاسار على الرغم من أنه نظر إلى هو سا وقتاً كافياً حتى جعله يحني رأسه له.

نفّـذ القـارب مناورة بالقرب من الضفة، ولم ينتظر هو سا مرافقيه، خاض في المـاء الـضحل وتقدم نحوه. تجاهل اللعنة التي تمتمها خاسار خلفه بينما كانت يدان قويتان تسحبانه إلى القارب.

كـان قبطان القارب رجلاً قصيراً وهزيلاً، مع قطعة قماش حمراء ملفوفة حول رأسـه لإبعاد العرق عن عينيه. بالإضافة إلى ذلك، كان عارياً إلاّ من مئزر بني، مع سـكينتين يـضعهما على ردفه. تساءل هو سا للحظة إن كانوا قد قابلوا أحد مراكب القراصـنة التي يقال إنها تُغير على القرى على طول النهر، لكن الوقت كان قد فات على تدارك الهواجس.

سـأل القبطان وهو يمد يده ليضرب هو سا على صدره بمؤخر يده: "هل يمكنك أن تدفـع؟". بيـنما كان يتم سحب خاسار وتيموج إلى القارب، دفع هو سا ثلاث قطع نقدية برونزية دافئة في راحة الكف الممدودة. نظر الرجل القصير عبر الثقب الموجود في وسط كل منها، قبل أن يربطها بخيط تحت حزامه.

قـال وهو يحدّق بينما كان خاسار يعدّل وقفته: "أنا شن يي". كان المغولي أطول مـن أي بحار، وتقطب حاجباه كما لو أنه تعرض لإهانة. تنحنح هو سا ونظر شن يي إليه، وقد أمال رأسه إلى أحد الجانبين.

قـال شـن يي: "سنصل إلى شيزويشان". هزّ هو سا رأسه، ومدّ يده بالمزيد من النقود. راقب شن يي عن كثب عندما سمع صوت المعدن.

قال هو سا، وهو يمد يده بالنقود: "ثلاثة أخرى لأخذنا إلى باوتو".

أخذ القبطان النقود بسرعة، وأضافها إلى الخيط المربوط بخصره بمهارة فائقة.

قال: "ثلاثة أخرى للوصول إلى أعلى النهر".

كـافح هـو سـا للسيطرة على أعصابه. كان قد دفع آنذاك أكثر مما هو كاف للانتقال إلى المدينة. كان يشك بأن الرجل سيعيد المال إذا قرر انتظار قارب آخر.

قال بحزم: "لقد حصلت على ما يكفي".

نزلت عينا شن يي إلى حيث يحتفظ هو سا بماله تحت حزامه وهزّ كتفيه استخفافاً.

قال: "ثلاثة أخرى أو سأعيدكم من حيث جئتم".

وقـف هـو سـا ساكناً، من دون حراك وشعر بارتباك خاسار النزق بينما كان الحديث دائراً. كان هو ساو واثقاً أنه سيطرح سؤالاً في أي لحظة.

تمـتم هو سا: "أين ستجد نفسك في ما بعد في هذه الحياة؟ أتساءل". لدهشته، بدا شـن يي غير مهتم وهزّ كتفيه غير مبال. هزّ هو سا رأسه مندهشاً. ربما كان معتاداً تمامـاً علـى الجيش، حيث لم يكن أحد يتحدى سلطته. كان هناك هالة من الثقة تحيط بـشي يي الذي جلس منعزلاً بأسماله وقاربه الصغير المتسخ. حدّق هو سا بينما كان يسلّم النقود.

قال شن يي مبتهجاً: "المتسولون لا يذهبون إلى باوتو. ابتعدوا عن طريق رجالي فـيما نبحر عبر النهر". أشار إلى كومة من أكياس الحبوب في مؤخر القارب الصغير بجانب الدفة وشاهد هو سا خاسار يجلس عليها قبل أن يومئ إليه.

ألقى شن يي نظرة متشككة على تيموج وخاسار، لكن كانت لديه نقود جديدة في حـزامه تخشخش كلما تحرك. أصدر أوامر لتغيير الشراع نحو الرياح، وقطع القارب المـسافة الأولـى عبر النهر الذي سيأخذهم شمالاً إلى مقصدهم. كان القارب مزدحماً بالكثيـر مـن الأشخاص لكن لم تكن هناك حجرات. خمّن هو سا أن الطاقم ينام على سطح القارب في الليل، وبدأ يسترخي فيما تقدم خاسار إلى الحاجز المعدني وتبوّل في النهر بارتياح كبير. رفع هو سا عينيه إلى السماء بينما كان صوت القارب الذي يمخر الماء يصل إلى مسامعه.

أشـار اثـنان مـن الطـاقم إلى خاسار، وألقيا دعابة بذيئة، وربتا على ظهري بعـضهما وهمـا يضحكان. استشاط خاسار غضباً وتحرك هو سا بسرعة ليقف بين المحـارب والشخصين، محذّراً إياه بنظرة. راقب البحاران تبادل النظرات بابتسامات عريضة قبل أن يصرخ شن يي بأمر، وانطلقا إلى مقدمة السفينة ليرفعا الشراع.

قـال خاسار في إثرهما: "كلبان أصفران". كان شي يي في غمرة توجيه الشراع فـوق رأسه عندما سمع الكلمات. انقبض قلب هو سا عندما جاء قبطان القارب يمشي نحوهم.

سأل شن يي: "ما الذي قاله؟".

تكلم هو سا بهدوء: "إنه متدين. لا يتكلم لغة متمدنة. من يستطيع فهم مثل هؤلاء الناس؟".

رد شـن يـي: "لا يـبدو مثل متدين. أين لحيته؟". شعر هو سا بأن عيون أفراد الطاقم تراقبهم وقد وضع كل رجل يده هذه المرة قرب سكينه.

قـال هو سا، يمعن النظر في عيني شن يي: "كل التجار لديهم أسرار. هل أهتم بلحـية الـرجل عـندما تكون لدي ثروته للتجارة؟ تتكلم الفضة لغتها الخاصة، أليس كذلك؟".

ابتـسم شن يي ابتسامة عريضة. مدّ يداً، ووضع هو سا عملة نقدية فضية فيها، من دون أن يظهر على وجهه أي تعبير.

قـال شـن يي متسائلاً عن عدد القطع النقدية التي يحملها المحارب في أكياسه: "للفـضة لغتها الخاصة". مهما كان الذي يدّعيه الرجال الثلاثة، إلا أنهم ليسوا تجاراً. أشار شن يي إلى خاسار بإبهامه المتسخ.

"هـل هو أحمق إذاً حتى يثق بك؟ هل ستلقي به من القارب في إحدى الليالي مع سـكين فـي حنجـرته؟". لإزعاج هو سا، حرّك الرجل الهزيل إصبعه فوق حنجرته بإيمـاءة كان خاسار يراقبها باهتمام متزايد. تقطب حاجبا تيموج أيضاً وتساءل هو سا عمّا فهمه من المحادثة السريعة.

قـال هو سا للقبطان بسرعة، وكذلك لتيموج والآخرين: "لا أخون أي رجل متى منحـته وعـدي. وعلـى الرغم من أنه أحمق بالتأكيد، إلا أنه محارب يتمتع بمهارة عظيمة. احرص على ألا تهينه، وإلا لن أستطيع صدّه عنك".

حرّك شن يي رأسه مجدداً بإيماءة معتادة. لم يكن يثق بالرجال الذين صعدوا إلى القارب، وكان أحدهم أحمق ويبدو أنه يستشيط غيظاً. هزّ كتفيه من دون مبالاة أخيراً. ينام كل الرجال، وإذا سببوا له أي مشكلة، لن يكونوا المسافرين الأوائل الذين يلقى بهم

فـــي الماء خلف قاربه الصغير. أدار ظهره لهم بعد أن أشار إلى كومة من الأكياس. مرتاحاً أكثر مما يمكن للكلمات أن تصفه، انضم هو سا إلى الاثنين الآخرين في مؤخر السفينة. حاول جاهداً ألا يبدو عليه التعب.

لم ينتظر خاسار منه تقديم أي اعتذار. سأل: "ماذا قلت له؟".

ســحب هــو ســا نفساً عميقاً. "قلت له إنك مسافر من على بعد آلاف الأميال. اعــتقدت أنـــه ربما لم يسمع أبداً بالمتدينين، لكنه كان قد التقى أحدهم على الأقل في الماضـــي. يعتقد أنني أكذب، لكنه لن يطرح الكثير من الأسئلة. على الرغم من ذلك، يفسر ذلك لماذا لا تستطيع تكلم لغة تشن".

أخرج خاسار زفيراً، راضياً بما سمعه. قال مسروراً: "إذاً، لست رجلاً أبكم. لا أعــتقد أنني أستطيع التقيد بذلك". أسند ظهره على الأكياس، ودفع تيموج بمرفقه بعيداً عــنه ليجد مكاناً مريحاً. بينما كان القارب يصعد إلى أعلى النهر، أغلق خاسار عينيه وفكّر هو سا أنه قد خلد إلى النوم.

قال خاسار من دون أن يفتح عينيه: "لماذا مرّر إصبعه على حنجرته؟".

قــال هو سا بحدّة: "كان يرغب بأن يعرف إن كنت أنوي قتلك ورميك من فوق القارب. لقد خطرت لي الفكرة".

ضــحك خاسار بصوت خافت. قال وهو يغالب النعاس: "بدأت أحب ذلك الرجل القصير. أنا سعيد أننا صعدنا على متن قارب".

مــشى جنكيز عبر المعسكر الشاسع في ظل الجبال التي عرفها صبياً. كان الثلج قد تساقط في الليل، وسحب نفساً عميقاً من الهواء البارد، مستمتعاً بالطريقة التي ملأ بها رئتيه. كان يسمع صهيل الجياد تدعو قريناتها، ومن بعيد، كان أحدهم يغنـــي لطفل كي ينام. بوجود العائلات حوله، كان يشعر بالطمأنينة وكان مزاجه لطــيفاً. كــان سهلاً أن يتذكر الأيام التي كان والده لا يزال حياً فيها، ولا يعرف وأشــقاؤه شيئاً عن العالم حولهم. هزّ رأسه في الدجنة بينما كان يفكر بالأراضي التي تم عرضها عليه. كان بحر الأعشاب أطول مما فكّر على الإطلاق وتاق جزء مــنه لرؤية أشياء جديدة، حتى مدن تشن. كان شاباً وقوياً ويحكم جيشاً كبيراً من الرجال الذين يتمتعون بمهارات تمكّنهم من الحصول على ما يريدونه. ابتسم لنفسه عندما وصل إلى الخيمة التي كان قد بناها لزوجته الثانية، تشاكاهي. كان صحيحاً أن والده بقي مقتنعاً بوالدته، لكن ياسوجي كان خان قبيلة صغيرة ولم يحصل على نساء جميلات كجزء من جزية.

خفــض جنكيــز رأســه عندما دخل. كانت تشاكاهي تنتظره وعيناها واسعتان وداكنــتان فــي دجــنة مصباح واحد. لم يقل جنكيز شيئاً عندما وقفت لتحيته. لم يكن يعــرف كــيف جاءت بشابتين من شعبها لخدمتها. يبدو أن محاربين كانوا قد سبوهما واشــترتهما أو قايــضتهما بشيء من عندها. بينما كانتا تخرجان من الخيمة. استطاع جنكيــز شــمّ رائحة الطيب الذي تتعطران به وارتعش قليلاً عندما مسّ ثوب إحداهما الحريري ذراعيه العارية. كانت أصوات همسهما تخفت كلما ابتعدتا وبقي وحيداً.

وقفــت تشاكاهي بفخر أمامه، ورأسها مرفوع. كانت الأسابيع الأولى مع القبائل قاســية عليها، لكنه كان قد شعر بحيوية بالغة في عينيها اللامعتين قبل وقت طويل من تعلمهــا لبــضع كلمات من لغة شعبه. كانت تمشي كما يتوقع من ابنة ملك أن تمشي، وكانــت رؤيــتها تثيره دائماً. كان ذلك شيئاً غريباً، لكن جسدها الممشوق كان أفضل جزء من جمالها.

ابتــسمت عندما جال ببصره عليها، وكانت تعرف أنها تحظى باهتمامه الكامل. اختارت اللحظة المناسبة، جثت أمامه، أحنت رأسها، ثم ألقت نظرة خاطفة إلى الأعلى لتــرى إن كــان لا يــزال يــراقب عرض التواضع. ضحك من ذلك وأمسك بها من معصمها ليجعلها تقف مرة أخرى، رفعها في الهواء ليضعها على السرير.

أمــسك برأســها بكلتا يديه بينما كان يقبلها، وأنامله ضائعة في شعرها الأسود. تأوهــت فــي فمه وشعر بيديها تمس بلطف فخذيه وخصره، مما أثاره. كان المعسكر يــشعر بالنعاس من حوله عندما دخل بأميرة كزي كزيا، وترددت صرخاتها بعيداً في الظلام.

# الفصل الحادي عشر



استغرق الأمر أسبوعاً من قارب شن يي للوصول إلى شيزويشان على الضفة الغربية للنهر. كانت الأيام رمادية وباردة، وأضحى لون المياه المحملة بالطمي قاتماً حتى استحقت اسمها، بينما كانت تتحول إلى اللون الأصفر الباهت تحت مقدمة السفينة. مرة، كانت عائلة من الدلافين قد بقيت معهم قبل أن يضرب خاسار أحدها بمجذاف مستمتعاً بالأمر، واختفت بالسرعة التي ظهرت بها. كان هو سا قد شكّل آراءه الخاصة عن قبطان القارب الصغير، وانتابه الشك بأن العنبر مليء ببضائع مهرّبة، وربما كماليات ستجلب أسعاراً عالية للمالك. لم تكن لديه فرصة للتحقق من شكوكه، لأن الطاقم لم يكن يتعب من مراقبة المسافرين. كانوا على الأرجح عمالاً لدى تاجر ثري، وينبغي بهم عدم المخاطرة بالحمولة بنقل مسافرين معهم. قدّر هو سا أن شن يي رجل خبير ويبدو أنه يعرف النهر أفضل من جباة ضرائب الإمبراطور. كانوا قد سلكوا أكثر من مرة أحد الروافد بعيداً عن المسار الرئيسي، وقاموا بتنفيذ التفاف كبير قبل أن يعودوا إلى النهر. في آخر تلك المرات، كان هو سا قد شاهد ظلاً عائماً لمركب رسمي في منتصف النهر خلفهم. كان ذلك التكتيك يناسب احتياجاته ولم يعلّق على ضياع الوقت، على الرغم من أنه كان ينام وسكينه في ردنه ويستيقظ لأقل صوت.

كان خاسار يشخر بصوت عالٍ. كان يبدو أن الطاقم يحبه وقد علّمه أفراده عبارات لن تكون ذات فائدة كبيرة خارج بيوت البغاء. ابتلع غضبه عندما تغلب خاسار بلوي الذراع على ثلاثة من البحارة الأقوياء، وفاز بقربة من شراب الأرز القوي التي رفض أن يشارك بها أحداً.

من بين ثلاثتهم، كان تيموج من لا يستمتع إطلاقاً بالرحلة الهادئة. على الرغم من أن أمواج النهر بقيت ساكنة، إلا أنه تقيأ عن جانب القارب في صبيحة اليوم الثاني، وكان موضع صرخات سخرية من الطاقم. كان البعوض يعثر عليه في الليل

لهــذا كانــت تظهــر آثار جديدة من العضات الحمراء على كاحليه كل صباح. راقب تيموج رفقة خاسار المرحة وكان تعبير وجهه يدل على أنه غير راضٍ عنها، لكنه لم يحــاول الانضمام إليها، على الرغم من معرفته أكثر باللغة. لم يكن باستطاعة هو سا فعــل شيء سوى التمنّي بأن تنتهي الرحلة، لكن شيزويشان كانت مجرد محطة توقف للتزوّد بالإمدادات.

قبل وقت طويل من ظهور المدينة للعيان، أصبح النهر مكتظاً بالقوارب الصغيرة التــي تعبر من ضفة إلى أخرى وتحمل معها الإشاعات والأنباء عن بعد ألف ميل. لم يقتــرب شــن يي من أحد، لكن حالما ربط القارب إلى عمود خشبي قرب الرصيف، اقتــرب قــارب إثر آخر لتبادل أطراف الحديث مع ربابنتها. أدرك هو سا أن الرجل القــصير كان معروفاً في النهر. تم طرح بضعة أسئلة بشأن المسافرين وتحمّل هو سا نظراتهم. لا شك بأن أوصافهم ستنتشر بسرعة على طول النهر قبل حتى أن يشاهدوا باوتــو. بــدأ يفكر بأن المغامرة كلها تتعرض للخطر ولم يكن أمراً مفيداً رؤية خاسار يقف على مقدمة السفينة، ويطلق إهانات حمقاء على قباطنة آخرين. بظروف مختلفة، ربمــا كــان ذلــك سبباً لضربه أو حتى تلقيه سكيناً في حنجرته، لكن شن يي انفجر ضاحكاً، وبدا أن شيئاً في تعبير وجه خاسار لم يعتبر الأمر إهانة. بدلاً من ذلك، ردّوا بإهانــات أسوأ، وقايض خاسار قطعتين نقديتين بفاكهة طازجة وأسماك قبل أن تغرب الــشمس. راقــب هــو سا ما يجري بصمت، ولكم كيس حبوب ليجعل رأسه يرتاح، ويحاول أن يخلد إلى النوم.

اســتيقظ تــيموج علــى شــيء ارتطــم بجانب القارب. كان هواء الليل مثقلاً بالحــشرات، وكــان تــيموج مثقلاً بالنعاس. تمطّى بحركة ثقيلة، وطرح سؤالاً على هو سا. لم يكن هناك رد، وعندما رفع تيموج رأسه، رأى أن هو سا وشقيقه مستيقظين ويحدّقان إلى الظلام.

همــس تيموج: "ماذا يحدث؟". كان يسمع صريراً وأصوات حركة مكتومة، لكن القمر لم يكن قد ظهر بعد، وأدرك أنه لم ينم سوى لوقت قصير.

لمع ضوء فجأة عندما فتح أحد أفراد الطاقم مصراعي باب عنبر القارب ليظهر مــصباح زيــت صــغير. رأى تيموج ذراع الرجل مضاءة بلون ذهبي، ثم اضطرب ســكون اللــيل بصرخات وصيحات. اختفى خاسار وهو سا في الظلام ونهض تيموج علــى قدميه، متسمراً من خوفه. اندفعت أجساد مبهمة إلى القارب من الجانبين. أمسك بسكينه، واختبأ خلف الأكياس حتى لا يروه.

صــدرت صرخة ألم من مكان ما قربه، وأطلق تيموج لعنة بصوت عالٍ، مقتنعاً أن جنود الإمبراطور قد كشفوا أمرهم. سمع شن بي يصرخ بأوامر وكل ما حوله كان تأوهات ولهاث رجال يتعاركون بعضهم مع بعض في ظلمة تامة تقريباً. ربض تيموج فــي مكانه، منتظراً الهجوم عليه. عندما ركّز بصره، شاهد المصباح الذهبي الصغير يــرتفع في الهواء، ويترك أثراً بقي في مخيلته. بدلاً من أن يهسهس في النهر، سمعه يرتطم بالخشب. اندلق الزيت يشع ضوءاً، وشهق تيموج خوفاً.

كان المصباح الذي تم رميه قد استقر على سطح قارب ثانٍ، وتدحرج بينما كان الــرجال يثــبون من فوقه. مثل شن بي وطاقمه، لم يكن المهاجمون يرتدون أكثر من قطعــة قمــاش على خصورهم. كانوا يحملون سكاكين بطول سواعد الرجال ويقاتلون وهم يطلقون صرخات ولعنات بصوت عالٍ. وخلفهم، اشتعلت النيران بالخشب الجاف واســتطاع تــيموج رؤية الأجساد التي تتصبب عرقاً ملتحمة معاً، وقد تعرض بعضها لجروح بالغة تسيل منها الدماء.

بيــنما كــان يــراقب برعب، سمع تيموج صوتاً يعرفه يعلو على كل الأصوات الأخرى، كان طقطقة قوس مزدوج الوتر. استدار ليرى خاسار واقفاً بثبات على مقدمة السفينة، يطلق سهماً إثر آخر. كان كل سهم يصيب هدفه ما عدا واحد ذهب إلى الماء عــندما تفــادى خاســار سكيناً رماه بها أحدهم. ارتعش تيموج عندما وقع رجل ميت ووجهــه إلــى الأسفل بالقرب منه، واندفع ريش السهم من تأثير ذلك في ظهره حتى خرج من صدره.

حتــى عــندها، كان يمكن للآخرين أن يتغلبوا عليهم إن لم تكن ألسنة اللهب قد بدأت تنتشر على قارب المهاجمين. رأى تيموج بعضهم يقفز فوق الفجوة إلى مركبهم، ويمسكون بدلاء جلدية. وقعوا أيضاً وسهام خاسار فيهم قبل أن يستطيعوا إخماد النار.

قطــع شن بي حبلين غليظين يربطان القاربين بعضهما ببعض، وأسند نفسه على حاجــز خــشبي ليدفع القارب الآخر بعيداً. انجرف على غير هدى نحو النهر القاتم، واســتطاع تيموج رؤية ظلال الرجال تكافح لإخماد ألسنة اللهب. كان الوقت قد فات بالنــسبة للقارب، وسمع من بعيد صوت سقوط في النهر عندما التمس الرجال الأمان في الماء.

أصدرت النار صوتاً خاصاً بها، وكانت هناك طقطقة وأزيز تضاءل عندما حمل التــيار القارب المشتعل أسفل النهر. انطلقت شرارات ساطعة إلى الأعلى في الظلام، أطــول من شراع. أخيراً وقف تيموج، وصدره يلهث. قفز عندما اقترب منه أحدهم، لكنه كان هو سا، الذي أصبحت رائحته كريهة من الدخان والدم.

قال هو سا: "هل تأذيت؟".

هزّ تيموج رأسه، ثم أدرك أن مرافقه لم يعد يرَ شيئاً في الظلام بعد التحديق إلى ألسنة اللهب. تمتم تيموج: "أنا بخير. من هؤلاء الناس؟".

"جـرذان النهر، ربما، يسعون خلف ما يحمله شن يي. مجرمون". صمت تماماً عندما ارتفع صوت شن يي في الليل وتم تحويل الشراع نحو الريح مرة أخرى. سمع تـيموج خرير المياه عندما بدأوا يبتعدون عن رصيف شيزويشان إلى الجزء الأعمق مـن القـناة. عندما صدر أمر آخر من قبل شن يي، صمت الطاقم وانتقلوا بعيداً عن الأنظار عبر المياه.

بـدا أن القمر قد استغرق زمناً طويلاً ليرتفع، لكنه كان لا يزال هلالاً ويضيء النهـر بلون فضي، ويلقي بظلال على أفراد الطاقم الناجين. كان اثنان من أفراد طاقم شـن يـي قـد لقيا حتفهما في المعركة وراقب تيموج بينما كان يتم إلقاؤهما من فوق مؤخر السفينة من دون مراسم دفن.

كان شن يي قد عاد مع خاسار للإشراف على العمل، وأومأ لتيموج، وكان تعبير وجهه غير قابل للتفسير في الضوء الخافت. رآه تيموج يستدير ليعود إلى مكانه بجانب الـشراع، لكن الرجل توقف، وكان واضحاً أنه اتخذ قراراً. وقف أمام خاسار الذي لم يكن شكله واضحاً يحدّق إليه.

قال شن يي لهو سا: "هذا التاجر الذي معك ليس متديناً. فالمتدينون يصلون كثيراً ولم أشاهده حتى الآن يفعل ذلك".

توتر هو سا وانتظر أن يتابع القبطان القصير كلامه.

هزّ شن يي كتفيه لا مبالياً. "لكنه يقاتل جيداً، كما قلت. يمكن أن أكون أعمى في الليل أو النهار، هل تفهم؟".

رد هـو سـا: "أفهم ذلك". مدّ شن يي يده، وربت على كتف خاسار. قلّد صوت القوس بحنجرته، وأصدر صوتاً خافتاً برضا واضح.

سأل هو سا بلطف: "من كان هؤلاء؟".

صمت شن يي لحظة، يفكر في الجواب. "حمقى، وحمقى أموات الآن. هذا ليس من شأنك".

رد هو سا: "يعتمد ذلك على ما إذا كنا سنتعرض لهجوم مجدداً، قبل باوتو".

"لا يعـرف الرجل قدره، أيها الجندي-التاجر، لكنني لا أعتقد ذلك. كانت لديهم فرصة ليسرقوا منا وقد أضاعوها. لن يمسكوا بنا مرتين". قلّد مرة أخرى صوت قوس خاسار وابتسم ابتسامة عريضة.

قـال تـيموج فجـأة: "مـاذا يوجد في العنبر ويريدونه؟". كان قد أعدّ الكلمات بحـرص، لكـن شن بي بدا على الرغم من ذلك متفاجئاً من الأصوات الغريبة. كان تيموج على وشك أن يحاول مجدداً عندما رد القبطان القصير.

"كانوا فضوليين، وهم ميتون الآن. هل تشعر بالفضول؟".

فهم تيموج واحمر وجهه غضباً من دون أن يراه أحد في الظلام. هزّ رأسه، ردّ وهو يشيح بنظره بعيداً: "لا، لست كذلك".

قـال شـن يـي: "أنت محظوظ لأن لديك أصدقاء يقاتلون عنك. لم أرك تتحرك عـندما كـنا نتعرض للهجوم". ضحك بصوت خافت عندما تقطب حاجبا تيموج. كان يستطيع إدراك النبرة التهكمية إن لم يكن كل الكلمات، لكن شن يي استدار نحو خاسار قبل أن ينطق بجواب، وأمسك بذراع شقيقه.

قـال: "أنـت، أيها الفاسق. هل تريد شراباً؟". استطاع تيموج رؤية بياض أسنان شـقيقه عـندما عرف الكلمة التي تعني الشراب اللاذع الطعم. قاده شن يي بعيداً إلى مقدمـة الـسفينة للاحتفال بالنصر. بقي التوتر سيد الموقف بينما كان هو سا وتيموج يقفان معاً.

قـال تـيموج أخيـراً: "لسنا هنا لقتال لصوص النهر. مع سكين فقط، ماذا كان بمقدوري أن أفعل؟".

رد هـو سـا بفظاظـة: "نل قسطاً من النوم إذا استطعت. لا أعتقد أننا سنتوقف مجدداً لبضعة أيام".

كـان يوماً شتوياً جميلاً في الجبال. كان جنكيز قد خرج مع زوجته وأبنائه إلى نهـر يعرفه منذ كان صغيراً، بعيداً عن معسكر القبائل الكبير. كان جوشي وتشاغاتاي يقودان فرسيهما، فيما تقود بورت مطيتها خلفهم وأوجيدي وتولي يجثمان على السرج.

عـندما كانـوا يغـادرون القـبائل، شعر جنكيز أن مزاجه يتحسن. كان يعرف الأرض تحـت حوافـر جـواده وقد تفاجأ من موجة المشاعر التي انتابته لدى عودته الأولـى مـن الصحراء. كان يعرف أن للجبال تأثيراً فيه، لكن لدهشته، كان الشعور بتراب طفولته تحت قدميه قد جعل عينيه تذرفان دمعاً سرعان ما أبعده برمشيه.

عـندما كان يافعاً، كانت مثل تلك الرحلة تنطوي دائماً على عنصر خطر. كان يمكـن أن يكـون هناك متجولون أو لصوص في التلال حول الجدول. ربما لا يزال هناك البعض منهم الذين لم ينضموا إليه في رحلته جنوباً، لكن كانت لديه أمة تتبعه في المعسكر وكانت التلال خالية من القطعان والرعاة.

ابتــسم عــندما تــرجل، وراقب باستحسان بينما كان جوشي وتشاغاتي يجذبان شــجيرتين معــاً ويربطان لجامي فرسيهما. كان النهر سريعاً وضحلاً عند قاعدة تل قــريب شديد الانحدار. كانت قطع حادة من الجليد تمر في النهر آتية من القمم. نظر جنكيز إلى الأعلى نحو المنحدرات، تذكر والده وكيف أنه تسلق مرة بحثاً عن نسرين على التل الأحمر. كان ياسوجي قد اصطحبه إلى المكان نفسه ولم يرَ جنكيز بهجة في الــرجل، على الرغم من أنه ربما كان يخفيها. قرّر ألا يسمح لأبنائه برؤية سعادته في العودة إلى الأشجار والوديان التي يعرفها جيداً.

لــم تبتسم بورت عندما كانت تضع ابنيها الصغيرين على الأرض قبل أن تنزل عــن مطيــتها بنفسها. كانت هناك بضع كلمات لطيفة بينهما منذ تزوج ابنة ملك كزي كــزيا وكان يعرف أنها ستسمع عن زياراته الليلية إلى خيمة الفتاة. لم تكن قد ذكرت ذلــك، لكــن فمها بقي مشدوداً، وبدا أن ذلك يزداد مع مرور الأيام. لم يكن بمقدوره ســوى مقارنتها بتشاكاهي عندما وقفت وتمطّت بين الأشجار التي تنحني فوق النهر، وتلقــي بفيئها على الماء. كانت بورت طويلة؛ نحيلة وقوية فيما كانت ابنة كزي كزيا رفــيعة وناعمة. تنهّد لنفسه. كانت أياً منهما تستطيع إثارته باللمسة الصحيحة، لكن بدا أن واحــدة فقط ترغب بذلك. كان قد أمضى ليال عديدة مع زوجته الجديدة بينما بقيت بــورت وحــيدة. ربمــا بــسبب ذلــك، كان قد أعدّ هذه الرحلة بعيداً عن المحاربين والعائلات، حيث العيون تراقب دائماً والأقاويل تنهمر مثل مطر الربيع.

وقــع بصره على جوشي وتشاغاتي بينما كانا يقتربان من حافة الجدول ويحدّقان بالمــاء المــتدفق. بغض النظر عن العلاقة مع والدتهما، لم يكن ليترك الفتيين يكبران لوحدهما حتى يصبحا رجلين، أو يسمح لوالدتهما بالإشراف عليهما في أثناء ذلك. كان سهلاً أن يتذكر تأثير هولن على شقيقه تيموج وكيف جعله ذلك ضعيفاً.

مــشى بخطوات واسعة خلف الابنين الأكبر سناً، وكبت ارتعاشاً انتابه من فكرة دخــول المــياه المــتجمدة. تذكر الوقت الذي كان يختبئ فيه من الأعداء في مثل هذا المكــان، وكــيف أن جسده أصبح خدراً لا فائدة منه عندما كادت الحياة تفارقه. على الرغم من ذلك، كان قد نجا وأصبح أكثر قوة.

نــادى بورت قائلاً: "اجعلي الآخرين يقتربان. أريدهما أن يصغيا السمع حتى إذا كانا صــغيرين علــى الغوض في النهر". رأى جوشي وتشاغاتي يتبادلان نظرة قلق عند هذا التأكــيد علــى ما سيقومان به. لم يكن أي منهما يستسيغ فكرة الغوص في النهر الجليدي. نظــر جوشــي إلى جنكيز بالنظرة المتسائلة نفسها التي تبدو عليه دائماً. بطريقة ما، تغير مزاج والده ونظر بعيداً بينما كانت بورت تحضر تولي وأوجيدي ليقفا على الضفة.

شـــعر جنكيـــز بعيني بورت تلاحقانه وانتظر حتى تراجعت إلى الخلف وجلست بقـــرب الجـــياد. كانت لا تزال تراقب ما يجري، لكنه لم يرغب بأن يلجأ إليها الفتيان طلباً للمساعدة. كان عليهما أن يختبرا أنفسهما، وأن يشاهد نقاط قوتهما وضعفهما. كانا يشعران بالتوتر من حوله، كما لاحظ، وألقى باللوم على نفسه على الوقت الذي قضاه بعيداً عنهما. كم مضى من الوقت منذ واجه نظرات والدتهما التي ترفض أن يلعب مع أحدهما؟ كان يتذكر والده بحب، لكن كيف سيتذكّرانه؟ أبعد مثل تلك الأفكار عن ذهنه، متذكراً كلمات ياسوجي في المكان نفسه، قبل وقت طويل.

قـــال للفتـــية: "لا بـــد أنكم سمعتم بالوجه القاسي: وجه المحارب الذي لا يفصح عن شيء لأعدائكم. إنه يأتي من قوة لا علاقة لها على الإطلاق بالعضلات، أو مهارة استعمال قـــوس. إنه صميم الوقار الذي يعني أن تواجهوا الموت باحتقار. أسراره أنه أكثر من قناع بسيط. يمنحكم ذلك شعوراً بالطمأنينة، وهكذا تكونون قد قهرتم الخوف وأجسادكم".

ببـــضع حـــركات سريعة، حلّ حزامه من ردائه وخلع طماقاته وحذاءه، ووقف عارياً على حافة النهر. كان جسده يحمل علامات جروح قديمة وكان لون صدره أكثر بياضـــاً من ذراعيه وساقيه البنية الداكنة. وقف من دون إحراج أمامهم، ثم دخل التيار المتجمد، وشعر بالصفن يشتد عندما مسّه الماء.

عـــندما غمر الماء جسده، تقلّصت رئتاه حتى أصبح يجاهد لسحب كل نفس. لم يظهـــر شـــيء على وجهه ونظر إلى أبنائه من دون تعبير بينما كان يضع رأسه تحت الماء، ثم سبح على ظهره، نصف عائم ويداه تمسّان حجارة قاع النهر.

شـــاهد الأبـــناء الأربعـــة مـــا يجري بذهول. بدا والدهم مرتاحاً تماماً في الماء المـــتجمد، ووجهـــه هـــادئ كما كان من قبل. كانت عيناه فقط شرستين ولم يستطيعوا النظر إليهما طويلاً.

تـــبادل جوشـــي وتشاغاتي نظرة، يتحديان بعضهما. هزّ جوشي كتفيه غير مبالٍ وتجـــرّد مـــن ملابـــسه من دون خجل، وغاص تحت السطح. رآه جنكيز يرتعش من البرد، لكن الفتى القوي البنية حدّق إلى جنكيز كما لو أنه في تحدٍّ وينتظر. لم يبدُ عليه أنه خائف من والده، أو الدرس الذي ينوي تعليمه إياه.

تأفـــف تـــشاغاتي بازدراء، وحلّ ملابسه. بعمر السادسة، كان أوجيدي لا يزال أصـــغر من الآخرين بكثير. بدأ أيضاً يتجرد من ملابسه، ورأى جنكيز والدته تنهض على قدميها لإبعاده.

قـــال: "دعيه يغوص في الماء يا بورت". كان سيراقب ما يجري حتى لا يغرق ابـــنه الـــثالث. فزعت بورت خوفاً عندما نزل أوجيدي في الماء على بعد خطوة فقط

خلف تشاغاتي. لم يترك ذلك سوى تولي يقف بائساً على الضفة. بتردد كبير، بدأ أيضاً نزع ردائه. ضحك جنكيز بصوت خافت، سعيداً بإقدامه. تكلم قبل أن تتدخل بورت.

"ليس أنت يا تولي. ربما السنة القادمة، لكن ليس هذه المرة. ابقَ هناك واستمع".

بدا الارتياح واضحاً على وجه الفتى الصغير بينما كان يربط قطعة القماش حول خصره بعقدة أنيقة. ردّ على ابتسامة والده بابتسامة مماثلة، وغمزه جنكيز، فاتسعت ابتسامته.

كان جوشي قد اختار بركة على حافة النهر، حيث كان الماء ساكناً. راقب والده الذي كان كل جسده ما عدا رأسه مغموراً بالماء، وفي الحديث القصير، كان قد اكتشف كيفية السيطرة على نفسه. كان قد أطبق فمه على أسنان تصطك وقد اتسعت عيناه. كما حدث ألف مرة من قبل، تساءل جنكيز إن كان هو والد الفتى. من دون ذلك اليقين، بقي هناك حاجز في مشاعر جنكيز نحوه. أحياناً، كان الحاجز متعباً لأن جوشي كان يصبح طويلاً وقوياً، لكن على الرغم من ذلك بقي جنكيز يتساءل إن كان يرى معالم مغتصب تتاري كان قد أكل قلبه انتقاماً. كان صعباً أن يحب مثل ذلك الوجه بعينين داكنتين، بينما كانت عيناه صفراوين مثل عيني الذئب.

كان تشاغاتي بكل وضوح ابنه. كانت عيناه شاحبتين من البرد بينما كان يغمر نفسه بالماء وكان على جنكيز أن يسيطر على مشاعره قبل أن يفسد اللحظة. فأرغم نفسه على سحب نفس عميق وبطيء.

"في مياه بهذه البرودة، يمكن لطفل أن يغط في النوم خلال ست أو سبع دقّات للقلب. يمكن حتى لرجل ناضج أن يفقد الوعي في وقت أطول بقليل. تبدأ أجسادكم تفقد الإحساس باليدين والقدمين أولاً. ستشعرون بأنها خدرة ولا فائدة منها. تصبح أفكاركم بليدة، وإذا بقيتم وقتاً طويلاً، لن تكون لديكم القوة أو الإرادة للخروج من هنا". توقف عن الكلام لحظة وهو ينظر إليهم. كان لون شفتي جوشي قد أصبح أزرق ولم يصدر عنه على الرغم من ذلك أي صوت. بدا أن تشاغاتي يكافح ضد البرد، وأطرافه تتحرك في الماء. راقب جنكيز أوجيدي عن كثب أكثر من غيره وكان الفتى يحاول تقليد شقيقيه الأكبر منه. كان الجهد الذي يبذله كبيراً عليه وسمع جنكيز أسنانه تصطك معاً. لم يكن يستطيع إبقاءهم هناك مدة أطول وفكّر في إعادة أوجيدي إلى الضفة. لا، لم يفعل والده ذلك، على الرغم من أن تيموج الصغير فقد وعيه في النهاية وكاد يغرق.

قال لهم: "لا تُظهروا لي شيئاً مما تشعرون به. أظهروا لي الوجه القاسي الذي سيراه أعداؤكم عندما يسخرون منكم. تذكروا أنهم خائفون أيضاً. إذا كان أحدكم قد

تساءل من قبل إن كان الجبان الوحيد في عالم من المحاربين، اعرفوا أن الشعور نفسه ينــتابهم، حتــى آخــر رجل. عندما تعرفون ذلك، يمكنكم إخفاء خوفكم والتحديق إلى الأسفل بهم". كافح كل الفتيان الثلاثة لإبعاد الخوف والألم عن وجوههم، وعلى الضفة، كان تولي الصغير يقلّدهم بتركيز وجدّية.

"تنفــسوا بهدوء من الأنف لخفض سرعة دقات القلب. الجسد شيء ضعيف، لكن ليس عليكم الإصغاء إليه يصرخ طلباً للمساعدة. كنت قد رأيت رجلاً يدفع سكيناً عبر جــسده مــن دون أن يسيل منه الدم. اتركوا تلك القوة تأتي إليكم وتنفسوا. لا تُظهروا شيئاً".

فهم جوشي مباشرة وأصبح تنفسه بطيئاً مثل تنفس والده. تجاهله جنكيز، وراقب تشاغاتي بينما كان يكافح للسيطرة على نفسه. حدث ذلك أخيراً، قريباً من الوقت الذي كان جنكيز يعرف أن عليه إنهاء الأمر فيه قبل أن يخرجوا من الماء.

قــال لهــم: "أجسادكم مثل أي حيوان آخر تعتنون به. سيصرخ مطالباً بالطعام، والمــاء، والدفء، والتخلص من الألم. اكتشفوا الوجه القاسي ويمكنكم إسكات صوته الصاخب".

كــان الفتيان الثلاثة قد فقدوا الإحساس بأجسادهم وقدّر جنكيز أن الوقت قد حان لإخــراجهم مــن الماء. توقع أن عليه رفع الفتية المتعبين إلى الضفة، ونهض ليمسك بالأول. بدلاً من ذلك، وقف جوشي معه، ولون جسده وردي من الدماء تحت جلده. لم تتــرك عينا الفتى الصغير والده أبداً فيما مسّ جنكيز ذراع تشاغاتي بيده، غير راغب بأن يرفعه بعد أن نهض جوشي لوحده.

تحــرك تشاغاتي خدراً، وعيناه تلمعان كالزجاج. ركّز على جوشي، وعندما رآه يقــف، أغلــق فمــه وكــافح حتى يقف، لكنه انزلق على الطين الناعم في قاع النهر. اســتطاع جنكيــز أن يــشعر بالخصومة بين الفتيين ولم يسعه سوى أن يتذكر بكتر، الشقيق الذي كان قد قتله قبل سنوات طويلة.

لــم يــستطع أوجيدي الوقوف لوحده ووضعته ذراعا والده القويتان على الضفة لــيجف في الشمس. خرج جنكيز بخطوات واسعة والماء يتناثر من جسده، وشعر بأن الحياة تعود إلى أطرافه وطاقة تسري فيها. جاء جوشي وتشاغاتي للوقوف إلى جانبه، يلهــثان فيما كانت الحياة تعود إلى أيديهما وأقدامهما. شعرا بأن والدهما كان لا يزال يراقبهما وفهم كل فتى المغزى وحاول السيطرة على جسده مرة أخرى. كانت أيديهما ترتعش رغماً عنهما، لكنهما وقفا منتصبين في ضوء الشمس ونظرا إليه، من دون أن يثقا أن باستطاعتهما التكلم وفكّاهما يرتعشان.

ســألهم جنكيــز: "هــل قتلكم ذلك؟". كان ياسوجي قد سألهم الشيء نفسه وقال خاســر: "تقــريباً"، مما جعل الرجل الكبير يضحك. لم يقل أبناؤه شيئاً، ورأى أنه لم يعمّــق أواصر الصداقة معهم كما فعل ياسوجي معهم. كان سيقضي المزيد من الوقت معهــم، وقطع على نفسه وعداً بذلك. كانت أميرة كزي كزيا مثل النار في دمه، لكنه سيحاول تجاهل النداء بين الحين والآخر فيما الأولاد يكبرون.

قــال كمــا لو أنه يتكلم مع نفسه وليس معهم: "الجسد لا يحكم المرء. إنه وحش غبــي لا يعــرف شــيئاً عن أعمال الإنسان. إنه مجرد عربة تحملكم. سيطروا عليها بــالإرادة والتنفس من خلال أنوفكم، عندما تطلب منكم اللهاث مثل كلب. عندما تتلقون ســهماً فــي معركة ويكون الألم فظيعاً، ستنتزعونه منكم، وقبل أن تسقطوا، ستعيدون المــوت إلــى أعــدائكم". ألقى نظرة على سفوح التلال، وتواردت ذكريات أيام بريئة وبعيدة جداً لم يكن يتحمل أن يتذكرها بسهولة.

"املأوا الآن أفواهكم بالماء واركضوا إلى قمة هذا التل وعودوا. عندما تعودون، ستبــصقون المــاء لتبرهنوا أنكم كنتم تتنفسون بشكل مناسب. من يصل أولاً سيتناول الطعام، فيما سيعود الآخران جائعين".

لم تكن تلك منافسة عادلة. كان جوشي أكبر سناً، وفي مثل ذلك العمر، حتى ســنة تــشكل فــرقاً. لم تظهر على جنكيز أي إشارة على القلق عندما رأى الفتية يتبادلون النظرات، وأخذ يفكّر ملياً في فرص كل منهم. كان بكتر أيضاً أكبر سناً، لكــن جنكيــز كــان قد ترك شقيقه يلهث على التل. كان يأمل بأن يفعل تشاغاتي الشيء نفسه.

انطلــق تــشاغاتي إلى الماء من دون سابق إنذار، خاض فيه مثيراً رذاذاً كبيراً وغمس وجهه تحت السطح ليملأ فمه. كان أوجيدي خلفه قليلاً فقط. تذكر جنكيز كيف أصبح الماء دافئاً وسميكاً في فمه. كان يستطيع تذوقه مع الذكريات.

لــم يكــن جوشي قد تحرك، واستدار جنكيز إلى الفتى مستفسراً. سأل: "لماذا لم تتبعهما؟".

هزّ جوشي كتفيه لا مبالياً. قال: "يمكنني التغلب عليهم. أعرف ذلك سلفاً".

حدّق إليه جنكيز، ورأى تمرداً لم يستطع فهمه. لم يكن أحد من أبناء ياسوجي قد رفــض القــيام بــذلك الشيء. كان الفتى الذي أصبح لاحقاً جنكيز قد استغل الفرصة لإذلال بكتــر. لــم يستطع فهم جوشي وشعر بنفسه يشتعل غضباً. كان ابناه الآخران يكافحان آنذاك للصعود إلى أعلى التل، ويصبحان أصغر كلما قطعا مسافة أطول.

تمتم جنكيز، على الرغم من أنه كان يخمّن: "أنت خائف".

رد جوشـــي من دون إثارة وهو يمد يده إلى ملابسه: "لست كذلك. هل ستحبني أكثـــر إذا هزمتهم؟". للمرة الأولى، ارتعش صوته بمشاعر قوية. "لا أعتقد أنك ستفعل ذلك".

نظر جنكيز إلى الفتى الصغير مندهشاً. لم يكن أحد من أبناء ياسوجي يجرؤ على التكلم معه بمثل تلك الطريقة. كيف كان والده سيرد على ذلك؟ فزع من ذكريات يدي ياســوجي تلطمانـــه. لم يكن والده ليسمح بذلك. للحظة، فكّر بضرب الفتى حتى يفقد الوعـــي، لكنه رأى عندها أن جوشي يتوقع ذلك، وقد شدّ نفسه لتلقي الضربات. مات الحافز قبل أن يولد.

قال جنكيز له: "ستجعلني فخوراً بك".

اهتز جوشي، لكن لم يكن ذلك من البرد.

قـــال: "إذاً، سأركض اليوم". راقبه والده من دون أن يفهم ما يجري، ملأ جوشي فمـــه مـــن مياه النهر وانطلق، يجري مسرعاً وواثقاً فوق الأرض غير المستوية خلف شقيقيه.

عـــندما ســـاد الهـــدوء مجدداً، قاد جنكيز تولي الصغير عائدين إلى حيث كانت بورت تجلس إلى جانب الجياد. كان وجهها جامداً مثل الحجر ولم تنظر في عينيه.

قـــال لهـــا، وهو لا يزال يحاول استيعاب ما كان قد حدث مع جوشي: "سأقضي المزيد من الوقت معهم".

نظـــرت إلـــيه، وللحظة، انفرجت أساريرها عندما رأت ارتباكه. قالت: "لا يريد شيئاً في العالم أكثر من أن تقبله كابنك".

تأفف جنكيز. "أنا أقبله فعلاً. متى لم أفعل ذلك؟".

نهـــضت بورت على قدميها لتواجهه. "متى احتضنته بين ذراعيك؟ متى قلت له إنك فخور بأنه ابنك؟ هل تعتقد أنه لم يسمع همسات الفتية الآخرين؟ متى كممت أفواه الحمقى بإظهار بعض الحنان له؟".

قـــال مـــضطرباً: "لم أكن أريده أن يصبح ليناً". لم يكن يعرف أن الأمر واضح جـــداً، وللحظة، أدرك قسوة الحياة التي فرضها على جوشي. هزّ رأسه لتنقية أفكاره. كانت حياته أقسى ولا يستطيع إرغام نفسه على أن يحب الفتى. كلما كان يوم ينقضي، كان يرى نفسه أقل فأقل في تلك العينين الداكنتين.

قاطعت ضحكة بورت أفكاره. لم يكن صوتاً ساراً.

"الشيء الأكثر مرارة هو أنه بكل وضوح ابنك، أكثر من أي من الآخرين، على الـــرغم مـــن أنـــك لا ترى ذلك. يمتلك الإرادة للوقوف في وجه والده وأنت أعمى".

بـــصقت على العشب. "لو أن تشاغاتي فعل الشيء نفسه، كنت ستضحك وتقول لي إن الفتى يتمتع بشجاعة جدّه".

قـــال بهـــدوء متعباً من صوتها وانتقادها: "كفى". كان اليوم قد فسد بالنسبة إليه، وتذكر مشاعر البهجة والسرور عندما جاء إلى ذلك المكان مع والده وأشقائه.

نظرت بورت إلى تعبير وجهه الغاضب. "إذا تغلب على تشاغاتي في العودة إلى أسفل التل، كيف سيكون ردّ فعلك؟".

أطلق لعنة، وكان مزاجه معكراً مثل حليب فاسد. لم يكن قد فكّر بأن جوشي ربمـــا يفـــوز وكـــان يعـــرف أنه إذا حدث ذلك، لن يعانق الفتى بحضور بورت. جالـــت الأفكار في ذهنه من دون أن تستقر ولم يكن يعرف كيف سيتصرف على الإطلاق.

اســـتمع تـــيموج إلى خاسار يتفوّه بتعبيرات غاضبة. كان شقيقه قد كسب مقداراً كبيـــراً مـــن الـــودّ بين أفراد الطاقم بردّ فعله على الهجوم. في الأيام التي أعقبت تلك اللحظـــات المرعبة في الظلام، ضم شن بي بشكل معتاد المحارب المغولي إلى رفاقه على متن القارب. كان خاسار قد تعلم العديد من العبارات بلغتهم وشاركهم في نشاطهم وحصـــصهم من الأرز والقريدس في المساء. بدا أن هو سا قد أصبح موضع ترحيب مـــن قبل قبطان القارب، لكن تيموج تعمّد البقاء منفصلاً عنهم. لم تفاجئه رؤية خاسار يتـــصرف مثل حيوان مع الآخرين. لم يكن يفهم ذلك، وتمنّى تيموج أن يدرك خاسار أنـــه ليس أكثر من رامي سهام تم إرساله لحماية شقيقه الأصغر. كان جنكيز يعرف، على الأقل، الأهمية التي قد يمثّلها تيموج بالنسبة له.

في الليلة التي سبقت مغادرتهم إلى النهر، كان جنكيز قد استدعى تيموج، وطلب مـــنه أن يتذكـــر كل تفصيل عن أسوار باوتو، وكل جزء من الدفاعات. إذا فشلوا في العـــودة مع البناة الذين شيّدوا المدينة، ربما تكون تلك المعرفة كل ما لديهم لشن حملة صـــيفية. كان جنكيز يثق بقوة ذاكرة وذكاء تيموج الحاد اللذين كان واضحاً أن خاسار يفتقـــر إلـــيهما. كان تيموج قد تذكر الحاجة للاستعجال بإحباط عندما مرّوا بقارب يقل امرأتين، ولوّح خاسار بقطع فضية لهما، يدعوهما إليه.

لم يكن هناك مكان منعزل في القارب، ولم يسع تيموج سوى أن يحدّق إلى الماء بـــدلاً مـــن مراقبة المرأتين وهما تسبحان عبر المسافة بين القاربين مثل ثعلبي بحر، تلمعـــان وترتعـــشان عندما صعدتا إلى القارب. كان شن بي قد ألقى بمرساة في المياه العميقة حتى تستطيع المرأتان العودة سباحة من القارب.

أغلــق تــيموج عينيه لدى سماعه صوت المرأة الثانية. كانت رشيقة، جذّابة في شــبابها، على الرغم من أنها لم تكن قد نظرت باتجاهه عندما كانت تقبل نقود خاسار. لــم تتوقف المرأة عن إصدار الأصوات التي كانت تصدرها إلا بعد أن تمكن خاسار من انتزاع النقود التي منحها إياها عنوة وألقى بها بعيداً، مما أثار ضحك أفراد الطاقم الــذين كانــوا يراقبون ما يجري عندما دفعت المرأة خاسار بعيداً، وزحفت بحثاً عنها علــى يديها وركبتيها. راقب تيموج من طرف عينه عندما استفاد خاسار من الفرصة وجعلــته قهقهة المرأة يشتم بصوت خافت. ما الذي سيعتقده جنكيز من هذا التأخير في مخططهــم؟ كان جنكيز قد كلّفهم بمهمة لا مثيل لأهميتها بالنسبة للقبائل، وأوضح ذلك بجلاء. من دون معرفة كيفية الدخول إلى مدن تشن المحاطة بأسوار، لن يهزموا جنود الإمبــراطور أبداً. جعل ذلك تيموج يستشيط غضباً بينما كان ينتظر أن ينتهي خاسار للمرة الثانية. كانوا قد أضاعوا اليوم وكان تيموج يعرف أنه إذا قال أي شيء، سيوبخه شــقيقه أمام أفراد الطاقم. شعر تيموج بالإذلال. لم يكن قد نسي سبب تواجدهم هناك، حتى ولو نسي خاسار.

كــان الظلام يشتد حلكة عندما رأت بورت جوشي يقود شقيقيه المنهكين عائدين عبــر النهر. كانت قدمه العارية لا تزال تنزف من الجري ووقف أمامها، وهو يلهث. انفطــر قلــب بورت على الفتى الصغير عندما بحث بناظريه عبثاً على والده. خرج شيء منه عندما رأى أن جنكيز لم يكن هناك. بصق الماء من فمه ولهث بصوت عالٍ في صمت المساء.

كذبت بورت: "لقد تم استدعاء والدك إلى المعسكر". لم يصدقها جوشي. كانت تــستطيع رؤيــة الألم في وجهه وأخفت إحباطها من زوجها ونفسها لأنها تجادلت معه.

قال جوشي فجأة: "سيكون قد ذهب إلى زوجته الجديدة، الغريبة". عضت بورت شفتها بدلاً من أن ترد. في ذلك أيضاً، كانت قد خسرت الرجل الذي تزوجته. مع ابنها البكــر يقــف مرتبكاً ومستاءً أمامها، كان سهلاً أن تكره جنكيز لأنانيته. قرّرت دخول خــيمة امــرأة كزي كزيا إذا لم تستطع العثور عليه. ربما لم يكن يهتم لزوجته آنذاك، لكنه يهتم فعلاً بأبنائه وسوف تستفيد من ذلك لتعيده إليها.

جــاء تشاغاتي وأوجيدي يتعثران في الظلام، وبصق كل فتى الماء كما قيل لــه. نتــيجة غــياب والدهم لرؤية ذلك، كان النصر خالياً من المعنى وبدوا مثل الخاسرين.

قالت بورت، وعيناها تلمعان بالدموع: "سأخبره كيف جريتم".

لـــم يكـــن ذلـــك كافياً لهم، وكانوا صامتين ومشاعرهم مجروحة عندما امتطوا أفراسهم للعودة إلى البيت.

# الفصل الثاني عشر



قــال هــو سا للشقيقين إنه ينبغي ركوب عربة للانتقال إلى باوتو البعيدة بضعة أميال عن الميناء النهري المزدحم الذي يمدّها بأسباب الحياة. كانت المدينة آخر مركز تجــاري بــين تشن الشمالية ومملكة كزي كزيا والنهر يعج بالقوارب في الوقت الذي شــدّوا فيه الرحال إلى المنطقة. كانت الرحلة قد استغرقت ثلاثة أسابيع منذ تخلوا عن جيادهم، وكان تيموج على الأقل منزعجاً من التأخير، ومن ضباب النهر الرطب، ومن تــناول الأرز والأســماك. كان شن يي وأفراد طاقمه يشربون من النهر من دون أن يتأثروا، وبدا أن خاسار يمتلك معدة من حديد، لكن أمعاء تيموج أصيبت بالوهن ثلاثة أيام، وتركته في حالة يرثى لها وملابسه ملوثة. لم يكن قد تناول أو حتى رأى أسماكاً أبــداً مــن قبل، ولم يكن يثق بالأشياء الفضية الحراشف التي تخرج من النهر. بدا أن أفــراد الطــاقم يبــتهجون بها عندما يجذبونها إلى القارب بأسلاك رفيعة، وهي تهتز وتتقلب بجنون فيما الرجال يضربونها على رؤوسها. كان تيموج قد غسل ملابسه بعد أن اتسخت، لكن معدته بقيت تقرقع وتُخرج هواءً سيئاً من كلا الطرفين.

عــندما أخــذ النهر الأصفر يتلوى بين التلال، أصبح بالإمكان رؤية المزيد من الطيور، التي تعيش على فتات من القوارب والتجار. كان تيموج وخاسار مذهولين من العدد الكبير للرجال والقوارب التي تحمل الشحنات إلى أعلى وأسفل النهر، وكان ذلك المكــان مزدحماً أكثر من أي مكان آخر شاهدوه من قبل. على الرغم من أن شن يي بــدا قادراً على سلوك ممر عبر ذلك الازدحام بتعديل الشراع فقط، إلا أن العديد من الــبحّارة كانوا يحملون عصياً طويلة لإبعاد القوارب الأخرى. كانت الضوضاء والفوضى تعمّــان المكــان، مــع وجــود مئات التجار الذين يصرخون متنافسين لبيع أي شيء من الأســماك الطازجة إلى الملابس التي أفسدها الماء لكن يمكن على الرغم من ذلك الاستفادة منها في الحصول على قطع قماشية صغيرة. عبقت رائحة توابل غريبة في الهواء عندما كان شن يي يناور بين منافسيه، يبحث عن مساحة يرسو فيها القارب في الليل.

كان شن بي معروفاً تماماً في تلك المياه، وراقب تيموج بعينين دقيقتين بينما كان أصــدقاؤه يحيّونه مراراً وتكراراً. على الرغم من حقيقة أن أفراد الطاقم اعتادوا على قــبول خاسر كفرد منهم، إلا أن تيموج لم يكن يثق بقبطان القارب الصغير. كان يتفق مع هو سا على أن الحمولة ربما كانت مليئة ببضائع مهربة، لكن ربما يستطيع الرجل كــسب المــزيد مــن النقود بالإبلاغ عن وجودهم لجنود الإمبراطور. كان البقاء على القارب من دون التأكد من أنهم بأمان يمثّل عامل توتر ضاغطاً على الرجال الثلاثة.

كان واضحاً أنها لم تكن صدفة أن يتزامن وصولهم إلى الميناء النهري مع حلول المساء. كان شن بي قد أخّر عبورهم حول منعطف في النهر، ولم يتنازل بالردّ عندما ضغط عليه تيموج للاستفادة من الوقت. مهما كانت حمولته، سيتم تفريغها في الظلام، عندما يكون جباة الضرائب وجنودهم أقل استعداداً.

همهم تيموج غاضباً بصوت خافت. لم يكن يهتم إطلاقاً لمشكلات شن بي. كانت مهمــته الوصول إلى الرصيف بأسرع ما يمكن قبل أن يشق طريقه إلى المدينة. كان هــو ســا قد قال إن الأمر لا يستغرق سوى بضع ساعات من السير على الأقدام على طــريق جــيدة، لكــن الأشكال والأصوات الغريبة حولهم في كل مكان جعلت تيموج متوتراً وأراد أن يتحرك. كان أفراد الطاقم يشعرون بالتوتر أيضاً بعد أن وجدوا مكاناً يرسو قاربهم فيه وينتظرون دورهم على الرصيف المتداعي.

لــم يكن منظر الميناء النهري مثيراً للإعجاب حتى ينظر المرء إليه، ويتألف من بــضع عشرات من الأبنية الخشبية فقط التي تبدو أنها تميل لتدعم بعضها. كان مكاناً صــغيراً مهمــلاً، مبنياً للتجارة وليس للراحة. لم يكن تيموج يمانع ذلك، لكنه استطاع رؤية جنديين مسلحين جيداً يراقبان كل ما يتم تفريغه ولم يكن يريد أن يلفت انتباههما.

ســمع تــيموج شن بي يتكلم بصوت خافت إلى أفراد طاقمه، وكان واضحاً أنه يــصدر أوامر لأنهم كانوا يحنون رؤوسهم بإيماءات حادة. حاول جاهداً إخفاء غضبه مــن تأخيــر آخــر. كــان ورفيقاه سيغادرون النهر بسرعة ويبتعدون عن ذلك العالم الــصغير الغــريب الذي لم يفهمه. لوقت قصير، كان قد تساءل ما إذا كان باستطاعته شــراء مخطوطات في سوق القوارب، لكن لم تكن هناك إشارة على مثل تلك التجارة ولــم يكــن لديه ميل لقوالب سكب الفضة أو التماثيل الصغيرة المزخرفة. كان فتيان يجذفــون زوارق صــغيرة مــصنوعة من القصب ويقتربون من أي قارب جديد وهم يحملــون تلك الأشياء بقبضاتهم المتسخة. نظر تيموج بثبات إلى الأولاد الأشقياء حتى مــرّوا من جانبه. كان مزاجه سيئاً للغاية في الوقت الذي جاء فيه شن بي إلى مؤخر السفينة للتكلم مع ركابه.

قـال: "ينبغي أن ننتظر حتى يفرغ مكان على الرصيف. ستكونون على طريقكم قـبل منتصف الليل، أو بعد بضع ساعات". لإزعاج تيموج، أومأ الرجل القصير إلى خاسار.

قال: "إذا لم تكن تأكل كثيراً، أريدك أن تنضم إلي كأحد أفراد طاقمي". لم يفهمه خاسـار، لكنه ربت على كتف شن بي رداً على ذلك. كان قد نفد صبره أيضاً ويرغب بمتابعة الطريق، وشعر القبطان القصير بمزاج ركابه.

قـال: "إذا أردتم، يمكنني إيجاد مكان على العربات لتأخذكم إلى المدينة. سيكون السعر عادلاً".

لاحـظ تيموج أن الرجل يراقبهم عن كثب. لم تكن لديه أدنى فكرة ما إذا كانت الـرحلة إلى باوتو سهلة أم لا، لكنه كان يشك بأن أي تاجر سيرفض عرضاً لركوب عـربة. كانت فكرة السفر مسافة أطول ونظرات شن بي المتشككة تلاحقهم وتزعجهم، لكنه أرغم نفسه على الابتسام وردّ بلغة شن بي.

قال: "سنقول لك نعم، إلا إن كان تفريغ حمولتك سيطول".

هزّ شن بي كتفيه غير مبالٍ. "لدي أصدقاء هنا للمساعدة. لن يستغرق الأمر وقتاً طـويلاً. لستم صبورين مثل التجّار، على ما أعتقد". ابتسم بينما كان يتكلم، لكن عينيه بقيـتا ثابتتين عليهم، تدقق في كل التفاصيل. كان تيموج ممتناً لأن خاسار لم يكن يفهم ما يدور. كانت معرفة ما يدور في خلد شقيقه أسهل من قراءة خريطة.

قـال تـيموج، وهو يستدير مبتعداً ليتأكد أن شن بي فهم أنهم صرفوه: "سنقرر لاحقـاً". ربمـا كـان الـرجل سـيتركهم وشأنهم، لكن خاسار أشار إلى الجنود على الرصيف.

قـال لهو سا: "اسأله عن هؤلاء الرجال. نريد أن نتجاوزهم وأعتقد أنه يريد ذلك أيضاً. اسأله كيف سيفرّغ حمولته من دون أن يلفت انتباههم".

تـردّد هـو سـا، ولم يكن يريد أن يعرف شن بي أنهم خمّنوا أن بضاعته غير قانونـية أو لـم يدفـع الضرائب المترتبة عليها. لم يكن يعرف كيف سيكون رد فعل الرجل. قبل أن يتكلم، تأفف خاسار.

قال وهو يشير إلى الجنود مجدداً: "شي بي".

رفع القبطان يده وضغط على ذراع خاسار ليخفضها قبل أن يرى أحد الإشارة.

قـال: "لـدي أصدقاء على الرصيف. لن تكون هناك مشكلة. باوتو مدينتي التي ولدت فيها، هل تفهم؟".

ترجم هو سا، وأومأ خاسار برأسه.

قال لتيموج: "ينبغي أن نراقب **هذا الشخص يا شقيقي**. لا يمكنه أن يغدر بنا فيما يقـوم بتفـريغ حمولـته، وإلا سيلفت الكثير من الانتباه إلى ما كنا نجلس عليه طيلة الأسابيع القليلة الماضية".

رد تـيموج بـصوت حاد: "شكراً لاهتمامك. كنت قد فكّرت بما ينبغي بنا فعله. سنقبل عرضه بالذهاب إلى المدينة وتجاوز الأسوار معه. بعد ذلك، سنعثر على رجالنا ونعود".

كان يتكلم وهو يعرف أن شن يي لا يفهم ما يقوله، لكن على الرغم من ذلك كان هناك هاجس بحدوث أمر سيئ. كان العثور على البناة في باوتو جزءاً واحداً من خطة لـم يـستطيعوا وضـعها عندما هاجموا مملكة كزي كزيا. لم يكن أحد يعرف سهولة التعرف إليهم، أو المخاطر التي سيتعرضون إليها في المدينة. حتى إذا حالفهم النجاح، لم يكن تيموج على الرغم من ذلك واثقاً أنهم يستطيعون إخراج أسرى رغماً عنهم فيما صـرخة مـساعدة قـد تجعل الجنود يهرعون لتلبيتها. فكّر في ثروة الفضة التي كان جنكيز قد زوّده بها لتسهيل مرورهم.

قال: "هل ستعود إلى النهر يا شن يي؟ ربما لا نمكث طويلاً في المدينة".

لخيـبة أمله، هزّ الرجل رأسه. "أنا في وطني الآن وهناك أشياء كثيرة ينبغي بي القيام بها. لن أغادر مجدداً قبل عدة شهور".

تذكـر تيموج كم دفعوا من مال لتلك الرحلة، كما لو أن شن يي كان متردداً في المضي قدماً.

سأل غاضباً: "إذاً، أنتم تأتون إلى هنا دائماً؟".

ابتـسم له شن يي. رد وهو يضحك بصوت خافت: "الفقراء لا يأتون إلى باوتو". حدّق تيموج إليه حتى مشى عائداً إلى أفراد طاقمه.

تمـتم هو سا: "لا أثق به. إنه ليس قلقاً من الجنود على الرصيف. إنه يحمل شيئاً ثميـناً بما فيه الكفاية ليخاطر بالتعرض لهجوم مسلح، وهو معروف جيداً لكل القباطنة الآخرين في باوتو. لا أحب هذا على الإطلاق".

قال تيموج، على الرغم من أن الكلمات أفزعته: "سنكون مستعدين". كان كل الرجال على الرصيف وفي النهر أعداء، وكان يأمل بأن يمروا بينهم من دون أن يثيروا ريبة أحد. كان جنكيز قد علّق آماله عليهم، في بعض الأحيان كانت مهمتهم تبدو مستحيلة.

ارتفـــع القمر مثل قطعة فضية عليها جليد أبيض، وألقى شعاعاً خافتاً من الضوء علـــى المـــياه. تـــساءل تيموج إن كان شن يي قد خطط لوصولهم بدقة أكبر حتى مما

أدركــه. كانت الليلة المظلمة ستاراً في البداية، وحلّ شن يي الحبال التي تربطهم إلى دعامة على ضفة النهر وأرسل اثنين من أفراد الطاقم للعمل على مجذاف التوجيه في مؤخـــر القارب. بينما كان القارب يتأرجح يميناً ويساراً، استعمل شن يي بنفسه عموداً طــويلاً ليكون ممراً إلى الرصيف. أطلق رجال يشعرون بالنعاس عليه الشتائم عندما ارتطم العمود بخشب الرصيف، وصدر عنه صوت مكتوم في الظلام. اعتقد تيموج أن القمـــر قـــد تحرك في الوقت الذي كانوا فيه على وشك الوصول إلى الرصيف نفسه، على الرغم من أن شن يي بالكاد تعرق من العمل الذي قام به.

كـــان الميـــناء عاتماً، على الرغم من أن أضواءً كانت لا تزال تظهر في نوافذ بعض الأبنية الخشبية ويمكن سماع ضحكات في مكان ما داخلها. كان اللمعان الأصفر من تلك الأماكن هو كل ما يحتاجه شن يي لتلمّس طريقه على الرصيف وكان أول من وثب على الألواح الخشبية، ممسكاً حبلاً في يده ليربط القارب. لم يكن قد أصدر أمراً بالتـــزام الـــصمت، لكن لم يتكلم أحد من أفراد الطاقم فيما كانوا يفكّون الشراع. حتى أصواتهم وهم يفتحون مصراعي باب عنبر الحمولة كانت مكتومة.

تـــنفس تيموج الصعداء مطولاً عندما وصل الأرض، لكن في الوقت نفسه، شعر بنبضه يتسارع. كان يمكن رؤية بعض الأشكال المبهمة، مستلقية أو نائمة. جال تيموج ببصره عليها، متسائلاً إن كانوا متسولين، غانيات أو حتى مخبرين. كان الجنود الذين رآهـــم مـــستعدين بالتأكـــيد لمراقبة رسو زورق في الليل. كان تيموج يخشى صرخة مفاجـــئة أو اندفاعاً من رجال مسلحين يمكن أن يقضي على كل ما أنجزوه حتى ذلك الوقت. كانوا قد وصلوا إلى المدينة التي أرادها جنكيز، أو على الأقل إليّ أقرب نقطة علـــى النهـــر المؤدي إليها. ربما لأنهم كانوا قريبين جداً من هدفهم، أصبح مقتنعاً أن الأمـــر لـــن يـــتمخض عن شيء وتسلل خلف الآخرين ليعبر متن القارب إلى الألواح الخـــشبية، وتعثّر في أثناء قيامه بذلك. كان هو سا من أمسك بذراعه حتى لا يقع، فيما اختفى خاسار في الظلام.

لـــم يكـــن تيموج يرغب بشيء أكثر من ترك القارب وطاقمه خلفه، لكنه كان لا يـــزال قلقاً من أن يغدر بهم شن يي. إن كان القبطان قد فهم أهمية قيام خاسار بحمل قـــوس مغولـــي معـــه، ربما تنقذه المعلومات من ورطة. في أرض غريبة، حتى مع مساعدة هو سا، سيكون هناك ضغط شديد لتفادي التدقيق في وضعهم، خاصة من قبل شخص يعرف أنهم متجهون إلى باوتو.

صـــدر صـــوت صرير في الظلام، ومدّ تيموج يده إلى سكينه. أرغم نفسه على الاســـترخاء عندما شاهد عربتين تقتربان، تجرهما بغال تظهر آثار تنفسها في الهواء

الـــبارد. ترجل السائقان، وتكلما بصوت منخفض مع شن بي، وضحك أحدهما بصوت خافت عندما بدأوا تفريغ حمولة القارب الصغير. لم يسع تيموج سوى أن يركّز عينيه لـــرؤية ما يخرج من القارب، لكنه لم يتبين التفاصيل. كان الشيء الذي يحمله الرجال ثقيلاً، وأمكن معرفة ذلك من الأصوات التي يطلقونها عندما يرفعونه. وجد تيموج وهو سا نفسيهما يقتربان منهم، يدفعهما الفضول. كان خاسار من تكلم في الظلام وهو يمر حاملاً شيئاً داكناً على كتفه.

همس لتيموج: "حرير. لقد تحسست طرف القماش". سمعاه يتأفف بينما كان يضع ما يحمله في أقرب عربة قبل أن يعود إليهما.

همـــس: "إذا كانـــت كل البضاعة هكذا، هذا يعني أننا نقوم بتهريب الحرير إلى المدينة".

عض هو سا على شفته من دون أن يلاحظه أحد.

"بمـــثل هذه الكمية؟ لا بد أنها جاءت من كيفنغ أو ينكينغ نفسها. تستحق مثل تلك الحمولة وجود أكثر من بعض البحارة للدفاع عنها".

سأل خاسار بصوت عالٍ جعل تيموج يفزع: "كم ثمنها؟".

رد هـــو ســـا: "آلاف القطع الذهبية. ما يكفي لشراء مئة قارب مثل هذا ومنزل إقطاعي لوضع الحرير فيه. شن بي هذا ليس تاجراً صغيراً أو لصاً. إذا كان قد رتّب لـــنقل هذه البضاعة عبر النهر، لا بد أن ذلك كان فقط لصرف انتباه أولئك الذين ربما يـــسرقونها. حتـــى عندها، ربما كان خسر كل شيء لو أننا لم نكن على متن القارب". فكر لحظة قبل أن يتابع كلامه.

"إذا كـــان العنبـــر مليـــئاً، لا يمكـــن أن تكون البضاعة سوى من المستودعات الإمبراطورية. لا يتعلق الأمر بدفع الضرائب عليها. إنها محمية تماماً قبل البيع. ربما تكون هذه المرحلة الأولى من مسار تقطع فيه آلاف الأميال إلى مقصدها النهائي".

ســـأله خاســـار: "مـــاذا يهمنا في ذلك؟ ما زلنا بحاجة للدخول إلى المدينة وهو الشخص الوحيد الذي يعرض علينا اصطحابنا معه".

ســـحب هو سا نفساً عميقاً لإخفاء نوبة غضب. "إذا كان أحد يبحث عن الحرير، ســـنكون هدفاً أكثر مما إذا كنا لوحدنا. هل تفهم؟ قد يكون أسوأ شيء نفعله هو السفر إلى باوتو مع هذه البضاعة. إذا فتّش حراس المدينة العربتين، سيتم احتجازنا وتعذيبنا لقول كل ما نعرفه".

شـــعر تـــيموج بمعدته تتقلص من الفكرة. كان على وشك إصدار أمر لمرافقيه بمغـــادرة القارب عندما ظهر شن بي عند كتفه. كان يحمل مصباحاً زيتياً، لكن يمكن

رؤية وجهه في الضوء الخافت. كان تعبيره متوتراً مثلما كانوا يرونه دائماً، ويلمع من العرق.

قال: "اصعدوا، جميعكم". فتح تيموج فمه لتقديم عذر ما، لكن أفراد الطاقم كانوا قد تركوا قاربهم. كانوا يحملون سكاكين ووقفوا مستعدين، ولم يستطع تيموج العثور على كلمات لتهدئة خوفه المتزايد. كان واضحاً تماماً أنه لن يكون مسموحاً للركاب بمغادرة المكان ببساطة تحت جنح الليل، ليس بعد ما رأوه.

بدا أن شن يي يشعر بانزعاجه وأومأ له. قائلاً: "لا تتمنى أن تشق طريقك بنفسك إلى المدينة في الظلام. لن أسمح بذلك".

فزع تيموج، ومدّ يديه ليدفع بنفسه إلى إحدى العربتين. لاحظ كيف أشار أفراد الطاقم إلى هو سا ليصعد إلى العربة الثانية فيما سمحوا لخاسار بالصعود إلى الأولى بجانب شقيقه. بشعور غامر، أدرك أن شن يي كان قد فرّقهم عمداً. تساءل إن كان سيرى باوتو أم سيتم إلقاؤه جانب الطريق وحنجرته ممزقة. كانوا على الأقل لا يزالون يحملون أسلحتهم. كان خاسار يحمل قوسه ملفوفاً بقماش وتيموج يحمل سكينه الصغيرة، على الرغم من أنه كان يعرف أنه لا يستطيع شق طريقه بالقوة.

بقيت العربتان ساكنتين حتى خرجت صافرة خافتة من ظلال أبنية الميناء. قفز شن يي بهدوء عن العربة، وأطلق صافرة جوابية. راقب تيموج بقلق بينما كان شكل داكن يفصل نفسه عن الظلال ويمشي نحو مجموعتهم الصغيرة. كان أحد الجنود، أو شخصاً يشبههم إلى حدٍّ كبير. تكلم الرجل بنبرة منخفضة، وكافح تيموج لسماع الكلمات. شاهد شن يي يسلم الرجل حقيبة جلدية ثقيلة، وسمع صوت الرجل السعيد من الوزن.

قال شن يي: "أعرف عائلتك يا يان. أعرف قريتك، هل تفهم؟". تسمّر الرجل في مكانه وقد فهم التهديد. ولكنه لم يردّ.

قال شن يي: "أنت أكبر من أن تكون حارس ميناء. بين يديك ما يكفيك لشراء تقاعدك، ربما شراء أرض زراعية صغيرة، مع زوجة ودجاج. ربما حان الوقت لتترك الميناء خلفك".

أومأ الرجل في الظلام، وضم الحقيبة إلى صدره.

"إذا تم إلقاء القبض علي يا يان، لدي أصدقاء سيجدونك بغض النظر عن المكان الذي ستهرب إليه".

أومأ الرجل برأسه مجدداً، متشنجاً. كان خوفه واضحاً وتساءل تيموج مجدداً عن هوية شن يي، وما إذا كان ذلك اسمه الحقيقي. بالتأكيد لن يثق أحد بوضع شحنة من الحرير الإمبراطوري المسروق بأيدي قبطان قارب بسيط.

اختفــى الجــندي بــين الأبنية، وتحرك بسرعة مع تلك الثروة الكبيرة بين يديه. صــعد شــن يي مرة أخرى إلى العربة، وطقطق السائقان بلسانيهما للبغال لحثّها على الانطلاق. ترك تيموج أصابعه تتلمس تحته بحثاً عن ملمس الحرير، لكنها وجدت بدلاً مــن ذلــك قماشاً خشناً بخطوط تطريز كثيفة. كان الحرير مخفياً، لكنه تمنّى أن يكون لــدى شن يي المزيد من الرجال المرتشين الذين ينتظرون في باوتو. كان لا يشعر بما يجــري حــوله، مأخوذاً بالأحداث التي لا يمكنه السيطرة عليها. تفتيش واحد جيد عند أســوار المدينــة ولن يرى جبال خينتي مجدداً. كما كان كوكشو قد علّمه، تضرّع إلى الأرواح لتقوده بأمان عبر المياه الداكنة للأيام القادمة.

بقــي أحــد أفراد الطاقم خلفهم لإعادة القارب إلى النهر. وحيداً، لم يكن يستطيع السيطرة عليه بسهولة وظن تيموج أنه سيغرق في مكان ما بعيداً عن أنظار المسؤولين الــذين يستفــسرون عن كل كبيرة وصغيرة. لم يكن شن يي من صنف الرجال الذين يقترفون الأخطاء، وتمنّى تيموج أن يعرف ما إذا كان الرجل عدواً أم صديقاً.

كــان تقديــر هو سا للمسافة إلى باوتو صحيحاً، كما خمّن تيموج. كانت المدينة مبنــية علــى بعــد حوالى ثمانية أميال من النهر؛ على بعد خمسة وعشرين *لي*، وفقاً لتقدير تشن للمسافات. كان الطريق جيداً، ممهداً بحجارة مسطحة غير مكسورة بحيث يستطيع التجار قطع المسافة من النهر بوقت معقول. كان الفجر قد بدأ للتو يبزغ عندما مــدّ تــيموج عــنقه وشــاهد الظل الداكن لسور المدينة يقترب منهم. مهما كان الذي ســيجري، ســواء أكــان تفتيشاً للعربتين ينتهي بموته أم دخولاً هادئاً إلى باوتو، فإنه ســيحدث بــسرعة. شعر بعرق القلق ينخز جلده وحك إبطيه. إلى جانب الخطر القائم آنــذاك، لــم يكن قد دخل أبداً مدينة مبنية من الحجارة من قبل. لم يكن يستطيع إبعاد صورة تل من النمل يبتلعه بطريقة ما إلى حشد متدافع من الغرباء. كانت فكرة قيامهم بالــضغط علــيه قد جعلته يتنفس بصعوبة، ويشعر بالخوف. كان يشعر بعائلات شعبه بعــيدة جــداً عنه. مدّ تيموج عنقه نحو الظل الداكن الذي كان شقيقه، وكاد يمس أذنه بشفتيه حتى لا يسمعه أحد.

"إذا اكتشفوا أمرنا عند البوابة، أو تم العثور على الحرير، ينبغي أن نهرب ونجد مكاناً نختبئ فيه في المدينة".

حدّق خاسار إلى حيث كان شن يي يجلس في مقدمة العربة.

"لــنأمل ألا يــصل الأمــر إلى ذلك الحدّ. لن نجد بعضنا مجدداً أبداً، وأعتقد أن صديقنا ليس مجرد مهرّب بسيط".

استقام تيموج في جلوسه على الكيس القاسي عندما استدار شن يي لينظر إليهما. فــي الضوء الذي أخذ يشتد، كان الذكاء في نظرة الرجل القصير مربكاً، ونظر تيموج خلفه إلى سور المدينة، وشعر بقلقه يتزايد.

لــم يكونــوا وحــدهم على الطريق آنذاك. أظهر ضوء الفجر صفاً من العربات يــتجمع أمــام الــبوابات. وكانت قد أمضت الليل على الطريق، تنتظر أن يُسمح لها بالدخول. تجاوز شن يي تلك العربات وسط صخب ركابها، متجاهلاً الرجال المتثائبين الذين فقدوا مكانهم في الصف. انتشرت حقول الطين الأحمر إلى مسافات بعيدة، وكان كل حصاد الأرز يذهب لإطعام المدينة. لاحت باوتو فوقهم جميعاً، وابتلع تيموج ريقه عندما نظر إلى الأعلى مراراً وتكراراً على الحجارة الضخمة.

كانــت بــوابة المدينة بناءً ضخماً من الخشب والحديد، ربما لإثارة إعجاب المــسافرين. على كلا جانبيها، كان هناك برجان يزيد ارتفاعهما عن البوابة بمرة ونــصف، مــع جــسر بينهما. كان يمكن رؤية الجنود هناك، وعرف تيموج أنهم يــشاهدون بوضــوح كل ما يمر تحتهم. رأى أنهم يحملون أقواساً، وشعر بمعدته تتقلص.

انفتحت البوابة، وحدّق تيموج عندما دفعها المزيد من الجنود إلى الخلف، ومنعوا الدخول بعمود خشبي له ثقل موازٍ. لم تتحرك أقرب العربات بينما كان الجنود يأخذون مــواقعهم، مــستعدين لعمل اليوم. شدّ سائقا شن يي اللجامين بهدوء، وأوقفا البغال. لم يظهــر علــيهما الخوف الذي كان تيموج يشعر به، وكافح ليتذكر الوجه القاسي الذي عــرفه فتى صغيراً. لم يكن مفيداً أن يراه الجنود يتعرق في صبيحة يوم بارد، وفرك ردنيه على جبينه.

خلفهم، شد تاجر آخر لجام مطيته وتوقف، ونادى بتحية مرحة شخصاً إلى جانب الطــريق. تحــرك صــف العربات ببطء إلى داخل المدينة، ورأى تيموج أن الجنود يوقفــون واحدة من بين كل ثلاثة، ويتبادلون أحاديث مقتضبة مع السائقين. كان قد تم رفــع العمــود الخشبي للمرة الأولى ولم يتم إنزاله مجدداً. بدأ تيموج تكرار عبارات الاســترخاء التــي كان كوكشو قد علّمه إياها، مستمداً الراحة من معرفته بها. أغنية الريح. الأرض تحت القدمين. أرواح التلال. تحطيم السلاسل.

كانــت الــشمس قد ارتفعت عن الأفق في الوقت الذي وصلت فيه أولى عربتي شــن يــي إلى البوابة. كان تيموج يراقب أسلوب المفتشين، وفكّر أنهم قد يمرون من دون تمحيص عندما تم تفتيش التاجر أمامهم والسماح له بالدخول. بخوف متزايد، رأى

الجـنود ينظـرون إلــى سائق شن يي الذي لم تكن تبدو على وجهه أي تعبيرات. بدا أحدهم أكثر تأهباً من مرافقيه النعسانين وكان هو من تقدم إلى الأمام.

ســأل الجندي: "ماذا ستفعل في باوتو؟". كان يوجه كلامه للسائق الذي شرع في الإجابــة من دون ترابط. شعر تيموج بقلبه ينقبض عندما نظر شن يي من فوق رأس الجــندي إلى المدينة. كانت خلف البوابة ساحة مكشوفة وسوق دبّ النشاط فيه للتو مع خــيوط الفجر الأولى. رأى تيموج شن يي يشير بحدّة وكان هناك فجأة صوت حطام بين الأكشاك جعل الجندي يستدير إلى الخلف.

بدا أن الأطفال المتدافعين يأتون من كل أنحاء الساحة، يصرخون وينحرفون في مسارهم لتفادي أي صاحب محل. لدهشة تيموج، شاهد أشرطة من الدخان تخرج من أكثــر من مكان وسمع الجندي يطلق الشتائم ويصدر أوامر لمرافقيه. تداعت الأكشاك وانهــار العديد منها عندما تم ركل الأعمدة التي تحملها. ارتفعت صرخات "حرامي!" وازدادت الفوضى مع كل لحظة.

لطــم الجندي عند البوابة عربة شن يي بقوة، على الرغم من أنه لم يكن واضحاً إن كان ذلك أمراً بالتوقف أو السير. مع خمسة آخرين، جرى للسيطرة على ما أصبح بــسرعة شــغباً. خاطر تيموج بإلقاء نظرة خاطفة إلى الأعلى، لكن رماة السهام على الجــسر كانــوا غائبين عن ناظريه. كان يأمل بأن يكون ذلك قد شتّت انتباههم أيضاً وأرغم نفسه على التحديق إلى الأمام عندما طقطق سائق شن يي بفمه ودخل المدينة.

اشتعلت النار في الساحة الصغيرة، وانتقلت من كشك إلى آخر، وطقطقت ألسنتها مــع أصوات الباعة. رأى تيموج جنوداً يركضون، لكن الأولاد كانوا سريعين واختفوا آنذاك في الشوارع والأزقّة، وبعضهم يحمل بضائع مسروقة.

لم ينظر شن يي إلى الفوضى بينما كانت عربتاه تبتعدان عن الساحة إلى طريق أكثر هدوءاً. تضاءلت الأصوات خلفهما، واسترخى تيموج على الأكياس، يمسح العرق عن جبينه.

كــان يعرف أن تلك لم تكن مصادفة. كان شن يي قد أعطى إشارة. مرة أخرى، تــساءل تــيموج بــشأن الرجل الذي التقوا به في النهر. مع مثل تلك الحمولة الثمينة بحــوزته، ربمــا لم يكن يهتم بشأن بضع قطع نقدية إضافية على الإطلاق. ربما كان يريد فقط بعض الرجال الإضافيين للدفاع عنها.

ســاروا عبر متاهة من الطرق، واستداروا مراراً وتكراراً إلى مسارات أصغر بــين البيوت. شعر تيموج وخاسار بأنهما محاصران بين الأبنية، التي كانت قريبة جداً لدرجــة أن الــشمس لم تكن تستطيع مس الظلال التي تتشكل بينها. ثلاث مرات، تم

إرغـام عـربات أخـرى على التراجع إلى أزقّة جانبية لتسمح لهم بالعبور؛ وعندما ارتفعـت الـشمس، امـتلأت الشوارع بعدد من الناس أكبر مما كان يتخيله تيموج أو خاسـار. رأى تـيموج اثني عشر محلاً يقدم طعاماً ساخناً في أوعية فخارية. لم يكن يـستطيع أن يتخيل العثور على طعام كلما كان المرء جائعاً، من دون أن يضطر لذبح أو اصـطياد حـيوان للحصول على لحمه. كان عمّال النهار يتجمّعون حول التجار، يأكلـون بأصابعهم ويمسحون أفواههم بقطع قماشية قبل العودة إلى العمل. كان العديد مـنهم يحمل قطعاً برونزية مثقوبة مربوطة بسلك أو خيط. على الرغم من أن تيموج كـان يعـرف قليلاً قيمة الفضة، إلا أنه لم يكن قد رأى من قبل مقايضة القطع النقدية بالبضائع وتعجب من كل ما هو جديد عليه. رأى رجلاً طاعناً في السن يكتب صكوك دفع، دجاجاً يزعق معروضاً للبيع، أكوام سكاكين ورجالاً يشحذونها على حجارة تدور بـين أقدامهم. رأى صبغ الملابس باللون الأزرق أو الأخضر، متسولين وباعة تعاويذ ضـد الأمراض. كان كل شارع مزدحماً، يعلو فيه الصراخ ويمتلئ حيوية؛ ولدهشته، أحب تيموج ذلك.

قال بصوت خافت: "هذا رائع".

نظـر إلـيه خاسار. وردّ قائلاً: "هناك الكثير من الناس والمدينة كريهة". أشاح تـيموج بنظـره بعيداً، غاضباً من شقيقه الأحمق الذي لم يستطع رؤية المتعة في مثل ذلك المكان. لبعض الوقت، كاد ينسى الخوف الذي كان يعتمل في داخله. كان لا يزال يتوقع أن تعلو صرخة بطريقة ما، كما لو أن حراس البوابة تبعوهم إلى ذلك المكان في متاهة باوتو. لم يحدث ذلك ورأى شن يي يسترخي عندما شقوا طريقهم أبعد وأبعد عن الأسوار، واختفوا في قلب المدينة الكبيرة.

# الفصل الثالث عشر



سـارت العـربتان علـى شوارع مرصوفة بالحجارة حتى وصلتا إلى بوابتين حديديتـين متينتـين، فُتحـتا حالما اقتربتا منهما. استغرق الأمر لحظات حتى دخلت العـربتان، وتـم إغلاق البوابتين خلفهما. نظر تيموج إلى الخلف، وعض شفته عندما شاهد مصراعين خشبيين يوضعان فوق الحواجز الحديدية، ويسدان الرؤية عن المارة.

بعـد الضوضاء وتجمهر الناس، كان ذلك سيعد مريحاً إن لم يكن يراوده شعور بأنـه محاصـر. كانت المدينة قد جعلته مذهولاً ومفتوناً بتعقيدها. على الرغم من أنها كانـت تثيـره، إلا أنهـا كانـت تـضغط بقوة على أحاسيسه، وتجعله يتوق للسهول المكـشوفة، فقـط ليأخذ نفساً قبل أن ينغمس فيها مرة أخرى. هزّ رأسه لتنقية أفكاره، وكان يعرف أنه بحاجة لذهن صاف لمواجهة ما ينتظره.

أصـدرت العـربتان صـوتَ صرير، وتمايلتا عندما قفز الرجال عنهما، وكان شـن يـي يطلق أوامر لأولئك الذين من حوله. ترجل تيموج لينضم إلى خاسار، وقد عادت عصبيته بكامل قوتها. بدا أن شن يي يكاد لا ينتبه لركابه عندما خرج حشد من الـرجال من المبنى يهرولون إليه، وحمل كل اثنين منهم لفة من الحرير على كتفيهما. لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى اختفت الحمولة الثمينة داخل المبنى وتساءل تيموج مجدداً عن الشبكة العنكبوتية من العلاقات التي يبدو أن شن يي يمتلكها في المدينة.

كـان المبنـى الذي يضم الساحة المرصوفة ملكاً بالتأكيد لرجل ثري، كما فكّر تيموج. لم يكن على طراز البيوت نفسه التي مرّوا بها، على الرغم من أنه ربما كانت هـناك بـيوت أخرى أيضاً مخفية. طابق واحد مع سطح من الآجر الأحمر الذي يمتد بكل الاتجاهات حوله، على الرغم من أن القسم المواجه للبوابة يرتفع بنقاط استناد إلى مـستوى ثان. طرفت عينا تيموج إعجاباً بالعمل الذي تطلبته مئات وربما آلاف قطع الآجـر. لـم يـسعه سوى مقارنة البناء بخيام اللباد وأغصان الصفصاف التي كان قد عرفها كل حياته وشعر بالحسد. ما هو الترف الذي عرفه شعبه من قبل في السهول؟

مـــن كل الجوانب، كان السطح يمتد متجاوزاً الجدران، تحمله أعمدة من خشب مطلـــي باللـــون الأحمر لتشكل ممراً طويلاً. وقف رجال مسلحون عند الزوايا، وبدأ تيموج يدرك أنه ومرافقاه سجناء شن يي. لم يكن هناك طريقة سهلة للهروب من ذلك المكان.

عـــندما تـــم تفريغ العربتين، قادهما السائقان بعيداً، وبقي تيموج واقفاً مع هو سا وخاســـار، يشعر بأنه غير حصين تحت نظرات الغرباء. لاحظ أن خاسار كان قد مدّ يده داخل قطع القماش التي تلف قوسه.

همـــس لخاســـار، الذي قفز عندما ترددت أصداء أفكاره: "لا يمكننا شق طريق خروجنا بالقوة".

همس خاسار له: "لا أرى أحداً يفتح البوابتين ليسمح لنا بالخروج".

كـــان شن يي قد اختفى داخل المبنى، وشعر الرجال الثلاثة بالراحة عندما رأوه يعود إليهم. كان قد ارتدى ثوباً أسود طويل الردنين، وانتعل خفاً جلدياً. رأى تيموج أن الرجل القصير يضع سيفاً معقوفاً على ردفه، وبدا مرتاحاً مع ثقله.

قـــال شن يي لدهشة تيموج الخاصة: "هذا *جيا* خاصتي: بيتي. أهلاً بكم فيه. هل تأكلون معي؟".

قال هو سا مشيراً نحو البوابة: "لدينا عمل في المدينة".

تقطب حاجبا شن يي. لم يكن هناك أثر لقبطان القارب النهري الدمث في سلوكه. بدا أنه يتقن ما يقوم به تماماً ووقف ويداه مشبوكتان خلف ظهره، ووجهه صارم.

"أنا أصر. لدينا الكثير من الأمور نناقشها". من دون أن ينتظر ردهم، مشى عائداً إلـــى البيت ولحقوا به. ألقى تيموج نظرة متريثة من فوق كتفه على البوابة بينما كان يـــدخل ظل الممر. كبت ارتعاشاً من فكرة الوزن الكبير للآجر فوق رأسه. لم يبدُ أن هو سا يشعر بالقلق هناك على الأقل، لكن تيموج تخيل أن العوارض الضخمة تتداعى، وتـــسحقهم جمـــيعاً. كرّر إحدى أناشيد كوكشو بصوت خافت، ملتمساً السكينة التي لم تأتِ.

كـــان الدخـــول إلـــى المبنى الرئيسي عبر باب خشبي مغطّى بطبقة من البرونز اللامـــع، المثقوب عدة مرات بأشكال تزيينية. رأى تيموج أشكال خفافيش محفورة في المعـــدن وتساءل عن معناها. قبل أن يعلق عليها، دخل غرفة مزخرفة بشكل لم يسبق له أن رآه من قبل. ألقى خاسار الوجه الجامد على تعبيراته بدلاً من أن يبدو مندهشاً، لكن تيموج فغر فمه من الغنى الظاهر في بيت شن يي. بالنسبة لرجلين ولدا في خيام،

كـــان ذلـــك مدهشاً. كان الجو يعبق برائحة بخور غريبة، ولم يكن ذلك يناسب رجلين كانـــا قد ترعرعا في الرياح والجبال. لم يسع تيموج سوى أن يلقي نظرة إلى الأعلى بـــين الفيـــنة والأخرى، قلقاً للغاية من الثقل الكبير فوق رأسه. بدا خاسار أيضاً غير مرتاح وطقطق مفاصل أصابعه في الصمت.

جـــثمت أرائـــك وكراسٍ أمام غرابيل خشبية وستائر من الحرير المصبوغ التي تـــسمح بمرور الضوء من غرف أخرى في الخلف. منذ النظرة الأولى، بدا كل شيء مـــصنوعاً مـــن خـــشب ثمين بألوان متناسقة، تسر الناظرين. كانت هناك أعمدة من الخـــشب الـــشديد اللمعان على طول الغرفة، والتي تصل إلى عوارض السقف. كانت الأرضية مصنوعة أيضاً من آلاف القطع الخشبية المصقولة حتى تكاد تلمع. بعد قذارة شوارع المدينة، كانت الغرفة نظيفة ومريحة، والخشب الذهبي يجعلها تبدو دافئة. رأى تيموج أن شن يي كان قد استبدل خفّيه بآخرين نظيفين عند الباب. متورداً من الخجل، عـــاد تيموج ليفعل الشيء نفسه. بينما كان يخلع حذاءه، اقترب منه خادم، انحنى أمامه لمساعدته وهو يحمل حذاءً نظيفاً في قطعة لباد أبيض.

رأى تـــيموج خطـــوطاً مـــن دخان أبيض متصل ترتفع من أطباق نحاسية على طاولـــة مزخـــرفة عـــند الجدار البعيد. لم يفهم ما يستحق مثل رمز الورع ذاك، لكن شن يي أحنى رأسه أمام المذبح الصغير، وتمتم دعاء شكر لعودته سالماً.

قال تيموج بحرص، مكافحاً للعثور على الكلمات المناسبة: "تعيش في بيت فائق الجمال".

أمال شن يي رأسه بإيماءة يعرفونها، وكانت تلك إحدى العادات التي لازمته.

قـــال: "هذا لطف منك. أعتقد أحياناً أنني كنت أكثر سعادة عندما كنت شاباً، أنقل البضائع عبر النهر الأصفر. لم يكن لدي شيء حينها، لكن الحياة كانت أبسط".

سأل هو سا: "من أنت الآن حتى يكون لديك مثل هذه الثروة؟".

أومأ شن يي بدلاً من أن يرد.

قـــال: "سترغبون بالاستحمام قبل تناول الطعام. رائحة النهر عالقة بنا جميعاً". أشار إلـــيهم أن يلحقـــوا به، وتبادلوا النظرات بينما كان يقودهم عبر ساحة أخرى خلف الأولى. عـــدّل كـــل مـــن تيموج وخاسار قامتهما عندما خرجا إلى ضوء الشمس، وتركا الأعمدة الخـــشبية الثقيلة خلفهما. كان يمكن سماع خرير الماء هناك، ومشى خاسار إلى بركة حيث كانـــت أســـماك كسولة تتحرك ببطء في ظله. لم يلاحظ شن يي أن خاسار قد توقف، لكنه عندما نظر إلى الخلف، ورأى أن خاسار بدأ بخلع ملابسه، ضحك مسروراً.

قال: "ستقتل أسماكي! تابع السير إلى الحمام".

هــزّ خاســار كتفيه من دون مبالاة، وشدّ رداءه فوق كتفيه. جدّ في السير خلف تيموج وهو سا، متجاهلاً متعة جندي كزي كزيا.

عند الطرف البعيد للساحة الثانية، رأى أبواباً مفتوحة وخيوطاً من البخار تخرج إلى الهواء الدافئ. أشار إليهم شن بي بأن يدخلوا.

قال: "افعلوا كما أفعل. سوف تستمتعون".

تجـرّد من ملابسه بسرعة، كاشفاً عن الجسد القصير الهزيل الممتلئ ندوباً الذي يعــرفونه جـيداً من القارب. رأى تيموج بركتي مياه محفورتين في الأرض، والبخار يتـصاعد ببطء من إحداهما. كان سيقفز إليها، لكن شن بي هزّ رأسه، وبدلاً من ذلك رأى تـيموج عبدين يقتربان وشي بي يرفع ذراعيه. لدهشة تيموج، أفرغ العبدان دلاء مـاء فوق سيدهما، ثم استعملا قطعاً قماشية مربوطة حول يديهما لفركه بمادة رغوية حتى أصبح جسده أملساً وأبيض منها. تبع ذلك المزيد من الدلاء وعندها فقط نزل إلى البركة سعيداً بذلك.

ابـتلع تـيموج ريقه بعصبية بينما كان يلقي بردائه على الأرض. كان قذراً مـثله، ولـم يكن يستسيغ فكرة أن يفركه غرباء. أغلق عينيه بينما كان يتم إفراغ الدلاء فوق رأسه، ثم أبقاهما مغلقتين بقوة بينما كانت الأيدي القاسية تفرك جسده، وتجعله يتمايل من جانب إلى آخر. كانت الدلاء الأخيرة من الماء شديدة البرودة ما جعله يشهق.

دخل تيموج بحذر شديد إلى الماء الحار. شعر بعضلات ظهره وفخذيه تسترخي عـندما وجد الكرسي الحجري تحت سطح الماء وتنفس الصعداء. كان الشعور رائعاً. كانت تلك هي الطريقة التي ينبغي أن يعيش المرء بها! خلفه، أبعد خاسار يدي العبدين عـندما حـاولا فرك جسده بالقطع القماشية. وقفا متجمدين من فعلته، قبل أن يحاول أحـدهما مجـدداً. من دون إنذار، وجّه خاسار لكمة إلى جانب رأس الرجل، وأوقعه أرضاً وهو يدور على الآجر القاسي.

أطلق شن بي ضحكة مدوية، وأصدر أمراً للعبدين بالابتعاد. نهض الذي كان قد وقــع علــى الأرض بحذر، وقد أحنى رأسه، بينما أخذ خاسار قطعة القماش، ومسح جسده حتى أصبحت القطعة سوداء. لم ينظر تيموج عندما رفع خاسار قدمه على رف حجـري علــى طول الجدار لتنظيف أعضائه الحسّاسة. أنهى العملية بإفراغ دلو فوق رأسه، وكان يحدق كل الوقت إلى الرجل الذي ضربه.

أعــاد خاسار الدلو، وتمتم شيئاً جعل العبد يتوتر ويزّم فمه. تحمّل هو سا العملية بانزعاج أقل، ودخلا الماء معاً، أطلق خاسار شتائم بلغتين بينما كان يغمس نفسه فيه.

جلـس الرجال الأربعة صامتين لبعض الوقت، قبل أن ينهض شن يي، ويغطس فـي البركة الأخرى. قلّدوه بإحباط صامتين، متعبين من النمط المتكرر والتأخير. في البركة الثانية، أخرج خاسار زفيراً من البرد، وغطس برأسه تحت الماء، وخرج يشعر بـأن طاقة جديدة تملأه. لم يكن أي من المغوليين قد عرف الماء الحار من قبل، لكن الغطـس في الماء البارد لم يكن أسوأ من الأنهار في الوطن. نظر تيموج مطولاً إلى الحمام البخاري الذي كان قد تركه، لكنه لم يعد إليه.

فـي الـوقت الـذي اسـتقروا فيه، كان شن يي قد خرج، وقام العبدان بتنشيفه بالمناشف. لم يتريث خاسار وتيموج وتركا البركة خلفه، وخاسار ينفخ مثل سمكة ملقاة على شاطئ. لم يجرؤ العبدان على الاقتراب من خاسار مرة أخرى، وأعطياه بدلاً من ذلـك قطعـة كبيرة خشنة من القماش ليجفف نفسه. فعل ذلك بقوة حتى أضحى جلده يـتورد نـضارة. كـان قـد حلّ الرباط الذي يربط شعره، وانسدلت خصله السوداء الطويلة.

نظر تيموج على الكومة البالية من الملابس المتسخة التي كانت رداءه وكان يمد يديـه إلـيها عندما لطمه عليهما شن يي، وأحضر العبدان ملابس جديدة. كانت هناك سعادة في التخلص من رائحة القوارب الكريهة، كما فكر تيموج وهو يمرر يديه فوق القماش الناعم. لم يسعه سوى أن يخمّن ما يدور في ذهن شن يي بشأنهم عندما توجهوا لتناول الطعام.

كـان الطعام وافراً، على الرغم من أن خاسار وتيموج بحثا من دون جدوى عن لحم الضأن بين الأطباق.

سأل خاسار وهو يختار قطعة من لحم أبيض بأصابعه: "ما هذا؟".

رد شن يي: "أفعى بالزنجبيل". أشار إلى وعاء آخر. "ستعرفون الكلب، أنا واثق من ذلك".

أومأ خاسار موافقاً.

رد وهـو يغمس أصابعه في حساء بحثاً عن قطعة أخرى: "عندما تكون الأوقات صـعبة". مـن دون أن تظهـر عليه علامة على الاشمئزاز، تناول شن يي زوجاً من العصي الخشبية وأظهر للمغوليين كيفية الإمساك بقطعة من الطعام بينهما. كان هو سا وحده مرتاحاً، وتوتر شن يي قليلاً عندما أسقط كل من خاسار وتيموج قطعاً من اللحم والأرز علـى القمـاش. مرة أخرى، علّمهما، ووضع هذه المرة القطع في أطباق أمام المغوليين حتى يستطيعا التقاطها بأصابعهما.

حافظ خاسار على هدوء أعصابه. كان قد فرك جسده، غطس في الماء، وحصل علـــى ملابس تجعله يحك. كان محاطاً بأشياء غريبة لا يفهمها، واعتمل الغضب تحت الـــسطح. عـــندما تخلى عن استعمال العصي الغريبة ودفعها في وعاء الأرز، طقطق شن يي في الواقع بصوت خافت، ورفعهما بإيماءة حادة.

قـــال شن يي: "تركهما هكذا إهانة، على الرغم من أنك لا تعرف ذلك". وجد خاسار أن التعامل مع طبق من الصراصير أسهل، وقضم أجزاء الحشرات المقلية بسعادة ظاهرة.

قال وفمه مشغول بالطّعام: "هذا أفضل".

كان تيموج مستعداً لتقليد كل ما يفعله شن يي، وغمس قطعاً من عجين مقلي في ماء مالح قبل أن يمضغها. عندما نفدت الصراصير كلها، مدّ خاسار يده إلى كومة من البـــرتقال، وتـــناول اثنتـــين. بعـــد أن قـــضم قطعة من القشرة، قشّر الأولى بإبهاميه واسترخى تماماً عندما فصل الفصوص عن بعضها وتناولها. انتظر وشقيقه حتى يتكلم شن يي، وكان واضحاً تماماً أن صبرهما قد نفد.

عـــندما انتهوا جميعاً، راقب شن يي جهود خاسار مع البرتقال، ثم وضع عصي الأكل على الطاولة ولم يقل شيئاً بينما كان العبيد يزيلون أي أثر لوجبة الطعام. عندما أصبحوا وحدهم مجدداً، استراح على أريكته. فقدت عيناه النظرة المقنعة واكتسبتا مرة أخرى صرامة قبطان القارب الذي عرفوه.

قال لتيموج: "لماذا جئتم إلى باوتو؟".

رد تيموج مباشرة: "للتجارة. نحن تجار".

هـــزّ شـــن يـــي رأسه. "التجار لا يحملون قوساً مغولياً، أو يستعملونه كما يفعل شقيقك. أنتم من ذلك الشعب. لماذا أنتم هنا في أراضي الإمبراطور؟".

ابـــتلع تـــيموج ريقه بصعوبة بينما كان يحاول التفكير. كان شن يي يعرفهم منذ وقت طويل ولم يسلّمهم للسلطات، لكنه لا يستطيع وضع ثقته بالرجل، خاصة بعد كل تلك الغرابة والحيرة.

قـــال: "نحن من قبائل الخان العظيم، نعم. لكننا جئنا لإقامة علاقات تجارية بين شعبينا".

رد شـــن يـــي: "أنا تاجر. قدّموا عروضكم لي". لم يكن وجهه يفصح عن شيء، لكن تيموج شعر بفضول الرجل القصير الشديد.

قـــال تـــيموج ببطء وهو يختار الكلمات: "سأل هو سا من أنت لتمتلك مثل هذه الثـــروة. لـــديك هذا البيت والعبيد، لكنك تأخذ دور المهرب في النهر، ترشو الحرّاس وترتب لصرف الأنظار عنك عند بوابة المدينة. من أنت حتى نثق بك؟".

كانـت نظرة شن يي باردة بينما كان يتفحّصهم. "أنا رجل لست مرتاحاً من فكرة تجـوالكم فـي مدينته. كم سيطول الأمر قبل أن يقبض عليكم جنود الإمبراطور؟ كم سيمر من وقت بعد ذلك قبل أن تخبروهم بكل ما رأيتموه؟".

انتظر بينما كان تيموج يترجم لشقيقه.

قـال خاسار وهو يقسم برتقالة شطرين ويمص نصفها: "قل له إننا إذا لقينا حتفنا أو تـم أسـرنا، ستحترق باوتو عن آخرها. سيأتي جنكيز من أجلنا السنة القادمة. إنه يعـرف أيـن نحن وسيرى هذا الرجل القصير بيته الثمين يشتعل بألسنة اللهب. قل له ذلك".

"ستفعل خيراً بأن تلتزم الصمت يا شقيقي إذا أردنا الخروج من هنا أحياء".

قال شن يي: "دعه يتكلم. كيف ستحترق مدينتي إذا لقيتم حتفكم؟".

لرعب تيموج، تكلم شن يي بلغة القبائل. كانت لهجته قاسية، لكنها كانت واضحة بمـا يكفي لكليهما. تجمّد بينما كان يفكر بكل الأحاديث التي كان شن يي قد سمعها في الأسابيع التي سبقت الوصول إلى باوتو.

سأله متناسياً خوفه للحظة: "كيف تعرف لغتنا؟".

ضـحك شـن يـي بـصوت حاد ولم يقل شيئاً يريح الرجال الجالسين إلى الطاولة.

"هل تعتقدون أنكم أول من يسافر إلى أراضي تشن؟ كان اليوغر قد سلكوا طريق الحريـر من قبل، وبقي بعضهم هنا". صفق بيديه، ودخل رجل آخر إلى الغرفة. كان نظـيفاً مثلهم ويرتدي ثوب تشن بسيطاً، لكن وجهه كان مغولياً، وأظهر عرض كتفيه أنــه ترعرع مع قوس. نهض خاسار لتحيته، ضم يده وضربه على مؤخرته بقبضته. ابتسم الغريب من الترحيب.

قال خاسار: "من الجيد رؤية وجه حقيقي في المدينة".

بـدا الـرجل مأخـوذاً تقريباً لسماع تلك الكلمات. قال وهو ينظر إلى شن يي: "الشيء نفسه بالنسبة لي. كيف هي السهول؟ لم أعد إلى الوطن منذ سنين عديدة".

رد خاسـار: "إنها على حالها". خطرت له فكرة ونزلت يده إلى حيث يوجد سيفه عادة على ردفه. "هل هذا الرجل عبد؟".

رفع شن يي بصره إلى الأعلى من دون إحراج. "بالطبع. كان كيشان تاجراً ذات مرة، لكنه اختار أن يراهن معي".

هـزّ الـرجل كتفيه من دون مبالاة. "هذا صحيح. لن أبقى عبداً للأبد. بضع سنوات أخرى وسأكون قد وفيت ديني. ثم أعتقد أنني سأعود إلى السهول، وأعثر على زوجة".

وعـده خاسـار: "اعثر علي أولاً عندما تفعل ذلك. سأمنحك بداية جديدة". راقب شــن يي بينما كان كيشان يحني رأسه. قبل خاسار الإيماءة كما لو أنها لم تكن جديدة عليه، وتسمرت نظرة شن يي عليه.

قال: "أخبروني مجدداً كيف ستحترق مدينتي".

فتح تيموج فمه، لكن شن يي رفع يداً. "لا، لا أثق *بك*. تكلم شقيقك الحقيقة عندما كان يعتقد أنني لا أفهم ما يقول. دعه يخبرني بذلك".

ألقى خاسار نظرة على تيموج، وكان واضحاً أنه يستمتع بإحباط شقيقه. استغرق منه الأمر لحظة لينطق بكلماته. ربما سيرغب حتى شن يي بقتلهم عندما يسمعها. نقل يده إلى حيث كان يخفي سكيناً صغيرة في طيات ردائه.

قال خاسار أخيراً: "كنا في ما مضى ذئاباً، لكن شقيقي وحّد القبائل. مملكة كزي كـزيا هــي أول مــن خضع لنا، وسيكون هناك المزيد". تحرك هو سا منزعجاً من الكلمــات، لكــن لم ينظر إليه أي من الرجلين. جلس خاسار مثل الصخرة بينما كان يحدّق إلى عيني شن يي.

"ربمـا سأموت هنا، الليلة، لكن إذا حدث ذلك، سيأتي قومي إلى تشن ويحطّمون مدنكم الثمينة، واحدة تلو الأخرى، حجراً إثر آخر".

توتــر وجه شن يي بينما كان يصغي. كانت معرفته باللغة تقتصر فقط على ما يحتاجه للتجارة ولا بد أنه كان سيقترح أن يكون الكلام بلغته إن لم يبدُ ذلك ضعفاً.

قـال مــن دون أن يــرد على كلمات خاسار الحادة: "تنتقل الأنباء بسرعة عبر النهــر. لقد سمعت بالحرب في كزي كزيا، على الرغم من أنها لم تقل إن شعبك حقق النصر. هل كان الملك ميتاً حينها؟".

رد خاســار: "لــيس عندما غادرت. دفع جزية وقدّم ابنته. فتاة جميلة، كما أعتقد".

ذكّره شن يي: "لم تجب عن سؤالي سوى بالتهديدات. لماذا ستأتون إلى هنا، إلى مدينتي؟".

لاحـظ خاسار التشديد الذي كان شن يي قد نطق به *مدينتي*. لم يكن يتمتع بحدة ذهن للتلاعب بالكلمات، أو سرد سلسلة من الأكاذيب التي سيصدقها شن يي.

قـال خاسار: "نحتاج إلى بنّائين". سمع تيموج يطلق زفيراً حاداً من خلف كتفه، وتجاهلــه. "نريد أن نعرف أسرار مدنكم. لقد أرسلنا الخان العظيم بنفسه. باوتو مجرد مكان على خريطة لا أهمية كبيرة له".

تمتم شن يي وهو يفكر: "إنها بلدتي".

قـال خاسار مستشعراً أن اللحظة مناسبة: "يمكنك الاحتفاظ بها. لن يتم المساس بباوتو إذا حصلنا على وعد منك بمساعدتنا".

انتظـر أن ينتهي شن بي من أفكاره، والعرق يتصبب على وجهه. كان واثقاً أن صـرخة واحدة ستجعل الغرفة تمتلئ برجال مسلحين. كان صحيحاً أن جنكيز سيدمر المدينة انتقاماً لهم، لكن شن بي لن يكون واثقاً من ذلك. بالنسبة له، كانوا يتفاخرون أو يكذبون.

كـان كيـشان مـن كسر حاجز الصمت. كان قد شحب لونه مما سمعه وخرج صوته خافتاً يمتلئ رعباً.

قال: "القبائل موحدة؟ هل اليوغر بينها؟".

أومأ خاسار برأسه من دون أن يفارق بصره شن بي.

"الـذيل الأزرق جزء من راية الخان العظيم. لقد سيطر علينا تشن لوقت طويل، لكن ذلك انتهى. لقد انطلقنا للحرب يا أخي".

راقـب شن بي وجه كيشان بحرص، يراقب كيف أدّت الأنباء إلى ظهور تعبير أمل ممزوج بالدهشة على وجهه.

قـال فجـأة: "سأعقد صفقة معكم. ستحصلون على كل ما تحتاجونه، من يدي. ستعودون إلى خانكم وتقولون له إن هناك رجلاً يمكنه الوثوق به هنا".

رد خاسـار: "مـا فائدة مهرّب لنا؟". كاد تيموج يئن عندما تابع خاسار كلامه: "كيف يمكنك المساومة على مصير مدينة؟".

قـال شـن بـي: "إذا فـشلتم، أو كنتم تكذبون، لن أخسر شيئاً. إذا كنتم تقولون الحقيقة، ستحتاجون إلى حلفاء، أليس كذلك؟ لدي نفوذ هنا".

قـال خاسـار: "هل ستخون البلاط الإمبراطوري؟ إمبراطورك؟". طرح السؤال ليختبر شن بي، ولدهشته، بصق الرجل القصير على الأرض اللامعة.

"هذه مدينتي. كل ما يدور هنا يصل إلى مسامعي. لا أحب النبلاء الذين يعتقدون أنهـم يـستطيعون وضع كل الرجال تحت عرباتهم مثل الحيوانات. لقد فقدت عائلتي وأصدقائي لجنودهم، رأيت أحباء لي يتم شنقهم عندما رفضوا التخلي عني. لماذا أهتم لهم؟".

كان قد نهض بينما كان يتكلم، ووقف خاسار ليواجهه.

قـال خاسار: "كلمتي حديد. إذا قلت إنك ستحصل على هذه المدينة، ستكون لك لتحكمها عندما نأتي".

قال شن بي: "هل يمكنك أن تتكلم نيابة عن الخان؟".

رد خاسار: "إنه شقيقي. يمكنني التكلم نيابة عنه". لم يكن بوسع تيموج وهو سا سوى أن ينظرا إلى الرجلين اللذين يحدقان على بعضهما إلى بعض.

قال شن يي: "كنت أعرف أنك محارب على القارب. لقد كنت جاسوساً سيئاً".

رد خاسار: "كنت أعرف أنك لص، لكنك لص جيد". ضحك شن يي بصوت خافت وأمسك الرجلان بيدي بعضهما بقوة.

قال شن يي: "لدي العديد من الرجال الذين يطيعونني. سأمنحك ما تريده وسأحرص على عودتك سالماً إلى شعبك". جلس، وأمر بإحضار شراب بينما شرع تيموج بالحديث. لم يفهم كيف استطاع الرجل القصير الوثوق بخاسار، لكن ذلك لم يكن مهماً. كان لديهم حليف في باوتو.

عندما حل المساء، قَبِل خاسار، هو سا وتيموج عرضاً بالنوم بضع ساعات قبل قضاء ليلة طويلة، وأووا إلى أسرّة في غرف قبالة الساحة الثانية. لم يكن شن يي يحتاج أبداً إلى أكثر من بضع ساعات راحة منذ الأيام التي كان يهرب فيها من الجنود في أزقّة باوتو؛ كان ذلك منذ وقت طويل جداً. جلس مع كيشان واثنين من حرّاسه، وتكلما بصوت منخفض بينما كانا ينقلان قطعاً من العاج على رقعة مخططة. التزم كيشان الصمت لوقت طويل بينما كان يطقطق القطع العاجية معاً بيده. كان يعرف شن يي منذ عشر سنوات تقريباً، ورأى رغبة جموحة بالسلطة تظهر في عينيه آنذاك. كان الرجل القصير قد قضى على ثلاثة قادة آخرين لعصابات إجرامية في باوتو، ولم يكن قد بالغ عندما قال لخاسار ألا شيء يجري في المدينة من دون أن يصل إلى مسامعه.

رمى كيشان بقطعة عاجية وراقب ما يجري بينما كانت يد شن يي تمتد لتلقطها. كان الرجل الذي يدعوه صديقاً شارد الذهن تماماً عن اللعبة، وأفكاره في مكان آخر. تساءل كيشان إن كان ينبغي به رفع مقدار الرهان والتخفيف قليلاً من دينه. قرّر عدم القيام بذلك بعد أن تذكر ألعاباً أخرى كان شن يي قد تعامل معه بالطريقة نفسها تماماً، ثم فاز باستمرار.

رأى شن يي يتناول قطعة مختلفة ودار اللعب حول الطاولة، وصرخ أحد الحارسين "بانغ" بينما كان كيشان يطلق الشتائم بصوت خافت.

عندما أظهر الحارس ثلاث قطع متماثلة، أنزل شن يي يده إلى الأسفل. "لا مزيد الليلة. تصبح أفضل يا هان، لكنك لن تستطيع التغلب علينا".

نهـض كـلا الحارسـين، وأحنيا رأسيهما. كان قد تم إنقاذهما من أسوأ الأحياء الفقيـرة، وكانـا قويين ومخلصين للرجل الذي يحكم الجمعية السرية. بقي كيشان لأنه شعر بأن شن يي يرغب بالكلام.

قال كيشان بينما كان يجمع القطع العاجية فوق الطاولة: "أنت تفكر في الغرباء". أومـأ شـن يـي برأسه، يحدّق إلى الظلام عبر الأبواب. كانت الأمسية باردة آنذاك، وتساءل عما ستحمله الساعات القادمة.

"إنهم قوم غرباء يا كيشان. لقد قلت لك ذلك من قبل. سمحت لهم بالصعود على مـتن القـارب لحمايـة حريري، عندما أصيب ثلاثة من رجالي بالمرض. ربما كان أسـلافي يقودونني في ذلك". تنهد وفرك عينيه من الإرهاق. "هل رأيت الطريقة التي لاحـظ بهـا خاسار مواقع الحرّاس؟ كانت عيناه تتحركان دائماً. اعتقدت على القارب أنني لم أشاهده يرتاح أبداً، لكنك مثله تماماً. ربما يكون كل قومك كذلك".

هـزّ كيشان كتفيه من دون مبالاة. "الحياة كفاح يا سيدي. أليس ذلك ما يعتقد به الـبوذيون أيضاً؟ في سهول وطني، يموت الضعيف باكراً. لطالما كانت الأمور على تلك الحال".

"لـم يسبق لي أن رأيت شخصاً يستعمل قوساً بمهارة ذلك الرجل. في ظلام دامس، على قارب يهتز، قتل ستة رجال من دون تردد. هل كل قومك ماهرون هكذا؟".

أشـغل كيـشان يديـه بقطع اللعبة الصينية، وأعادها إلى حقيبتها الجلدية. "لست ماهـراً مـثله، لكـن اليوغر يثمّنون العلم والتجارة أكثر من أي قبيلة أخرى. الذئاب معـروفون بـشراستهم". توقف قليلاً، وقد تسمرت يداه. "لا أكاد أصدق أن القبائل قد اتحدت بقيادة رجل واحد، خان واحد. ينبغي أن يكون استثنائياً".

أغلـق كيشان الحقيبة الجلدية بسرعة، ثم استرخى إلى الخلف. كان يريد شراباً لـتهدئة معدتـه، لكن شن يي لم يكن يسمح بتناول الشراب عندما تكون الليلة بحاجة لأذهان صافية.

سـأل كيـشان بلطف: "هل سترحب بقومي عندما يزحفون إلى الأسوار؟". شعر بنظرة شن يي عليه، لكنه لم يرفع بصره إلى الأعلى من يديه المتشابكتين.

سأل شن يي: "هل تعتقد أنني سأخون مدينتي؟".

رفـع كيشان بصره، وشاهد غضباً عارماً في الرجل الذي أصبح يثق به بمرور السنين.

"كل هذا جديد. ربما ستدمر جيوش الإمبراطور هذا الخان الجديد، وسيلقى أولئك الذين يدعون أنفسهم حلفاء المصير نفسه. هل فكّرت في ذلك؟".

تأفف شن يي. "بالطبع، لكنني عشت وقتاً طويلاً مع قدم على عنقي يا كيشان. هذا البيت، عبيدي، كل أولئك الذين تبعوني هم فقط كل ما تركه وزراء الإمبراطور نتيجة كسلهم وفسادهم. نحن بعيدون عن أنظارهم، مثل جرذان في مستودعاتهم. أحياناً، يرسلون رجلاً لمعاقبة الناس ويشنق بضع مئات. يمسكون أحياناً حتى بأشخاص عزيزين علي، أو أحباء لي". كان وجه شن يي مثل الحجر عندما تكلم، وعرف كيشان أنه كان يفكر بابنه، الذي لم يكن أكثر من مجرد فتى عندما تم تعليقه بصنارة صيد داخل الميناء قبل سنتين. كان شن يي قد أنزل بنفسه جسد ابنه الذي كان يتأرجح في نسيم النهر.

قال كيشان: "لكن النار لا تعرف من تحرق. أنت تدعو ألسنة اللهب إلى وطنك، مدينتك. من يعرف كيف سينتهي الأمر؟".

كان شن يي صامتاً. كان يعرف مثل كيشان أنه يمكن تدبير اختفاء الغرباء الثلاثة. لطالما تم إلقاء جثث في النهر الأصفر، عارية ومنتفخة تطفو على السطح. لن يعود الموتى إليه أبداً. على الرغم من ذلك، كان هناك شيء رآه في خاسار أشعل تعطشاً للثأر كان شن يي قد أخفاه منذ صبيحة اليوم الذي حمل فيه جسد ابنه الرخو.

"ليأت قومك هؤلاء الذين يستعملون الأقواس والجياد. أقدّرهم من خلالك أكثر من رجال لا أعرفهم. منذ متى تعمل معي؟".

قال كيشان: "تسع سنوات يا سيدي".

"وقد حافظت على وعدك لي لتسوية دينك. كم مرة كنت تستطيع الهرب والعودة إلى قومك؟".

اعترف كيشان: "ثلاث مرات. ثلاثاً اعتقدت فيها أنني أستطيع الهروب قبل أن تسمع بالأمر".

رد شن يي: "أعرف عنها. أعرف قبطان القارب الذي قام بالمحاولة الأولى. كان أحد رجالي. لم تكن لتذهب بعيداً قبل أن يتم دق عنقك".

تقطب حاجبا كيشان لدى سماعه تلك المعلومة. "اختبرتني، إذاً".

"بالطبع. لست أحمق يا كيشان. لم أكن كذلك أبداً. لندع النيران تأتي إلى باوتو. سأقف حياً على الرماد بعد أن ينتهوا من الأمر. ليتخل ضباط الإمبراطور عن تفاخرهم وسأكون قانعاً بذلك. سأعرف السعادة على الأقل".

نهض شن يي وتمطّى، وطقطق ظهره بصوت مسموع في الغرف التي يسودها الصمت.

"أنـــت مقامر يا كيشان، ولهذا السبب عملت لدي وقتاً طويلاً. لم أكن أبداً الأول. لقـــد جعلـــت هذه المدينة لي، لكن على الرغم من ذلك يجدر بي أن أحني رأسي كلما رأيت أحد المفضلين لدى الإمبراطور ممتطياً جواده في الشوارع. شوارعي يا كيشان، وعلـــى الرغم من ذلك أنحني وأبتعد إلى أوساخ قنوات الصرف بدلاً من الوقوف في طريقهم".

نظر شن يي إلى الظلام، وعيناه جامدتان في وجهه.

"سأقف الآن يا كيشان، وسيسقط الآجر كما يحلو له".

# الفصل الرابع عشر



عــند منتصف الليل، بدأ مطر غزير ينهمر على مدينة باوتو. هسّ المطر على الشوارع وقعقع على الآجر حتى بدا صوته مثل رعد بعيد. بدا شن يي سعيداً بالمقابل بــالطقس بيــنما كان يسلم رجاله سيوفاً. حتى المتسولون سينكفئون داخل أزقّتهم فيما المطر ينهمر. كان ذلك فأل خير.

عندما خرجوا إلى الشارع المظلم، حدّق خاسار وهو سا على طول الطريق ليريا إن كان أحد يراقبهم. كان القمر متوارياً ولم يكن هناك سوى ضوء خافت عندما تنزاح الــسحب لتكشف عن فجوات بينها. كان تيموج قد افترض أن الماء سيخفف قليلاً من رائحــة المديــنة الكــريهة. بدلاً من ذلك، بدا أنها تنتشر في الهواء، والرطوبة تحمل روائــح قــذارة البــشر التــي تغلغلت في رئتيه وجعلته يشعر بالغثيان. كانت قنوات الصرف ممتلئة آنذاك، ورأى تيموج أشياء داكنة رطبة لم يستطع تحديدها تظهر هناك، يحملها التيار. ارتعش، مدركاً فجأة الحشد البشري الكبير من حوله. من دون شن يي، لم يكن ليعرف أين يبدأ بحثه في متاهة البيوت والمحلات، المكدسة بعضها فوق بعض في كل الاتجاهات.

كــان اثنان من رجال شن يي قد انضما إليهم عند البوابة. على الرغم من عدم وجود حظــر تجــول رســمي، ســيكون عشرة رجال موضع شبهة الجنود الذين لا يزالون في الشوارع. كلف شن يي أحد الرجال بمهمة استطلاع كل تقاطع طريق، ووجّه اثنين آخرين للتــريث في الخلف والتأكد أنهم ليسوا ملاحقين. لم يستطع تيموج التخلص من الشعور بأنه يتجه نحو معركة. بينما كانت الأمطار تنهمر، أمسك القبضة الرطبة للسيف الذي منحه إياه شــن يي، وكان يأمل بألا يضطر لشهره. كان يرتعش عندما انطلقوا، يتحركون هرولة. تم إغلاق البوابتين خلفهم برنين مسموع، لكن لم ينظر أحد إلى الخلف.

فــي بعض الشوارع، كانت حواف السطح البارزة للمنازل تشكل سقفاً فوق جزء جــاف مــن الطــريق. تباطأ شن يي إلى المشي بينما كان يقود المجموعة تحت ذلك

السقف، ولم يكن يرغب بأن تجذب أصوات الأقدام التي تسير هرولة اهتمام القاطنين. لــم تكــن المديــنة تغــرق في ظلام دامس، أو نائمة. رأى تيموج أضواء من محالّ الحــدّادين والمستودعات التي لا تزال تعمل في الليل. على الرغم من حيطة شن يي، إلا أن تيموج كان واثقاً أنه يشعر بعيون تراقبهم في أثناء انتقالهم سيراً على الأقدام.

في الدجنة، فقد تيموج الإحساس بالزمن حتى بدا أنه كان يجري طيلة نصف تلك اللــيلة. لــم يكن هناك شكل محدد للشوارع التي يقطعونها أو يلتفون حولها، ولم تكن أحياناً أكثر من دروب متسخة يغطيها طين متجمد لطّخهم حتى كواحلهم. شعر تيموج بالإرهاق بعد وقت قصير فقط، وأمسك أحدهم أكثر من مرة بذراعه في الظلام ودفعه إلــى الأمام، مرغماً إياه على اللحاق بالباقين. أطلق شتائم بصوت خافت عندما جعلته مــثل تلك الحركة يطأ قناة للصرف، وعلق شيء طري وبارد بين أصابع قدميه. كان يأمل بأن تكون فاكهة متعفنة لا شيء أسوأ، لكنه لم يتوقف.

مرة واحدة فقط عاد الرجل الذي يسير أمامهم ليقود شن يي في طريق مختلف. تمنّى تيموج أن يكون الجنود يقضون الليل في ثكنات دافئة بدلاً من أن يتجمدوا ويتبللوا مثله.

أوقــف شن يي رجاله اللاهثين أخيراً في ظل سور المدينة نفسه. استطاع تيموج رؤيــته وكــان مثل سدٍّ شديد الظلمة. إلى الجانب الآخر، كان يقع العالم الذي يعرفه واختبر شعور الحماية التي يوفرها للمدينة. كان مثل ذلك السور مفيداً لملك كزي كزيا فــي ينشوان. لم يستطع كل المحاربين الذين جمعهم جنكيز إحداث ثغرة في مثل ذلك الشيء. كان يمتد إلى مسافة بعيدة، يلوح فوق شارع عريض تحدّه بيوت تبدو مثل بيت شن يي. لم تكن تلك البيوت مخفية في أحياء فقيرة، وإنما تشغل مساحات جيدة، ويملأ شذا حدائق الزهور النسيم من حولها. حتى شكل الشوارع كان قد تغير في هذا الجزء مــن باوتــو. أسرعوا الخطى عبر شبكة من الأحياء، المفصولة عن المدينة ببواباتها وأسوارها. كافح تيموج ليلتقط أنفاسه. كاد يختنق عندما ربت خاسار على كتفيه، وكان شقيقه يقف مرتاحاً كما لو أنه خرج في نزهة ليلية.

جاء الرجلان اللذان يسيران خلفهم بسرعة، يهزّان رأسيهما. لم يكن أحد يتبعهم. لم يتوقف شن يي للراحة، وهمس بأوامر لهم للابتعاد عن الأنظار بينما كان يقترب من الــبوابة المغلقة. وقع بصر الرجل على تيموج واقفاً هناك ويداه على ركبتيه واقترب منه ليتكلم في أذنه.

"ســيكون هناك حرّاس. سيوقظون قائدهم وسأتكلم إليه. لا تطلق أي تهديدات في مدينتي أيها المغولي. سيشعر المالك بقلق شديد لوجود غرباء في وقت متأخر في بيته، ولا أريد أن يتم سحب أسلحة".

استدار شن يي مبتعداً، يرتب رداءه الأسود بيديه بينما كان يقترب من البوابة. رافقه اثنان من رجاله، واختفت باقي المجموعة في إحدى الزوايا حيث لم يكن ممكناً رؤيتها. أمسك خاسار تيموج من ردنه، وسحبه معه قبل أن يستطيع الاحتجاج.

نقر شن يي بنفسه بإبهامه على البوابة، ورأى تيموج ضوءاً أصفر يسطع على وجهه عندما تم فتح نافذة في الخشب.

قال شن يي بصوت حازم: "أخبر سيدك أن لديه زائراً بشأن عمل إمبراطوري. أيقظه إن كان نائماً".

لم يسمع تيموج الرد، لكن بعد وقت بدا طويلاً، فُتحت النافذة مجدداً، ونظر شن يي إلى وجه آخر.

قال الرجل بوضوح: "لا أعرفك".

وقف شن يي ساكناً من دون حراك.

"الجمعية الزرقاء تعرفك يا ليان. الليلة، ستفي ديونك".

فُتحت البوابة بسرعة، لكن شن يي لم يطأ العتبة.

"إذا كانت لديك أقواس تنتظر يا ليان، ستكون هذه ليلتك الأخيرة. لدي رجال معي، لكن الشوارع خطيرة. لا تفزع وسيكون كل شيء على ما يرام".

تمتم الرجل المتواري عن الأنظار رداً، وكان صوته يرتعش. عندها فقط أدار شن يي بصره نحو الآخرين، وأشار إليهم أن يلحقوا به.

رأى تيموج خوفاً في الرجل الذي تم استدعاؤه من فراشه. كان ليان عريض المنكبين مثل خاسار، لكنه ارتعش بشكل واضح للعيان، وأبقى عينيه منخفضتين بينما كان شن يي يدخل بيته.

لم يكن هناك سوى حارس واحد فقط عند البوابة، وأبقى عينيه بعيدتين عن أولئك الذين دخلوا. شعر تيموج بثقته تتزايد، ونظر حوله باهتمام حالما تم إغلاق البوابة المؤدية إلى الشارع. كان الجري تحت المطر وفي الظلام خلفهم متعباً، واستمتع بالطريقة الخانعة التي تصرف بها سيد البيت في باوتو.

وقف ليان كما لو أنه مذهول أمام شن يي، وشعره غير مرتب من النوم.

تمتم: "سأجعلهم يعدّون طعاماً وشراباً"، لكن شن يي هزّ رأسه.

"لن يكون ذلك ضرورياً. دلني على مكان يمكننا التكلم فيه على انفراد". نظر شن يي حوله على ساحة البيت. كانت أعمال البناء قد ازدهرت أيام الحكم الإمبراطوري. إضافة إلى إصلاح السور، كان مسؤولاً عن بناء ثلاث ثكنات ومضمار سباق في قلب المقاطعة الإمبراطورية. على الرغم من ذلك، كان بيته بسيطاً وأنيقاً.

ثبتت نظرة شن يي على الحارس الوحيد، ورأى أنه يقف قريباً جداً من جرس يتدلى من عارضة خشبية.

"لــن تــرغب بــأن يستدعي رجلك الجنود إلى هنا يا ليان. قل له أن يبتعد عن الجرس، أو سأعتقد أنك تشك بكلمتي".

أومــأ البــنّاء للحارس، الذي فزع بشكل ظاهر للعيان، واتخذ موقعاً جديداً قرب البــيت الرئيــسي. ازدادت غــزارة الأمطــار، وارتفع صوت هطولها على الساحة الرئيــسية. شــعر البنّاء بالبرد، وبدا أنه ينكمش على نفسه. قادهم إلى البيت، وأخفى خــوفه في ضوء المصابيح. رأى تيموج يده تهتز بينما كان يحمل فتيلاً مشمّعاً أطول مما يحتاجونه، كما لو أن الضوء يستطيع إبعاد خوفه.

جلــس شن يي على أريكة قاسية بينما كان ينتظر أن ينتهي البنّاء من التجول في أرجــاء الغرفة. وقف خاسار، وهو سا، وتيموج معاً، يراقبون المشهد بافتتان صامت. اتخذ حارسا شن يي موقعين خلف سيدهما، ورأى تيموج عيني البنّاء تطرفان نحوهما، مقدراً الخطر.

أخيــراً، لم يستطع التأخر أكثر من ذلك. جلس قبالة شن يي وهو يشبك يديه معاً لإخفاء الطريقة التي تهتزان بها.

قال ليان: "لقد دفعت الضريبة المستحقة للجمعية. هل كانت غير كافية؟".

رد شن يي: "ليس الأمر كذلك". استغرق منه الأمر لحظة ليمسح ماء المطر عن وجهه، مرّر يده فوق شعره، ونثر القطرات على الأرضية الخشبية. جال ليان ببصره عليها. "ليس ذلك ما جاء بك إلي".

قــبل أن يستطيع شن يي متابعة كلامه، تكلم ليان مجدداً، غير قادر على إيقاف نفــسه. "العمــال، إذاً؟ عمل معي كل الرجال الذين استطعت تشغيلهم، لكن اثنين من أولئك الذين أرسلتهم لي لم يرغبا بالعمل. بينما اشتكى الآخرون أنهم لا يحصلون على مستحقاتهم. كنت على وشك طردهم هذا الصباح، لكن إذا كنت ترغب ببقائهم...".

كان شن يي يشبه شيئاً مصنوعاً من رخام بينما كان يتفحص شيخ البنّائين.

"إنهم أبناء أصدقاء. سيبقون، لكنني لست هنا لهذا السبب".

أحنى البنّاء رأسه قليلاً. قال: "إذاً، لا أفهم ما يجري".

"هل لديك شخص يمكنه تولي أمر إصلاح السور؟".

"ابني يا مولاي".

جلس شن يي ساكناً تماماً حتى نظر البنّاء إليه.

"لست مولاك يا ليان. أنا صديق أريد منك معروفاً".

رد ليان مستشعراً الأسوأ: "أي شيء".

أومأ شن يي برأسه سعيداً.

"ستستدعي ابنك، وتخبره أن عليه تولي العمل سنة كاملة، وربما اثنتين. لقد سمعت أشياء جيدة عنه".

وافق ليان مباشرة: "إنه ابن رائع. سيصغي إلى والده".

"أنت حكيم يا ليان. قل له إنك ستغيب ذلك الوقت، ربما لتجد مصدراً جديداً للرخام في مقلع في مكان ما. اخترع الكذبة التي تراها مناسبة، لكن لا تجعله يشك بالأمر. ذكّره أن ديون والده هي ديونه في أثناء غيابك واشرح له الضريبة التي ينبغي به دفعها للجمعية إذا كان يريد أن يعمل. لا أريد أن أضطر لتذكيره بنفسي".

قال ليان: "اعتبر الأمر منتهياً". كان يتعرق، كما لاحظ تيموج، وظهر خط لامع من القطيرات على شعره. رأى أن البنّاء الضخم يستجمع شجاعته ليطرح سؤالاً.

"سأقول لزوجتي وأولادي الشيء نفسه، لكن هل لي بمعرفة الحقيقة؟".

هزّ شن يي كتفيه غير مبالٍ، وأمال رأسه إلى الجانب.

"هل ستغير من الأمر شيئاً يا ليان؟".

"لا يا مولاي. أنا آسف...".

"هذا غير مهم. سترافق أصدقائي هؤلاء إلى خارج المدينة. يحتاجون إلى خبرتك يا ليان. أحضر أدواتك، وعندما ينتهي عملك، سأسعى بأن تحصل على مكافأة".

أومأ البنّاء برأسه تعيساً، ووقف شن يي فجأة.

"تكلم إلى أولئك الذين تحبهم يا ليان، ثم تعال إلي".

ترك البنّاء المجموعة وحدها، واختفى داخل ظلمة البيت. استرخى أولئك الذين بقوا قليلاً، مشى خاسار إلى ستارة حريرية، واستعمل القماش لتجفيف المطر عن وجهه وشعره. سمع تيموج نحيباً بعيداً لطفل بينما كان الرجل ينقل إلى عائلته ما تم إبلاغه به.

قال هو سا لشي يي: "لا أعرف ماذا كنا سنفعل لو أنك لم تكن هنا لمساعدتنا".

ابتسم سيد الجمعية السرية قليلاً.

"كنتم ستتجولون في مدينتي حتى يقبض عليكم الجنود. ربما كنت سأحضر لمشاهدة وضع الجواسيس الغرباء على خوازيق أو شنقهم".

سأل تيموج: "هل فكرت بإخراجنا من المدينة؟". قبل أن يرد شن يي، عاد ليان. كانت عيناه حمراوين، لكنه وقف منتصباً وقد فقد بعضاً من خوفه. كان يرتدي معطفاً من قماش مشمّع ثقيل ضد المطر، وكانت فوق أحد كتفيه حقيبة جلدية يقبض عليها كما لو أنها تجعله يشعر بالراحة.

قال لشي يي: "لدي أدواتي. أنا مستعد".

تـركوا البـيت خلفهم، ومرة أخرى، أرسل شن يي رجلاً أمامهم ليتفقد إن كان هـناك جنود يقومون بدورياتهم. كان هطول المطر قد خفّ، ورأى تيموج نجم القطب لوقت قصير عبر الغيوم. لم يكن شن يي قد شرح شيئاً، لكنهم اتجهوا غرباً على طول طريق مواز للسور ولم يسع تيموج سوى الهرولة خلفهم.

في الظلام أمامهم، سمعوا صوتاً يصرخ عالياً، وتوقفت المجموعة كلها.

هـسّ شن يي: "أخفوا سكاكينكم عن الأنظار". ابتلع تيموج ريقه بعصبية، وسمع وقع أقدام على الطريق الممهد. انتظروا الرجل في الأمام أن يعود، لكن بدلاً من ذلك، سـمعوا وقع نعل أحذية وجال شن يي ببصره في الأنحاء يبحث عن طرقات محتملة للهرب.

صرخ صوت في الظلام: "لا تتحركوا". كان تيموج قريباً بما يكفي ليرى شن يي يكشّر.

كـان هـناك سـتّة جنود يرتدون دروعاً حديدية، يقودهم رجل يعتمر خوذة لها ريـش. تـأوه تيموج لنفسه لرؤية الأقواس التي يحملونها. لم يكن أمام رجال شن يي فرصـة كبيـرة لشق طريقهم بالقوة. شعر بالرعب يزداد مثل مادة حمضيّة في حلقه، وبدأ يتراجع من دون تفكير. كانت قبضة خاسار الحديدية من أوقفته في مكانه.

سـأل شـن يـي: "أين قائدكم؟ يستطيع لوجان أن يكون ضمانتي". رأى أنهم قد أمسكوا رجله من مؤخر عنقه. كافح الرجل في القبضة، لكن شن يي لم ينظر إليه.

تقطب حاجبا الضابط الذي كان يعتمر الخوذة ذات الريش من نبرة الكلام، وتقدم إلى الأمام عن رجاله.

"لوجان ليس في الخدمة الليلة. ما هو عملك حتى تجري في الشوارع في الظلام؟".

قال شن يي: "سيشرح ذلك لوجان". لعق شفته بعصبية. "قال لي إن اسمه سيسمح لنا بالمرور".

نظر الضابط إلى الخلف على الرجل البائس الذي كان مقبوضاً عليه من عنقه.

"ليس لي علم بذلك. ستعودون معي إلى الثكنات وسنسأله".

تنهد شن يي.

قال: "لا، لا، لن نفعل ذلك". دفع شن يي يده إلى الأمام بسكين في قبضته، وشق بهـا حنجـرة الضابط مما جعله يتراجع إلى الخلف وهو يطلق صرخة مختنقة. أطلق الجنود في الخلف سهامهم مباشرة، مستهدفين المجموعة. صرخ أحدهم ثم وصل إليهم رجال شن يي وأعملوا سكاكينهم في الجنود.

شــهر خاسار السيف الذي كان قد حصل عليه، وجأر بأعلى صوته. جعلت قوة الصوت أقرب الجنود إليه يتراجع خطوة إلى الخلف، ولكمه خاسار ثم تقدم خطوة إلى الأمــام ليــضرب بــساعده وجه الرجل. جعل التأثير قدمي الرجل تنهاران من تحته وتجــاوزه خاســار مندفعاً إلى الأمام، وضاع في زحمة العراك وهو يستعمل مرفقيه، قدمــيه ورأسه: أي شيء لإيقاع أعدائه أرضاً. لم يستطع أولئك الذين كانوا قد أطلقوا سهامهم سوى رفع أقواسهم للدفاع عن أنفسهم. حطم سيف خاسار إحدى تلك الأسلحة إلــى قطع قبل أن يغرس النصل في عنق الجندي. في الظلام، تحرك بينهم مثل نسمة، وركــل بــركبة مكشوفة وشعر بها تتكسر. كانت حركة الجنود ثقيلة بدروعهم وكان خاسار أسرع منهم، يغير اتجاهه في كل مرة يستشعر فيها الخطر قبل أن يقترب منه. شعر بأن شخصاً يتعلق به من الخلف، ويمسك بذراعه التي تحمل السيف. وجّه رأسه إلــى الخلــف بعنف، وضرب الرجل الذي تعلق به بمرفقيه، وكوفئ بصرخة ألم بينما كان المهاجم يبتعد عنه.

صــرخ تــيموج عندما اصطدم أحد الجنود به. سقط أرضاً مع سيفه وقد سرق الرعب شجاعته. في مكان ما، بدأ جرس يرن. عندما تعرف على الصوت، شعر بأن أحداً يرفعه وصرخ، لكنه صمت عندما لطمه هو سا على وجهه.

قال هو سا بحدّة، محرجاً منه: "انهض. انتهى الأمر". أمسك تيموج بذراعه بينما كان ينهض، يحدّق إلى منظر خاسار محاطاً بأجساد ممزقة.

قــال خاســار: "هــل تدعو هؤلاء جنوداً يا شن يي؟ إنهم يتحركون مثل أغنام مريضة".

وقــف شــن يــي مذهولاً عندما دفع خاسار سيفه في صدر رجل كان لا يزال يتحــرك، وعثر على مكان تحت قطع الدرع الحديدية قبل أن يُرخي بكل ثقله عليه. لم يكــن يــصدق الــسرعة التي كان المحارب المغولي يتحرك بها. كان حرّاسه رجالاً انــتقاهم لمهاراتهم، لكن خاسار كان قد جعلهم يبدون مثل مزارعين. وجد نفسه يرغب بالدفاع عن جنود مدينته، بقدر ما يكرههم.

ردّ: "هناك ست ثكنات في المدينة، في كل منها خمسمئة أو أكثر من تلك الأغنام المريضة. ذلك كافٍ".

ركل خاسار إحدى الجثث بقدمه.

قــال: "سيأكلهم شعبي أحياء". فزع حينها ومس الترقوة. تلطخت يده بالدماء التي سرعان ما أضحت أقل كثافة في المطر حتى سالت بين أصابعه.

قال تيموج: "أنت مصاب".

"أنــا معــتاد علـــى القتال بالدرع يا شقيقي. لقد سمحت للضربة بأن تصل إلي". بغـضب، ركــل خاسار خوذة الضابط التي كانت قرب قدميه، مما جعلها تنزلق فوق حجارة الطريق.

كــان هــناك اثنان من رجال شن يي يستلقيان صريعين بين زملائهما، والدماء تــسيل إلى برك مياه الأمطار الضحلة. فحصهما شن يي، ومسّت أصابعه السهام التي برزت من صدريهما. فكّر بسرعة بعد أن فسدت خططه.

قــال: "لا يمكن لرجل أن يتفادى قدره. دعوهما هنا ليتم العثور عليهما. سيكون ضباط الإمبراطور بحاجة لجثث لعرضها على الحشود غداً".

ترك الجميع الرجلين الميتين ممددين على الحجارة. رأى تيموج أن آخرين بينهم أصيبوا بجراح وأنهم يلهثون مثل كلاب تحت الشمس. استدار شن يي إليه عندها، وهو يستشيط غضباً.

"أنت بأمان الآن أيها الجبان، لكنهم سيمزقون المدينة إرباً بحثاً عنا. إذا لم أعمل على إخراجكم الليلة، ستبقون هنا حتى الربيع".

احمــرت وجنتا تيموج إذلالاً. كانت كل المجموعة تحدق إليه، فيما أشاح خاسار بنظــره بعــيداً. أغمــد شن يي سيفه، وتابع السير هرولة للوصول إلى الأسوار. كان الساعي قد نجا من القتال الدموي وتقدم أمامهم مرة أخرى.

كانت البوابة الغربية أصغر من تلك التي دخلوا منها في رحلتهم من النهر. شعر تيموج باليأس عندما رأى الضوء يزداد أمامهم، وسمع صراخاً. أياً كان المواطن الذي قرع جرس الإنذار، فإن ذلك أدّى إلى إيقاظ الجنود في ثكناتهم، ووجد شن يي صعوبة كبيرة في تفادي المراقبة. توجه إلى بناء مظلم قرب البوابة، طرق على الباب للسماح لــه بالدخــول. استطاع تيموج سماع جلبة رجال مدرعين يقتربون عندما انفتح الباب وانسلوا إلى الداخل، وأغلقوه بسرعة خلفهم.

قــال شــن يــي للــرجل الذي أجاب على طرقه: "اجعل رجالاً يصعدون إلى أعلى الــنوافذ. اطلــب مــنهم أن يخبرونا بما يروه". أطلق لعنة بصوت خافت حينها ولم يجرؤ تــيموج علـــى التكلم معه. دفعت رؤية الجرح البليغ القبيح على طول ترقوة خاسار تيموج للــسيطرة علـــى خــوفه، وطلــب من أحد رجال شن يي إبرة وخيطاً مصنوعاً من أمعاء القطــط. راقب شقيقه بتأففه المعتاد فقط بينما كان تيموج يخيط الجلد بخط متعرج. كان الدم والمطــر قد نظّفا الجرح، واعتقد أنه لن يتقيح. ساعد ذلك العمل في تهدئة دقّات قلبه ومنعه من التفكير بحقيقة أنه كان ممكناً إلقاء القبض عليهم في تلك اللحظة.

نادى أحد الرجال فوقهم، بهمس أجش بينما كان ينحني إلى الأسفل.

"تـم إغــلاق البوابة وتحصينها. أرى ربما مئة جندي، على الرغم من أن عدداً أكبر في الطريق إليها. يقف ثلاثون منهم عند البوابة".

سأل شن بي وهو ينظر إلى الأعلى إلى الرجل: "أقواس؟".

"عشرون، وربما أكثر".

"إذاً، نحــن محاصرون. سيفتشون المدينة بحثاً عنا". استدار إلى تيموج. "لم يعد بوســعي مساعدتكم. إذا عثروا عليّ، فسيقتلونني وسيكون للجمعية السرية الزرقاء قائد جديد. ينبغي أن أترككم هنا".

لــم يكن البنّاء، ليان، قد قاتل مع الآخرين. ولم يكن مسلحاً، كان قد تنحّى جانباً إلــى قنوات الصرف حالما بدأ القتال. كان هو من رد على شن بي بصوت يدمدم في الصمت.

قال: "أعرف طريقاً للخروج من هنا، إذا لم تكونوا تمانعون بتوسيخ أيديكم قليلاً".

همس الرجل في الأعلى نحوهم: "جنود في الشارع! إنهم يطرقون على الأبواب ويفتشون البيوت".

قال شن لي: "أخبرنا بسرعة يا ليان. إذا تم إلقاء القبض علينا، لن يصفحوا عنك".

أومأ البنّاء برأسه، ووجهه متجهم. "ينبغي أن نذهب الآن. إنه ليس بعيداً من هنا".

كانــت مصابيح شحم الضأن تشتعل وتئز، تلقي بضوء أصفر خافت عندما واجه جنكيز صفاً من ستّة رجال يجثون على ركبهم. كانت يدا كل واحد منهم مقيّدتين خلف ظهــره. كانــت وجوههم جميعاً قاسية، كما لو أن الرعب من الخان لا يعتمل داخلهم. مشى جنكيز ذهاباً وجيئة أمام الصف. كان قد تم استدعاؤه من سرير تشاكاهي ونهض غاضباً، حتى عندما رأى أن كشيون هو الذي ناداه في الظلام.

كان الرجال الستة أشقّاء، تتراوح أعمارهم من أصغرهم الذي كان بالكاد فتى إلى محاربين أشدّاء لديهم زوجات وأولاد.

قــال جنكيــز بحدّة: "قطع كل منكم عهداً لي". كان يتقد غضباً في أثناء الكلام، وللحظة، كان يرغب بقص رؤوس الستة جميعاً.

"قــتل أحدكم فتى من يوريانخي. ليتكلم ولن يموت سوى واحد منكم. إذا لم يفعل ذلك، سأقتلكم جميعاً". شهر سيف والده ببطء، وتركهم يسمعون الصوت. خارج دائرة ضــوء المــصابيح، شــعر بوجود حشد يزداد عدده، وكان قد استيقظ من النوم لرؤية العدالــة تأخـذ مجراها. لم يكن ليخيب أملهم. وقف جنكيز أمام أصغر الأشقاء ورفع السيف كما لو أنه لا يزن شيئاً.

قـال كوكشو بهدوء من طرف الظلام: "يمكنني معرفته يا مولاي". نظر الأشقّاء إلى الأعلى ليروا الكاهن العرّاف يدخل نطاق الضوء الخافت، وعيناه مرهقتان. "ينبغي بي فقط أن أضع يدي على كل رأس لأعرف الذي تسعى إليه".

أخـذ الأشقّاء يرتعشون بشكل ظاهر للعيان عندما أومأ جنكيز برأسه وهو يغمد سيفه.

"ألـق تعاويـذك أيها الكاهن العرّاف. لقد تم تمزيق الفتى إرباً. اعرف من فعل ذلك".

أحنـى كوكـشو رأسـه، ووقف أمام الأشقّاء. لم يجرؤوا على النظر إليه، على الرغم من أن تعبيرات وجوههم القاسية كانت مجهدة وترتعش.

راقـب جنكيـز بذهول بينما كان كوكشو يضغط بيده قليلاً على رأس أول رجل ويغلـق عينـيه. اندفعت كلمات الكاهن العرّاف منه بصوت رخيم. اهتز أحد الأشقّاء وكاد يقع قبل أن يكافح ليجلس مجدداً.

عندما رفع كوكشو يده، تمايل الشقيق الأول، مذهولاً وشاحباً. كان الحشد خارج الـضوء قـد ازداد وتمتم المئات في الظلام. انتقل كوكشو إلى الرجل الثاني، وسحب نفساً عميقاً وهو يغلق عينيه.

قـال: "الفتـى... الفتـى رأى...". وقـف ساكناً وحبس أفراد المعسكر أنفاسهم لمـراقبته. أخيـراً، هزّ كوكشو نفسه، كما لو أنه يتخلص من عبء ثقيل. "أحد هؤلاء الرجال خائن يا مولاي. لقد رأيت ذلك. لقد رأيت وجهه. قتل الفتى ليمنعه من نقل ما رآه".

بخطـوة واسـعة واحدة، تقدم كوكشو إلى الرجل الرابع في الصف، وكان أكبر الأشـقّاء. امـتدت يـده بحركة سريعة والتفت أصابعه مثل العظام في الشعر الأسود للرجل.

صرخ الشقيق وهو يكافح: "لم أقتل الفتى!".

همـس كوكشو في الصمت المطبق: "إذا كذبت، ستسرق الأرواح روحك. اكذب مجدداً الآن، وأظهر للخان العظيم مصير الخونة والقتلة".

كـان وجه المحارب شاحباً من الخوف عندما صرخ: "لم أقتل الفتى. أقسم على ذلـك!". تحت يد كوكشو الثقيلة، اهتز فجأة وصرخ الحشد خوفاً. شاهدوا برعب كيف جحظت عينا الرجل في رأسه وفغر فمه مفتوحاً. وقع على جانبه، متخلصاً من القبضة المرعبة بينما كان جسده يهتز ويتقلص، ومثانته تطلق دفعة كبيرة من البول الذي تبخر على العشب المتجمد.

وقــف كوكشو يراقب ما يجري حتى توقف الرجل عن الحراك، عيناه بيضاوان فـــي ومـــيض المصابيح. أطبق صمت شديد على المعسكر. وحده جنكيز كان يستطيع تحطيمه، وكان عليه أن يكافح للتغلب على مشاعر الدهشة والرهبة التي انتابته.

قال: "فكّوا قيود الرجال الآخرين. لقد عرفنا من قتل الفتى". عندها أحنى كوكشو رأسه، وصرف جنكيز الحشد إلى بيوتهم لينتظروا برعب شروق الشمس.

# الفصل الخامس عشر



رنت أجراس إنذار عبر باوتو بينما كانوا يسرعون الخطى في الليل، يتبعون ليان. حتى الظلام لم يكن حالكاً في بعض الأماكن، بعد أن استيقظ أصحاب البيوت وأضاؤوا مصابيح عند كل بوابة. ركضوا عبر بقع من الضوء حيث كان المطر يظهر مثل نقاط ذهبية، ثم يجتازون مواقع أخرى سوداء.

لم يكن الجنود قد رأوهم يغادرون، على الرغم من أن ذلك كان قاب قوسين أو أدنى. كان واضحاً أن ليان يعرف المنطقة جيداً، واندفع عبر الأزقّة الضيقة خلف بيوت الأثرياء من دون تردد. كان معظم جنود الإمبراطور قد ظهروا في منطقة البوابات، لكنهم كانوا يشقون طريقهم إلى مركز المدينة، يضيقون الخناق في أثناء بحثهم عن المجرمين الذين كانوا قد قتلوا رجالهم.

كان تيموج يلهث وهو يكافح للاستمرار في الجري. كانوا يجرون على طول السور، على الرغم من أن ليان استدار أحياناً بعيداً عنه لتفادي ساحات مكشوفة وتقاطعات طرقات. كان خاسار يقفز إلى جواره، وعيناه تبحثان عن الجنود. بعد القتال، كان يبتسم كلما نظر إليه تيموج، على الرغم من أن الأخير كان يشك بأن تكون ابتسامة أحمق لا يمكنه تخيل عواقب أن يتم إلقاء القبض عليه. كانت مخيلته قاسية بما فيه الكفاية لكليهما وشعر بالخوف وهو يجري، وتخيل قطعاً حديدية ساخنة في جسده.

توقف ليان قرب قسم هادئ من السور. كانوا قد تركوا الجنود المنتشرين مثل النمل والذين ينطلقون مسرعين خلفهم، لكن أجراس الإنذار كانت قد جعلت الناس يخرجون إلى بوابات بيوتهم، ينظرون بخوف إلى الرجال الذين يركضون.

استدار نحوهم ليان، يتنفس بصعوبة. "يتم إصلاح السور هنا. يمكننا التسلق باستعمال حبال سلال الأنقاض. لن تجدوا طريقة أخرى للخروج من باوتو الليلة".

قال شن يي: "أرني". جال ليان ببصره على الوجوه الشاحبة ونظر إلى كل نافذة يمكـــنه رؤيتها. ابتلع ريقه بعصبية، وأومأ برأسه، وقادهم إلى حيث يستطيعون وضع أيديهم على الحجارة القديمة لسور المدينة.

كانـــت الحبال مكدسة في الظلام، واستطاعوا رؤية الأشكال المخروطية للسلال الطرية التي يتم استعمالها لحمل الحجارة إلى الأعلى حيث يتم تفريغها في قلب السور. كانت ثلاثة حبال مشدودة وأمسك شن يي بواحدة منها بتعجب وسرور.

"لقد أبليت حسناً يا ليان. أليس هناك سلالم؟".

رد لـــيان: "يتم إغلاقها في الليل. يمكنني تحطيم الأقفال بسهولة كبيرة، لكن ذلك سيعيقنا".

"إذاً، سيفي هذا بالغرض. أمسك هذا الحبل وأرني كيف يتم الأمر".

ألقـــى الرجل بحقيبة أدواته على الأرض، وبدأ التسلق، يهمهم مع الجهد الذي يبذله. كـــان من الصعب معرفة ارتفاع السور في الظلام، لكنه بدا ضخماً لتيموج عندما حدّق إلى الأعلى. شدّ قبضتيه في الظلام، وكان بأمس الحاجة ألا يشعر بالإذلال مجدداً أمام خاسار. كان سيتسلقه. كانت فكرة أن يتم رفعه مثل كيس من المطارق كريهة للغاية.

انطلـــق هـــو ســـا وخاسار معاً، على الرغم من أن خاسار نظر إلى الخلف إلى تيموج قبل أن يبدأ التسلق. كان يفكر من دون شك أن شقيقه الضعيف سينزلق ويسقط على شن يي مثل عقاب إلهي. حدّق تيموج بغضب إليه حتى ابتسم خاسار وتسلق مثل جرذ، وجعل الأمر يبدو سهلاً على الرغم من إصابته.

تمـــتم شن يي لرجاله: "سينتظر الباقون هنا. سأصعد إلى الأعلى مع هؤلاء، ثم أعود إليكم حالما ينزلون بأمان. ينبغي على أحد أن يسحب الحبال من الطرف الآخر".

أعطـــى حبلاً سميكاً لتيموج وراقب بينما بدأ الشقيق الأصغر الارتقاء، يشد نفسه إلى أعلى السور بذراعين مرتعشتين. هزّ شن يي رأسه بسخط.

قـــال: "لا تقـــع أيهـــا الجبان". استطاع شن يي، الرجل ضئيل الحجم، الارتقاء بـــسرعة وترك تيموج يتسلق وحده في الظلام. كانت ذراعاه تؤلمانه والعرق يتصبب على عينيه، لكنه أرغم نفسه على الارتقاء باستعمال الحبل الخشن، متعلقاً فوق الرجال فـــي الأسفل. لم يكن هناك ضوء قرب القمة وكاد يقع مصدوماً عندما أمسكت به يدان قويتان، وسحبتاه إلى أعلى السور.

جلـــس تيموج يلهث، وتجاهله الآخرون مما كان مبعث راحة كبيرة له. كان قلبه يخفـــق بيـــنما كانوا يقفون وينظرون إلى الخلف على المدينة. في الأسفل، تم تحرير سلال الحجارة وسحبوا الحبال بسرعة، وألقوا بها من الطرف الآخر.

كان السور بعرض عشرة أقدام في الأعلى وتم مدّ الحبل على امتداده. أطلق ليان لعنة بصوت خافت عندما رأى أن الحبال لن تصل إلى الأرض خارج المدينة.

قال: "سيكون علينا أن نقفز الجزء الأخير، ونأمل ألا يكسر أحدنا قدمه".

كــان ينبغي سحب الحبل الأخير الذي ارتطم بالسور في طريقه إلى الأعلى مع حقيــبة أدوات لــيان، قوس خاسار وثلاثة سيوف مربوطة كلها معاً. أنزل ليان الحبل خارج السور وتوقف، منتظراً أن يُصدر شن يي الأمر.

قال شن يي: "اذهبوا الآن. سيكون عليكم أن تسيروا إلا إن وجدتم مكاناً تشترون منه بغالاً".

قــال خاسار مباشرة: "لن أمتطي بغلاً. أليس هناك جياد تستحق السرقة في هذه الأرض؟".

"الأمــر خطيــر جداً. شعبك موجود في الشمال، إلا إن كنت تنوي العودة على طــريق كــزي كزيا. لا تزيد المسافة عن بضع مئات *لي* من هنا، لكن سيكون هناك دوريات من جنود الإمبراطور على كل طريق وتقاطع. سيكون من الأفضل أن تتجهوا غرباً خلف الجبال، وألا تسافروا سوى ليلاً".

قــال خاســار: "سنرى. إلى اللقاء أيها اللص الصغير. لن أنسى كيف ساعدتنا". ربض على الحافة البعيدة، ثم انزلق ليستند على مرفقيه قبل أن يمسك بالحبل المتدلي. تــبعه هــو سا بعد إيماءة فقط إلى شن يي، وكان تيموج سيفعل الشيء نفسه من دون كلمة لو أن الرجل القصير لم يضع راحة كفه على كتفه.

"حصل خانكم على ما كان يريده. أريده أن يلتزم بالوعود التي تم قطعها باسمه".

أومأ تيموج بحدّة. لم يكن يهتم ما إذا قام جنكيز بحرق باوتو عن آخرها.

قــال: "بالطبع. نحن شعب نحترم كلمتنا". نظر إليه شن يي بينما كان ينزل إلى الأســفل، وقــد بدا له أخرق وواهناً كما هي عادته. عندما أصبح قائد الجمعية السرية الــزرقاء وحــيداً علــى الــسور، تنهّد. لم يكن يثق بتيموج، بعينيه الحائرتين وخوفه الظاهــر. كان قد شعر بأن في خاسار روحاً تتقد؛ إنّه رجل قاس، لكنه كان يأمل بأن يتذكر حسّ دعابته وما أسداه لهم. هزّ كتفيه غير مبالٍ عندما استدار عائداً إلى المدينة. لــم يكن واثقاً تماماً من ذلك. لم يكن يستمتع بمتعة المقامرة، ولم يفهم أبداً أولئك الذين يستمتعون بها. تمتم: "الآجر يتساقط. من يعرف أين سيقع؟".

كــان الغبار يعلو الرجال الأربعة وقد تقرّحت أقدامهم بحلول اليوم العاشر. غير معــتاد على السير، كان خاسار يمشي مترنحاً ومزاجه كان سيئاً. حالما أضحى خارج

نطاق سيطرة شن بي، لم يطرح ليان أيضاً سوى بعض الأسئلة قبل أن يلتزم الصمت تماماً. مشى مع أدواته فوق كتفه وعلى الرغم من أنه اشترك في تناول الأرانب البرية التي قتلها خاسار بقوسه، إلا أنه لم يحاول الاشتراك في الأحاديث بينما كان الآخرون يخططـــون مسارهم. جعلتهم رياح قوية يمشون وإحدى أيديهم على أثوابهم، يمسكون القماش بإحكام.

كـــان خاسار يرغب بسلوك أقصر الطرقات المؤدية إلى الشمال. كان تيموج قد جـــادل بـــذلك وتم تجاهله، لكن هو سا كان قد زوّده بوصف لقلاع تشن والسور الذي يحمـــي الإمبـــراطورية من الغزاة. على الرغم من أن السور كان متداعياً في بعض الأجـــزاء، لكـــن على الرغم من ذلك كان هناك حرّاس يمكنهم أن يشكلوا خطراً على أربعة رجال لوحدهم. كان الطريق الآمن الوحيد يتمثّل بالاتجاه غرباً على طول ضفتي النهر الأصفر حتى يصلوا الجبال التي تفصل مملكة كزي كزيا عن صحراء غوبي.

عـــند نهايـــة اليوم العاشر، كان خاسار قد أصرّ على دخول قرية تشن بحثاً عن جـــياد. كان وشقيقه لا يزالان يحملان كمية صغيرة من الفضة والذهب؛ كافية لترويع فلاحـــين لـــم يكونوا قد رأوا شيئاً مماثلاً لتلك القطع النقدية من قبل. كان حتى العثور علـــى تاجـــر لتـــبديل القطع الفضية بأخرى برونزية صعباً. غادروا خالي الوفاض، وانطلقوا مجدداً مع حلول الليل، غير راغبين بالبقاء في مكان واحد لوقت طويل.

عـــندما ارتفـــع القمر، كان الرجال المرهقون الأربعة قد دخلوا عميقاً في غابة صـــنوبر، يـــسيرون بـــبطء على دروب حيوانات، ويحاولون رؤية النجوم باستمرار لمعرفة طريقهم. للمرة الأولى في حياته، كان تيموج قد أصيب بالقلق من رائحة عرقه والأوســـاخ التي علقت به، وتمنّى أن يحظى بفرصة أخرى للاستحمام بأسلوب تشن. أمعـــن التفكيـــر فـــي تجربته الأولى في المدينة وشعر بالحنين لها، وتذكر نظافة بيت شن بي. لم يكن يهتم للمتسولين، أو حشد البشر الذي يشبه الديدان في قطعة لحم عفنة. كـــان ابـــن وشـــقيق خان، ولن ينزلق أبداً إلى مثل تلك الحالة المزرية. كان اكتشاف طريقة عيش رجال أثرياء كما رأى يمثّل إيحاءً بالنسبة له، وطرح أسئلة على ليان فيما كانوا يسيرون في الظلام. بدا البنّاء مندهشاً لأن تيموج لم يكن يعرف الكثير عن حياة المديـــنة، ولم يفهم كيف أن كل حقيقة جديدة كانت مثل الماء لروح جافة. أخبر تيموج عـــن تلامذة الصنعة، حيث يأتي مفكرون بارزون لتبادل الأفكار وإجراء النقاشات من دون إراقة دماء. كبنّاء، تكلم عن قنوات صرف يتم بناؤها حتى في أشدّ أحياء المدينة فقـــراً، علـــى الـــرغم مـــن أن الفساد كان قد أعاق العمل أكثر من اثنتي عشرة سنة. استوعب تيموج كل ذلك، وبينما كان يمشي، حلم بالسير مع رجال متعلمين في ساحات

تضيئها الشمس، يناقشون قضايا عظيمة ويداه مشبوكتان خلف ظهره. تعثر بجذر غير ظاهر، وضحك عليه خاسار، وتحطمت تلك الصور في مخيلته.

كان خاسار من أوقف الرتل من دون إنذار، مما أدّى إلى ارتطام هو سا بظهره. كان جندي كزي كزيا خبيراً بما يكفي ليلتزم الصمت. توقف ليان مرتبكاً، ورفع تيموج رأســه المثقل بأفكاره الخاصة، وقد حبس أنفاسه داخله. هل كانوا ملاحقين حقاً؟ كانوا قــد رأوا موقــع حراســة على طريق قبل يومين، والتفوا حوله. هل يمكن أن تكون الأوامــر صدرت بالعثور على الهاربين؟ شعر تيموج بوخزة يأس، وبات متأكداً فجأة أن شــن يــي وشى بهم مقابل إنقاذ حياته. كان ذلك ما سيفعله تيموج، واستولى عليه الخوف في الظلام، بينما كان يرى الأعداء في كل ظل.

همسّ تيموج من وراء ظهر شقيقه: "ما الأمر؟".

أدار خاسار رأسه ذات اليمين وذات الشمال، يبحث عن صوت.

"سمعت أصواتاً. لقد تغيرت الريح الآن، لكنها كانت موجودة".

همــس هــو سا: "ينبغي أن نتجه جنوباً بضعة أميال حتى يفقدوا أثرنا. إذا كانوا يبحثون عنا، يمكننا الاستفادة من الغابة للاختباء في النهار".

قــال خاسار: "الجنود لا يعسكرون في الغابات. سيكون التسلل بالقرب منا سهلاً للغاية. سنمضي قدماً، لكن ببطء. لتكن أسلحتكم جاهزة".

رفــع ليان مطرقة ذات يد طويلة من حقيبة أدواته، هزّها في يده قبل أن يضعها على كتفه الآخر. حدّق تيموج إلى خاسار بغضب متزايد.

سأل: "ماذا يهمنا من وجود آخرين في هذه الغابة؟ هو سا محق، ينبغي أن نلتف حولهم".

رد خاســار: "إن كانوا يمتلكون جياداً، سيستحق الأمر المجازفة. أعتقد أن الثلج سيتــساقط وقــد تعبت من المشي". من دون كلمة أخرى، مشى بخطوات واسعة إلى الأمــام، وأرغمهــم علــى اللحاق به. لعنه تيموج بصمت. لم يكن رجال مثل خاسار ليمشوا في شوارع المدينة التي بناها في مخيلته. ربما كانوا سيحرسون الأسوار، فيما يحصل رجال أفضل على الشرف والكرامة.

عــندما ساروا على طول الدرب الضيق، أصبح ممكناً رؤية وهج نار بين الأشجار، وســمعوا جميعاً الأصوات التي التقطتها أذنا خاسار حادتا السمع. وصلت ضحكة واضحة في نسيم الليل، وابتسم خاسار ابتسامة عريضة عندما سمع صهيل جواد.

تسلل الرجال الأربعة ببطء نحو الضوء، وكانت الهتافات والتحيات تخفي صوت حــركتهم. عندما اقتربوا بما فيه الكفاية، استلقى خاسار على بطنه، ونظر إلى الفسحة الصغيرة حيث كانت الجذور القديمة تعلو بعضها على بعض بأشكال مجدولة.

كـــان هناك بغل، يشد حزاماً جلدياً يقيده إلى جذع شجرة. لسعادة خاسار، كانت ثلاثـــة جـــياد كـــثّة الشعر مقيدة على طرف فسحة الغابة. كانت صغيرة ونحيلة، تقف ورؤوســـها إلى الأسفل. ركّز خاسار بصره عندما رأى الخيوط البيضاء للندوب على أردافها، فك قطعة القماش التي تلف قوسه، ووضع سهماً على أجمة.

كـــان هناك أربعة رجال حول النار، ثلاثة منهم يسخرون من الرابع. كان جسده صغيراً ويرتدي ثوباً أحمر داكناً. كان رأسه الحليق يلمع من العرق في ضوء النار. لم يكـــن الآخـــرون يرتدون دروعاً، لكنهم يحملون سكاكين في أحزمتهم ولأحدهم قوس قـــصير يسنده على شجرة. كانت وجوههم قاسية وهم يستمرون في تسليتهم، يتحركون إلـــى الأمام والخلف لضرب الرجل الضئيل الحجم. كانت معالم وجهه مليئةً بالكدمات ومـــتورمة، لكـــن أحـــد الرجال كان ينزف بشدة من أنفه ولم ينضم إلى الضحك مع الآخرين.

بيـــنما كان خاسار يراقب، اصطدم الرجل الذي ينزف من أنفه بعصا، مما جعله يتـــرنح. كـــان يمكن سماع وقع الضربة عبر السكون، وكشّر خاسار بينما كان يتلمّس وتر قوسه. تسلل عائداً إلى هو سا بعيداً عن الضوء، وصوته مجرد همس.

"نحـــتاج إلى جيادهم. لا يبدو أنهم جنود، ويمكنني القضاء على اثنين بالقوس إذا هاجمـــت الأخير. هناك شاب آخر ورأسه يشبه البيضة. ما زال يقاتل، لكن ليست لديه فرصة ضد ثلاثتهم".

قـــال هـــو ســـا: "ربما يكون راهباً. إنهم رجال أشدّاء، ويقضون كل وقتهم في التضرع والصلاة. لا تقلل من شأنه".

رفع خاسار عينيه، مستمتعاً. "أمضيت طفولتي أتعلم استعمال الأسلحة من الفجر حتى الغسق. لم أرَ حتى الآن أحداً من شعبك يمكنه الوقوف ضدي".

تقطـــب حاجبا هو سا، وهزّ رأسه. "إذا كان راهباً، سيحاول ألا يقتل أولئك الذين يهاجمونه. لقد رأيتهم يعرضون مهاراتهم على ملكي".

تأفـــف خاســـار بلطـــف. "أنـــتم شـــعب غريب. جنود لا يمكنهم القتال ورهبان يستطيعون ذلك. أخبر ليان أن يجهّز مطرقته ليضرب رأساً عندما أطلق سهمي".

تقـــدم خاسار إلى الأمام بحذر مرة أخرى، وانتقل ببطء إلى موقف جثا فيه على ركبتـــيه. لدهـــشته، رأى أن الرجل الذي كان أنفه ينزف يستلقي على الأرض، يتلوّى ألمـــاً. كـــان الصمت قد أطبق على الاثنين الآخرين. كان الراهب الشاب يقف منتصباً علـــى الرغم من الكدمات التي أصيب بها، وسمعه خاسار يتكلم بهدوء مع أولئك الذين عذّبوه. سخر منه أحدهم، ألقى عصاه جانباً، وسحب خنجراً يبدو حاداً من حزامه.

شـدّ خاسـار قوسه، وعندما صرّ، نظر الراهب عبر النار إليه، وقفز فجأة على قدميه كما لو أنه مستعد للوثب بعيداً. لم يكن الآخرون قد لاحظوا شيئاً، واندفع أحدهم نحو الراهب وهو يحمل الخنجر يريد غرزه في صدره.

أخرج خاسار زفيراً، وأطلق سهماً أصاب قاطع الطريق في إبطه، وجعله يقع علـى الأرض. دار الآخـر حول نفسه عندما صرخ ليان وهو سا، وهما يقفزان نحـوه. عـندما تحركا، تقدم الراهب من الرجل الأخير، وأنزل ضربة على رأسه جعلته يسقط على النار. جاء هو سا وليان يجأران عندها، لكن الراهب تجاهلهما، سـحب الـرجل الذي كان يهاجمه من ألسنة اللهب، وربت بيديه على الشعر الذي كـان الـدخان قـد بدأ يخرج منه. كان الرجل رخواً لكن لم يبدُ أن الوزن يعيق الراهب على الإطلاق.

عـندما انتهى من ذلك، وقف الراهب لمواجهة القادمين الجدد، وأومأ إليهم. كان الـرجل الذي ينزف أنفه يئن آنذاك خوفاً وألماً. شدّ خاسار سهماً آخر إلى قوسه بينما كان يمشي، وكان تيموج في أعقابه.

رأى الـراهب مـا ينوي خاسار القيام به واندفع إلى الأمام، حتى لم يعد خاسار قـادراً على رؤية الجسد الذي يتلوى ألماً. كان رأس الراهب الأصلع يجعله يبدو أكبر من فتى بقليل.

قال له خاسار: "تنحَّ جانباً".

تلقـى الراهب الكلمات من دون أي انفعال، لكنه لم يتحرك ووضع ذراعيه على صدره ليحدّق إلى السهم.

قـال خاسار، وهو يصرّ بأسنانه من جهد الإمساك بقوس مشدود: "اطلب منه أن يتنحّـى جانـباً يا هو سا. قل له إننا بحاجة لجواده، وإنه بخلاف ذلك يستطيع المضي قدماً في طريقه حالما أقتل هذا الرجل".

تكلـم هو سا، ورأى خاسار وجه الراهب يشرق لسماع كلمات يعرفها. تبع ذلك تـبادلٌ لحـديث حادّ، وعندما لم يظهر على الراهب علامة على تراجعه عن موقفه، أطلق خاسار لعنة بلغة تشن وخفف من شد الوتر.

قال هو سا أخيراً: "يقول إنه لم يكن بحاجة لنا وإن حياة الرجل ليست لنا لنقضي عليها. قال أيضاً إنه لن يتخلى عن جواده، لأنه ليس له، وإنما استعاره فقط".

سأل خاسار، وهو يتقدم باتجاه الراهب: "ألم يرَ القوس الذي أحمله؟".

"لـن يهـتم حتى إذا كان لديك اثني عشر سهماً مصوبة نحوه. إنه رجل دين ولا يخاف".

ردّ خاســـار: "فتى دين، لديه جواد لتيموج. إلا إن أردت ركوب الجواد نفسه مع شقيقي؟".

قـــال هو سا مباشرة: "لا أمانع". تكلم إلى الراهب، انحنى ثلاث مرات في سياق الحديث. أومأ الفتى بحدّة في النهاية، وهو ينظر إلى خاسار.

قـــال هـــو ســـا: "يقـــول إنك تستطيع الحصول على الجياد. سيبقى هنا ويعتني بالجرحى".

هزّ خاسار رأسه عاجزاً عن فهم ما يحدث. "هل يشكرني لإنقاذه؟".

بدا وجه هو سا خالياً من أي تعبير. "لم يكن بحاجة لإنقاذ".

تقطب حاجبا خاسار من الراهب الذي كان يحدّق إليه بهدوء.

قال خاسار فجأة: "سيحب خاسار هذا الرجل. اسأله إن كان يرغب بالمجيء معنا".

تكلم هو سا مجدداً وهزّ الفتى رأسه، من دون أن تترك عيناه خاسار.

"يقول إن عمل بوذا ربما يقوده إلى طرقات غريبة، لكن مكانه بين الفقراء".

تأفف خاسار.

"الفقـــراء في كل مكان. اسأله كيف يعرف أن بوذا هذا لم يكن يرغب بأن نعثر عليه هنا".

أومأ هو سا، وبينما كان يتكلم، بدا الراهب مهتماً تماماً بما يسمع.

قال هو سا: "سأل إن كان بوذا معروفاً بين قومكم".

ابتـــسم خاســـار. "قل له إننا نؤمن بأب السماء فوق والأم الأرض تحت. الباقي كفـــاح وألم قبل الموت". ضحك بصوت خافت عندما طرفت عينا هو سا لدى سماعه تلك الفلسفة.

سأل هو سا: "هل ذلك كل ما تؤمنون به؟".

ألقـــى خاسار نظرة خاطفة على شقيقه. "بعض الحمقى يؤمنون بالأرواح أيضاً، لكن معظمنا يؤمن بجواد جيد وذراع يمنى قوية. لا نعرف بوذا هذا".

عندما نقل هو سا الكلام، أحنى الراهب الشاب رأسه ومشى بخطوات واسعة إلى حـــيث كان جواده مقيّداً. راقبه خاسار وتيموج بينما كان يقفز على السرج، مما جعل الحيوان يصهل ويركل بقائمتيه.

قال خاسار: "ذلك وحش قبيح. هل الفتى قادم معنا؟".

كان هو سا لا يزال يبدو متفاجئاً عندما أومأ برأسه.

"إنه قادم. يقول إنه لا يمكن لرجل تخمين دربه، لكن ربما تكون محقاً بأنك كنت مدفوعاً إليه".

قـال خاسـار: "حسناً. لكن قل له إنني لن أترك أعدائي أحياء، وينبغي به عدم الـتدخل بأمـوري مجـدداً. قـل له إنه إذا فعل ذلك، سأشطر رأسه الأصلع الصغير نصفين".

عـندما سـمع الراهب الكلمات، ضحك عالياً، ولطم على فخذه بينما كان يجلس منفرج الساقين على جواده.

تقطـب حاجبا خاسار منه. قال وهو يشير إلى نفسه: "أنا خاسار من الذئاب أيها الراهب. ما اسمك؟".

ردّ، وهـو يـضرب بقبـضته مرتين على صدره مثل تحية: "ياو شو!". بدا أن ذلك ممتع للراهب وضحك بصوت خافت حتى كان عليه أن يمسح عينيه. حدّق إليه خاسار.

قال أخيراً: "امتطِ الجواد يا هو سا. الجواد البني لي. انتهى المشي على الأقل".

لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً ليعتلوا الجياد. امتطى هو سا وتيموج جواداً واحداً معاً حالما تم حلّ السرج وإلقاؤه بعيداً. كان قطّاع الطرقات الناجون قد التزموا الصمت فـي أثناء الحديث، قلقين من أن حياتهم على المحك. راقبوا الغرباء يبتعدون، وجلسوا منتصبين ليطلقوا اللعنات فقط عندما تأكدوا أنهم أصبحوا وحدهم.

كـان الممـر الذي يفصل مملكة كزي كزيا عن الحافة الجنوبية للصحراء خالياً عـندما وصلت مجموعة الرجال الخمسة إليه. في جبال خينتي على بعد ألف ميل إلى الـشمال، سـيكون الشتاء قاسياً، ويهيمن على الأرض شهوراً عديدة قادمة. حتى عند الممـر، كانت عاصفة شديدة البرودة تجأر عبره كما لو أنها سعيدة بإطلاقها. لم يكن هـناك حـصن يجعل الممر مكاناً ساكناً آنذاك. بدلاً من ذلك، كانت الرياح تهب دائماً والهواء مليء بالرمال والغبار.

تـرجل خاسـار وتيموج عندما وصلا إلى الممر، متذكرين الجهد الدموي الأول للاسـتيلاء على الحصن الذي كان يقف هناك. كان جنكيز محقاً في ضرورة تفكيكه. كانـت هـناك بعض الكتل الضخمة في الرمال، لكن كان كل حجر آخر قد تم سحبه بعـيداً. وحـدها بعـض الـثقوب المربعة في الصخور كانت تدل على أماكن تثبيت العـوارض الخشبية والدعائم، لكن بخلاف ذلك بدا الأمر كما لو أن الحصن لم يكن له وجـود أصـلاً. لـم يكن هناك عائق أمام القبائل التي تتجه شمالاً آنذاك وجعلت تلك الحقيقة وحدها خاسار يشعر بالفخر.

مـشى مـع تيموج على طول الممر، ينظران إلى الأعلى إلى الصخور الشاهقة على كلا الجانبين. راقبهما الراهب والبنّاء من دون أن يفهما ما يجري، ومن دون أن

يعـــرفا أن المكـــان كان يضم بين جنباته حصناً من الحجارة السوداء وأن مملكة كزي كزيا كانت محمية بشكل رائع.

نظـــر هو سا جنوباً، وأدار جواده ليحدّق إلى الحقول المكشوفة لوطنه. دلّت بقع داكنة تلوح من بعيد على الأماكن التي كان يتم فيها حرق المحاصيل المتعفنة والرماد الـــذي يكسو الأرض. سيكون هناك جوع في القرى، وكان واثقاً من ذلك، وربما حتى في ينشوان. هزّ رأسه من الفكرة.

كان بعيداً طيلة حوالى أربعة شهور وسيكون أمراً جيداً رؤية أبنائه وزوجته مرة أخـــرى. تساءل كيف هي حال الجيش بعد الهزيمة النكراء التي تعرض لها على يدي الخـــان العظـــيم. كانت القبائل قد خرقت اتفاقية سلام قديمة وفزع عندما تذكر الدمار الـــذي نجـــم عـــن ذلك. كان قد خسر أصدقاء وزملاء في تلك الشهور ولم يكن طعم المـــرارة بعيداً أبداً عن فمه. كان الإذلال الأخير يتمثل في رؤية تسليم ابنة الملك إلى همجيين. ارتعش هو سا من فكرة إرغام مثل تلك المرأة على العيش في خيامهم النتنة بين الأغنام والماعز.

حدّق هو سا إلى الوادي، وأدرك ببعض الدهشة أنه سيفتقد لصحبة خاسار. على الرغم من كل فظاظة الرجل وميله نحو العنف، إلا أن هو سا كان يستطيع التطلع إلى الـــرحلة ببعض الفخر. لم يكن أحد غيره من كزي كزيا قد دخل خلسة إلى مدينة تشن وعـــاد حـــياً مع معلّم بناء. كان صحيحاً أن خاسار كاد يتسبب بمقتله في إحدى القرى عـــندما شرب الكثير من شراب الأرز. فرك هو سا قشرة جرح على جانبه حيث كان جندي قد ضربه بسكين على طول أضلاعه. لم يكن الرجل متمركزاً هناك وكان يزور عائلته. لم يتذكر خاسار القتال عندما أفاق، وبدا أنه لا يفكر بالأمر مطلقاً. كان بطريقة ما الرجل الأكثر إثارة للغضب الذي سبق لهو سا أن رآه من قبل، لكن تفاؤله المتهور كـــان قـــد أثّر في جندي كزي كزيا وتساءل قلقاً إن كان يستطيع الاعتياد مجدداً على الانضباط الصارم لجيش الملك. كان ينبغي حمل الجزية السنوية عبر الصحراء وقرّر هـــو ســـا عندها أنه سيتطوع لقيادة الحرّاس في تلك الرحلة، فقط ليرى الأرض التي أنجبت القبائل.

عـــاد خاســـار مشياً إلى مرافقيه. شعر بابتهاج لفكرة رؤية وطنه مجدداً وجلب البنّاء إلـــى جنكيز. ابتسم للآخرين بالمقابل، مظهراً سعادته. كان الغبار والأوساخ تغطيهم جميعاً مـــن دون استثناء، والتراب يخفي كل معالم وجوههم. كان ياو شو قد بدأ يتعلم لغة القبائل مـــن هـــو ســـا. لم يكن لدى ليان أذن لتعلّم اللغة، لكنه أيضاً كان قد حفظ بعض الكلمات المفيدة. أشاروا برؤوسهم إلى خاسار مترددين، وغير واثقين من سبب مزاجه الجيد.

ثــبّت هو سا ناظريه على خاسار بينما كان يقترب منه. كان مندهشاً من الضيق فـــي صـــدره من فكرة مغادرة تلك الصحبة، وكافح للعثور على الكلمات للتعبير عن ذلك. تكلم خاسار قبل أن يستطيع هو سا التفكير في أي شيء.

"ألقِ نظرة جيدة يا هو سا. لن ترى الوطن مجدداً لوقت طويل".

سأل هو سا وقد اختفى مزاجه المسالم: "ماذا؟".

هز خاسار كتفيه غير مبال.

"انـــتدبك ملكـــك لـــنا سنة كاملة. لم تنقضِ سوى أقل من أربعة شهور وقد يمر شـــهران آخـــران قـــبل أن نصل إلى الجبال. سنحتاج إليك لتترجم للبنّاء وتعليم اللغة للـــراهب. هل كنت تعتقد أنني سأتركك هنا؟ هل اعتقدت ذلك!". بدا خاسار سعيداً من تعبير المرارة الذي ظهر على وجه هو سا.

"نحن عائدون إلى السهول يا هو سا. سنهاجم بعض التلال مستفيدين مما سيعملنا إيـــاه البـــنّاء، وعـــندما نكون مستعدين سنذهب إلى الحرب. ربما بحلول ذلك الوقت، ســـتكون مفـــيداً لنا، وسأطلب من ملكك أن ينتدبك لنا سنة أخرى أو اثنتين. أعتقد أنه سيقتطع سعرك من الجزية إذا طلبنا منه ذلك".

قال هو سا بحدّة: "تفعل ذلك لتعذّبني".

ضـــحك خاســـار بصوت خافت. "ربما قليلاً، لكنك رجل محارب يعرف تشن. سنحتاج إليك بالقرب منا عندما نهاجمهم".

حدّق هو سا بغضب إلى خاسار. لطمه المحارب المغولي بسعادة على ساقه بينما كـــان يستدير مبتعداً، ينادي من فوق كتفه. "ينبغي أن نحصل على الماء من القنوات. بعـــد ذلك، إنها الصحراء ووطن النساء والدلال. هل يمكن للرجل أن يطلب أكثر من ذلـــك؟ سأعثر لك على أرملة لتبقيك دافئاً يا هو سا. إنني أُسديك معروفاً إن كان لديك فقط عينان ترى بهما".

امتطـــى خاســـار جواده مرة أخرى، واقترب من تيموج الذي كان ليان قد سحبه إلى السرج. انحنى مقترباً من شقيقه.

"السهول تنادينا يا شقيقي. هل تشعر بذلك؟".

ردّ تـــيموج: "أشعر بها". في الواقع، كان يريد أن يعود إلى القبائل مثل خاسار، علـــى الرغم من أن ذلك كان فقط لأنه يعرف تماماً ما سيحصلون عليه لأنفسهم. بينما كان شقيقه يحلم بالحرب والغنائم، رأى تيموج مدناً في مخيلته وكل الجمال والقوة التي تتمتع بها.

# القسم الثاني



# الفصل السادس عشر



وقف جنكيز بدرعه الكامل يراقب تدمير مدينة لنهي. كانت حقول الأرز قد أضحت أوساخاً بنية رطبة على بعد عشرات الأميال في أي اتجاه عندما طوّق جيشه الأسوار. كانت رايته المؤلفة من تسعة ذيول جياد تتدلى رخوة من دون نسيم بينما كانت أشعة شمس الغروب تشع على الجيش الذي كان قد أحضره إلى ذلك المكان.

على كلا جانبيه، انتظر رماة السهام الأوامر، وجيادهم تضرب الأرض بحوافرها. وقف تابعٌ خلفه يمسك جواداً بلون الكستناء، لكن الخان لم يكن مستعداً آنذاك لامتطائه.

قريباً من الرتل الذي ينتظر، كانت خيمة من القماش الأحمر القاني ترفرف في الريح. على مسافة خمسين ميلاً حوله، كان جيش جنكيز قد سحق المقاومة حتى لم يعد هناك سوى المدينة، تماماً كما كانت ينشوان قد حمت ذات مرة ملك كزي كزيا. كانت الحاميات وحصون الطرقات فارغة بعد انسحاب جنود تشن أمام جيش لم يستطيعوا التصدي له. كانوا يشعرون بالخوف من الغزو أمامهم، وانسحبوا إلى أطراف المناطق التي يسيطر عليها جنود تشن، تاركين المدن مكشوفة. حتى السور العظيم لم يشكل عائقاً أمام منجنيقات وسلالم شعبه. كان جنكيز يشعر بالسعادة لرؤية أقسام شاسعة منه يتم تحطيمها إلى أنقاض لدى تجربة أدواته الحربية الجديدة. كان رجاله قد اكتسحوا المدافعين إلى أبعد نقطة يمكنهم الوصول إليها، حرقوا بيوت المعسكرات الخشبية بشيء من الضغينة. لم يستطع جنود تشن صدّهم. كان كل ما استطاعوا القيام به الهرب أو التعرض للدمار.

كان جنكيز واثقاً أن تقديراً للموقف سيظهر مستقبلاً: عندما يظهر ضابط يستطيع قيادة تشن، أو عندما تصل القبائل إلى ينكينغ مستقبلاً. لن يكون ذلك اليوم.

كانت كزامبا قد سقطت في سبعة أيام، واحترقت وايان في ثلاثة فقط. رأى جنكيز الحجارة المدفوعة من منجنيقاته تهدّ قطعاً من لنهي وابتسم راضياً بذلك. كان

البنّاء الذي أحضره شقيقاه قد أظهر له شكلاً جديداً من العمليات الحربية ولن توقفه مجدداً الأسوار العالية. خلال سنتين، كان شعبه قد بنى منجنيقات وتعلّم أسرار ونقاط ضعف أسوار تشن العالية. كان أبناؤه قد أصبحوا طوال القامة وأقوياء وكان متواجداً ليرى الأكبر يصل إلى مشارف الرجولة. كان ذلك كافياً. كان قد عاد إلى أعداء شعبه وتعلّم جيداً.

على الرغم من أنه كان يقف بعيداً عن صف المنجنيقات، إلا أنه كان يستطيع سماع الضربات المدوّية بوضوح في الجو الساكن. لم يكن جنود تشن في الداخل يجرؤون على الخروج وقتال جيشه، وإذا فعلوا ذلك، كان سيرحب بالنهاية السريعة. لم تكن الخيمة الحمراء التي نصبوها تفيدهم آنذاك. قطعة إثر أخرى، كان يتم تحطيم الأسوار، وكانت الحجارة تنطلق من المنجنيقات في الهواء من قبل فرق من رجاله تتصبب عرقاً. كان ليان قد قدّم له تصميمات لسلاح أكثر ترويعاً. تخيّله جنكيز في ذهنه، وفكّر مجدداً في الثقل الموازي الذي قال ليان إنه سيقذف صخوراً كبيرة مئات الأقدام بقوة ساحقة. كان بنّاء تشن قد وجد حافزاً في تصميم أسلحة لحاكم يقدّر مهارته. كان جنكيز قد اكتشف أنه يستطيع استيعاب رسوم ليان كما لو أنه يتمتع بالمعرفة منذ أمد طويل. كانت الكلمات المكتوبة لا تزال طلاسم بالنسبة إليه، لكن القوة والاحتكاك، الروافع، الكتل الحجرية والحبال كانت كلها واضحة في ذهنه. كان سيدع ليان يبني آلته العظيمة لمهاجمة ينكينغ.

لم تكن مدينة إمبراطور تشن تشبه لنهي ليتم إرغامها على الاستسلام. تأفف جنكيز من الفكرة، وتخيل الخنادق والأسوار الضخمة التي كان ليان قد وصفها، والسميكة عند القاعدة بعرض سبعة رجال من أعلى الرأس حتى أخمص القدمين. كانت أسوار كزامبا قد انهارت إلى قنوات تم حفرها تحتها، لكن أبراج حصن ينكينغ كانت مبنية على صخور ولا يمكن تقويضها. كان بحاجة إلى أكثر من المنجنيقات لتحطيم مدينة الإمبراطور، لكن كان هناك سلاح آخر في جعبته، وكان محاربوه يصبحون أكثر مهارة مع كل نصر يحققونه.

كان جنكيز قد فكّر في بادئ الأمر أنهم سيعترضون على دورهم الجديد كعمّال آلات. لم يكن شعبه قد برع في سلاح المشاة من قبل، لكن ليان كان قد أقنعهم بفكرة أنهم مهندسون، ووجد جنكيز أن العديد منهم يفهمون علم القوى والأوزان. كان قد أظهر سعادته بالحصول على رجال يحطمون مدناً وكانوا يقفون بفخر أمام ناظريه.

كشف جنكيز عن أسنانه عندما سقط جزء من السور إلى الخارج. كان مع تسوبودي ألف منهم يعملون أمام أسوار لنهي. كان الجيش الرئيسي قد شكّل أرتالاً

خارج بوابات المدينة الأربع، ينتظر الاندفاع نحوها عند أول إشارة على فتحها. رأى جنكيز تسوبودي يمشي بخطوات واسعة بين فرق المنجنيقات، يوجّه الضربات. كان كل ذلك جديداً تماماً، وشعر جنكيز بالفخر من الطريقة التي تأقلم بها شعبه مع تلك الآلات. لو أن والده كان حياً ليرى ذلك.

من بعيد، أمر تسوبودي بتقدم المتاريس الخشبية إلى الأمام لحماية محاربيه. لم يكن بمقدور رماة المدينة استعمال أقواسهم من دون المخاطرة بحياتهم، وحتى عندما كان يحالفهم النجاح، كانت سهامهم ترتطم بالخشب من دون أي تأثير.

بينما كان جنكيز يراقب ما يجري، أطلت مجموعة من المدافعين برؤوسها لسكب ما في قدر حديدي من فوق أعلى السور. وقع العديد منهم ضحايا السهام، لكن كان هناك دائماً المزيد ليأخذوا مكانهم. تقطب حاجبا جنكيز عندما نجحوا في تبليل اثني عشر رمّاحاً بسائل أسود. توارى المحاربون خلف متراسهم الخشبي، لكن بعد لحظات فقط، تم إلقاء مشاعل على السائل، وانتشرت ألسنة اللهب التي كان صوتها أعلى من الصرخات المكتومة للرجال الذين احترقت رئاتهم.

سمع جنكيز رجالاً يطلقون اللعنات من حوله. تعثّر رمّاحو تسوبودي بالمجموعات الأخرى، وأفسدوا الوتيرة السلسة للهجوم. في حالة الارتباك تلك، كان رماة تشن يستهدفون كل من يخطو خارج نطاق متراسه لإبعاده أو وضع حدّ لألمه.

أصدر تسوبودي أوامر جديدة، وتحركت المجموعات ببطء إلى الخلف، تاركة الرجال المصابين حتى تم القضاء عليهم. أومأ جنكيز موافقاً بينما بدأت المنجنيقات تعمل مرة أخرى. كان قد سمع عن الزيت الذي يحرق، على الرغم من أنه لم يكن قد رآه يستعمل بمثل تلك الطريقة. كان يشتعل بسرعة أكبر من شحم الضأن في مصابيح المغول، وقرر الحصول على كمية منه. ربما سيكون هناك بعض منه في لنهي عندما تسقط. امتلأ ذهنه بآلاف التفاصيل التي ينبغي عليه تذكرها كل يوم حتى شعر بأن رأسه متورم من الخطط.

استلقت جثث داكنة يخرج منها الدخان تحت السور واستطاع سماع هتاف خافت داخل المدينة. انتظر جنكيز أن يقوم تسوبودي بتحقيق اختراق، وقد بدأ صبره ينفد. لم يكن الضوء ليستمر وقتاً طويلاً، وعند مغيب الشمس، سيكون على تسوبودي أن يأمر رجاله بالانسحاب ليلاً.

عندما صدحت المنجنيقات مجدداً، تساءل جنكيز عن عدد الذين فقدوهم في الهجوم. لم يكن الأمر مهماً. كان تسوبودي يقود الأقل خبرة بين محاربيه وكانوا بحاجة للخبرة في الحرب. في السنتين اللتين كان قد قضاهما في جبال خينتي، كان

ثمانـــية آلاف فتـــى قد بلغوا مشارف الرجولة وحصلوا على جياد للانضمام إليه. كان معظمهم بقيادة تسوبودي ويدعون أنفسهم "الذئاب الفتية" تكريماً لجنكيز. كان تسوبودي قــد توســل تقريباً ليكونوا أول من يهجم على لنهي، لكن جنكيز كان قد خطط آنذاك للــسماح لأولــئك الفتــية بقــيادة الهجوم. إضافة إلى قائدهم الجديد، ينبغي أن تثخنهم الجراح.

سمع جنكيز صرخات المصابين تحملها الرياح ونقر برباط رسغه من دون وعي علـــى الـــصفائح المـــصقولة فوق فخذه. تهاوى قسمان آخران من السور. رأى برجاً حجــرياً يــنهار، ويدفع بمجموعة من الرماة نحو أقدام محاربي تسوبودي الذين تهللوا فرحاً. كانت أسوار لنهي آنذاك تشبه أسناناً مكسورة، وكان جنكيز يعرف أن الأمر لن يطــول. تــم سحب سلالم على دواليب إلى جانب السور بينما تنحت فرق المنجنيقات جانباً، مرهقة ومبتهجة بالنصر.

شــعر جنكيز بالبهجة من حوله، واندفعت ذئاب تسوبودي الفتية نحو المدافعين، وغطّــوا الحجارة الرمادية الباهتة بأجسادهم فيما كانوا يتسلقون السور. غطّى أفضل رماته الهجوم من الأسفل، وكانوا رجالاً يستطيعون إصابة بيضة على بعد مئة خطوة. أصيب جنود تشن الذين ظهروا على الأسوار بالسهام وسقطوا إلى الخلف.

أومــأ جنكيــز بحــدّة، وأمسك بلجام جواده ليمتطيه. صهل الحيوان، وقد شعر بمــزاجه. نظــر جنكيز إلى يمينه ويساره، ورأى وجوه أتباعه الذين ينتظرون بفارغ الصبر والصفوف والأرتال حول المدينة. كان قد شكّل جيوشاً ضمن الجيش، وأضحى كــل من قادته يتولى أمر فرقة من عشرة آلاف رجل ويتصرف لوحده. كان أرسلان بعــيداً عــن مرمـــى البصر خلف لنهي، لكن جنكيز استطاع رؤية راية ذيل الحصان الخاصـــة بجيلم ترفرف. ألقت أشعة الشمس عليهم جميعاً ضوءاً ذهبياً وبرتقالياً لامعاً، وكانت الظلال طويلة. نظر جنكيز إلى شقيقيه، وكانا مستعدين للانطلاق نحو البوابتين الــشرقية والغربية إذا تم فتحهما أولاً. كان خاسار وكشيون مهتمين بأن يكونا أول من يصل إلى شوارع لنهي.

عند كتفه، لم يكن الجسد الضخم لتولوي الذي كان مرة تابعاً لإيلوك الذئاب يستحق أكثــر مـــن نظــرة واحــدة، على الرغم من أن جنكيز رأى الرجل يتسمّر في مكانه بكبــرياء. كـــان الأصدقاء القدماء هناك، يحيونه بإيماءات من رؤوسهم. كان الصف الأمامـــي للـــرتل مؤلفاً من عشرين جواداً فقط، ورجال أعمارهم تقارب الثلاثين سنة، بمثل عمره تقريباً. كان يرفع من معنويات جنكيز رؤية الطريقة التي ينظرون بها إلى الأمام، وهم يراقبون المدينة بتعطش.

صـــعد دخـــان فـــي الهواء من اثني عشر مكاناً ضمن لنهي، مثل خيوط بعيدة لعواصف مطرية في السهول. راقب جنكيز وانتظر، ويداه تهتزان قليلاً من التوتر.

جـــاءه صـــوت يعـــرفه، مقاطعاً أفكاره: "هل لي بمباركتك أيها الخان العظيم؟".

اســتدار جنكيـــز وأومـــأ برأسه لكاهنه العرّاف، وكان الأول بين الرجال الذين مشوا الـــدروب الـــصعبة. كـــان كوكشو قد رمى بعيداً الملابس الرثّة التي كان يرتديها أيام تبعيتـــه لخـــان النيمنـــز. كان يرتدي ثوباً من الحرير الأزرق الداكن، المربوط بحزام مذهب. كان يلف حول معصميه قطعاً جلدية مع نقود تشن مثقوبة، وكانت ترن عندما يـــرفع ذراعـــيه. أحنـــى جنكيز رأسه من دون أي تعبير على وجهه، وشعر باللمسة الـــباردة لـــدم الخروف عندما مسّ كوكشو وجنتيه به. شعر بالطمأنينة تستولي عليه، وأبقى رأسه منخفضاً بينما كان كوكشو ينشد ابتهالاً للأم الأرض.

"ســـترحب بالـــدماء التي ترسلها لها يا مولاي، كما لو أن الأمطار نفسها هطلت حمراء".

أخـــرج جنكيز زفيراً بطيئاً، مدركاً تماماً الخوف في الرجال من حوله. كان كل مـــنهم محارباً بالولادة، شدّت أزره النيران والمعارك منذ السنوات الأولى، لكنهم على الرغم من ذلك أغلقوا أفواههم التي كانت تثرثر عندما مشى كوكشو بينهم. كان جنكيز قد رأى الخوف يزداد وكان قد استفاد منه لفرض الانضباط على القبائل، مانحاً كوكشو سلطة برعايته.

ســـأل كوكـــشو: "هـــل أجعلهم يفكّون الخيمة الحمراء يا مولاي؟ الشمس تغرب والقماش الأسود جاهز للهيكل".

أمعـــن جنكيـــز التفكيـــر بالأمر. كان كوكشو نفسه من اقترح تلك الوسائل لبث الرعب في مدن تشن. في اليوم الأول، يتم نصب خيمة بيضاء خارج أسوارهم، وكان وجودها بحد ذاته يدل على عدم وجود جنود ينقذونهم. إذا لم يكونوا قد فتحوا بواباتهم بحلول المغيب، سيتم نصب الخيمة الحمراء عند الفجر ويقطع جنكيز لهم وعداً بأن كل رجـــل في المدينة سيموت. في اليوم الثالث، كانت الخيمة السوداء تعني أن هناك موتاً من دون نهاية، من دون رحمة، لكل من يعيش في الداخل.

سيكون ذلك عبرة لكل المدن إلى الشرق، وتساءل جنكيز إن كانت سوف تستسلم بسهولة أكبر كما قال كوكشو. كان الكاهن العرّاف يفهم كيفية استعمال الرعب. سيكون صعباً ألا يسمح للرجال بسلب كل شيء بوحشية من أولئك الذين قاوموهم، لكن الفكرة أعجبتـــه. كانـــت الـــسرعة مهمة جداً وإذا سقطت مدن من دون قتال، يمكنه التحرك بسرعة أكبر. أشار برأسه إلى الكاهن العرّاف، مانحاً إياه الشرف.

"لم ينته اليوم بعد يا كوكشو. ستعيش النساء من دون أزواجهن. سينقل الطاعنون في السن أو الضعفاء ما حدث وسوف ينتشر الخوف".

قال كوكشو وعيناه تلمعان: "كما تشاء يا مولاي". شعر جنكيز بأحاسيسه تضطرم بالمقابل. كان بحاجة لرجال أذكياء إذا كان سيسلك الدرب الذي رسمه في مخيلته لنفسه.

نادى أحد الضباط: "مولاي الخان!". استدار جنكيز نحوه، وشاهد أن محاربي تسوبودي الشباب قد فتحوا البوابة الشمالية. كان المدافعون لا يزالون يقاتلون واستطاع رؤية بعض رجال تسوبودي يسقطون فيما كانوا يكافحون للمحافظة على الأفضلية التي حققوها. من طرف عينه، دفع عشرة آلاف محارب بقيادة خاسار جيادهم للجري وكان يعرف أن المدينة فُتحت من مكانين على الأقل. كان كشيون لا يزال متمركزاً عند البوابة الشرقية ولم يستطع سوى أن يراقب بإحباط بينما كان شقيقاه يندفعان إلى الداخل.

صرخ جنكيز وهو يدفع بعقبيه على ردفي مطيته: "هجوم!". بينما كان الهواء يصفع وجهه، تذكّر السباق عبر سهول الوطن في أيام غابرة. كان يحمل رمحاً من خشب البتولا بيده اليمنى، وكان ذلك ابتكاراً آخر. كان قلّة فقط من أقوى الرجال قد بدأوا التدرب على استعماله، لكن الأمر كان يزداد بين القبائل. كان جنكيز يحمل الرمح والنصل إلى الأعلى، وجأر عبر الأرض، محاطاً بمحاربيه الملكيين.

كان يعرف أن هناك مدناً أخرى، لكن تلك الأولى ستبقى دائماً الأحلى في ذاكرته. جأر مع رجاله، واندفع الرتل بأقصى سرعة عبر البوابتين، بعثر المدافعين وتركهم مثل أوراق ملطخة بالدماء خلفه.

مشى تيموج عبر ظلام حالك إلى خيمة كوكشو. عندما دخل عبر الباب، سمع صوتاً مكتوماً ينتحب في الداخل، لكنه لم يتوقف. كان القمر غائباً عن السماء وكان كوكشو قد أخبره أنه بحلول ذلك الوقت سيكون أقوى وأكثر قدرة على التعلم. كانت النيران لا تزال تشتعل من بعيد في لنهي المدمرة، لكن المعسكر كان هادئاً.

كان بالقرب من خيمة الكاهن العرّاف واحدة أخرى، منخفضة جداً حتى إنه كان على تيموج أن يجثو على ركبتيه ليدخلها. كان هناك مصباح وحيد يشع بضوء خافت، وكان الهواء كثيفاً بالأبخرة التي جعلت تيموج يشعر بالدوار بعد عدّة أنفاس فقط. كان كوكشو يجلس وقد وضع ساقاً على أخرى على أرضية مكسوة بالحرير الأسود المتغضن. كانت كل الأشياء في الداخل قد جاءت من يدي جنكيز وشعر تيموج بالحسد يمتزج بخوفه من الرجل.

كـــان قد تم استدعاؤه وجاء بناءً على ذلك. لم يكن في وضع يسمح له بطرح أسئلة، جلـــس ووضـــع ساقاً فوق أخرى ليواجه الكاهن العرّاف، ورأى أن عيني كوكشو مغلقتان وأن الـــنفس الأخير لم يكن أكثر من اهتزاز طفيف في الصدر. ارتعش تيموج في الصمت المطـــبق، وتخـــيل أرواحاً سوداء في الدخان الذي ملأ رئتيه، والذي كان يأتي من احتراق الـــبخور في طبقين نحاسيين وتساءل عن المدينة التي تم سلبه منها. كانت خيام شعبه مكاناً للعديد من الأشياء الغريبة في تلك الأيام الدموية، وكان قلّة منهم يستطيعون التعرّف عليها.

سعل تيموج عندما أصبح الدخان كثيفاً جداً في رئتيه. رأى صدر كوكشو العاري يـــرتعش وفتح الرجل عينيه بتثاقل، يبحث عنه لكن من دون أن يراه. عندما عاد إليه تركيزه، ابتسم له الكاهن العرّاف، وعيناه مثقلتان بظلال قاتمة.

قال كوكشو بصوت أجش من الدخان: "لم تأتِ إلي منذ دورة كاملة للقمر".

أشاح تيموج ببصره بعيداً.

"كنت منزعجاً. كانت بعض الأمور التي أخبرتني بها... مقلقة".

ضـــحك كوكـــشو بصوت خافت، وهو يسعل بشكل متقطع وجاف: "كما يخاف الأطفال الظلام، كذلك يخاف الرجال السلطة. إنها تغويهم إلا أنها تستهلكهم. ليس مفيداً أبـــداً أن تلعـــب برفق". ثبّت ناظريه على تيموج حتى رفع الشاب بصره إلى الأعلى وفزع بشكل ظاهر للعيان. كانت عينا كوكشو الثابتتان تلمعان بشكل غريب، والبؤبؤان أوسع مما كان تيموج قد رآهما من قبل.

تمتم كوكشو: "لماذا جئت الليلة إن لم يكن لتغمس يديك في الظلام مرة أخرى؟".

ســـحب تـــيموج نفـــساً عمـــيقاً. بدا أن الدخان لم يعد يزعج رئتيه آنذاك وشعر بالدوار، واثقاً من نفسه تقريباً.

"سمعت أنك عثرت على قاتل عندما كنت غائباً في باوتو. لقد تكلم شقيقي الخان عـــن ذلك. قال إن الأمر كان مدهشاً وكيف أنك استطعت معرفة الرجل من صف من المحاربين الذين يجثون على ركبهم".

قال كوكشو وهو يهز كتفيه استخفافاً: "لقد تغير الكثير منذ ذلك الوقت. استطعت شـــم ذنبه يا بني. إنه شيء يمكنك تعلّمه". استجمع كوكشو إرادته لتركيز أفكاره. كان معـــتاداً على الدخان ويستطيع تحمله أكثر من رفيقه الشاب، لكن على الرغم من ذلك كانت هناك أضواء ساطعة تلمع عند أطراف عينيه.

شـــعر تيموج بأن كل أسباب قلقه تتبدد حالما جلس هناك مع ذلك الرجل الغريب الذي تفوح منه رائحة الدم على الرغم من أثوابه الحريرية الجديدة. تدفقت الكلمات منه ولم يعرف أنه يتلفظ بها.

همس تيموج: "قال جنكيز إنك وضعت يديك على الخائن وقلت كلمات بلغة قديمة. قال إن الرجل صرخ ومات أمامهم جميعاً من دون جرح".

"وتود أن تفعل الشيء نفسه يا تيموج؟ ليس هناك أحد آخر هنا، وليس هناك خجل بيننا. قل الكلمات. هل هذا ما تريده؟".

استرخى تيموج قليلاً، وترك يديه تنزلان إلى الأرضية المغطاة بالحرير حتى أصبح يشعر بها تنزلق تحت أصابعه بوضوح استثنائي.

"إنه ما أريده".

اتسعت ابتسامة كوكشو لدى سماعه ذلك، وظهرت لثّته الداكنة عندما تراجعت شفتيه إلى الخلف. لم يكن يعرف هوية القاتل أو حتى إن كان موجوداً. كانت اليد التي وضعها على رأس الرجل تحمل نابين صغيرين وكيس سم مثبتاً بشمع. كان الأمر قد استغرق منه عدة ليال لاصطياد الأفعى الصغيرة السامة التي يريدها، مخاطراً بالتعرض للسعتها. بدأ يضحك بصوت خافت مجدداً عندما تذكر الدهشة على وجه الخان عندما تلوث الضحية ألماً من مجرد لمسة. كان وجه الرجل المحتضر قد أضحى أسود تقريباً قبل أن يقضي نحبه، وكانت بقعتا الدم قد اختفتا في شعره. كان كوكشو قد اختاره بسبب فتاة تشن التي كان قد اختارها زوجة له. كانت أثارت الرغبة في الكاهن العرّاف عندما مرّت بخيمته لتجلب الماء ثم رفضته، كما لو أنها إحدى أفراد شعبه وليست أَمَة. ضحك بقوة عندما تذكر الإدراك الذي لمع في عيني زوجها قبل أن يسرقه الموت مع كل شيء آخر. منذ تلك اللحظة، كان كوكشو يتمتع بالمهابة والشرف في المعسكر. لم يكن أحد من عرّافي القبائل الآخرين يجرؤ على تحدّي موقعه، ليس بعد أن أظهر قوته. لم يشعر بالذنب لاحتياله. كان مصيره الوقوف مع خان الأمة، منتصراً فوق أعدائه. إن كان عليه قتل ألف شخص للظفر بذلك، سيعتبر أن الأمر يستحق ذلك الثمن.

رأى أن عيني تيموج تدمعان بينما كان يجلس هناك في الدخان الخانق. أغلق كوكشو فكّه بإحكام، مخفياً سعادته. كان بحاجة لذهن صاف لتوثيق العلاقة مع الشاب، وتمكينها بحيث لا يمكن فصمها أبداً.

ببطء، مدّ كوكشو يده نحو قدر صغير فيه مادة سوداء كثيفة إلى جانبه، ورفع إصبعاً حتى أضحى ممكناً رؤية بذور صغيرة في الدجنة. مدّ يده إلى تيموج الذي فتح فمه من دون مقاومة، ودهن المادة على لسانه.

غصّ تيموج من الطعم المر، لكن قبل أن يبصق المادة، شعر بالخدر يسري في جسده بسرعة. سمع همسات خلفه وهزّ رأسه إلى الأمام والخلف عندما أطبقت غشاوة على عينيه، يبحث عن أصل الصوت.

قـال كوكـشو راضياً: "احلم بأسوأ الكوابيس يا تيموج. سأقودك. لا، أفضل من ذلك. سأجعلك ملكي".

كان الوقت فجراً قبل أن يخرج كوكشو مترنحاً من الخيمة، وعرق كريه الرائحة يلطـخ ثـوبه. كان تيموج فاقداً الوعي على الأرضية المغطاة بالحرير وسينام معظم الـنهار التالي. لم يكن كوكشو قد مسّ المادة بنفسه، غير واثق من الطريقة التي تجعله يهذي بها وغير متأكد إن كان تيموج سيتذكر ما حدث. لم تكن لديه رغبة بوضع نفسه تحـت سلطة شخص آخر، ليس عندما يكون المستقبل مشرقاً جداً. سحب أنفاساً عميقة مـن الهـواء المـتجمد وشعر بأن رأسه قد تخلص من آثار الدخان. كان يستطيع شم رائحته تخرج من مساماته وقهقه عندما استدار عائداً إلى خيمته وفتح الباب بقوة.

كانت فتاة تشن تجثو حيث تركها، على الأرض قرب الموقد. كانت فائقة الجمال، شـاحبة ورقيقة. شعر بالرغبة تجتاحه مجدداً وتساءل عن قدرته على الاحتمال. ربما كانت آثار الدخان في رئتيه.

سأل: "كم مرة عصيتني ونهضت؟".

قالت ترتعش بشكل ملحوظ: "لم أفعل ذلك".

مدّ يده ليرفع رأسها، وانزلقت يداه عن وجهها مما أغضبه. تحولت الإيماءة إلى ضربة أوقعتها على الأرض.

وقف يلهث فيما زحفت وجثت مرة أخرى. عندما كان يحل حزام ردائه، رفعت رأسـها. كان هناك دم على فمها ورأى أن شفتها السفلى كانت قد تورمت. أثاره ذلك المنظر.

سألت والدموع تلمع في عينيها: "لماذا تؤذيني؟ ماذا تريد غير ذلك؟".

قـال وهو يبتسم: "القوة ضدك أيتها الصغيرة. ما الذي قد يريده أي رجل سوى ذلك؟ إنه شيء في دم كل واحد منا. سنكون جميعاً طغاة إذا استطعنا ذلك".

# الفصل السابع عشر



أضـحت مديـنة ينكينغ الإمبراطورية هادئة قبل ساعات من بزوغ الفجر، على الـرغم مـن أن ذلك كان بسبب الإسراف بتناول الطعام والشراب في *مأدبة الفوانيس* أكثـر منه خوفاً من جيش المغول. عندما كانت الشمس تغيب، اعتلى الإمبراطور وي منـصة لتراه الحشود المتدافعة، وكان ألف راقص قد أحدثوا جلبة بالصنجة والأبواق إحـياءً لذكرى الموتى. كان قد وقف عاري القدمين، مظهراً تواضعه أمام شعبه بينما كان مليون صوت ينشد "عشرة آلاف سنة! عشرة آلاف سنة!" بصوت يهز المدينة. لم يكـن هناك ليل في *مأدبة الفوانيس*. كانت المدينة تلمع مثل جوهرة، وآلاف الشعلات تـضيء الـساحات. حتى البحيرات الكبيرة الثلاث كانت تتوهج، وسطوحها السوداء مغطـاة بقـوارب صغيرة يحمل كل منها شعلة. كانت بوابة المياه مفتوحة على القناة الكبيرة التي تمتد ثلاثة آلاف *لي* وصولاً إلى مدينة هانغزهو الجنوبية، وكانت القوارب تطفـو مـثل نهـر مـن الـنار عبر الليل، تنقل الضوء معها. أسعدت هذه الرمزية الإمبراطور الشاب بينما كان يتحمل الضوضاء والدخان من الألعاب النارية التي دوّت أصواتها وتردد صداها من الأسوار العظيمة. كان هناك الكثير منها لدرجة أن المدينة أضـحت مغطـاة بدخان البارود الأبيض، وأصبح الهواء نفسه مراً على اللسان. كان سـيتم البدء بإنجاب أطفال تلك الليلة، بالقوة أو من أجل المتعة. سيكون هناك أكثر من مـئة جـريمة وستتلقى البحيرات نفسها اثني عشر سكيراً في أعماقها الداكنة في أثناء محاولتهم عبورها سباحة. كان الأمر نفسه يتكرر كل سنة.

كـان الإمبراطور قد تحمّل أناشيد الإعجاب به، وتأثر من ضجيج المناداة باسمه مـن الأسوار وما خلفها. حتى المتسولون، والعبيد، والغانيات هتفوا له في تلك الليلة، وأناروا بيوتهم الآيلة للسقوط بالزيت الثمين. تحمّل ذلك كله، على الرغم من أن نظرته فـوق رؤوسـهم كانت أحياناً بعيدة وباردة بينما كان يخطط لسحق الجيش الذي تجرأ على دخول أراضيه.

لـم يكـن الفلاحون يعرفون شيئاً عن الخطر وحتى معلومات باعة الأنباء كانت شحيحة. كان الإمبراطور وي قد سعى إلى إسكات ناقلي الإشاعات، وإن كان اعتقالهم قد أزعج أولئك الذين يبحثون عن مثل تلك الإشارات، إلا أن الاحتفال مضى قدماً بكل مظاهـره المعتادة، مليئاً بالشراب، والضجيج، والضوء. عندما رأى المعربدين، تذكر الإمبـراطور الديـدان التـي تتجمع على جثة. كان سعاته الإمبراطوريون قد عادوا بتقارير كئيبة. خلف الجبال، كانت المدن تشتعل لهيباً.

بينما كان الفجر يضيء الأفق، اختفى الصياح والغناء في الشوارع أخيراً، مما جعله يشعر بالسكينة. كان آخر القوارب الخشبية الصغيرة المُنارة قد اختفى إلى الأرياف ولم يعد أي صـوت مـسموعاً سـوى بعـض المفـرقعات الـنارية التي تدوي من بعيد. جلس الإمبـراطور وي فـي جـناحه الخـاص وحدّق إلى وسط بحيرة سونغي الساكن الداكن، المحاطـة بمـبـانٍ البـيوت الكبيرة. كان أقوى نبلائه ينتشرون حول تلك البقعة المركزية الداكـنة من المياه، تحت نظر الرجل الذي يستمدون قوتهم منه. كان يعرف اسم كل عضو من العائلات النبيلة التي تقاتلت وتنازعت مثل دبابير لإدارة مملكته الشمالية.

اختفى دخان وفوضى الاحتفال مع ضباب الصباح فوق البحيرات. مع مثل منظر الجمـال العتيق ذاك، كان من الصعب استيعاب الخطر القادم من الغرب. على الرغم من ذلك، كانت الحرب قادمة وتمنّى لو أن والده كان لا يزال حياً. كان الرجل العجوز قـد أمـضى حـياته يـسحق أدنـى إشارة على العصيان ضمن حدود الإمبراطورية وخارجهـا. كان الإمبراطور وي قد تعلم الكثير منه، لكنه شعر بوطأة موقفه الجديد. كان قد خسر آنذاك مدناً كانت جزءاً من أراضي تشن منذ الانفصال الكبير الذي شطر الإمبـراطورية إلى قسمين قبل ثلاثمئة سنة. كان أسلافه قد عرفوا عصراً ذهبياً، ولم يستطع سوى أن يحلم بإعادة الإمبراطورية إلى سابق مجدها.

ابتـسم بـسخرية مـن فكرة أن والده لو كان قد سمع عن الحشد المغولي على أراضـي العائلة، لثار غاضباً في أروقة القصر، وضرب العبيد لإبعادهم عن طريقه، ودعا الجيش للتأهب. لم يكن والده قد خسر معركة من قبل وكانت ثقته بنفسه ترفع من معنويات الجميع.

تنـبّه الإمبـراطور وي مـن أفكاره عندما تنحنح أحدهم بلطف خلفه. نظر إلى الخلف من النافذة العالية ليرى وزيره الأول ينحني إلى الأرض.

"جلالة الإمبراطور، القائد زهي زهونغ هنا كما طلبت".

ردّ الإمبـراطور وهو يستدير مبتعداً عن منظر الفجر معدلاً جلسته: "دعه يدخل ليـرى أننـي لست منزعجاً". جال ببصره في جناحه الخاص، ورأى أن كل شيء في

مكانه كالمعتاد. كانت طاولة الكتابة الخاصة به خالية من كومة الخرائط والأوراق ولم يكــن هـــناك دليل على غضبه بينما كان ينتظر الرجل الذي سيخلصه من القبائل. لم يسعه سوى التفكير بملك كزي كزيا والرسالة التي بعثها إليه قبل ثلاث سنوات. خجلاً، تذكر سوء كلماته والسعادة التي كان قد شعر بها عندما أرسلها. من كان يعرف حينها أن الخطـــر المغولي أكثر من بعض رجال قبائل يطلقون الصرخات؟ لم يكن شعبه قد شـــعر بالخوف أبداً من أولئك الذين يمكن التخفيف من أعدادهم كلما تسببوا بمشكلات. عـــض الإمبـــراطور وي شفته من الداخل بينما كان يفكر بالمستقبل. إذا لم يكن ممكناً التغلب عليهم بسهولة، سيكون عليه تقديم رشوة للتتار لمهاجمة أعدائهم القدامى. يمكن لذهب تشن تحقيق النصر في المعارك مثل الأقواس والرماح. تذكر كلمات والده بولع شديد، وتمنّى مرة أخرى لو أنه كان موجوداً ليقدم نصائحه.

كـــان القائد زهي زهونغ رجلاً ضخم الجسد، وله بنية مصارع. كان رأسه حليقاً تمامـــاً ويلمـــع من الزيت عندما انحنى. شعر الإمبراطور وي بأنه يعدل جلسته تلقائياً لـــدى دخـــوله، وكانـــت تلك تركة ساعات عديدة في أرض التدريب. كان يبعث على الاطمئـــنان رؤيـــة تلـــك النظرة الحادة والرأس الضخم مرة أخرى، فقد كانت تجعله يرتعش عندما كان فتى صغيراً.

عندما نهض زهي زهونغ، رأى الملك أنه يبدو فتّاكاً، وشعر مرة أخرى بأنه فتى صغير. كافح للحفاظ على صوته ثابتاً عندما تكلم. لم يكن ينبغي بالإمبراطور أن يبدو ضعيفاً.

"إنهم قادمون إلى هنا أيها القائد. لقد سمعت التقارير".

تفحـــص زهي زهونغ الشاب الرقيق الوجه الذي يواجهه، متمنياً أن يكون الأب موجوداً. سيكون الرجل العجوز قد تصرف بحلول ذلك الوقت، لكن عجلة الحياة كانت قـــد أخذته وكان ذلك هو الفتى الذي ينبغي أن يتعامل معه. شدّ القائد كلتا قبضتيه إلى جانبيه، وهو يقف مشدوداً بشكل آلمه.

"لـــم يعـــد لـــديهم أكثر من خمسة وستين ألف محارب يا جلالة الإمبراطور. فرسانهم رائعـــون ويتمـــتع كـــل واحد منهم بمهارة استثنائية في الرماية. إضافة إلى ذلك، تعلموا فن الحصار ولديهم أسلحة قوية للغاية. لقد حققوا انضباطاً لم أعرفه في تعاملاتي معهم من قبل".

قـــال الإمبراطور الشاب بحدّة: "لا تخبرني عن نقاط قوتهم! قل لي بدلاً من ذلك عن الطريقة التي سنسحقهم بها".

لـــم يـــنفعل زهـــي زهونغ من نبرة الصوت. كان صمته انتقاداً كافياً، ولوّح له الإمبراطور ليتابع كلامه، وقد صبغت الحمرة وجنتيه الشاحبتين.

"لنهـزم العـدو، ينبغي أن نعرفه يا مولاي ابن السماء". قال اللقب مشدداً عليه لتذكيـر الإمبـراطور بمكانتـه وقـت الأزمـة. انتظر القائد زهي زهونغ حتى شدّ الإمبراطور فمه وسيطر على خوفه.

"كنـا فـي الماضي نبحث عن نقاط ضعف في تحالفهم. لا أعتقد أن هذا التكتيك سيجدي نفعاً هنا".

قال وي من دون تفكير: "لماذا؟". ألن يخبره الرجل عن الطريقة التي سيهزم بها رجـال القبائل هؤلاء؟ كفتى، كان قد تحمّل العديد من المحاضرات من القائد الأشيب، وبدا ألا مفر له منها حتى مع وجود إمبراطورية عند قدميه.

"لم نتجاوز قوة مغولية السور الخارجي من قبل، يا جلالة الإمبراطور. لا يمكنهم سـوى الصراخ أمامه". هزّ كتفيه استخفافاً. "لم يعد الفاصل المنيع الذي كان عليه ذات مرة، ولم يعد هؤلاء المغول يخافون من قوتنا المتفوقة كما كانوا من قبل. لقد أصبحوا أكثـر شـجاعة نتيجة لذلك". توقف قليلاً، لكن إمبراطوره لم يتكلم مجدداً. فقدت نظرة القائد بعضاً من قوتها. ربما كان الفتى قد بدأ يفهم متى يبقي فمه مغلقاً.

"لقـد عذّبـنا مستطلعيهم، يا جلالة الإمبراطور. أكثر من اثني عشر شخصاً في الأيـام القلـيلة الماضـية. خـسرنا رجالاً لإحضارهم أحياء، لكن الأمر كان يستحق المحاولة لمعرفة العدو". تقطب حاجبا القائد عندما تذكر ذلك.

"إنهـم موحدون. لا أعرف إن كان عقد التحالف سينفرط بمرور الوقت، لكنهم أقوياء هذه السنة على الأقل. لديهم مهندسون، وهو شيء كنت أعتقد أنني لن أراه أبداً. إضافة إلى ذلك، لديهم ثروة كزي كزيا خلفهم". توقف القائد، ووجهه ينقط سماً من حليفهم السابق.

"سأستمتع بقيادة الجيش إلى وادي كزي كزيا يا جلالة الإمبراطور، عندما ينتهي هذا".

قال الإمبراطور وي بسرعة وقد بدأ صبره ينفد: "المستطلعون أيها القائد".

تابـع القائد الكلام: "إنهم يتكلمون عن جنكيز هذا كأنه شيء عظيم. لم أجد دليلاً على مجموعة ناقمة بينهم، على الرغم من أنني لن أتوقف عن البحث. لقد فرّقناهم من قبل بقطع وعود لهم بالسلطة والثروة".

قـال الإمبراطور وي بحدّة: "قل لي كيف ستهزمهم أيها القائد، أو سأجد شخصاً يستطيع ذلك".

عند ذلك، أصبح فم زهي زهونغ خطاً حاداً في وجهه.

قال: "بعد تدمير السور الخارجي، لا يمكننا الدفاع عن المدن حول النهر الأصفر يا مولاي. الأرض منبسطة تماماً وتمنحهم أفضلية كبيرة. ينبغي بجلالة الإمبراطور أن يجهّز نفسه لخسارة تلك المدن عندما نسحب الرجال إلى الخلف".

هزّ الإمبراطور وي رأسه محبطاً، لكن القائد ضغط عليه.

"ينبغـي ألا نسمح لهم باختيار المعارك. سوف تسقط لنهي كما سقطت كزامبا ووايان. باوتو، وجينينغ، وكزيشنغ كلها على طريقهم. لا يمكننا إنقاذ تلك المدن، وإنما الثأر لها فقط".

نهـض الإمبـراطور وي علـى قدمـيه غاضباً. "سيتم قطع الطرقات التجارية وسيعرف أعداؤنا أننا ضعفاء! طلبتك لتخبرني كيف أنقذ الأراضي التي ورثتها، وليس لتراقبها تحترق معي".

قـال زهـي زهونغ بحزم: "لا يمكن إيقافهم يا جلالة الإمبراطور. سأحزن أنا أيضاً علـى الموتى عندما ينتهي الأمر. سوف أسافر إلى كل واحدة من تلك المدن وأنثر الرماد علـى جلـدي وأقدم عروضاً للتعويض على سكانها. لكنها سوف تسقط. كنت قد أصدرت أوامر بسحب جنودنا من تلك الأماكن. سيخدمون جلالة الإمبراطور بشكل أفضل هنا".

كـان الإمبـراطور الشاب واجماً، ويده اليمنى ترتعش عند حافة ردائه. بإرادة كبيرة، ثبّت نفسه.

"تكلـم بحرص معي أيها القائد. أريد نصراً، وإذا أخبرتني مرة أخرى أنه ينبغي بي التخلي عن أراضي والدي، سأقطع رأسك الآن".

نظـر القائد في عيني الإمبراطور الغاضبتين. لم يكن هناك إشارة على الضعف الـذي كـان قـد رآه من قبل. للحظة، تذكر والد الفتى وأسعدته الفكرة. ربما ستدفع الحرب الدماء في العروق بشكل لم يكن ممكناً من قبل.

"يمكننـي جمع حوالي مئتي ألف جندي لمواجهتهم يا جلالة الإمبراطور. ستكون هناك مجاعة نتيجة تحويل الإمدادات إلى الجيش، لكن الحرس الإمبراطوري سيحافظ علـى النظام في ينكينغ. سيكون موقع المعركة من اختياري، حيث لا يستطيع المغول الإغـارة علينا. أقسم لابن السماء إنني سأدمرهم عن بكرة أبيهم. كنت قد درّبت العديد من الضباط وأقول لجلالتكم إنهم لن يفشلوا".

رفع الإمبراطور يداً إلى عبد ينتظر وقَبِل كأساً من الماء البارد. لم يقدم مشروباً للقائـد، ولـم يفكر في الأمر، على الرغم من أن الرجل كان بعمر يفوقه ثلاث مرات وكان الصباح دافئاً. كان الماء من نبع جايد للعائلة الإمبراطورية وحدها.

قال ممتناً، وهو يرتشف الماء: "هذا ما أردت سماعه. أين ستقع المعركة؟".

"عندما تسقط آخر المدن، سيتحركون نحو ينكينغ. سيعرفون أنها المدينة التي يقيم فـيها الإمبراطور وسيأتون إلينا. سأوقفهم في سلسلة من الجبال إلى الغرب، عند ممر يوهـنغ الذي يدعى "فم الغرير". إنه ضيق بما يكفي ليعيق جيادهم وسنقتلهم جميعاً. لن يصلوا إلى المدينة. أقسم على ذلك".

قـال الإمبراطور واثقاً: "لا يمكنهم الاستيلاء على ينكينغ، حتى إذا فشلت". نظر إلـيه القائـد زهي زهونغ، متسائلاً إن كان الشاب قد غادر مرة المدينة التي ولد فيها. تنحنح القائد بلطف.

"هـذا غيـر ممكـن. سأدمّرهم هناك، وعندما يمر الشتاء، سأذهب إلى وطنهم وأمحوهم عن وجه الأرض. لن يتمتعوا بالقوة مجدداً".

شـعر الإمبراطور بمعنوياته ترتفع لدى سماعه كلمات القائد. لن يكون مضطراً للوقوف مكللاً بالعار أمام والده في أرض مليئة بالموتى. لن يكون مضطراً للتعويض عـن الفـشل. للحظة، فكّر مجدداً في المدن التي سيستولي عليها المغول، وتراءت له الـدماء وألـسنة اللهب. لكنه أبعدها عن ذهنه، وشرب رشفة أخرى من الماء. سيعيد بـناءها. عندما يتم تمزيق آخر رجال القبائل إرباً، أو تثبيتهم بالمسامير إلى كل شجرة فـي الإمبـراطورية، سيعيد بناء تلك المدن وسيعرف الناس أن إمبراطورهم لا يزال قوياً، ومحبوباً من السماء.

قـال الإمبراطور بصوت أضحى لطيفاً نتيجة تغير مزاجه: "قال والدي إنك مطرقة على أعدائه". مدّ يده وأمسك بكتف زهي زهونغ المغطّى بالدرع. "تذكر المدن التي سقطت عندما تسنح لك الفرصة لتجعلهم يعانون الأمرّين. باسمي، ليكن العقاب شديداً".

رد زهي زهونغ وهو يحني رأسه: "سيكون الأمر كما يشاء جلالة الإمبراطور".

مـشى هـو سا عبر المعسكر الشاسع، مستغرقاً في أفكاره. طيلة حوالى ثلاث سـنوات، كان ملكه قد تركه مع الخان المغولي وكانت هناك أوقات كافح فيها ليتذكر ضـابط كزي كزيا الذي كان عليه ذات مرة. كان جزء من السبب في ذلك أن المغول قبلوه من دون سؤال. بدا أن خاسار يحبه وكان هو سا قد أمضى أمسيات عديدة يتناول الـشراب الأسود في خيمة الرجل، وتقوم على خدمتهما زوجتا خاسار من تشن. ابتسم بغـرابة بيـنما كان يمشي. لقد كانت أمسيات جيدة. كان خاسار رجلاً كريماً ولم يكن يمانع أبداً بتقديم زوجاته لصديق.

توقـف هـو سا لحظة لتفقّد مجموعة من السهام الجديدة، وكانت واحدة من مئة أخرى يتم صنعها من الجلد والخشب. كانت ممتازة، كما كان يتوقعها. على الرغم من أن المغـول كانوا يزدرون الأنظمة التي كان يعرفها، إلا أنهم كانوا يعاملون أقواسهم مثل ولد آخر لهم ووحدها الجيدة منها كانت تفي بالغرض.

كان قد أدرك منذ وقت طويل أنه يحب القبائل، على الرغم من أنه كان لا يزال يـشتاق إلـى شاي بيته، المختلف جداً عن الشراب اللاذع الطعم الذي يشربونه ليقيهم

البـــرد. البرد! لم يكن هو سا قد عرف أبداً مثل ذلك الموسم القاسي الذي مرّ عليه في الـــشتاء الأول. كان قد أرهف السمع لكل النصائح التي أسدوها له فقط ليبقى على قيد الحـــياة، وعلـــى الرغم من ذلك، كان قد عانى الأمرّين. هزّ رأسه عندما تذكر الأمر وتـــساءل عمـــا سيفعله إذا استدعاه الملك إلى الوطن كما سيفعل بالتأكيد يوماً ما. هل سيذهب؟ كان جنكيز قد جعله قائد مئة تحت قيادة خاسار وكان هو سا يستمتع بصحبة الـــضباط. كـــان واثقاً أن كل واحد منهم يستطيع تولي القيادة في كزي كزيا. لم يكن جنكيز يسمح بارتقاء الحمقى سلم القيادة، وكان ذلك مدعاة فخر لهو سا. كان قد ضمن أعظـــم جـــيش في العالم، كمحارب وقائد. لم يكن ذلك شيئاً يسيراً بالنسبة لرجل، أن يكون موضع ثقة.

كانـــت خـــيمة زوجـــة الخان الثانية مختلفة عن كل الخيم الأخرى في المعسكر الـــشاسع. كان حرير تشن يزين الجدران، وعندما دخل هو سا، تفاجأ مرة أخرى من رائحة الياسمين. لم تكن لديه فكرة كيف استطاعت تشاكاهي الحصول على كمية منه، لكن في السنوات التي قضتها بعيداً عن وطنها، لم تكن كسولة. كان يعرف أن زوجات أخـــريات مـــن كـــزي كزيا وتشن يلتقين في خيمتها بانتظام. عندما منع أحد الرجال زوجـــته عـــن ذلك، تجرأت تشاكاهي على إيصال المشكلة إلى جنكيز. لم يفعل الخان شـــيئاً، لكـــن الـــزوجة من تشن أضحت حرة في زيارة أميرة كزي كزيا بعد ذلك. لم يتطلب الأمر سوى كلمة واحدة في سياقها الصحيح.

ابتسم هو سا عندما أحنى رأسه لها، ولم يعترض عندما وضعت فتاتان من تشن يديهما على كتفيه ونزعتا عنه رداءه الخارجي. كان حتى ذلك شيئاً جديداً. كان المغول يرتدون ملابس فقط لتقيهم البرد ولم تكن لديهم أدنى فكرة عن آداب اللياقة.

قالـــت تشاكاهي وهي تنحني بالمقابل: "أهلاً بك في بيتي يا ابن بلدي. كان لطفاً منك أن تأتي". كانت تتكلم بلغة تشن، على الرغم من أن اللهجة كانت تلك السائدة في وطنه. تنهد هو سا عندما سمع النبرة، وعرف أنها فعلت ذلك لإسعاده.

ردّ: "أنت ابنة ملكي، زوجة خاني. أنا خادمك".

قالت: "ذلك جيد يا هو سا، لكننا صديقان أيضاً، على ما آمل؟".

خفـــض هو سا رأسه مجدداً، أكثر من السابق. عندما رفعه، قَبِل كوباً من الشاي الأخضر الداكن وتنشّق الرائحة بإعجاب.

"نحن كذلك بالطبع، لكن ما هذا؟ لم يسبق أن شممت...". سحب نفساً عميقاً آخر، وســـمح للـــرائحة الدافـــئة بالدخـــول إلى رئتيه. كان مشتاقاً لوطنه عندها وقد جعلته المشاعر القوية يترنح عندما وقف.

"يرسل والدي القليل منه مع جزيته كل سنة يا هو سا. لقد تركته القبائل يذبل على الرغم من أنه من آخر كمية".

جلس هو سا بحرص، يهزّ الكوب فيما يرتشف الشاي.

"لطف كبير منك أن تتذكريني". لم يضغط عليها كثيراً، لكنه لم يكن يعرف لماذا استدعته في ذلك اليوم. كان يعرف أن أحدهما لا يستطيع قضاء الكثير من الوقت بصحبة الآخر. على الرغم من أنه كان من الطبيعي أن يهتم شخصان من كزي كزيا بعضهما ببعض، إلا أن أي رجل لا يمكنه زيارة زوجة خان من دون سبب. خلال سنتين، لم يكونا قد التقيا سوى ست مرات فقط.

قبل أن تتمكن من الرد، دخل رجل آخر. شبك ياو شو يديه معاً وانحنى لسيدة الخيمة. راقب هو سا بمتعة بينما كان الراهب يحصل أيضاً على كوب من الشاي الحقيقي وأطلق تنهيدة ارتياح عندما شمّ الرائحة. تقطب حاجبا هو سا فقط عندما أنهى ياو شو تحيته. إن كان لقاء زوجة خان في خلوة أمراً خطيراً، كان اتهام المرء بالتآمر أمراً أكثر خطورة. ازداد قلقه عندما انحنت الجاريتان وتركتا الثلاثة وحدهم. بدأ هو سا يقف على قدميه، وقد نسي الشاي.

وضعت تشاكاهي يداً على ذراعه ولم يكن يستطيع التحرك من دون إبعادها عنه. جلس غير مرتاح ونظرت في عينيه. كانت عيناها واسعتين وداكنتين تبرزان من جلدها الشاحب. كانت جميلة ولا يوجد دلائل على دهن الضأن الكريه الرائحة حولها. لم يستطع كبت ارتعاش خفيف يسري في ظهره من لمسة الأصابع الباردة على جلده.

"لقد طلبت منك المجيء إلى هنا يا هو سا. أنت ضيفي. سيكون في الأمر إهانة إذا غادرت الآن، أليس كذلك؟ قل لي، لم أفهم بعد آداب أهل الخيم". كان ذلك توبيخاً وكذبة أيضاً. كانت تفهم الحالة المغولية تماماً. ذكّر هو سا نفسه أن هذه المرأة قد ترعرعت كواحدة فقط من عدّة بنات لملكه. على الرغم من جمالها، إلا أنها لم تكن غافلة عن علاقات البلاط. استرخى في مكانه وأرغم نفسه على ارتشاف الشاي.

قالت بلطف جعل قلقه يتعمّق: "لا يوجد أحد يسمعنا هنا. تخاف المؤامرة يا هو سا، على الرغم من أنه ليس هناك شيء من هذا القبيل. أنا الزوجة الثانية للخان، أم لابن وابنته الوحيدة. أنت ضابط موثوق به وقد علّم ياو شو أبناء زوجي الآخرين اللغة والمهارات الحربية. لن يجرؤ أحد على الهمس بشأن أي منا. إذا فعلوا ذلك، سأقطع ألسنتهم".

حدّق هو سا إلى الفتاة الرقيقة التي يمكنها إطلاق مثل ذلك التهديد. لم يكن يعرف إن كانت لديها القوة لتحقيق ذلك. كم عدد الأصدقاء الذين كسبتهم في هذا المعسكر

بمكانـــتها؟ كم عدد عبيد تشن وكزي كزيا؟ كان ذلك ممكناً. أرغم نفسه على الابتسام، على الرغم من أنه كان بارداً من الداخل.

"حسناً إذاً، ها نحن ذا. ثلاثة أصدقاء، نشرب شاياً لذيذاً. سأنهي كوبي يا صاحبة الجلالة، ثم أغادر".

تـــنهدت تشاكاهي، واسترخت معالم وجهها. لدهشة كلا الرجلين، ظهرت الدموع في طرفي عينيها.

همـــست، وكـــان مـــن الواضح أنها تكافح مع نفسها: "هل ينبغي أن أبقى وحيدة دائمـــاً. هل أنا موضع شبهة حتى منكما؟". لم يكن هو سا ليمدّ يده أبداً ويلمس عضواً من عائلة كزي كزيا الملكية، لكن ياو شو لم يكن لديه مثل ذلك الوازع. وضع الراهب ذراعاً حول كتفها وتركها تريح رأسها على صدره.

قـــال هـــو سا بلطف: "لست وحيدة. تفهمين أن والدك قد منح خدماتي لزوجك. للحظـــة، فكّرت ربما أنك تتآمرين عليه. لماذا أرسلت في طلبنا وأبعدت فتاتيك إن لم يكن لذلك الأمر؟".

اســـتقامت أميـــرة كزي كزيا في جلستها، وأعادت جديلة من الشعر إلى مكانها. ابتلع هو سا ريقه بصعوبة من جمالها.

قالت: "أنت الرجل الوحيد من قومي في هذا المعسكر. ياو شو الرجل الوحيد مـــن تـــشن والذي ليس بجندي". بدا أنها قد نسيت دموعها وأضحى صوتها أقوى عـــندما تابعت الكلام: "لن أخون زوجي يا هو سا، ليس من أجلك أو من أجل ألف مـــثلك. لكـــنّ، لدي ولدان والنساء هن اللواتي يفكّرن بالسنوات التي ستأتي. هل ســـنجلس نحـــن الثلاثة ونرى إمبراطورية تشن تشتعل بألسنة اللهب؟ هل سنرى تمـــزيق حضارة من دون أن نقول *شيئاً*؟". استدارت إلى ياو شو الذي كان يصغي باهـــتمام. "أين ستكون بوذيتك عندها يا صديقي؟ هل ستراها تتحطم تحت حوافر هذه القبائل؟".

تكلـــم ياو شو للمرة الأولى عندما سمع ذلك، وبدا منزعجاً. "إذا كانت معتقداتي قابلـــة للحرق يا سيدتي، لن أثق بها، أو أعيش من أجلها. ستنجو من هذه الحرب مع تـــشن، حتى إذا لم ينجُ أبناء تشن أنفسهم. يكافح الرجال ليكونوا أباطرة وملوكاً، لكنهم مجـــرد أســـماء. لا يهم اللقب الذي يحمله الإنسان. ستبقى الحقول بحاجة للعمل فيها. ســـتبقى الـــبلدات مليئة بالرذيلة والفساد". هزّ كتفيه غير مبال. "لا أحد يعرف إلى أين سيأخذنا المستقبل. لم يعترض زوجك على تدريب أبنائه على يدي. ربما ستجد كلمات بوذا جذوراً في أحدهم، لكن الأحمق هو من يتطلع إلى أبعد مما ينبغي".

قـــال هـــو ســـا بهــدوء: "إنه محق يا صاحبة الجلالة. لقد تكلمت نتيجة الخوف والوحدة، وأنا أفهم ذلك الآن. لم أكن قد فكرت بمدى صعوبة هذا الأمر عليك". سحب نفساً عميقاً، وكان يعرف أنه يلعب بالنار، لكن جمالها سحره. "أنا صديقك كما قلت".

ابتسمت تشاكاهي عندها، وعيناها تلمعان بدموع جديدة. مدّت يديها، وأمسك كل منهما بواحدة، وشعرا ببرودة أناملها بين أصابعهما.

قالـــت: "ربمـــا كـــنت خائفـــة. لقد تخيلت مدينة أبي تحترق وانفطر قلبي على إمبراطور تشن وعائلته. هل تعتقدان أنهم سينجون من هذا؟".

رد ياو شو قبل أن يتكلم هو سا: "كل الناس يموتون. حياتنا ليست أكثر من طائر يحلق عبر نافذة من الضوء، ويصل مجدداً إلى الظلام. ما يهم هو ألا نتسبب بأي ألم. لنحـــيا حـــياة طيـــبة ينبغي أن ندافع عن الضعيف، وعندما نفعل ذلك، نكون قد أضأنا مصباحاً في الظلام سيدوم عدة أجيال قادمة".

ألقـــى هـــو سا نظرة خاطفة على الراهب الجليل، ولاحظ كيف أن رأسه الحليق يلمـــع. لـــم يكن يوافق على كلماته وكاد يهزّ كتفيه استخفافاً من فكرة مثل تلك الحياة الجـــادّة الخالية من المرح. كان يفضل فلسفة خاسار الأبسط بأن أب السماء لن يمنحه القـــوة ليضيعها. إذا كان رجل يستطيع شهر سيفه، ينبغي أن يستعمله ولن يكون هناك خصوم أفضل من الضعفاء. إنهم على الأرجح لن يصيبوك بجرح قاتل عندما لا تكون منتـــبهاً لهـــم. لم يقل شيئاً من ذلك بصوت عال وكان سعيداً لرؤية تشاكاهي تسترخي وأومأ إلى الراهب.

"أنـــت رجل طيب يا ياو شو. لقد شعرت بذلك. سيتعلم أبناء زوجي الكثير منك، أنا واثقة من ذلك. ربما يوماً ما، ستكون لديهم قلوب بوذية".

نهـــضت فجأة عندها، وكادت تجعل هو سا يريق تفل الشاي البارد الذي يحمله. وضـــع الكـــوب إلـــى جانبه وانحنى لها مرة أخرى، ممتناً لأن الاجتماع الغريب كان يقترب من نهايته.

قالـــت تـــشاكاهي بلطف: "نحن من حضارة قديمة. أعتقد أننا نستطيع التأثير في حضارة جديدة، في أثناء نهضتها. إذا كنا حريصين، سيكون الأمر مفيداً لنا جميعاً".

طـــرفت عينا هو سا على أميرة قومه، قبل أن يؤدي آداب المجاملة التي أعادته إلى الهواء الخارجي، ويا شو بجانبه. حدّق كلا الرجلين بعضهما إلى بعض لحظة قبل أن يتخذا سبيلين مختلفين في المعسكر.

# الفصل الثامن عشر



كـــان الهدوء والنظام المعتادان في الثكنات الإمبراطورية في باوتو مفقوداً بينما كـــان الجـــنود يضعون معدّاتهم على العربات. كانت الأوامر من ينكينغ قد جاءت في الليل، ولم يُضِع القائد لوجان أي وقت. لم يكن ينبغي ترك أي شيء ذي قيمة للمغول، وكان عليهم تدمير كل ما لا يمكنهم حمله. كان لديه آنذاك رجال يستعملون المطارق، يدمرون مخازن السهام والرماح بكفاءة منهجية.

كـــان إخـــلاء المدينة صعباً، ولم يكن لوجان قد نام منذ تلقى الأمر. كان الجنود الـــذين يحمـــون باوتو من قطّاع الطرقات والجمعيات السرية الإجرامية موجودين في المدينة منذ حوالى أربع سنوات. كان للعديد منهم عائلات هناك، وكان لوجان قد سعى عبثاً للحصول على إذن بإخراجهم معهم.

كانـــت رســـالة القائد زهي زهونغ قد جاءت مع مراسل إمبراطوري، والأختام صـــحيحة. كـــان لـــوجان يعرف أنه يخاطر بخفض رتبته أو أسوأ من ذلك بالسماح للرجال الذين لديهم زوجات وأولاد تجميع عائلاتهم، لكنه لم يستطع تركهم للعدو. رأى مجموعة أخرى من الفتية تجلس في عربة وتنظر حولها بعيون خائفة. كانت باوتو كل مـــا يعرفونه، وفي ليلة واحدة، طُلب منهم ترك كل شيء والتحرك بسرعة إلى أقرب حصن.

تنهد لوجان لنفسه. مع وجود الكثير من الناس، كان الحفاظ على السر مستحيلاً. لا شك أن الزوجات كن قد حذّرن صديقاتهن، وقد انتشرت الأنباء مثل النار في الهشيم تلك الليلة. ربما لهذا السبب لم تتضمن الأوامر القيام بإخلاء عائلات رجاله.

خـــارج بوابات الثكنات، كان يسمع أصوات الحشد المتجمّع. هزّ رأسه من دون وعـــي مـــنه. لـــم يكن بمقدوره إنقاذهم جميعاً ولن يعصوا أوامره. شعر بالخجل من ارتـــياحه لأنـــه لـــم يكـــن مضطراً للبقاء في درب الجيش المغولي وحاول ألا يسمع الأصوات التي تنادي بارتباك ورعب في الشوارع.

كانت الشمس قد أشرقت، وخشي آنذاك أن يكون قد تأخر كثيراً. لو أنه لم يرسل بطلب عائلات الجنود، لكان استطاع الخروج خلسة من المدينة في الليل. كما هي عليه الحــال آنــذاك، سوف يمرون عبر حشد معادٍ في وضح النهار. أكّد لنفسه أنه سيكون قاســياً بعد أن تم اتخاذ القرار. ستكون هناك إراقة للدماء إذا ازداد غضب المواطنين، وربمــا يقــع قتال للوصول إلى بوابة النهر، التي تبعد أربعمئة خطوة عن الثكنات. لم تكــن تبدو بعيدة جداً في اليوم السابق. تمنّى أن يظهر حل آخر، لكن دربه كان محدداً وسرعان ما سيحين وقت الرحيل.

تخطّــاه اثــنان مــن رجاله يحملان رسالتين شفهيتين. لم يوجه أي منهما التحية لقائــده وشــعر لوجان بغضبهما. لا شك أنهما كانا رجلين يحتفظان بغانيات أو لديهما أصــدقاء فــي المدينة. كانوا جميعاً كذلك. سيكون هناك أعمال شغب عندما يرحلون، وستفلت العصابات من عقالها في الشوارع. كان بعض المجرمين مثل كلاب مسعورة، ونــادراً ما يخيفهم التهديد بالقوة. مع رحيل الجنود، سيظفرون بكل ما يستطيعون حتى يصل العدو ليحرقهم جميعاً.

جعلــت تلك الفكرة لوجان يشعر ببعض الرضا، على الرغم من أنه كان لا يزال خجــلاً مــن نفــسه. حــاول تنقيه ذهنه، والتركيز على مشكلة إخراج أرتال الجنود والعــربات من المدينة. كان قد وضع رماة سهام على طول الصف، مع أوامر للتسديد على الحشد إذا تعرضوا للهجوم. إذا فشل ذلك، ستحجز الرماح الرعاع وقتاً كافياً حتى يرحلوا عن باوتو، وكان واثقاً تقريباً من ذلك. بأي حال، سيكون الأمر قاسياً ولم يكن يستطيع الزهو بأنه من خطط لذلك.

جاء جندي آخر يجري وعرف لوجان أنه أحد أولئك الذين كانوا يتمركزون عند بوابة الثكنة. هل بدأت أعمال الشغب آنذاك؟

"ســيدي، هــناك رجــل يرغب بالتكلم معك. طلبت منه الذهاب إلى البيت، لكنه أعطاني هذا الرمز وقال إنك ستراه".

نظــر لــوجان إلى القطعة الصغيرة من المحارة الزرقاء التي تحمل علامة شــن يي الشخصية. فزع مما رآه. لم يكن يرغب بعقد اللقاء، لكن العربات كانت مــستعدة تقريباً وقد شكّل الرجال أرتالاً أمام البوابة. ربما بسبب شعوره بالذنب، أومأ برأسه موافقاً.

"اجعلــه يدخل من الباب الصغير وتأكد من عدم دخول أحد معه". انطلق الجندي مبــتعداً ووجد لوجان نفسه وحيداً مع أفكاره. سيموت شن يي مع الباقين ولن يعلم أحد أبــداً بالترتيبات التي كانت بينهما طيلة سنوات. كان ذلك مفيداً لكليهما، لكن لوجان لن

يكـون نادماً على التحرر من نفوذ الرجل القصير. حاول إبعاد الإرهاق الذي كان قد حل به عندما عاد الجندي مع قائد الجمعية السرية الزرقاء.

شـرع لـوجان بـالكلام بعد أن جرى الجندي عائداً إلى مكانه في الصف: "لا يمكنني فعل شيء لك يا شن يي. تقضي أوامري بالانسحاب من باوتو والانضمام إلى تجمع الجيش أمام ينكينغ. لا يمكنني مساعدتك".

حدّق شن يي إليه ورأى لوجان أنه كان مسلحاً بسيف على ردفه. كان ينبغي تجريده منه عند عتبة البوابة الرئيسية، لكن لم تكن أي من الأنظمة موضع تطبيق ذلك اليوم.

قال شن يي: "كنت أعتقد أنك ستكذب عليّ، وتقول لي إنك ستشارك في مناورات أو تدريب. لم أكن لأصدقك بالطبع".

قـال لـوجان وهـو يهزّ كتفيه استخفافاً: "كنت بين أول من سيسمع بذلك الليلة الماضية. ينبغي أن أتقيد بأوامري".

قال شن يي: "هل ستدع باوتو تحترق؟ بعد سنوات طويلة من إخبارنا أنكم حماة، ستهربون عند ظهور أول تهديد حقيقي؟".

شعر لوجان بأنه يشتعل غضباً.

"أنا جندي يا شن يي. عندما يأمرني قادتي بالتحرك، أتحرك. أنا آسف".

كان وجه شن يي أحمر، على الرغم من أن لوجان لم يعرف إن كان ذلك ناجماً عن الغضب أو الإجهاد من الجري إلى الثكنة. شعر بقوة نظرة الرجل واستطاع بالكاد الرد عليها بالمثل.

قـال شن يي: "أرى أنك سمحت لرجالك باصطحاب زوجاتهم وأولادهم إلى برّ الأمان. لن تعاني زوجتك وأولادك عندما يصل المغول".

نظر لوجان بعيداً إلى الرتل. كانت هناك وجوه تستدير نحوه آنذاك، تنتظر كلمته لتبدأ المسير.

"لقد تجاوزت سلطتي حتى في ذلك يا صديقي".

أطلق شن يي زمجرة من حنجرته.

"لا تـدعْ رجلاً بالصديق بينما تتركه ليلقى حتفه". كان غضبه واضحاً آنذاك ولم يستطع لوجان النظر في عينيه عندما تابع الكلام.

"سـتدور العجلة يا لوجان. سيدفع أسيادك ثمن قسوتهم تماماً كما ستدفع ثمن هذا العار".

قـال لوجان وهو يحدّق بعيداً: "ينبغي أن أغادر الآن. يمكنك إخلاء المدينة قبل وصول المغول. يمكن إنقاذ الكثيرين إذا أمرت بذلك".

"ربما سأفعل يا لوجان. بالمحصلة، لن تكون هناك سلطة أخرى في باوتو بعد أن تــرحل". كان كلا الرجلين يعرفان أنه من المستحيل إخلاء السكان من باوتو. لم يكن جيش المغول بعيداً أكثر من مسيرة يومين. حتى إذا استطاعوا العثور على كل قارب واستعملوا النهر للهرب، لن تكون هناك أماكن كافية للجميع. سيتم ذبح سكان باوتو في أثناء هروبهم. تخيّل لوجان حقول الأرز تجري فيها الدماء، وأطلق زفيراً طويلاً. كان قد تأخر كثيراً آنذاك.

تمــتم وهــو ينظر في عيني شن يي: "حظاً طيباً". لم يفهم نظرة الانتصار التي رآهـا تلمــع هناك وكاد يتكلم مجدداً قبل أن يقرر أن الامتناع أفضل. مشى بخطوات واسعة إلى مقدمة الرتل، حيث كان أحدهم يمسك بحصانه من أجله. بينما كان شن يي يــراقب مــا يجري، تم فتح بوابات الثكنة وتسمّر أولئك في مقدمة الركب فيما أطبق الصمت على الحشد.

كانــت الطرقات محاطة بالناس الذين ينظرون إلى ما يحدث. كانوا قد تركوا المسلك خالياً لجنود الإمبراطور وعرباتهم، لكن الوجوه كانت باردة تشي بالكراهية وأصدر لوجان أوامــره بصوت عالٍ حتى يكون رماته جاهزين، وسمع الحشد ذلك بينما كان يدفع جواده للخــروج هــرولة من المدينة. كان الصمت مرعباً وتوقع أن تنطلق الشتائم في أي لحظة. قــبض رجالــه علــى سيوفهم ورماحهم بعصبية، محاولين ألا ينتبهوا لوجوه الناس الذين يعــرفونهم بينما كانوا يتركون الثكنة خلفهم. كان المشهد نفسه سيتكرر في الثكنات الأخرى وســيلتقون بالــرتلين الثاني والثالث خارج المدينة قبل أن يتحركوا شرقاً إلى ينكينغ وممر بادغر. ستصبح باوتو حينها من دون حماية، للمرة الأولى في تاريخها.

راقب شن يي رتل الحرّاس يرحل، متجهاً نحو بوابة النهر. لم يكن لوجان يعرف أن الكثير من رجال شن يي في الحشد، وأنهم هناك للحفاظ على النظام ومنع مواطنين مــتهورين من إظهار امتعاضهم من الانسحاب. لم يكن يريد من لوجان تأخير رحيله، لكــنه لم يستطع مقاومة رؤيته مكللاً بالعار قبل أن يغادر. كان لوجان صوتاً متعاطفاً فــي الحامــية لــسنوات طويلة، على الرغم من أنهما لم يكونا صديقين. كان شن يي يعــرف أن الأوامر بالرحيل ستكون قاسية على الرجل وكان قد استمتع بكل لحظة من خــزيه. كان الأمر يتطلب مقاومة كبيرة حتى لا يُظهر رضاه الداخلي. لن يكون هناك صــوت منشق عندما يصل المغول، ولا جنود يتلقون أوامر بالقتال حتى النهاية. كانت خيانة الإمبراطور قد أسقطت باوتو في يدي شن يي في صبيحة يوم واحد.

تقطب حاجباه عبوساً عندما وصل رتل الجنود إلى بوابة النهر ومرّ لوجان تحت ظــل منــصات رمــاة الــسهام المهجورة. كان كل شيء يعتمد على شرف الشقيقين

المغوليــين اللــذين ساعدهما. تمنّى أن يعرف حق المعرفة ما إذا كان خاسار وتيموج موضـــع ثقة، أم أنه سيرى مدينته الغالية تتحول إلى أنقاض. راقب الحشد عند الثكنة الجــنود المنسحبين بصمت مخيف، وتضرع شن يي بابتهال إلى أرواح أسلافه. تذكر تابعه المغولي كيشان، وتضرع بابتهال أخير إلى أب سماء ذلك الشعب الغريب، طالباً منه العون في الأيام القادمة.

منحنياً على حاجز خشبي لحظيرة ماعز، ابتسم جنكيز عندما رأى ابنه تشاغاتاي وســمع هتاف الفتى يتردد في أنحاء المعسكر. كان قد منح الفتى الذي يبلغ من العمر عــشر ســنوات درعاً ذلك الصباح، مصنوعاً خصيصاً لجسده الصغير. كان تشاغاتاي يافعــاً جــداً لينــضم إلى المحاربين في معركة، لكنه كان سعيداً بالدرع، يقود فرسه الجديــدة في أنحاء المعسكر ليراه الرجال الأكبر سناً. علت الابتسامات الوجوه عندما رأوه يلوح بقوسه ويتناوب على إطلاق صيحات الحرب والضحكات.

تمطّــى جنكيز، مرر يداً على طول القماش السميك للخيمة البيضاء التي كان قد أمر بنصبها أمام أسوار باوتو. كانت مختلفة عن خيام شعبه حتى يتعرف عليها أولئك الموجودون داخل المدن ويتوسلون لقادتهم بأن يستسلموا. كانت أعلى بمرتين حتى من خيمته الكبيرة، ولم تكن مبنية بإحكام وتهتز مع الريح، وكانت جوانبها تعلو وتهبط مثل النفَس. كانت رايات من ذيول الخيل تقف على رماح طويلة على جانبيها وتهتز كما لو أنها حية.

ظهــرت باوتــو مغلقة أمامهم وتساءل جنكيز إن كان شقيقاه محقين في حكمهما على شن يي. كان المستطلعون قد عادوا بأنباء عن خروج رتل من الجنود من المدينة قــبل يــوم واحــد فقط. كان بعض المحاربين الشباب قد قادوا جيادهم قريباً بما يكفي لتــسجيل إصــابات قاتلــة بأقواسهم قبل أن يتراجعوا إلى الخلف. إن كانوا قد قدّروا الأعداد بشكل صحيح، لم يكن لدى المدينة جنود يدافعون عنها ووجد جنكيز أن مزاجه جيد. بطريقة أو بأخرى، ستسقط المدينة مثل الأخريات.

كان قد تكلم إلى بنّاء باوتو الذي أكّد له أن شن يي لن ينسى اتفاقهم. بقيت عائلة لــيان داخل الأسوار التي كان قد ساعد على بنائها وكانت لديه أسباب عديدة لتستسلم المدينــة سلمياً. رفع جنكيز بصره إلى الخيمة البيضاء. كان لديهم حتى مغيب الشمس ليستسلموا، وإلا سيرون الخيمة الحمراء في اليوم التالي. ولن تنقذهم أي اتفاقية حينها.

شــعر جنكيــز بعينين تنظران إليه واستدار ليرى ابنه البكر جوشي إلى الجانب الآخــر مــن حظيرة الماعز. كان الفتى يراقبه بصمت، وعلى الرغم مما كان قد وعد

بــورت بــه، إلا أن جنكيز شعر كأنه يستجيب لتحدٍّ. نظر في عيني الفتى ببرود حتى وجد جوشي نفسه مرغماً على النظر بعيداً. عندها فقط تكلم جنكيز إليه.

"ســتحل ذكرى مولدك خلال شهر. سأجعلهم يصنعون درعاً آخر لك بحلول ذلك الوقت".

زمّ جوشي شفته ساخراً.

"ســأبلغ اثنتــي عشرة سنة. لن يطول الأمر قبل أن أنطلق مع المحاربين. ليست هناك فائدة من ألعاب الأطفال حتى ذلك الوقت".

اتقــد تفكيــر جنكيز. كان العرض كريماً. كان سيتكلم مجدداً، لكن انتباه كليهما تــشتت بعودة تشاغاتي. جأر الفتى على فرسه وقفز إلى الأرض، وكاد يقع بينما كان يــسند نفــسه علــى الحظيرة الخشبية ويربط اللجام حول عمود بعقدة سريعة. أطلقت الماعز في الحظيرة ثغاءً من الخوف، وانطلقت مبتعدة عنه إلى الطرف الآخر. لم يسع جنكيــز ســوى أن يبتسم من سرور تشاغاتي غير المتكلف، على الرغم من أنه شعر بنظرة جوشي تستقر عليه مجدداً، والتي دائماً ما تراقبه.

أشار تشاغاتي نحو مدينة باوتو الهادئة، التي تقع على بعد أقل من ميل.

قال وهو ينظر نحو جوشي: "لماذا لا نهاجم ذلك المكان يا أبي؟".

ردّ جنكيز بصبر: "لأن عمّيك قطعا وعداً لرجل داخلها. مقابل البنّاء الذي ساعدنا علــى التغلب على كل المدن الأخرى، سنترك هذه المدينة على حالها". توقف لحظة. "إذا استسلمت اليوم".

قــال جوشــي فجأة: "وغداً؟ مدينة أخرى، وأخرى بعد ذلك؟". بينما كان جنكيز يــستدير نحوه، عدّل جوشي من وقفته. "هل سنقضي حياتنا نستولي على هذه الأماكن واحدة تلو الأخرى؟".

شــعر جنكيــز بالدم يندفع في وجهه من نبرة الفتى، ثم تذكر وعده لبورت بأن يعامل جوشي مثل أشقائه. لم يكن يبدو أنها تفهم الطريقة التي يستفزه بها كلما سنحت له فرصة بذلك، لكن جنكيز كان بحاجة للهدوء في خيمته الخاصة. استغرق منه الأمر لحظة ليسيطر على غضبه.

قــال: "إنها ليست لعبة نمارسها هنا. لم أختر سحق مدن تشن لأنني أستمتع بالذباب والحرارة في هذه الأرض. أنا هنا، *وأنت* هنا لأنهم استغلونا ألف جيل. لقد كــان ذهب تشن السبب في جعل كل قبيلة تعادي القبائل الأخرى لوقت أطول مما يــستطيع أي شــخص أن يتذكره. عندما ساد السلم لجيل، أطلقوا التتارَ علينا مثل كلاب برية".

رد جوشي: "لم يعد يمكنهم فعل ذلك الآن. التتار مشتتون وشعبنا أمة واحدة، كما قلت. نحن أقوياء للغاية. إنه الثأر إذاً الذي يقودنا؟". لم يكن الفتى ينظر مباشرة إلى والده، وإنما يخاطر بالقاء نظرات خاطفة فقط عليه عندما يدير جنكيز بصره بعيداً، على الرغم من وجود اهتمام حقيقي في عينيه.

تأفف والده.

"بالنسبة إليك، التاريخ مجرد قصص. لم تكن قد ولدت بعد عندما تبعثر التتار. لم تعرف ذلك الوقت وربما لا يمكنك فهمه. نعم، هذا ثأر، في جزء منه. ينبغي أن يعرف أعداؤنا أنهم لا يستطيعون مهاجمتنا الآن من دون عاصفة تطيح بهم". شهر سيف والده وعرّضه للشمس، ولمع المعدن المصقول بخط ذهبي على وجه جوشي.

"هذا سيف جيد صنعه حرفي ماهر. لكن إذا دفنته في الأرض، إلى متى سيبقى نصله حاداً؟".

قال جوشي مفاجئاً إياه: "ستقول إن القبائل مثل السيف".

ردّ جنكيز، غاضباً لمقاطعة محاضرته: "ربما". كان الفتى حاداً جداً لمصلحته الخاصة. "يمكن أن أخسر كل ما حققته حتى الآن، ربما على يدي ابن أحمق واحد لم يكن صبوراً للإصغاء إلى والده". ابتسم جوشي لدى سماع ذلك، وأدرك جنكيز أنه قد اعترف به ابناً على الرغم من أنه حاول إخفاء تعبير الغطرسة عن وجهه.

فتح جنكيز البوابة إلى حظيرة الماعز، وخطى خطوة داخلها، وهو يشهر سيفه. كافحت الماعز للابتعاد عنه، وقفزت على ظهور بعضها وأطلقت ثغاءً صاخباً.

"بذكائك يا جوشي، قل لي ما سيحدث إن هاجمتني الماعز".

قال جوشي بسرعة خلفه، محاولاً الاشتراك في صراع الإرادات: "ستقتلها جميعها". لم ينظر جنكيز إلى الخلف بينما كان جوشي يتكلم.

قال جوشي: "ستطرحك أرضاً. هل نحن ماعز إذاً، موحدون كأمة؟". بدا أن الفتى عثر على فكرة ممتعة وفقد جنكيز أعصابه، ومدّ ذراعه ليدفع جوشي من فوق السياج ليقع على الأرض بين الحيوانات. فركضت خائفة تطلق ثغاءً، حاول بعضها القفز من فوق الحاجز.

"نحن *الذئب* أيها الفتى، والذئب لا يهتم للماعز التي يقتلها. إنه لا يفكر بأفضل طريقة لقضاء وقته حتى يصبح فمه ومخالبه مخضبة بالدماء ويكون قد هزم كل أعدائه. وإذا سخرت مني مجدداً، سأجعلك تنضم إليهم".

نهض جوشي ليقف على قدميه، والوجه الخالي من التعبيرات يكلل معالمه مثل قناع. في ما يخص تشاغاتي، كان الانضباط سيحظى بالموافقة، لكن جنكيز وجوشي

وقفـا يـواجهان بعـضهما بصمت مطبق، ولم يكن أحدهما يرغب بأن يكون أول من يستدير مبتعداً. لاح تشاغاتي في طرف عين جوشي، يستمتع بإذلاله. في النهاية، كان جوشـي لا يزال طفلاً وفاضت عيناه بالدموع من الإحباط بينما كان يشيح ببصره عن والده، ويتسلق الحاجز الخشبي عائداً من حيث أتى.

سحب جنكيز نفساً عميقاً، وكان يبحث آنذاك عن طريقة ما لتهدئة الغضب الذي كان يشعر به.

"ينبغي ألا تفكر بهذه الحرب كشيء نقوم به قبل أن نعود إلى حياتنا الهادئة. نحـن محاربـون، وقد يكون الحديث عن السيوف والذئاب خيالياً جداً. إذا قضيت شـبابي فـي تحطـيم قوة إمبراطور تشن، سيكون كل يوم ممتعاً بالنسبة لي. لقد حكمت عائلته لوقت طويل بما يكفي وقد ظهرت *عائلتي* الآن. لن نعاني من أياديهم الباردة علينا بعد الآن".

كان جوشي يتنفس بصعوبة، لكنه تمالك نفسه ليطرح سؤالاً واحداً.

"إذاً ليـست هناك نهاية لهذا؟ حتى عندما تكبر، وتشيب، ستبقى تبحث عن أعداء لقتالهم؟".

ردّ جنكيـز: "إن بقي أحد منهم. لا يمكن إيقاف ما بدأت به. إذا خسرنا الشجاعة يوماً، إذا ترددنا، سيأتون إلينا بأعداد أكبر مما يمكننا تخيّله". حاول العثور على شيء يقـوله ليرفع من معنويات الفتى. "لكن بحلول ذلك الوقت، سيكون أبنائي بعمر مناسب ليطوفوا الأراضي الجديدة ويجعلوها تخضع لحكمنا. سيكونون ملوكاً. سيأكلون الطعام الشهي ويتقلدون سيوفاً مرصعة بالجواهر وينسون ما يدينون به لي".

كان خاسار وتيموج قد تجاوزا حافة المعسكر ليحدّقا إلى أسوار باوتو. كانت الشمس منخفضة فوق الأفق، لكن النهار كان حاراً وكلا الرجلين يتصببا عرقاً في الهـواء الكثيف. لم يكونا قد تعرقا أبداً في الجبال العالية لوطنهما، وكان التراب يـسقط مثل الغبار عن جلدهما الجاف. في أراضي تشن، أصبح جسداهما كريهي الـرائحة وكان الذباب يستهدفهما بشكل مستمر. بدا تيموج خاصة شاحباً ومتوعكاً وآلمـته معدتـه عـندما تذكر آخر مرة كان قد رأى فيها المدينة. كان قد أمضى أمسيات عديدة في خيمة خاسار المليئة بالدخان وكانت بعض الأشياء التي رآها قد أزعجته. عندما شعر بالتوتر في حنجرته، سعل. بدا أن ذلك جعل الأمر أسوأ حتى أنه شعر بالدوار والمرض.

شاهده خاسار يعود إلى حالته الطبيعية من دون أن يتعاطف معه.

"رائحـــة أنفاسك كريهة يا شقيقي الصغير. لو أنك فرس، كنت سأذبحك وأطعمك للقبائل".

رد تـيموج بـــوهن وهو يمسح فمه بظاهر يده: "أنت لا تفقه شيئاً كالمعتاد". كان التورّد في خدّيه يتلاشى تدريجياً وبدا جلده شاحباً في ضوء الشمس.

رد خاســار: "أعرف أنك تقتل نفسك لتقبّل قدمي ذلك الكاهن العرّاف القذر. لقد بدأت رائحتك تصبح مثله، كما لاحظت".

ربمـــا كان تيموج سيتجاهل ملاحظة شقيقه اللاذعة، لكن عندما رفع بصره، كان هناك خوف في عيني شقيقه لم يكن قد رآه من قبل. كان قد شعر به في آخرين قرنوه بكاهن الخان العراف. لم يكن خوفاً بالضبط، إلا إن كان من المجهول. كان قد صرف ذهنه عنه من قبل باعتباره جهل الحمقى، لكن رؤية الشيء نفسه في خاسار كان ممتعاً بشكل غريب.

قال: "لقد تعلمت الكثير منه يا شقيقي. أحياناً، كنت أخاف من الأشياء التي أراها".

قـــال خاســـار بلطـــف: "تتمتم القبائل أشياء كثيرة عنه، لكن لا شيء منها جيد. سمعت أنه يأخذ الأطفال الذين لا تريدهم أمهاتهم. ولا يراهم أحد مجدداً". لم يكن ينظر إلـــى تيموج بينما كان يتكلم، مفضلاً تركيز بصره على أسوار باوتو. "يقولون إنه قتل رجلاً بمجرد لمسة".

اســـتراح تـــيموج بـــبطء من التشنج الذي أصابه نتيجة سعاله. ثم قال كذباً: "لقد تعلمت استدعاء الموت بمثل تلك الطريقة. الليلة الماضية، عندما كنت نائماً. كان الألم مبرّحاً ولهذا السبب أسعل اليوم، لكن الجسد سيتعافى وستبقى المعرفة".

نظر خاسار من الجانب إلى شقيقه، محاولاً معرفة إن كان سيقول الحقيقة.

قـــال: "أنـــا واثق أنها كانت خدعة من نوع ما". ابتسم تيموج له وظهر أن لثته ملطخة بالمعجون الأسود مما جعل التعبير فظيعاً.

قـــال تـــيموج بلطـــف: "لا داعـــي للخوف مما أعرفه يا شقيقي. المعرفة ليست خطيرة. وحده الإنسان خطير".

تأفف خاسار. وقال:

"ذلـــك هـــو نـــوع الكلام الصبياني الذي يعلمك إياه، أليس كذلك؟ تبدو مثل ذلك الـــراهب البوذي ياو شو. هناك أحد لا يخاف من كوكشو على الأقل. إنهما مثل كبشي ربيع على أراضي الآخر كلما التقيا".

قـــال تـــيموج بحدّة: "الراهب أحمق. لا ينبغي به تعليم أولاد جنكيز. ربما يكون أحدهم خاناً يوماً ما وستجعلهم تلك *البوذية* ضعفاء".

رد خاسار مبتسماً: "ليس والراهب يعلمهم إياها. يمكنه كسر ألواح بيديه، وهذا ما لا يستطيع كوكشو القيام به. أحبه، على الرغم من أنه لا يلفظ كلمة بشكل صحيح".

قـال تـيموج مقلداً صوت شقيقه: "يستطيع *كسر ألواح*. بالطبع ستتأثر بمثل ذلك الـشيء. هل يمنع الأرواح المظلمة من دخول المعسكر في الليالي التي لا يوجد فيها قمر؟ لا، إنه يصنع الحطب".

رغماً عنه، وجد خاسار أن غضبه يزداد. كان هناك شيء بهذه الثقة الجديدة في تيموج لا يحبه، على الرغم من أنه لم يستطع التعبير عن ذلك بالكلام.

"لم يسبق أن رأيت إحدى أرواح تشن تلك التي يدّعي كوكشو أنه يبعدها. أعرف تمامـاً أن بمقدوري استعمال الحطب". ضحك بصوت خافت ساخراً بينما احمر وجه تـيموج غضباً، وأصبح مزاجه أكثر حدّة. "إذا كنت مضطراً للاختيار بينهما، سأفضل رجلاً يقاتل على طريقته وسأغامر بفرصي مع أرواح فلاحي تشن الموتى".

رفع تيموج ذراعه إلى شقيقه غاضباً، ولدهشته، فزع خاسار. تراجع الرجل الذي سيندفع نحو مجموعة من الجنود من دون تفكير خطوة إلى الوراء عن شقيقه الصغير وهبطت يده إلى سيفه. للحظة، كاد تيموج يضحك. كان يريد أن يرى خاسار الدعابة، ويتذكر أنهما كانا مرة صديقين، لكنه شعر بعد ذلك ببرودة تسري في جسده وفرح من الخوف الذي كان قد رآه.

"لا تـسخر مــن الأرواح يا خاسار، ولا من الرجال الذين يسيطرون عليها. لم تقطع أشواطاً بعيدة عندما اختفى القمر وترى ما كنت قد رأيته. كنت سأموت في عدّة مناسبات لو أن كوكشو لم يكن هناك ليقودني في طريق العودة إلى الأرض".

كـان خاسـار يعرف أن شقيقه قد رأى ردّ فعله على شيء ليس أكثر من راحة كـف مفـتوحة وتـسارع خفقان قلبه في صدره. لم يكن جزء منه يصدق أن تيموج الصغير يعرف أي شيء لا يعرفه هو، لكن كانت *هناك* أسرار وكان قد شاهد كوكشو في الولائم يدفع سكاكين في جسده من دون أن تسيل منه قطرة دم واحدة.

حدّق خاسار إلى شقيقه بإحباط، قبل أن يستدير ويمشي عائداً إلى خيام قومه، إلى العالم الذي يعرفه. وحيداً، شعر تيموج بلذة الانتصار.

عـندما واجه باوتو، فُتحت بوابات المدينة، وصدحت أبواق تحذير في المعسكر خلفه. كان المحاربون سيتسابقون إلى جيادهم. ليركضوا، كما اعتقد، مستمعتاً بالنصر علـى شـقيقه. كانـت عوارض المرض قد زالت ومشى واثقاً نحو البوابة المفتوحة. تـساءل إن كان شن يي سيضع رماة سهام على الأسوار، مستعدين للغدر به. لم يكن ذلك مهماً بالنسبة إليه. شعر بأنه منيع وكانت قدماه خفيفتين على أرض صخرية.

# الفصل التاسع عشر



كانت مدينة باوتو هادئة عندما رحّب شن يي بجنكيز في بيته. رافق هو سا الخان وانحنى شن يي كثيراً له، معبّراً عن امتنانه للمحافظة على الوعود التي تم قطعها.

قال شن يي بلغة القبائل، منحنياً مجدداً عندما تقابل وجهاً لوجه مع جنكيز للمرة الأولى: "أهلاً بك في بيتي". كان جنكيز أطول منه، وأطول حتى من خاسار. كان الخان يرتدي درعاً كاملاً ولديه سيف يربطه بحزام إلى ردفه. شعر شن يي بشدة البأس في داخله، وكان قوياً أكثر من أي شخص سبق له أن التقى به. لم يرد جنكيز على التحية الرسمية، وبالكاد أومأ برأسه بينما كان يمشي بخطوات واسعة إلى الساحة المكشوفة. كان على شن يي أن يتحرك بسرعة ليقوده إلى البيت الرئيسي، وفي عجلته، لم يلاحظ أن جنكيز ينظر إلى السقف الضخم وشدّ من قامته ليدخل. كان هو سا وتيموج قد وصفا البيت له، لكنه كان لا يزال يشعر بالفضول لرؤية كيف يعيش رجل ثري في قلب مدينة.

في الخارج، كانت الشوارع خالية حتى من المتسولين. كان كل بيت قد أقام متراساً ضد رجال القبائل الذين تجولوا في الشوارع، ينظرون عبر البوابات ويبحثون عن أشياء تستحق الاستيلاء عليها. كان جنكيز قد أصدر أوامر بترك المدينة سليمة، لكن لم يكن أحد يعتقد أن الأمر يتضمن مخازن شراب الأرز. كانت صور الآلهة التي يتم وضعها في البيوت مطلوبة بشكل خاص. كان رجال القبائل مقتنعين بأنهم لا يستطيعون تأمين حماية كافية لخيامهم وجمعوا أي تماثيل صغيرة يبدو أنها مناسبة.

انتظر حرس شرف من المحاربين خارج البوابة، لكن في الحقيقة كان جنكيز يستطيع التجول وحيداً في أي مكان في المدينة. كان الخطر الوحيد المحتمل يأتي من رجال يمكنه السيطرة عليهم بكلمة.

كان على شن يي أن يكافح لإخفاء عصبيته بينما كان جنكيز يمشي في أنحاء البيت، يتفحص الأشياء. بدا الخان متوتراً ولم يكن شن يي واثقاً كيف يبدأ الحديث

معـه. كـان قد تم إرسال حرّاسه وخدمه بعيداً لعقد ذلك اللقاء وبدا البيت خالياً بشكل غريب.

قال شن يي ليكسر حاجز الصمت: "أنا سعيد أن البنّاء كان مفيداً لك يا مولاي".

كـان جنكيـز يفحص قدراً أسودَ مصقولاً ولم يرفع بصره بينما كان يعيده إلى مكانه. كـان يـبدو ضخماً جداً في الغرفة، كما لو أنه يستطيع في أي لحظة هدم العوارض الخشبية وجعل المكان بأسره ينهار. قال شن يي لنفسه إن سمعته فقط هي التي تجعله يبدو قوياً، لكن جنكيز نظر إليه عندها بعينين صفراوين شاحبتين جعلت أفكاره تتجمد.

مرّر جنكيز إصبعاً على نقوش القدر المؤلفة من أشكال في حديقة، ثم استدار إلى مضيفه.

"لا تخف مني يا شن يي. قال هو سا إنك رجل حققت الكثير، رجل لم يكن لديه شـيء لكنه على الرغم من ذلك نجا وأصبح ثرياً في هذا المكان". ألقى شن يي نظرة على هو سا لدى سماعه تلك الكلمات، لكن لم يظهر على جندي كزي كزيا أي شيء. لمـرة واحـدة في حياته، شعر شن يي بالارتباك. كان موعوداً بالحصول على باوتو، لكـنه لم يكن يعرف إن كان الخان سيحافظ على كلمته. لم يكن يعرف أنه عندما تدمّر ريـاح قوية بيت شخص، لا يمكنه سوى أن يهزّ كتفيه لا مبالياً ويعرف أنه القدر الذي لا يمكـن مقاومـته. كان اللقاء مع جنكيز يشبه ذلك بالنسبة إليه. كانت القوانين التي عـرفها طـيلة حياته قد أصبحت شيئاً عفا عليه الزمن. بأمر واحد من خان المغول، يمكن تدمير باوتو عن بكرة أبيها.

وافقه شن يي: "أنا رجل ثري". قبل أن يستطيع متابعة كلامه، شعر بعيني جنكيز تحدّقان إليه، والذي بدا مهتماً فجأة. رفع الخان القدر المصقولة مرة أخرى وأشار بها. في يديه، بدت هشّة بشكل لا يصدّق.

"ما هي الثروة يا شن يي؟ أنت رجل مدن، شوارع وبيوت. ماذا تساوي؟ هذه؟".

تكلم بسرعة ووفّر هو سا لشي يي وقتاً للرد بترجمة ما قاله الخان. ألقى شن يي نظرة امتنان على الجندي.

"استـغرقت القدر ألف ساعة عمل لصنعها يا مولاي. عندما أنظر إليها تجعلني أشعر بالسعادة".

قلّـب جنكيـز القدر بين يديه. بدا محبطاً ونظر شن يي إلى هو سا مجدداً. رفع الجندي حاجبيه، مطالباً بالمزيد.

تابع شن يي: "لكنّها ليست ثروة يا مولاي. لقد تضورت جوعاً، لهذا أعرف قيمة الطعام. لقد شعرت بالبرد، لهذا أعرف قيمة الدفء".

هـزّ جنكيـز كتفيه استخفافاً. "تعرف النعجة ذلك. هل لديك أبناء؟". كان يعرف الجواب، لكنه أراد على الرغم من ذلك أن يفهم الرجل الذي جاء من عالم مختلف جداً عن عالمه.

"لدي ثلاث بنات يا مولاي. لقد أخذوا ابني مني".

"إذاً، ما هي الثروة يا شن يي؟".

نتيجة تلك الأسئلة، أصبح شن يي هادئاً جداً. لم يكن يعرف ما يريده الخان، لهذا أجاب بصدق.

"الثأر ثروة يا مولاي، بالنسبة لي. القدرة على الوصول إلى أعدائي وقتلهم. تلك هـي الثروة. أن أحظى برجال يقتلون ويموتون من أجلي هي الثروة. بناتي وزوجتي هـن ثروتـي". بلطـف كبير، تناول القدر من يدي جنكيز، ثم رمى بها على الأرض الخشبية. تحطمت إلى قطع صغيرة تناثرت على الخشب المصقول.

"كل ما عدا ذلك لا قيمة له يا مولاي".

ابتسم جنكيز قليلاً. كان خاسار قد نقل الحقيقة عندما قال إن شن يي لن يخاف.

"أعـتقد لو أنني ولدت في مدينة، ربما كنت عشت حياتك يا شن يي؛ على الرغم من أنني لم أكن لأثق بأشقائي، وأعرفهم كما هي عليه الحال الآن".

لـم يرد شن يي بأنه لم يثق سوى بخاسار، لكن بدا أن جنكيز يخمّن ما يدور في خلده.

"تكلـم خاسـار بالخير عنك. لن أنقض وعده الذي قطعه باسمي. باوتو لك. إنها مجرد خطوة على الطريق إلى ينكينغ بالنسبة لي".

رد شـن يي، وقد سرت فيه قشعريرة ارتياح: "أنا سعيد يا مولاي. هل تشاركني كـوباً مـن الـشراب؟". أومأ جنكيز موافقاً وانزاح ضغط كبير عن الغرفة. استرخى هو سا بشكل ظاهر للعيان بينما كان شن يي ينظر حوله تلقائياً بحثاً عن خادم ولم يجد أحـداً. بثبات، جمع الأكواب بنفسه، وخفاه يطئان على قطع الخزف الثمينة التي كانت مرة تزيّن بيت إمبراطور. اهتزت يداه قليلاً بينما كان يسكب الشراب في ثلاثة أكواب وعـندها فقـط جلس جنكيز. جلس هو سا على كرسي آخر، ونجم عن درعه صوت صـرير بينما كان يستقر في مكانه. أحنى رأسه قليلاً لشي يي عندما تلاقت نظراتهما مجدداً، كما لو أنه قد اجتاز اختباراً من نوع ما.

كان شن يي يعرف أن الخان لن يضيع وقتاً بالجلوس إلا إن كان يريد شيئاً. نظر إلى الظلمة، وكان وجهه خالياً من أي تعبير عندما تناول جنكيز الكوب من يده. أدرك شن يي أن الخان أيضاً لم يكن مرتاحاً ويبحث عن الكلمات المناسبة.

قال شن يي بينما كان جنكيز يرتشف شراب الأرز، ويختبر طعماً لم يكن يعرفه من قبل: "لا بد أن باوتو تبدو صغيرة لك يا مولاي".

رد جنكيز: "لم يسبق أن دخلت مدينة من قبل، إلا لحرقها. إن رؤية مدينة بهذا الهدوء شيء غريب بالنسبة لي".

تجرّع جنكيز ما في الكوب وملأه بنفسه، ومرّر القارورة لشي يي ثم إلى هو سا.

قال شن يي: "مرة أخرى، لكن الشراب قوي وأريد أن يبقى ذهني صافياً".

رد جنكيز متأففاً: "إنه بول حصان، على الرغم من أنني أحب الطريقة التي يلهبني بها".

قال شن يي بسرعة: "سأرسل مئة قارورة إلى معسكرك يا مولاي".

نظر إليه قائد المغول من فوق حافة كوبه وأومأ برأسه. "أنت كريم".

قال شن يي: "ليس هذا بكثير مقابل المدينة التي ولدت فيها".

بدا أن جنكيز ارتاح عند ذلك، واسترخى على الأريكة.

"أنت رجل ذكي يا شن يي. قال لي خاسار إنك كنت تحكم المدينة حتى عندما كان الجنود هنا".

"ربما يكون قد بالغ قليلاً يا مولاي. سلطتي أقوى بين الطبقات الدنيا؛ من حمّالي الميناء والتجار. يعيش النبلاء حياة مختلفة، ونادراً ما كنت أجد طريقة للاستفادة من سلطتهم".

تأفف جنكيز. ولم يكن يستطيع التعبير عن الانزعاج الذي يشعر به وهو جالس في مثل ذلك البيت، المحاط بألف آخر. كان يشعر تقريباً بضغط البشر من حوله. لقد كان خاسار محقاً: بالنسبة لشخص ترعرع في رياح السهول النظيفة، تبدو رائحة المدينة فظيعة.

سأل جنكيز: "تكرههم إذاً، هؤلاء النبلاء؟". لم يكن سؤالاً اعتيادياً وفكّر شن يي في الجواب بحرص. كانت لغة القبائل تفتقر للكلمات التي يحتاجها، لهذا تكلم بلغته وترك هو سا يترجم.

"يعيش معظمهم حياة منغلقة تماماً حتى إنني لا أفكر بهم يا مولاي. يقوم قضاتهم بتطبيق قوانين الإمبراطور، لكنهم لا يقتربون من النبلاء. إذا سرقت أنا، يمكن أن يقطعوا يديّ أو يسلخوا جلدي حتى الموت. إذا سرق نبيل مني، لن تكون هناك عدالة. حتى إذا أخذ ابنة أو ابناً مني، لا يمكنني فعل شيء". انتظر بصبر حتى ينتهي هو سا من الكلام، وكان يعرف أن مشاعره قد أصبحت واضحة عندما حدّق جنكيز إليه. قال: "نعم، أكرههم".

قال جنكيز: "كانت هناك جثث معلقة على بوابات الثكنات، عندما دخلت المدينة. دزينتان أو ثلاث. هل قمت بذلك؟".

"صفيت ديوناً قديمة يا مولاي، قبل أن تصل".

أومأ جنكيز برأسه، وأعاد ملء كلا الكوبين.

"ينبغي بالرجل أن يصفّي ديونه دائماً. هل يشعر كثيرون بما تشعر به؟".

ابتـسم شـن يي بمرارة. "أكثر مما يمكنني إحصاؤه يا مولاي. نبلاء تشن نخبة تحكم أضعاف عددها من الناس. من دون جيشهم، لن يكون لديهم شيء".

سأل جنكيز بفضول كبير: "إن كانت أعدادكم أكبر، لماذا لم تثوروا ضدهم؟".

تـنهد شـن يـي، استعمل مرة أخرى لغة تشن، وكانت الكلمات تخرج من فمه بسرعة كبيرة.

"لا يـستطيع الخـبّازون، البـنّاؤون، والبحارة تشكيل جيش يا مولاي. العائلات النبـيلة لا ترحم عند أول إشارة على ظهور تمرد. كانت هناك محاولات في الماضي، لكـن لديهم جواسيس بين الشعب وحتى جمع أسلحة كان يجعل جنودهم يتدفقون علينا. إذا وقعـت ثـورة ضـدهم، يمكنهم الاتصال بالإمبراطور الذي سيرسل جيشه. يمكن إخـضاع بلـدات بأكملها بقوة السيف أو حرقها. لقد سمعت بذلك، في حياتي". تردّد، مـدركاً أن هـو سا يتكلم خلفه وأن الخان ربما لم يكن مهتماً بمثل تلك الأعمال. رفع شـن يـي يـداً لإيقـاف جـندي كزي كزيا الذي التزم الصمت. لقد تم إنقاذ باوتو، بالمحصلة.

قيّم جنكيز الرجل الذي يواجهه، مفتوناً به. كان قد جعل القبائل تعتنق فكرة الأمة بالقوة، لكن رجالاً مثل شن يي لم يكونوا يؤمنون بها، ليس بعد. ربما كانت كل مدينة تخـضع لحكم الإمبراطور، لكن سكانها لم يكونوا ينظرون إليه كقائد لهم، أو يشعرون بـأنهم جزء من عائلته. كان من الواضح أن النبلاء استمدوا سلطتهم من الإمبراطور. كـان من الواضح أيضاً أن شن يي يكرههم لغطرستهم، وثروتهم، وسلطتهم. يمكن أن تكون المعرفة مفيدة.

قـال: "لقـد اختبرت نظرتهم لقومي يا شن يي. لقد أصبحنا أمة لمقاومتهم، لا، لسحقهم".

سـأل شـن يي، بعد أن سمع المرارة في نبرة صوته قبل أن يكبح نفسه: "وهل ستحكم عندها كما فعلوا؟". شعر بحرية خطيرة في الحديث إلى خان، كما أدرك. كان الانتبـاه والاحتـراس المعتادان في نبرة صوته واضحين تحت تلك النظرة الصفراء. لارتياحه، ضحك جنكيز بصوت خافت.

"لـم أفكّـر فـي مـا سـيحدث بعد المعارك. ربما سأحكم. أليس ذلك حقًّا للمنتصر؟".

سـحب شـن يـي نفـساً عميقاً قبل أن يرد. "أن تحكم، نعم، لكن هل سيمشي محاربوك الأدنى مرتبة مثل إمبراطور بين أولئك الذين هزمتهم؟ هل سيسخرون منهم ويأخذون كل ما ليس من حقهم؟".

حـدّق إلـيه جنكيز. "النبلاء عائلة الإمبراطور؟ إذا كنت تسأل إن كانت عائلتي ستأخذ ما تريده، بالطبع ستفعل ذلك. القوي يحكم يا شن يي. أولئك الذين ليسوا أقوياء يحلمـون بالأمر". توقف قليلاً، محاولاً استيعاب ما يحدث. سأل: "هل تريد مني تقييد قومي بقوانين ثانوية؟".

سحب شن يي نفساً عميقاً آخر. كان قد أمضى حياته مع الجواسيس والأكاذيب، يكافح حتى لا يأتي يوم يقوم به جيش الإمبراطور بإخراجه بالنار والدم من المدينة. لم يكن ذلك اليوم قد جاء. بدلاً من ذلك، وجد نفسه يواجه شخصاً يمكنه أن يتحدث أمامه من دون أي قيد. لم يكن ليحظى مجدداً بمثل تلك الفرصة أبداً.

"أفهم ما كنت قد قلته، لكن هل سينتقل ذلك الحق إلى أبنائهم وأحفادهم بعد ذلك؟ عـندما يقتل واهن قاسٍ فتى بعد مئة سنة من الآن، ألن يجرؤ أحد على الاحتجاج لأن دماءك تسري في عروقه؟".

بقي جنكيز ساكناً من دون حراك. بعد وقت طويل، هزّ رأسه.

"لا أعرف نبلاء تشن هؤلاء، لكن أبنائي سيحكمون من بعدي، إذا كانوا يتمتعون بالقـوة. ربمـا بعد مئة سنة، سيكون أحفادي لا يزالون في الحكم وقد أصبحوا هؤلاء النبلاء الذين تزدريهم". هزّ كتفيه استخفافاً، وأفرغ كوبه في فمه.

تابـع قـائلاً: "معظـم الرجال مثل الأغنام. إنهم ليسوا مثلنا". كان قد أطاح برد شـن يي. "هل تشك بذلك؟ كم عدد الأشخاص في هذه المدينة الذين لديهم مثل نفوذك، سـلطتك، حتى قبل أن أصل؟ لا يمكن لمعظم الناس تولي القيادة؛ إن الفكرة ترعبهم. على الرغم من ذلك، بالنسبة لأشخاص مثلك ومثلي، لا توجد متعة أكبر من معرفة أنه لا تـوجد مساعدة قادمة. القرار ملكنا وحدنا". أشار بعنف بكوبه. فضّ شن يي الختم الشمعي لقارورة أخرى وسكب الشراب مرة أخرى.

أطبق صمت متكلف على المكان. لدهشة كلا الرجلين، كان هو سا من تكلم.

قـال: "لـدي أبـناء. لـم أرَهم منذ ثلاث سنوات. عندما يكبرون، سيلحقون بي إلى الجـيش. عندما يسمع الرجال أنهم أبنائي، سيتوقعون الكثير منهم. سيكون ارتقاؤهم أسرع من رجال ليسوا معروفين. أنا قانع بذلك، وأعمل بجد وأتحمل أي شيء لتحقيقه".

قـــال شـــن بي: "لن يكونوا نبلاء أبداً، هؤلاء الجنود من صلبك. سيأمر فتى من طبقة راقية بإلقائهم في النار فقط ليحافظ على قدر مثل التي كسرتها الليلة".

تقطـب حاجـبا جنكيـز، منـزعجاً مــن الــصورة. "هل كل الرجال سواسية لديك؟".

هـزّ شـــن بي كتفيه من دون مبالاة. كانت أفكاره تدور بفعل الشراب ولم يكن يعرف أنه يتكلم بلغة تشن.

"لـست أحمـق. أعرف أن لا قانون يحكم الإمبراطور، أو عائلته. كل القوانين تـصدر عــنه والجــيش الذي يديره. لا يمكنه أن يخضع للقوانين مثل رجال آخرين. بالنـسبة إلى باقي الناس، لآلاف الطفيليين الذين يتغذون من يده، لماذا سيُسمح لهم أن يقتلوا ويسرقوا من دون عقاب؟". أفرغ كوبه في فمه بينما كان هو سا يترجم ما قاله، ويومئ برأسه كما لو أن الجندي يتكلم موافقاً على ذلك.

تمطّى جنكيز، متمنياً للمرة الأولى أن يكون تيموج هناك ليجادل في تلك المسألة نـيابة عنه. كانت نيته التكلم إلى شن بي وفهم السلالة الغريبة التي عاشت في المدينة. بدلاً من ذلك، جعل الرجل القصير رأسه يدور.

قـال جنكيز: "إذا أراد أحد المحاربين الزواج، يعثر على عدو ويقتله، ويستولي علـى كل ما يملكه. يمنح الجياد والماعز لوالد الفتاة. هل تلك جريمة قتل وسرقة؟ إذا مـنعت ذلك، سأجعلهم ضعفاء". كان رأسه يدور من الشراب، لكن مزاجه كان جيداً، ومرة أخرى ملأ الأكواب الثلاثة.

سأل شن بي: "هل يأخذ هذا المحارب من عائلته، ومن قبيلته؟".

قـال جنكيـز: "لا. سيكون مجرماً، ويزدريه الجميع إن فعل ذلك". حتى قبل أن يتكلم شن بي مجدداً، رأى إلى أين يريد الرجل القصير الوصول.

قـال شـــن بي وهو ينحني إلى الأمام: "إذاً، ماذا عن قبائلك الآن بعد أن اتحدت معاً؟ ماذا ستفعل إن أصبحت كل أراضي تشن لكم".

كانـت تلـك فكرة أصابته بالدوار. كان صحيحاً أن جنكيز قد منع آنذاك شباب القـبائل من مقاتلة بعضهم، وقدم بدلاً من ذلك هدايا زواج من قطيعه الخاص. لم يكن ذلـك حـلاً يستمر وقتاً طويلاً. ما كان شن بي يقترحه هو مجرد توسعة لذلك السلام، على الرغم من أنه سيتضمن أراضيَ يصعب تخيل اتساعها.

قـال بكلمات بطيئة: "سأفكر بالأمر. تستحق مثل هذه الأفكار الغنية إمعان النظر فـيها خلال أكثر من جلسة واحدة". ابتسم. "خاصة أن إمبراطور تشن يجلس بأمان في مدينته ونحن قد انطلقنا للتو. ربما سأكون السنة القادمة عظاماً مبعثرة".

قـال شن يي: "أو ستكون قد سحقت النبلاء في قلاعهم ومدنهم، وحظيت بفرصة لتغيير كل شيء. أنت رجل صاحب رؤية. لقد أظهرت ذلك عندما استثنيت باوتو".

هزّ جنكيز رأسه وقد تشوش بصره. "كلمتي حديد. عندما يضيع كل شيء آخر، تبقى على حالها. لكن لو أنني لم استثنِ باوتو، لكانت مجرد مدينة أخرى".

رد شن يي: "لا أفهم".

أدار جنكيـز بصره الحاد إليه مجدداً. "لن تستسلم المدن إذا لم يكن في ذلك فائدة لها". رفع قبضة شدّ عليها بقوة وثبتت نظرة شن يي عليها. "الآن، أهدد بإراقة الدماء، بـشكل أسـوأ من أي شيء يمكنهم تخيله. حالما أنصب الخيمة الحمراء، يعرفون أنهم سيخـسرون كـل رجل ضمن الأسوار. عندما يرون السوداء، يعرفون أنهم سيموتون جمـيعاً". هزّ رأسه. "إن كان الموت هو كل ما أقدمه، لن يكون لديهم خيار سوى أن يقاتلـوا حتـى آخر رجل". أنزل قبضته ومدّ يده مجدداً طلباً لكوب جديد ملأه شن يي بيدين مرتعشتين.

"إذا استثنيت مدينة واحدة فقط، سينتشر النبأ بأنهم ليسوا *بحاجة* للقتال. يمكنهم أن يخـتاروا الاستسلام عندما ترتفع الخيمة البيضاء. لهذا السبب استثنيت باوتو، ولهذا لا تزالون أحياء".

تذكر جنكيز السبب الآخر الذي دعاه لعقد لقاء مع شن يي. بدا أن ذهنه قد أضاع سرعة بديهته المعتادة وفكّر ربما بأنه ما كان ينبغي عليه أن يشرب كثيراً.

"هل لديك خرائط في هذه المدينة؟ خرائط للأراضي إلى الشرق من هنا؟".

شـعر شـن يي بالذهول مما كان قد رآه. كان الرجل الذي يواجهه فاتحاً لن يـوقفه نـبلاء تشن الضعفاء وجيوشهم الفاسدة. ارتعش فجأة، ورأى مستقبلاً مليئاً بألسنة اللهب.

قال القيس: "هناك مكتبة؟ لقد كانت ممنوعة علي حتى الآن. لا أعتقد أن الجنود دمروها قبل أن يرحلوا".

رد جنكيـز: "أريـد خـرائط. هـل ستبحث عنها من أجلي؟ هل ستساعدني في التخطيط لتدمير إمبراطورك؟".

كـان شـن يي قد جاراه في الشرب كوباً بكوب وكانت أفكاره تدور بسرعة في رأسه. فكّر في ابنه الميت، الذي شنقه نبلاء لم يكونوا حتى لينظروا بعين العطف إلى رجل من أصل وضيع. ليتغير العالم، كما فكّر. ليحترقوا جميعاً.

"إنـه لـيس إمبـراطوري يا مولاي. كل ما في هذه المدينة لك. سأبذل قصارى جهدي. إذا أردت كتّاباً لسن قوانين جديدة، سأرسلهم إليك".

أومأ جنكيز ثملاً. رد ساخراً: "كتابة. إنها مكيدة الكلمات".
"إنها تجعلها حقيقية يا مولاي. تجعلها دائمة".

في الصباح التالي لاجتماعه مع شن يي، استيقظ جنكيز وهو يشعر بصداع سيّئ جـداً لدرجة أنه لم يغادر خيمته طيلة اليوم إلا لِماماً. لم يتذكر الكثير بعد الانتهاء من القـارورة السادسة، لكن كلمات شن يي رنت في ذهنه بين الحين والآخر وناقشها مع كشيون وتيموج. لم يكن شعبه قد عرف سوى حكم الخان، وكانت كل العدالة تنبثق من حكـم رجـل واحد. نظراً إلى ما آلت إليه الأمور آنذاك، كان جنكيز يقضي كل يوم يفصل في النزاعات ويعاقب المجرمين في القبائل. كان ذلك كثيراً جداً بالنسبة إليه، إلا أنـه لم يكن يستطيع السماح للقادة الأدنى منه استئناف أدوارهم، أو المخاطرة بخسارة كل شيء.

عندما أصدر جنكيز الأمر بالتحرك أخيراً، كان من الغريب أن يتركوا مدينة من دون رؤيــة ألسنة اللهب في الأفق خلفهم. كان شن يي قد زوّده بخرائط لأراضي تشن علــى طول الطريق إلى البحر الشرقي، وكانت أثمن من أي شيء ظفروا به من قبل. على الرغم من أن شن يي بقي في باوتو، إلا أن البنّاء ليان كان قد وافق على مرافقة جنكيــز إلى ينكينغ. بدا أن ليان يعتبر أسوار مدينة الإمبراطور تحدياً شخصياً لمهارته وكان قد جاء إلى جنكيز ليقدم عرضاً قبل أن يطلب أحد منه ذلك. لم يكن ابنه قد أهمل عمله في أثناء غيابه وفكّر جنكيز أنه كان سيختار بين المضي قدماً مع جيش الغزو أو الاستقرار لتقاعد هادئ.

اســتمرت الــرحلة العظــيمة في أراضي تشن، وكانت الكتلة الرئيسية للعربات والخيام تتحرك ببطء، لكنها محاطة دائماً بعشرات أو آلاف الفرسان الذين يبحثون عن أدنــى فرصة للفوز بمديح قادتهم. كان جنكيز قد سمح للمراسلين بالسفر من باوتو إلى مــدن أخــرى علــى طريقهم إلى الجبال غرب ينكينغ وسرعان ما أتى القرار. كان الإمبراطور قد سحب الحامية من هوهت، ومن دون الجنود للشدّ من أزرها، استسلمت المدينة من دون إطلاق سهم واحد، ثم قدّمت ألفي شاب ليتم تدريبهم على فن الحصار واســتعمال الرماح. كان شن يي قد أظهر قيمة ذلك بطريقته الخاصة، وانتقى الأفضل فــي مدينته لمرافقة المغول وتعلم مهارات القتال. كان صحيحاً أنه لم تكن لديهم جياد، لكن جنكيز منحهم كمشاة لأرسلان وقبلوا الانضباط الجديد من دون نقاش.

كانــت حامــية جينيــنغ قد رفضت الانصياع لأمر الإمبراطور وبقيت البوابات مغلقــة. تم حرقها عن آخرها بعد نصب الخيمة السوداء في اليوم الثالث. كانت ثلاث

مـــدن أخـــرى قد استسلمت بعد ذلك. تم أسر الشباب والأقوياء، وسوقهم مثل الأغنام. كان هناك ببساطة الكثيرون للاستفادة منهم كجنود من دون أن يفوقوا القبائل عدداً. لم يكـــن جنكيز يريدهم، لكنه لم يكن يستطيع ترك الكثيرين خلفه. كان قومه يقود نصف عـــدده مـــن الأســـرى مجدداً عبر الأرض، وكل يوم كانت هناك جثث خلفهم. عندما أصـــبحت الليالـــي أكثـــر برودة، تجمهر أسرى تشن وتهامسوا بهمهمة مستمرة كانت غريبة في الظلام.

كان واحداً من أحرّ فصول الصيف التي عرفها أي منهم. قال الشيوخ إن الشتاء التالـــي ســـيكون بارداً للغاية ولم يكن جنكيز يعرف ما إذا كان عليه المضي قدماً نحو العاصمة أو ترك الحملة لسنة أخرى.

كانـــت الجـــبال أمـــام ينكينغ قد ظهرت للعيان آنذاك وكان مستطلعوه يلاحقون مراقبـــي الإمبراطور كلما ظهروا في الأفق. على الرغم من أن جيادهم كانت سريعة، إلا أنه تم إلقاء القبض على بعض مراقبي تشن وأضاف كل منهم تفصيلاً للصورة التي كان جنكيز يبنيها.

في صبيحة أحد الأيام التي كانت فيها الأرض متجمدة في الليل، جلس على كومة من السروج الخشبية وحدّق إلى الشمس الواهنة التي كانت قد ارتفعت فوق سلسلة من الصخور الخضراء الشاهقة التي تحمي ينكينغ منها، وكان الضباب يحجبها. أطول من القمـــم بـــين غوبي وكزي كزيا، كانت تجعل حتى الجبال التي يتذكرها من وطنه تبدو أقـــل إثارة للاهتمام. على الرغم من ذلك، تكلم المراقبون الذين تم إلقاء القبض عليهم فـــي الممر المعروف باسم بادغر وشعر بأنه يتم سحبه إليه. كان الإمبراطور قد جمع قـــوته هـــناك، معـــتمداً على جيش واحد يبدو ضخماً أمام الجيش الذي كان جنكيز قد أحضره إلى ذلك المكان. يمكن أن ينتهي كل شيء هناك وتصبح كل أحلامه رماداً.

ضـــحك بـــصوت خافت لنفسه من تلك الفكرة. مهما كان الذي يحمله المستقبل، فـــسيلاقيه برأس مرفوع وسيف مشهور. سيكافح حتى النهاية، وإذا سقط أمام أعدائه، ســـيكون قـــد قـــضى حياة جيدة. كان جزء منه يشعر بالغصة من فكرة أن أبناءه لن يعيشوا طويلاً بعد موته، لكنه نفض عن كاهله الضعف. سيعيشون حياتهم الخاصة بهم كمـــا فعـــل هـــو. إذا اجتاحـــتهم رياح أحداث كبيرة، سيكون ذلك قدرهم. لن يستطيع حمايتهم من كل شيء.

فـــي الخيمة خلفه، سمع أحد أولاد تشاكاهي يصرخ. لم يستطع تحديد ما إذا كان الابن أم الابنة. أشرق وجهه عندما فكر بالفتاة الصغيرة التي على الرغم من أنها كانت قـــد بدأت تخطو خطواتها الأولى للتو، إلا أنها كانت تدفع برأسها بحنان في ساقه كلما

رأته. كان قد رأى غيرة كبيرة في بورت عندما شاهدت ذلك الفعل البسيط وتنهد عندما تذكـر الأمـر. كان فتح مدن العدو أقل تعقيداً بكثير من النساء في حياته، أو الأولاد الذين أنجبنهم له.

مـن طرف عينه، شاهد شقيقه كشيون يقترب، يمشي بخطوات واسعة على أحد دروب المعسكر في شمس الصباح.

نـاداه كشيون: "هل هربت إلى هنا؟". أومأ جنكيز برأسه، وربت على مكان إلى جانبه على السروج. انضم إليه كشيون وسلّم جنكيز إحدى شطيرتين ساخنتين من لحم الـضأن وخبـز الفطير المشبع بالدهن الدافئ. تناول جنكيز شطيرته ممتناً. كان يشم رائحة الثلج في الهواء وتاق لشهور البرد القادمة.

سـأل جنكيـز، وهو يقتطع جزءاً من الخبز بأصابعه ويمضغه: "هل أتى خاسار هذا الصباح؟".

"إنه في الخارج مع هو سا والذئاب الفتية، يعلّمهم كيفية تنفيذ هجوم ضد مجموعة من الأسرى. هل رأيت ذلك؟ منح الأسرى رماحاً! خسرنا ثلاثة شباب أمس ضدهم".

قال جنكيز: "سمعت". كان خاسار يستفيد من مجموعات صغيرة فقط من الأسرى للـتدريب. أدهـش جنكيز أن عدد الراغبين بالاشتراك كان قليلاً جداً، حتى مع الوعد بمـنح كـل مـنهم رمحـاً أو سيفاً. بالتأكيد كان من الأفضل لهم أن يلقوا حتفهم بتلك الطـريقة بدلاً من عدم المبالاة والكسل. هزّ كتفيه استخفافاً من تلك الفكرة. كان ينبغي تعلـيم شباب القبائل القتال، كما كانوا قد فعلوا ذات مرة ضد أبناء جنسهم. كان جنكيز شبه واثق من أن خاسار يعرف ما يقوم به.

كان كشيون يراقبه بصمت، وابتسامة ساخرة على وجهه.

قال: "لم تسأل أبداً عن تيموج".

كشّر جنكيز. كان شقيقه الأصغر مصدر قلق بالنسبة إليه، وبدا أن علاقة خاسار بـه سـيئة. فـي الحقيقة، لم يكن يستطيع جعل نفسه يهتم بشأن تعصب تيموج الديني الأخيـر. كان قد أحاط نفسه برقع تشن التي تم الاستيلاء عليها، وينكبّ على قراءتها حتى على ضوء المصباح في الظلام.

طرح كشيون سؤالاً ليغير الموضوع: "إذاً، لماذا تجلس هنا؟".

تأفف شقيقه. "هل ترى الرجلين اللذين ينتظران بالقرب من هنا؟".

اعترف كشيون: "عرفت أحد أبناء ويلاء البكر". لم تكن عيناه الحادتان تفوّتان شيئاً.

"كـنت قد طلبت منهما عدم الاقتراب مني حتى أقف. عندما أفعل ذلك، سيأتيان مـع أسـئلة ومطالـب، كمـا يفعلان كل صباح. سيجعلانني أقرر أي منهما له الحق

بامـتلاك مطـية خاصة، لأن أحدهما يمتلك الفرس والآخر الجواد. ثم سيرغبان بأن أصدر أمراً لأحد الحدّادين الذي يصادف أن يكون قريباً لهما بصنع درع جديد. ليست هناك نهاية لهذا".

تأوه من الفكرة. "ربما تستطيع تأخيرهما بما يكفي لأبتعد من هنا".

ابتسم كشيون من ورطة شقيقه.

قـال: "وأنا الذي كنت أعتقد ألا شيء يخيفك. عيّن شخصاً آخر للتعامل معهما. ينبغي أن تكون خالي الذهن للتخطيط للحرب مع القادة".

أومأ جنكيز برأسه، ممتعضاً.

"لقـد قلت ذلك من قبل، لكن بمن أستطيع أن أثق في مثل هذا الوضع؟ ينبغي أن يتمتع بالقوة مثل أي رجل في القبائل". خطر جواب لكليهما في الوقت نفسه، لكن كان كشيون من تكلم.

"سيكون تشريفاً لتيموج أن يتولى المهمة. تعرف أنه سيفعل ذلك".

لم يرد جنكيز، وتابع كشيون كما لو أنه شعر بعدم وجود معارضة.

"يـبدو مـن غير المحتمل أن يسرق منك مثل رجال آخرين، أو يسيء استعمال المنصب. امنحه لقباً مثل *سيد التجارة*. سيدير المعسكر خلال بضعة أيام". عندما رأى أن شقيقه لم يتأثر، اختار كشيون منهجاً مختلفاً.

"قد يرغمه ذلك أيضاً على قضاء وقت أقل مع كوكشو".

رفـع جنكيز بصره عند ذلك، ورأى أن الرجلين اللذين ينتظران قد تقدما خطوة إلى الأمـام تحـسباً لنهوضه. فكّر في الحديث الذي كان قد أجراه مع شن بي في باوتو. كان جزء منه يريد أن يتخذ كل قرار بنفسه، لكن كان صحيحاً أن لديه حرباً ينتصر فيها.

قـال متـردداً: "حسنٌ جداً. قل له إن المهمة له لسنة. سأرسل له ثلاثة محاربين تعرضوا للتشويه في المعارك من أجل ذلك العمل. سأمنحهم شيئاً يقومون به وأريد أن يكـون أحـدهم رجلك يا كشيون، ويقدم تقاريرَ لك فقط. سيحظى شقيقنا بفرص عديدة ليحـصل على القشدة من كل شيء يمر بين يديه. لن يضر القليل، لكن إذا كان جشعاً، أريـد أن أعرف". توقف عن الكلام لحظة. "وتأكد أن يفهم أن كوكشو لا علاقة له أبداً بدوره الجديد". تنهد عندها. "إذا رفض، من يوجد غيره؟".

قـال كـشيون بكـل ثقة: "لن يرفض. إنه رجل أفكار يا شقيقي. سيمنحه الدور السلطة التي يريدها لإدارة المعسكر".

قال جنكيز وهو ينظر إلى بعيد: "لدى تشن قضاة لإقرار قوانين وفض النزاعات. أتساءل إن كان شعبنا سيقبل بمثل هؤلاء الرجال بينهم؟".

ســأل كشيون: "إذا لم يكونوا من عائلتك؟ سيكون رجلاً شجاعاً إن حاول تسوية نــزاعات دموية، بغض النظر عن اللقب الذي يحمله. في الواقع، سأرسل اثني عشر حارساً آخر إلى تيموج للحفاظ على سلامته. شعبنا ليس بعيداً عن إظهار استيائه بسهم في الظهر. إنه ليس خانهم، بالمحصلة".

تأفف جنكيز. "لا شك أنه سيجعل أرواحه الداكنة تنتزعه في الهواء. هل سمعت بالقــصص التي تكبر من حوله؟ إنها أسوأ من تلك التي تخص كوكشو. أتساءل أحياناً إن كان كاهني العرّاف يعرف ما قد صنعت يداه".

"نحن من سلالة خانات يا شقيقي. نحكم أينما كنا".

ربّــت جنكيــز علــى ظهره. "سنكتشف إن كان إمبراطور تشن يشعر بالطريقة نفسها. ربما سيجعل جيشه يستسلم عندما يرانا قادمين".

"هــل ســيكون ذلك هذه السنة إذاً؟ في الشتاء؟ أعتقد أن الثلج سيتساقط عما قريب".

"لا يمكننا البقاء هنا من دون مراعٍ أفضل. ينبغي أن أتخذ القرار بسرعة، لكنني لا أحــب فكــرة تــرك جيشهم عند معبر بادغر من دون تحدٍّ. يمكننا أن نتحمل برداً يجعلهم بطيئين وعديمي الفائدة".

قــال كــشيون: "لكنهم سيكونون قد حصّنوا الممر، غرسوا الرماح في الأرض، حفروا الأنفاق، وأي شيء يمكنهم التفكير فيه. لن يكون الأمر سهلاً علينا".

نظــر جنكيز بعينيه الشاحبتين إلى شقيقه، وأشاح كشيون بصره بعيداً إلى الجبال التي سيحاولون عبورها.

قال جنكيز: "إنهم متغطرسون جداً يا كشيون. لقد اقترفوا خطأً عندما سمحوا لي بمعــرفة مكــانهم. يريدون أن نهاجمهم في مكمن قوتهم، حيث ينتظروننا. لم يوقفني سورهم، ولن توقفني جبالهم وجيشهم".

ابتــسم كــشيون. كــان يعرف الطريقة التي يفكر فيها شقيقه. "أرى أنك أرسلت المستطلعين كلّهم إلى سفوح الجبال. هذا غريب إذا كنا سنخاطر بكل شيء لشن هجوم عبر الممر".

ابتسم جنكيز بشكل غريب. "يعتقدون أن جبالهم عالية جداً بحيث لا يمكن تسلقها يا كشيون. يمر أحد أسوارهم الأخرى عبر السلسلة الجبلية وحدها القمم العالية تؤمن الحمايــة لهــم، وارتفاعها شاهق بالنسبة إلى الرجال". تأفف. "بالنسبة إلى جنود تشن، ربما، لكننا ولدنا في الثلج. أتذكر أن والدي أخرجني من الخيمة عارياً عندما كنت في الثامنة من عمري. يمكننا تحمّل الشتاء وعبور السور الداخلي".

كان كشيون قد انتحب أيضاً عند باب خيمة والدهما، وصرخ مطالباً بإعادته إلى الداخل. كانت عادة قديمة يعتقد الكثيرون أنها تجعل الأولاد أقوياء. تساءل كشيون إن كـــان جنكيـــز قد فعل الشيء نفسه مع أبنائه، وفيما كان يقلب الفكرة، عرف أنه فعل ذلك. لم يكن شقيقه ليتسامح مع الضعف، على الرغم من أنه قد يحطم أبناءه في عملية جعلهم أقوياء.

أنهى جنكيز وجبته، ولعق الدهن اليابس بين أصابعه. "سيجد المستطلعون دروباً حـــول الممـــر. عندما يكون أفراد تشن يرتعشون في خيامهم، سننقض عليهم من كل الاتجاهات. عندها فقط يا كشيون، سأهجم على ممر بادغر وأدفع شعبهم أمامي".

سأل كشيون: "الأسرى؟".

رد جنكيـــز: "لا يمكننا إطعامهم. يمكن أن يقدموا لنا خدمة إذا تلقوا سهام ورماح أعدائنا". هزّ كتفيه استخفافاً. "سيكون ذلك أسرع بالنسبة إليهم من التضور جوعاً حتى الموت".

عـــند ذلك، نهض جنكيز على قدميه، ونظر إلى الغيوم الكثيفة التي ستحول سهل تـــشن إلى قفرٍ من الثلج والجليد. لطالما كان الشتاء وقتاً للموت، عندما لا ينجو سوى الأقـــوى. تـــنهد عـــندما شاهد حركة من طرف عينه. كان الرجلان اللذان يراقبانه قد شاهداه ينهض وأسرعا بالاقتراب منه قبل أن يغير رأيه. حدّق جنكيز إليهما بكراهية.

قال وهو يخطو مبتعداً: "قل لهما أن يذهبا لرؤية تيموج".

# الفصل العشرون



كان المستطلعان يتضوران جوعاً. كانت حتى عصيدة الجبن والماء في أمتعتهما قـد تجمدت عندما تسلقا عالياً فوق ممر بادغر. إلى الشمال والجنوب، كان سور تشن الثانـي يمـر عبـر الجبال. كان أقل ضخامة من السور الذي اجتازته القبائل لدخول أراضي تشن، على الرغم من أن هذا السور لم يُترك ليتداعى بمرور القرون. محفوظاً بالجلـيد، كان يشق طريقه عبر أودية بعيدة، مثل أفعى رمادية في منطقة بيضاء. ربما كان يبدو ذات مرة معجزة للمستطلعين المغول، إلا أنهم يهزّون الآن أكتافهم استخفافاً به. لم تكن جيوش تشن قد عملت على بناء سورها على قمم الجبال تماماً. كانت تعتقد أنه لن يستطيع أحد النجاة من الصخور والمنحدرات الشاهقة للجليد الصلب، وأن البرد الـشديد علـى ذلك الارتفاع سيجعل الدم يتجمد في العروق بالتأكيد. كانوا مخطئين. اجـتاز المستطلعان مستوى الجدار إلى عالم من الثلج والجليد، يبحثان عن طريق عبر الجبال.

كانـت ثلـوج جديدة قد تساقطت على السهول، ونزلت من سحب عاصفة على القمـم التـي تكللهـا. كانت هناك لحظات تحفر فيها الرياح الهوجاء ثقباً في الغطاء الأبيض، وتكشف الممر والأعمدة التي تشبه قوائم العنكبوت للسور الداخلي الذي يمتد بعـيداً. مـن ذلك الارتفاع، رأى كلا الرّجلين الكتلة الداكنة لجيش تشن على الطرف الآخـر البعـيد. لم يكونا يستطيعان رؤية قومهما في السهل، لكنهم كانوا هناك أيضاً، ينتظرون عودة المستطلعين.

صـرخ تاران لإسماع صوته في الرياح: "ليس هناك طريق للتقدم. ربما حالف بيـراخ والآخـرين حظ أفضل. ينبغي أن نعود أدراجنا". كان تاران يشعر بالجليد في عظامـه، والبرد الشديد ينهش كل مفصل فيه. كان واثقاً أنه قريب من الموت، وكان من الصعب عدم إظهار خوفه. بالكاد تأفف مرافقه فيساك من دون أن ينظر إليه. كان كلاهمـا جزءًا من مجموعة تتألّف من عشرة أشخاص، وهي إحدى مجموعات عديدة

كانــت قــد خــرجت إلى الجبال للعثور على طريق لمهاجمة مؤخر جيش تشن. على الــرغم مــن أنهما قد انفصلا عن زملائهما في الليل، إلا أن تاران كان لا يزال يثق بفيساك لاكتشاف مسلك، لكن البرد كان يشلّه، وكان أقسى من أن تتم مقاومته.

كان فيساك رجلاً قد تجاوز الثلاثين من العمر، فيما لم يكن تاران قد بلغ الخامسة عشرة من عمره بعد. قال الرجال الآخرون في مجموعته أن فيساك يعرف قائد الذئاب الفتــية، وأنه يحيي تسوبودي مثل صديق قديم كلما التقيا. ربما كان ذلك صحيحاً. مثل تــسوبودي، كان فيساك من قبيلة يوريانخي البعيدة في الشمال وكان يبدو أنه لا يشعر بالبــرد. نزل تاران عن منحدر جليدي، وكاد يقع. ثبّت نفسه بغرس سكينه في صدع، وكــادت يــده تنزلق عن القبضة عندما اهتز ليقف. شعر بيد فيساك على كتفه، ثم بدأ الرجل الأكبر سناً يهرول مجدداً وترنح تاران خلفه محاولاً اللحاق به.

كــان الفتى المغولي ضائعاً في عالمه الخاص من البؤس والاحتمال عندما رأى فيساك يتوقف أمامه. كانا يتبعان مسار سلسلة صخور شرقية، زلقة وخطيرة جداً وكان فيــساك قــد استعمل حبلاً ليربط نفسه بتاران حتى يستطيع أحدهما إنقاذ الآخر. وحده الحــبل المــشدود إلى خصره أنقذ تاران من الخلود إلى النوم، وعندما تابع سيره قطع خمــس خطــوات قبل حتى أن يدرك أن فيساك قد جثم في مكانه. ربض تاران على الأرض وأطلــق أنيناً مكبوتاً، وسقط الجليد عن ردائه بقطع حادة. كان يضع في يديه قفــازين مــصنوعين من جلد الأغنام، لكن أصابعه كانت على الرغم من ذلك متجمدة عــندما مــلأ فمــه بالثلج ومصّه. كان العطش شيئاً يتذكره من المحاولات السابقة في القمــم. مرة تجمّد الماء في قارورته، ولم يكن هناك شيء سوى الثلج لتذويبه. لم يكن كافياً أبداً لإرواء عطشه الشديد.

عــندما ربض في مكانه، تساءل كيف تمكّنت الجياد من النجاة في الوطن، عندما كانــت الأنهــار تتحول إلى جليد. كان قد رآها تجثم على الثلج وبدا ذلك كافياً بالنسبة إلــيها. مــصاباً بالدوار والإرهاق، فتح فمه ليسأل فيساك. ألقى المستطلع الأكبر سناً نظرة عليه وأشار له بأن يصمت.

شــعر تاران بحواسه تتنبه، وبدأ خفقان قلبه يزداد. كانا قد اقتربا من مستطلعي تــشن من قبل. كان قائد الجيش في الممر يرسلهم رغماً عنهم للمراقبة وتقديم تقارير لــه. بعد أن جعلت العاصفة الرؤية على بعد أكثر من بضع خطوات صعبة، أضحت المــرتفعات ســاحة تــنافس قاتل بين القوتين. كان شقيق تاران الأكبر قد تعثر بأحد هــؤلاء، وكــاد يسقط على الرجل. تذكر تاران الأذن التي كان شقيقه قد أعادها معه كغبطة وإثبات على ذلك. تساءل إن كان سيحظى بفرصة ليعيد تذكاراً خاصاً به ويقف

شــامخ الــرأس بين المحاربين الآخرين. كان أقل من الثلث قد قتلوا أعداءً لهم وكان معــروفاً أن تــسوبودي يختار ضباطه من بين ذلك العدد وليس أولئك الذين لم تتضح شــجاعتهم. لم يكن لدى تاران سيف أو قوس، لكن سكينه كانت حادة وفرك معصميه الخدرين لتسكينهما.

كانــت ركبتاه تؤلمانه، لكنه زحف حتى أضحى قريباً من فيساك، وكانت الريح العاصــفة تخفــي صوت أي حركة. نظر إلى الأرض البيضاء، باحثاً عمّا رآه الرجل الأكبر سناً. كان فيساك مثل تمثال وحاول تاران تقليد سكونه، على الرغم من أن البرد تسلل إليه من الأرض وكان يرتعش بشكل مستمر.

هــناك، تحرك شيء على الأرض البيضاء. كان مستطلعو تشن يرتدون ملابس باهــتة يمتــزج لونها مع الثلج، مما يجعلهم غير مرئيين تقريباً. تذكر تاران القصص التي كان يسردها رجال القبائل المسنّون بأن الجبال تخفي أكثر من مجرد رجال عندما تهــب العاصفة الثلجية. كان يأمل بأن تكون مجرد قصص خيالية لإخافته، لكنه أمسك ســكينه بإحكــام. مــن طرفه، رفع فيساك ذراعه، مشيراً نحو شيء ما. كان قد رأى الشكل أيضاً.

مهمــا كان، إلا أنه لم يتحرك مجدداً. انحنى فيساك مقترباً منه ليهمس في أذنه، وفــيما كان يفعل ذلك، رأى تاران شكل رجل ينهض وهو ينفض عنه كتلة من الثلج، وقوس في يديه.

كــان فيــساك حاضــر الــبديهة. رأى عيني تاران تتسعان وألقى بنفسه أرضاً، واســتدار بطريقة ما بينما كان يفعل ذلك. سمع تاران صوت انطلاق سهم من دون أن يراه، وفجأة كان هناك دم على الثلج وفيساك يصرخ غضباً وألماً. كان قد قيل له كيف يتــصرف ضــد قوس وعمل ذهنه بشكل حاد بينما كان يندفع إلى الأمام. لم يكن لديه سوى بضع دقات للقلب قبل أن يشد الرجل الوتر للخلف لإطلاق سهم آخر.

أســرع تاران على الأرض الشائكة التضاريس، والحبل الذي يربطه إلى فيساك يمــتد عبر الثلج في إثره. لم يكن لديه وقت ليقطعه. رأى أن مستطلع تشن يكافح مع سلاحه وألقى بنفسه عليه مما جعله يسقط أرضاً. طار القوس مبتعداً ووجد تاران نفسه عالقاً في صراع مع رجل أقوى منه.

تقــاتلا بصمت وهما يلهثان، وحيدين في البرد الشديد. كان تاران قد سقط على رأس الجندي وحاول يائساً الاستفادة من ذلك. ضربه بركبتيه ومرفقيه، وكانت يدا عدوه تمسكان بــيده التــي تحمــل ســكينه. كان تاران يحدّق في عيني الرجل عندما دفع رأسه بقوة إلى الأسفل على أنف عدوه، وشعر به ينكسر وسمعه يصرخ عالياً. كانت يدا الرجل لا تزالان

تمسكان بيده التي تحمل السكين وضرب برأسه مراراً وتكراراً، ودفع بجبينه في الوجه الدامي تحته. استطاع وضع يده الحرة تحت ذقن الرجل، ودفع بها على العنق المكشوف. ابتعدت القبضة التي كانت تمسك بمعصمه وأنشبت الأصابع مخالبها في عينيه، محاولة أن تسبب له العمى. رفع تاران رأسه وضرب برأسه إلى الأسفل من دون أن ينظر.

انتهى الأمر بسرعة مثلما بدأ. فتح تاران عينيه ليرى جندي تشن يحدّق بعينين انطفأ نورهما إلى الأعلى. كانت سكينه قد نزلت إلى الأسفل من دون حتى أن يشعر بها ولا تزال ظاهرة من رداء الرجل المطرّز بالفرو. استلقى تاران يلهث في الهواء العليل، غير قادر على التقاط أنفاسه. سمع فيساك ينادي وأدرك أن الصوت كان يصدر منذ بعض الوقت. كافح عندها حتى لا تبدو على وجهه أي تعبيرات، محاولاً استرجاع انضباطه. لن يشعر بالخجل أمام المحارب الأكبر سناً.

بهزّة واحدة، حرر تاران سكينه ودفع نفسه بعيداً عن الجثة. كان الحبل قد التفّ حول قدميه في القتال وخطا مبتعداً عنه، وركله بعيداً. نادى فيساك مجدداً، وكان الصوت أضعف من ذي قبل. لم يستطع تاران تحويل ناظريه عن الرجل الذي كان قد قتله، لكنه لم يتوقف عن التفكير. استغرق الأمر لحظات لينزع الرداء الثقيل عن الجندي، ويلفه حول نفسه. بدا الجسد أصغر من دون الرداء ووقف تاران يحدق إلى الأسفل إلى الدم السائل على الثلج، وكانت حلقة من قطيرات تشير إلى المكان الذي كان فيه الرأس. شعر بالدم يتجمد على جلده وحكّ وجهه بقوة، وشعر بالتقزّز فجأة. عندما نظر مجدداً إلى فيساك، كان مرافقه قد استطاع الجلوس وينظر إليه. أومأ تاران إلى الرجل الأكبر سناً، ثم مدّ يده ليبتر أذن ضحيته الأولى.

وضع القطعة المخيفة في جيبه، وترنح في مشيته عائداً نحو فيساك، وكان لا يزال يشعر بالدوار. كان البرد قد اختفى في أثناء القتال، لكنه عاد بقوة ووجد نفسه يرتعش، وأسنانه تصطك كلما فتح فكّه.

كان فيساك يلهث، ووجهه ينضح ألماً. كان السهم قد أصابه في جانبه تحت الأضلاع. رأى تاران النهاية السوداء للسهم تبرز منه، وقد بدأ الدم يتجمد آنذاك مثل شمع أحمر. مدّ ذراعه ليساعد فيساك على الوقوف على قدميه، لكن الرجل الأكبر سناً هزّ رأسه متعباً.

تمتم فيساك: "لا يمكنني الوقوف. دعني أجلس هنا وتابع طريقك".

هزّ تاران رأسه، رافضاً قبول ذلك. دفع فيساك ليقف على قدميه، على الرغم من أن وزنه كان ثقيلاً عليه. تأوه فيساك وسقط تاران معه، وانتهى به الأمر جاثياً على ركبتيه في الثلج.

قـال فيساك: "لا يمكنني المضي قدماً. دعني أموت. استطلع مسلك عودة الرجل بأفضل ما تستطيع. لقد جاء من الأعلى. هل تفهم؟ لا بد من وجود طريق هناك".

قال تاران: "يمكنني سحبك على رداء الجندي، مثل مزلاج". لم يصدّق أن صديقه كـان يستـسلم وبدأ وضع رداء الفرو على الثلج. كادت ساقاه تخذلانه عندما فعل ذلك وأسند نفسه على صخرة، منتظراً أن يستعيد قوته.

همـس فيـساك: "ينبغي أن تجد مسلك العودة أيها الفتى. لم يأتِ من جانبنا على الجـبال". كانـت أنفاسه تخرج على فترات تصبح أطول وجلس وعيناه مغلقتان. نظر تـاران خلف فيساك إلى حيث يستلقي الجندي مضرجاً بدمائه. جعلت الذكرى المفاجئة لمـا حـدث معدته تتقلص وانحنى على نفسه وتقيأ. لم يكن هناك شيء صلب ليخرج مـنه، علـى الرغم من أن شريطاً من سائل أصفر سميك اندلق من بين شفتيه ورسم خطـوطاً فـي الثلج. مسح فمه، غاضباً من نفسه. لم يكن فيساك قد شاهد ذلك. ألقى نظرة على مرافقه، وكان الثلج يغطي وجهه. هزّه تاران، لكنه لم يستجب. كان وحيداً والريح تعصف من حوله.

بعد وقت، نهض تاران مترنحاً وعاد إلى حيث كان جندي تشن يستلقي ساكناً من دون حـراك. للمـرة الأولى، نظر تاران إلى ما وراء الجثة وعادت القوة تسري في جـسده. قطـع الحبل بسكين، ثم مشى مترنحاً، تسلق بتهور وانزلق أكثر من مرة. لم يكـن هـناك درب، لكـن الأرض بدت صلبة بينما كان يمسك بقبضته الثلج ويتسلق المنحدر. كان ينشج كل شهيق في الهواء العليل عندما توقفت الريح ووجد نفسه بملاذ صخرة كبيرة من الغرانيت. كانت القمة لا تزال بعيدة إلى الأعلى، لكنه لم يكن بحاجة للوصـول إليها. أمامه، رأى حبلاً واحداً حيث كان الجندي قد تسلق إلى تلك المنطقة. لقـد كـان فيساك محقاً. كان هناك مسلك إلى الجانب الآخر ولم يكن السور الداخلي الثمين لتشن يوفر حماية أفضل من السور الخارجي.

وقـف تـاران خدراً في البرد، وأفكاره تتوارد ببطء. أخيراً، أومأ لنفسه ثم بدأ يمشي عائداً إلى حيث الرجلين الميتين. لن يفشل. كان تسوبودي ينتظر الأنباء.

خلفـه، كان الثلج يتساقط غزيراً، يُخفي الجثتين ويزيل كل آثار الصراع الدموي حتى غطّى كل شيء مرة أخرى.

لـم يكن المعسكر هادئاً في الثلج. كان قادة جنكيز يجعلون رجالهم يجولون فيه، يـتدربون علـى إجراء مناورات وفن الرماية، ويشدّون من عضدهم. كان المحاربون يغطّون أيديهم ووجوههم بطبقة سميكة من دهن الضأن ويتدربون لساعات على إطلاق

السهام وهم يقودون جيادهم بأقصى سرعتها على دمى مصنوعة من القش، بعيدة بعضها عن بعض عشر خطوات. كانت دمى القش المصنوعة على شكل رجال تهتزّ مرة تلو الأخرى ويجري الفتية ليسحبوا السهام منها، ويقدّروا الوقت اللازم لهم قبل أن يأتي الفارس التالي للتصويب عليها.

كانت أعداد السجناء الذين أسروهم من المدن لا تزال تُقدّر بالآلاف، على الرغم من ألعاب الحرب التي أرغمهم خاسار على خوضها. كانوا يجلسون أو يقفون معاً خارج الخيام. لم يكن يراقب الرجال الذين يتضورون جوعاً سوى عدد قليل من الرعيان، لكنهم لم يهربوا. في الأيام الأولى، كان البعض قد فرّ، لكن كل محارب في القبائل كان يستطيع تقفّي آثار غنمة ضائعة ولم يعيدوا معهم سوى رؤوس، وكانوا يرفعونها عالياً أمام حشد الأسرى كتحذير للآخرين.

كان الدخان يظهر فوق كل خيمة عندما يعمل موقدها، والنساء يطبخن الحيوانات المذبوحة ويحضّرن الشراب الأسود لتدفئة رجالهن. عندما يتدرب المحاربون، يأكلون ويشربون أكثر من المعتاد، ويحاولون إضافة طبقة من الدهن لإبعاد البرد. كان من الصعب بقاء تلك الطبقة مع بقاء الفرد اثنتي عشرة ساعة على السرج كل يوم، لكن جنكيز كان قد أصدر الأمر وتم ذبح حوالى ثُلث القطعان لسد جوع الرجال.

أحضر تسوبودي تاران إلى الخيمة الكبيرة حالما قدّم المستطلع الشاب تقريره. كان جنكيز هناك مع شقيقيه خاسار وكشيون وخرج عندما سمع تسوبودي يقترب. رأى الخان أن ذلك الفتى مع تسوبودي كان مرهقاً، يرتجف قليلاً من البرد. كانت هناك دوائر سوداء تحت عينيه وبدا كما لو أنه لم يأكل منذ أيام.

قال جنكيز: "تعال معي إلى خيمة زوجتي. ستضع لحماً ساخناً في معدتك ويمكننا أن نتكلم". أحنى تسوبودي رأسه وحاول تاران فعل الشيء نفسه، خائفاً من التكلم إلى الخان نفسه. هرول خلف الرجلين بينما كان تسوبودي يتكلم عن الممر الذي عثر عليه مع فيساك. فيما كانوا يتكلمون، ألقى الفتى نظرة على الجبال، وكان يعرف أن جثة فيساك المتجمدة هناك في مكان ما. ربما سيكشف ذوبان الثلج في الربيع جثته مرة أخرى. كان تاران يشعر ببرد شديد وحاول التفكير، وعندما أصبح بمنأى عن الريح، تناول وعاءً من اللحم المطبوخ بيدين خدرتين، ودفعه في فمه من دون ظهور أي تعبير على وجهه.

راقب جنكيز الشاب، معجباً بشهيته الكبيرة والطريقة التي ينظر بها إلى نسر الخان الجاثم على عموده. كان الطائر الأحمر مغطى الرأس، لكنه استدار نحو الوافد الجديد الشاب وبدا أنه يراقبه بالمقابل.

اهـتمت بـورت بالمستطلع، وأعادت ملء وعائه حالما أفرغه. منحته قربة من الشراب الأسود أيضاً، والذي جعله يسعل ويدمدم، ثم أومأ برأسه عندما توردت وجنتاه المتجمدتان مرة أخرى.

سأله جنكيز عندما فقدت عينا تاران نظرتهما المذهولة: "هل وجدت طريقاً للعبور؟".

"وجدها فيساك يا مولاي". بدا أن فكرة ما تشغل باله وتحسس جيبه بأصابع قوية، وأخرج شيئاً كان واضحاً أنها أذن. رفعها بفخر.

"قتلت جندياً هناك كان ينتظرنا".

أخذ جنكيز الأذن منه، وفحصها قبل أن يعيدها إليه.

قال بصبر: "لقد أبليت حسناً. هل يمكنك العثور على الطريق مجدداً؟".

أومأ تاران برأسه، وهو يقبض على الأذن وكأنها تعويذة. كانت أحداث كثيرة قد وقعـت خلال مدة وجيزة، وأصيب مرة أخرى بالقلق لأنه كان يتكلم مع الرجل الذي شكّل أمّة من القبائل. لن يصدق أصدقاؤه أبداً أنه قد التقى الخان نفسه، وكان تسوبودي يراقب مثل والد فخور بابنه.

"يمكنني ذلك يا مولاي".

ابتـسم جنكيـز، وهـو ينظـر بعيداً. أومأ إلى تسوبودي وهو يرى البهجة التي ظهرت على وجهه.

"اذهـب ونـم الآن أيهـا الفتى. استرح وتناول الطعام حتى تشبع، ثم نم مجدداً. ينبغي أن تكون قوياً لتقود إخوانك". ربت على كتف تاران الذي تمايل في مكانه.

قال تسوبودي: "كان فيساك رجلاً صالحاً يا مولاي. كنت أعرفه جيداً".

نظر جنكيز إلى المحارب الشاب الذي كان قد سلّمه قيادة عشرة آلاف من شعبه. رأى لمـسة حزن في عينيه وفهم أن فيساك كان من القبيلة نفسها. على الرغم من أنه كان قد منع الحديث عن العائلات القديمة، إلا أن بعض العرى كانت عميقة الجذور.

قـال: "إذا كان يمكن العثور على جثته، سأجعلهم يجلبونها إلى هنا لدفنها بشكل لائق. هل لديه زوجة، أولاد؟".

رد تسوبودي: "نعم يا مولاي".

قال جنكيز: "سأحرص على أن يتم الاعتناء بهم. لن يأخذ أحد قطيعهم، أو يرغم زوجته على الالتحاق بخيمة رجل آخر".

كان ارتياح تسوبودي واضحاً.

قـال: "شـكراً لـك يا مولاي". ترك جنكيز ليأكل مع زوجته واصطحب تاران إلى الخارج حيث الريح العاصفة مرة أخرى، يمسك به من مؤخر عنقه لإظهار افتخاره به.

كانـت العاصفة لا تزال قوية بعد يومين عندما جمع خاسار وكشيون رجالهما. كان كل منهما قد قدّم خمسة آلاف محارب سيقودهم تاران فوق القمم إلى الدرب الذي كـان قـد عثـر عليه. كانوا قد تركوا جيادهم خلفهم ولم يكن جنكيز قد أضاع هذين اليومـين. تـم صنع ألف رمية للتدرّب على الرماية، كما تمّ وضع رجال من القش، والخـشب والقماش على كل جواد متوفر. إذا كان بمقدور مستطلعي تشن رؤية السهل في الثلج، لن يلاحظوا أن عدد الرجال قد أصبح أقل.

وقف خاسار مع شقيقه، يفرك الدهن على كل وجه آخر استعداداً للتسلق الصعب الذي سيتبع ذلك. بخلاف المستطلعين، كان رجالهما يحملون أقواساً وسيوفاً إضافة إلى مـئة سهم في كنانتين ثقيلتين مربوطتين إلى ظهورهم. بينهما، كان العشرة آلاف رجل يحملـون مليون سهم؛ وقد أمضوا سنتين من العمل الشاق لصنعها حتى أصبحت أكثر قيمة من أي شيء آخر يمتلكونه. من دون غابات البتولا، لم يكن بمقدورهم تعويضها.

كـان ينبغي تغليف كل شيء يحملونه بقماش مشبّع بالدهن منعاً لتأثره بالرطوبة وتحركوا بصعوبة تحت الطبقات الإضافية، يضربون الأرض بأقدامهم بقوة ويشبكون أيديهم التي يضعونها في قفازات معاً اتقاء البرد.

كـان تاران منتصب القامة وفخوراً بقيادة شقيقي الخان، ممتلئاً إثارة لأن جُل ما علـيه القـيام بـه هو الوقوف ساكناً من دون حراك. عندما أصبحوا مستعدين، أومأ خاسـار وكـشيون للفتى، ونظرا إلى الخلف إلى رتل الرجال الذين سيعبرون الجبال سـيراً علـى الأقـدام. سيكون الصعود سريعاً وصعباً، وامتحاناً قاسياً حتى على أشد الـرجال. إذا اكتشفهم مستطلعو تشن، كان الرجال يعرفون أنه ينبغي عليهم الوصول إلى الممر العالي قبل أن يتم الإبلاغ عن تحركاتهم. سيتركون كل من يتوقف خلفهم.

عـصفت الـريح بالصفوف عندما انطلق تاران، ونظر إلى الخلف عندما عندما شعر بعـيونهم تلاحقه. رأى خاسار عصبيته وابتسم، مشتركاً بلحظة الإثارة تلك مع شقيقه كـشيون. كان ذلك اليوم أشدّ برودةً من أي يوم على الإطلاق، لكن مزاجه كان جيداً بـين الرجال. أرادوا سحق الجيش الذي ينتظرهم على الجانب الآخر من الممر. أكثر من ذلك، أعجبتهم فكرة الظهور خلفهم وتشتيت دفاعاتهم المُحكَمَة. كان جنكيز نفسه قد خرج ليراهم ينطلقون.

كـان جنكيـز قد قال لشقيقه: "لديكم حتى فجر اليوم الثالث يا كشيون. ثم سأعبر الممر".

# الفصل الحادي والعشرون



استغرق الأمـــر حتى صبيحة اليوم التالي للوصول إلى البقعة العالية بين القمم التـــي لقـــي فيها فيساك حتفه. نبش تاران جثة صديقه من تحت كومة ثلج، ومسح ما تراكم على المعالم الرمادية بصمت مطبق.

تمتم خاسار لكشيون، الذي ابتسم: "يمكننا وضع راية في يده لتحديد الدرب". كان صـف المحاربين يمتد إلى أسفل الجبل، وبدا أن العاصفة ستهدأ، لكنهم لم يطلبوا من المـستطلع الشاب أن يسرع بينما كان يأخذ قطعة من قماش أزرق ويلفها حول جثمان فيساك، ويقدّمه لأب السماء.

وقـف تـاران، وأحنـى رأسه للحظة قبل أن يقطع بسرعة المسافة الأخيرة من الأرض المتجمدة التي تقود إلى المنحدر. تجاوز الرتل الجسد المتجمد، وألقى كل رجل نظرة على الوجه الميت وتمتم بضع كلمات تحية أو تضرعاً.

عـندما أصـبح الممـر العالي خلفهم، كان تاران على أرض جديدة، وأضحت الخطـوات بطيـئة بـشكل يسبب الإحباط. كان ضوء الشمس يبهر الأبصار من كل الاتجاهات، وكان الاستمرار في التحرك شرقاً صعباً. عندما كشفت الريح الجبال على كلا الجانبين، حدّق خاسار وكشيون إلى البعيد، يدققان في تفاصيل التضاريس. بحلول الظهيرة، قدّرا أنهما أصبحا في منتصف المنحدر، وكان حصنا الممر بعيدين جداً إلى الأسفل منهما.

جعل سفح شديد الانحدار يبلغ طوله أكثر من خمسين قدماً حركتهم تتباطأ مجدداً، على الرغم من أن حبالاً قديمة دلت على المكان الذي كان مستطلع تشن قد تسلق منه. بعد أيام في البرد، أضحت الحبال قصمة فثبتوا حبالاً جديدة، وهبطوا المنحدر بحرص شـديد مستعينين بأيديهم وأرجلهم. أولئك الذين يمتلكون قفازات وضعوها في ملابسهم للنـزول ثـم وجدوا أن أصابعهم أصبحت زرقاء ومتيبسة بسرعة كبيرة. كانت لسعة البـرد شـيئاً يدعو للقلق بالنسبة للرجال الذين يُتوقع أن يستعملوا أقواسهم. فيما كانوا

يــسرعون الخطـــى علـــى طول المنحدرات، كان كل محارب يفتح ويقبض يديه، أو يدّسهما تحت إبطيه ويترك ردني قميصه يهتزان بحرية.

انزلق العديد على الأرض المتجمدة ووقع أولئك الذين كانوا قد أخفوا أيديهم بقوة أكبر. نهضوا بصلابة، ووجوههم قاسية من الريح بينما كان رجال آخرون يتجاوزونهم مـــن دون النظـــر إليهم. كان كل منهم يعتمد على نفسه ويكافح للبقاء واقفاً على قدميه بدلاً من أن يتركه الآخرون خلفهم.

كان تاران من أطلق صرخة تحذير عندما تشعب المسلك. تحت مثل ذلك الغطاء مـــن الـــثلج، كان بالكاد أكثر من ثنية في السطح الأبيض، لكنه تعرّج باتجاه آخر ولم يعرف أي منهما سيأخذهم إلى الأسفل.

جـــاءه خاسار، ورفع قبضته لإيقاف أولئك الذين في الخلف. امتد صف الرجال حتى جثة فيساك تقريباً. لم يكونوا يستطيعون التأخر وغلطة واحدة في ذلك المكان قد تعني موتاً بطيئاً، محاصرين ومجهدين في طريق مسدود.

قضم خاسار قطعة من الجلد على شفته، ونظر إلى كشيون علّه يستلهم منه شيئاً. هزّ شقيقه كتفيه.

قـــال كـــشيون متعـــباً: "ينبغـــي أن نتابع السير شرقاً. يتجه الدرب الجانبي نحو الحصنين".

رد خاســـار وهـــو يحـــدق إلى البعيد: "ربما هناك فرصة أخرى لمفاجأتهم من الخلف". لم يعد الدرب مرئياً على بعد أكثر من عشرين خطوة فيما كانت الريح والثلج يعصفان بالمكان.

ذكّـــره كشيون: "يريدنا جنكيز خلف تشن بأسرع ما يمكن". راقب تاران الحديث مفتوناً، لكنّ كليهما تجاهلا الفتى.

قال خاسار: "لم يكن يعرف أن هناك درباً آخر يقود إلى خلف الحصنين. يستحق الأمر إلقاء نظرة عليه، على الأقل".

هزّ كشيون رأسه، غاضباً.

"لدينـــا لـــيلة واحـــدة أخرى في هذا المكان المقفر، ثم سيتحرك عند الفجر. إذا ضعت، قد تتجمد حتى الموت".

نظر خاسار إلى وجه شقيقه الذي يبدو عليه القلق وابتسم.

"لاحظت أنك متأكد أنني سأسلك ذلك الدرب. يمكنني إصدار أمر لك بسلوكه".

تـــنهد كـــشيون. لـــم يكن جنكيز قد عيّن أي منهما قائداً وفكّر أن ذلك خطأ عند التعامل مع خاسار.

قـــال بـــصبر: "لا يمكنك ذلك. سأمضي قدماً، معك أو من دونك. لن أوقفك إذا أردت سلوك الطريق الآخر".

أومأ خاسار مستغرقاً في التفكير. على الرغم من نبرة صوته الهادئة، إلا أنه كان يعرف المخاطر.

"ســأنتظر هــنا وأقود آخر ألف. إذا لم يكن الدرب يقود إلى أي مكان، سأسرع بالعـــودة وانضم إليك في الليل". تصافحا على عجل، ثم انطلق كشيون وتاران مجدداً، وتركا خاسار هناك لحث الآخرين على إسراع الخطى.

كـــان عدّ تسعة آلاف رجل يمشون ببطء قد استغرق وقتاً أطول مما كان يعتقد. عـــندما أصـــبح آخر ألف في مرمى نظره، كان النهار قد شارف على نهايته. اقترب خاسار من محارب يترنح وأمسك به من كتفه، وصرخ لإسماع صوته في الريح.

قـــال: "تعالـــوا معي". من دون أن ينتظر رداً، خطا في الدرب الآخر، وغاص تقـــريباً حتـــى ردفيه في ثلج جديد. لم يناقش الرجال المتعبون خلفه الأمر، وكل منهم خدر من الإرهاق والبرد.

من دون شقيقه ليتكلم إليه، أمضى كشيون العديد من الساعات المتبقية من ضوء النهار صـــامتاً. كـــان تاران لا يزال يقودهم، على الرغم من أنه لم يكن يعرف الدرب أكثر من أي مـــنهم. كـــان الطـــريق إلى الأسفل أكثر وضوحاً على الطرف الآخر من الجبل، وبعد وقت طويل، بدا الجو أفضل. أدرك كشيون أنه لم يعد يلهث بقوة لملء رئتيه بالهواء، وعلى الرغم مـــن أنه كان مرهقاً، إلا أنه شعر بأنه أقوى وعلى أهبة الاستعداد. انتهت العاصفة في الظلام واستطاعوا رؤية النجوم للمرة الأولى منذ عدّة أيام، ساطعة وكاملة عبر الغيوم المتحركة.

بـــدا أن البرد قد اشتد عندما تقدم الليل، لكنهم لم يتوقفوا، وأكلوا اللحم المقدد من جـــيوبهم ليمدّهم بالقوة. كانوا قد ناموا الليلة الأولى على المنحدرات، وجهّز كل رجل حفـــرة لنفسه كما تفعل الذئاب. كان كشيون قد تمكّن من النوم بضع ساعات فقط وكان متعـــباً كثيـــراً. من دون أن يعرفوا مدى اقترابهم من جيش تشن، لم يكن ليجرؤ على السماح لهم بالراحة مجدداً.

بـــدأ الـــسفح يصبح أقل انحداراً بعد بعض الوقت. كانت أشجار البتولا الشاحبة تخـــتلط بالـــصنوبر الأســـود، وتنمو بكثافة شديدة في بعض الأماكن حتى إنّهم كانوا يسيرون على أوراق ميتة بدلاً من الثلج. وجد كشيون أن منظرها يبعث على الراحة، وأنهـــا دلـــيل على اقترابهم من نهاية رحلتهم. على الرغم من ذلك، لم يكن يعرف إن كانوا قد تجاوزوا جنود تشن، أم لا يزالون يمشون بموازاة ممر بادغر.

كــان تــاران يعانـــي أيضاً ورآه كشيون يحرك ذراعيه بشكل دائري بين الفينة والأخرى. كانت تلك خدعة مستطلع قديمة لإرغام الدم على العودة إلى أطراف الأنامل حتى لا تتجمد وتصبح سوداء. قلّده كشيون وأرسل أمراً على طول الصف لفعل الشيء نفسه. جعلته فكرة قيام صف من الجنود بتحريك أيديهم مثل أجنحة العصافير يضحك بصوت خافت، على الرغم من الألم الذي شعر به في كل عضلة.

ارتفــع القمــر بدراً وساطعاً فوق الجبال، وأضاء الرتل المتعب بينما كان يمشي مجهــداً إلـــى الأمام. كانت القمة التي تسلقوها عالية فوقهم، بمثابة عالم آخر. تساءل كــشيون عن عدد الرجال الذين سقطوا في الممرات العالية، وبقوا هناك مثل فيساك. كــان يأمل بأن يشعر الآخرون بضرورة حماية كنانات سهامهم قبل أن يغطيها الثلج. كــان ينبغي أن يتذكر إصدار ذلك الأمر ودمدم غاضباً من نفسه بينما كان يمشي. كان بــزوغ الفجر لا يزال بعيداً، ولم يسعه سوى أن يأمل بالعثور على الطريق إلى جيش تــشن قــبل أن يهاجمــه جنكيز. تواردت الأفكار إلى ذهنه بينما كان يمشي بخطوات واســعة في الثلج، وركّز على خاسار لحظة، ثم على أولاده في المعسكر. أحياناً، كان يحلم كما لو أنه في خيمة دافئة وكان الأمر يتطلب حركة ما ليجد نفسه لا يزال يمشي. مرة، وقع وكان تاران من أسرع عائداً لمساعدته على النهوض. لن يدعوا شقيق الخان يموت على طرف الممر، وأخذ آخرون كنانتي سهامه؛ وكان ممتناً لذلك على الأقل.

شــعر كمــا لــو أنه كان يمشي منذ وقت طويل عندما تجاوزوا صف الأشجار وربــض تــاران أمامه. قلّد كشيون الفتى قبل أن يزحف إلى الأمام على ركبتيه اللتين تــؤلمانه. خلفــه، ســمع لعنات مكتومة عندما ارتطم رجاله بعضهم ببعض في ضوء القمر، متنبهين من غفلتهم نتيجة التوقف المفاجئ. نظر كشيون حوله بينما كان يزحف إلـــى الأمام. كانوا في منطقة ليست شديدة الانحدار، وبدا أن أمامهم وادياً أبيض رائعاً يمــتد إلـــى ما لا نهاية. على الطرف الآخر، ارتفعت الجبال مجدداً بمنحدرات شاهقة وانتابه شك بأن يستطيع أي شخص تسلقها. إلى يساره، كان ممر بادغر ينتهي بمنطقة ســهل كبيــر على بعد لا يتجاوز الميل. بدت رؤية كشيون أكثر حدّة من المعتاد في ضــوء القمــر ونظر عبر الفراغ، الجميل والقاتل. كان بحر من الخيام والرايات يمتد حتــى نهاية الممــر. ارتفــع الدخان فوقه ليلاقي الضباب من القمم، وعندما عادت أحاسيس كشيون إليه، شمّ رائحة الحطب المحترق في الجو.

تــأوه لنفسه. كان قادة تشن قد جمعوا جيشاً عرمرماً لم يستطع رؤية نهايته. كان ممــر بادغــر ينتهــي بسهل من الجليد والثلج، ويغمر تقريباً قاعدة القمم العالية قبل الطــريق الــذي يقــود إلى مدينة الإمبراطور. على الرغم من ذلك، كان جنود تشن

يملأونـــه وينتـــشرون بعـــيداً حتـــى السهل خلفهم. كانت الجبال البيضاء تخفي مدى انتـــشارهم، لكن حتى مع ذلك، كان لديهم رجال أكثر مما كان كشيون قد رآه من قبل. لم يكن جنكيز يعرف عددهم وكان سينطلق ببطء عبر الممر بعد ساعات قليلة.

بنوبة خوف مفاجئ، تساءل كشيون عن إمكانية رؤية رجاله من المعسكر. لا بد أن مستطلعي تشن كانوا يجوبون المنطقة. سيكونون حمقى إن لم يفعلوا ذلك، وقد كان هـــناك مع رتل من المحاربين يمتد حتى يصل إلى المسلك الأبيض بين التلال. كانوا بحاجـــة لعنصر المفاجأة وكان قد تخلى عنه تقريباً. ربت على كتف تاران شاكراً إياه على التحذير وابتسم الفتى سعيداً بذلك.

وضـــع كـــشيون خططـــه، وأرســـل الأمر على طول الخط. كان الرجال خلفه سيتراجعون مسافة كافية حتى لا يكشف الفجر وجودهم لأعدائهم الذين يمتلكون عيوناً حـــادة. نظـــر كـــشيون إلى السماء الصافية وتمنّى أن يتساقط المزيد من الثلج ليغطي آثـــارهم. كان الفجر يوشك أن يبزغ وتمنّى أن يكون خاسار قد وصل إلى برّ الأمان. ببطء وألم، بدأ صف المحاربين يتحرك عائداً على المنحدر إلى الأشجار التي تركوها خلفهـــم. لمعت في ذهن كشيون ذكرى عن طفولته عندما تسلق جبلاً. كان قد اختبأ مع عائلته في جرف صخري في تلال وطنه، وكان الموت والتضور جوعاً قريبين دائماً. مرة أخرى، سيختبئ، لكنه سيخرج هذه المرة وهو يجأر بصوتٍ عالٍ وسيهجم جنكيز معه.

صـــمت، وتضرع إلى أب السماء أن ينجو خاسار وألا يتجمّد حتى الموت على المـــنحدرات العالـــية، ضائعاً ووحيداً. عبس كشيون من الفكرة. لم يكن إيقاف شقيقه سهلاً. إن كان أحد سينجح في ذلك، فسيكون خاسار.

* * *

مـــرّر خاسار يداً جيئة وذهاباً فوق حنجرته، طالباً من الرجال خلفه أن يصمتوا. كانت العاصفة قد انتهت أخيراً واستطاع رؤية نجوم فوق رأسه، تبدو من خلال غيوم تتحـــرك في الجو. كان القمر يضيء السفوح المقفرة ووجد نفسه على حافة حادة فوق منحدر شاهق. بقيت أنفاسه حبيسة حلقه ورأى البرج الأسود لأحد حصني تشن تحته، أســـفل قدمـــيه تقريباً، لكنه معزول بفجوة من السواد فوق صخور حادة جداً لم يستقر علـــيها ســـوى القلـــيل من الثلج. استقرت كتل صخرية كبيرة حول الحصن كانت قد انزلقت من الجبال وتساءل خاسار إن كان رجاله يستطيعون تنفيذ الهبوط الأخير. كان الحـــصن نفسه مبنياً على قمة تل يطل على الممر، وكان من دون شك مليئاً بالأسلحة

التي ستسحق أي شخص يمر عبره. إلا أنهم لن يتوقعوا هجوماً من الصخور التي تقع خلفهم.

كـان هناك ضوء قمر على الأقل. عاد إلى حيث كان رجاله قد بدأوا يتجمعون. كانـت الـرياح قد هدأت حتى غدت نسمة رقيقة، وكان قادراً على نقل أوامره همساً، وبـدأ بـأن طلب منهم تناول الطعام ونيل قسط من الراحة في أثناء تمرير حبالهم إلى الأمـام. كان الألف الأخير قد تلقى تدريباته على يد كشيون ولم يكن خاسار يعرفهم، لكـن الـضباط تقدموا إلى الأمام وأومأوا برؤوسهم فقط عندما سمعوا الأوامر. انتشر الأمـر بسرعة وبدأت أول مجموعة مؤلّفة من عشرة أشخاص ربط الحبال معاً ولفّها قرب الحافة. كانت باردة وأيديهم لا تحسن التعامل مع العقد، مما جعل خاسار يتساءل إن كان يرسلهم إلى حتفهم.

همـس للمجموعة الأولى: "إذا وقع أحدكم فليبقَ صامتاً. إن صرختم، فستوقظون الحصن تحتنا. قد تنجون حتى إذا سقطتم على الثلج الكثيف". عبس واحد أو اثنان منهم عند سماع ذلك، ونظرا من فوق الحافة وهزّا رأسيهما.

قـال خاسار: "سأذهب أولاً". نزع قفازيه المصنوعين من الفرو وفزع من البرد عـندما أمـسك بالحبل الثمين. كان قد تسلق منحدرات صخرية أسوأ، كما قال لنفسه، علـى الـرغم من أن ذلك لم يحدث عندما كان متعباً أو يشعر بالبرد. رسم تعبير ثقة بالـنفس على وجهه بينما كان يتأرجح على الحبل. كان الضباط قد ربطوا الحبل إلى جـذع شجرة بتولا سقطت منذ زمن بعيد وكانت تبدو صلبة. استند خاسار إلى الحافة وحاول ألا يفكر في الفجوة خلفه. كان واثقاً ألا أحد يمكنه النجاة منها.

قـال بينما كان يمضي قدماً: "ليس أكثر من ثلاثة رجال على الحبل". دفع نفسه بعـيداً قـدر اسـتطاعته، وبـدأ الهبوط على الصخر المتجمد. "اربطوا بعض الحبال الإضـافية معاً وإلا سيستغرق نزولنا الليل بأكمله". كان يصدر الأوامر لإخفاء توتره، وأرغـم نفـسه على إظهار الوجه البارد ليخفي خوفه. اجتمعوا حول الحافة لمراقبته، حتـى تجاوزها أخيراً وبدأ الهبوط إلى الأسفل. بدأ أقرب الرجال يربطون المزيد من الحـبال معـاً للسماح بنزول رجل آخر وأومأ أحدهم إلى أصدقائه واستلقى على بطنه لتثبيت الحبال التي تهتز وكان يمسك بها خاسار. اختفى هو أيضاً من فوق الحافة.

انتظـر جنكيز بنفاد صبر بزوغ الفجر. كان قد أرسل مستطلعين إلى أبعد مكان يمكـنهم الوصول إليه في الممر، لهذا عاد بعضهم وسهام مغروسة في دروعهم. كان آخـرهم قـد عاد إلى المعسكر عند غروب الشمس، وسهمان يبرزان من ظهره. كان

أحـدهما قد نفذ من الحديد الخارجي وترك شريطاً من الدم يلطّخ قدميه وقائمتي جواده الخلفيتـين. سـمع جنكيز تقريره قبل أن يتم الاعتناء بجروح الرجل، فقد كان بحاجة للمعلومات.

كـان قائـد تشن قد ترك الممر مفتوحاً. قبل أن يتراجع المستطلع نتيجة عاصفة السـهام التـي واجهها، كان قد رأى حصنين كبيرين يلوحان فوق قطعة من الأرض تحتهما. لم يكن جنكيز يشك بأن الجنود داخلهما كانوا مستعدين لإرسال الموت إلى أي شـخص يحـاول شقّ طريقه بالقوة. كانت حقيقة أن الممر غير مغلق تقلقه. كان ذلك يوحـي بـأن القائـد يريد منه أن يشن هجوماً مباشراً وكان واثقاً أنه يمكن دفع جيش المغول إلى حيث يوجد رجاله وسحقهم في منطقة ضعفهم.

عـند بدايـته، كـان الممـر بعرض ميل، لكن تحت الحصنين، كانت الأسوار الصخرية تضيق إلى مسافة لا تزيد عن بضع عشرات الخطوات. كانت حتى فكرة أن تـتم محاصـرتهم هـناك ويـصبحوا غير قادرين على شن هجوم تجعل معدة جنكيز تـتقلص، ولهـذا أبعـدها عـن ذهنه حالما خطرت له. كان قد فعل كل ما يستطيعه وسـيهاجم شقيقاه حالما تصبح الرؤية كافية للتصويب. لم يكن يستطيع إعادتهما إليه، حتـى إذا وجد خطة أفضل في اللحظات الأخيرة. كانا ضائعين بالنسبة إليه، تخفيهما الجبال والثلوج.

كانـت العاصفة قد هدأت على الأقل. نظر جنكيز إلى النجوم، التي كانت تكشف الحـشد الكبيـر من الأسرى الذين ساقهم إلى بداية الممر. كانوا سينطلقون في مقدمة جيشه، ويتلقون سهام رماة تشن. إذا خرج من الحصنين زيت ناري، سيتحمل الأسرى الحروق التي ستنجم عن ذلك.

كـان الهواء شديد البرودة في الليل، لذلك لم يستطع النوم وسحب أنفاساً عميقة، وشعر بالصقيع يدخل رئتيه. لم يكن الفجر بعيداً. قلّب خططه مرة أخرى، لكن لم يكن هناك شيء آخر ليفعله. كان رجاله مستعدين تماماً، وأفضل مما كانوا عليه منذ شهور. كان أولئك الذين سيقودون الرجال إلى الممر محاربين متمرّسين يرتدون دروعاً جيدة. كان قد زوّد الصفوف الأولى للرجال بالرماح، لمساعدتهم في دفع الأسرى إلى الأمام. كانـت ذئاب تسوبوديٍ الفتية ستسير خلفهم، ثم محاربو أرسلان وجيلم. كانوا عشرين ألفاً لن يهربوا مهما حمي وطيس المعركة.

شـهر جنكيز سيف والده، ورأى قبضة رأس الذئب تلمع في ضوء النجوم. لوّح به في يده، وجار بينما كان يفعل ذلك. كان المعسكر صامتاً من حوله، على الرغم من وجـود عـيون تراقب دائماً. كان قد أخضع جسده لتدريب علّمه إياه أرسلان لتمرين

عضلاته وجعله قوياً. كان الراهب ياو شو يدرّب أبناءه بشكل مماثل، ويقوي أجسادهم مــثل أي أداة أخــرى. تعرّق جنكيز بينما كان يستعمل سيفه على تلك الحال. لم يكن بسرعة الضوء كما كان من قبل، لكن قوته كانت قد ازدادت وكان لا يزال رشيقاً على الرغم من ندوب العديد من الجروح القديمة.

لــم يكن يرغب بالانتظار حتى الفجر. فكّر في العثور على امرأة، وكان يعرف أنها ستساعد على حرق بعضٍ من طاقته الملتهبة. ستكون زوجته الأولى بورت نائمة في الخيمة، محاطة بأبنائه. كانت زوجته الثانية لا تزال ترضع ابنتهما الصغيرة. عند ذلك أشرق وجهه.

أغمــد سيفه بينما كان يمشي بخطوات واسعة عبر المعسكر إلى خيمة تشاكاهي، التــي كانــت تنتصب في مكانها. ضحك بصوت خافت بينما كان يمشي. امرأة دافئة ومعركة قادمة. كانت الحياة في مثل تلك الليلة أمراً رائعاً.

فــي خيمته، كان القائد زهي زهونغ يرتشف كوباً من شراب الأرز الساخن، وقد جافاه الكرى. كان الشتاء قد أطبق على الجبال واعتقد أنه يستطيع قضاء أبرد الشهور فــي الميدان مع جيشه. لم تكن تلك فكرة تبعث على السرور. كان لديه أحد عشر ابناً مــع ثــلاث زوجات في ينكينغ، وعندما كان في الوطن، كان هناك دائماً شيء يشتت انتباهه. اكتشف أن رتابة حياة المعسكر مريحة مقارنة بما كان يحدث، ربما لأنه كان قد اختبره طيلة حياته. حتى هناك في الظلام، كان يسمع تمتمة كلمات السر عند تغيير الحــراس وشعر بشيء من الطمأنينة. لطالما كان النوم يداعبه ببطء وكان يعرف أن جزءاً مــن أســطورته بين الرجال أن يبقى مستيقظاً ليلة بعد أخرى، وأضواء المصابيح ظاهرة عبــر القمــاش الــسميك لخــيمة القيادة. كان ينام أحياناً والمصابيح لا تزال مشتعلة، لكن الحــراس كانــوا يعتقدون أنه لا يحتاج إلى الراحة مثلهم. كان يعتقد أن زيادة دهشتهم ليس بالأمر السيّئ. كان الرجال بحاجة لقائد لا تظهر عليه أي من علامات ضعفهم.

فكّــر فــي الجيش الكبير حوله والاستعدادات التي كان قد أجراها. كانت أفواج حملة السيوف والرماح تفوق لوحدها محاربي المغول عدداً. كان إطعام مثل ذلك العدد الكبيــر يعني ببساطة إفراغ مخازن ينكينغ. لم يكن بمقدور التجار سوى النحيب غير مصدّقين ما يرونه عندما عرض عليهم الوثائق التي كان الإمبراطور قد وقّعها. جعلته الذكرى يبتسم. كان باعة الحبوب البدينون أولئك يعتقدون أنهم قلب المدينة. كان مسلياً بالنسبة لزهي زهونغ أن يذكّرهم بمكمن القوة الحقيقية. من دون الجيش، لم تكن بيوتهم الفخمة تساوي شيئاً.

كــان إطعــام مئتي ألف رجل كل الشتاء سيحول المزارعين إلى متسولين على بعد ألــف ميل شرقاً وجنوباً. هزّ زهي زهونغ رأسه عندما خطرت له تلك الفكرة، وكان ذهنه مشغولاً للغاية بالتفكير في محاولة النوم. ما الخيار الذي لديه؟ لم يكن أحد يقاتل في الشتاء، لكــنه لا يستطيع ترك الممر من دون حراسة. حتى الإمبراطور الشاب يفهم أنه قد تنقضي شهور قبل أن تندلع المعركة. عندما يأتي المغول في الربيع، سيكون لا يزال هناك. تساءل زهـــي زهونـــغ مرتاحاً إن كان خانهم يعاني من مشكلات التموين نفسها التي يعاني منها. كان يشك بذلك. ربما كان رجال القبائل يأكلون بعضهم ويعتبرون ذلك شهياً.

ارتعـــش عـــندما تـــسلل هواء الليل البارد إلى خيمته، وشدّ بطانياته حول كتفيه الـــضخمين. لم يكن شيء قد بقي على حاله منذ توفي الإمبراطور العجوز. كان زهي زهونغ قد منح ولاءه المطلق للرجل الذي يوقر. في الحقيقة، كان العالم قد اهتز عندما توفـــي أخيـــراً، وقُضي الأمر بينما كان نائماً بعد مرض طويل. هزّ رأسه، حزيناً. لم يكـــن الابن مثل الأب. بالنسبة لجيل القائد، لم يكن هناك سوى إمبراطور واحد. كانت رؤيـــة شاب يفتقر للخبرة على عرش الإمبراطورية تنهش أسس حياته بأكملها. كانت تلـــك نهاية حقبة وربما كان ينبغي عليه أن يتقاعد مع موت الرجل العجوز. كان ذلك رد فعـــل مناســـب ويـــستحقّ التقدير. بدلاً من ذلك، كان قد تريث قليلاً ليرى تنصيب الإمبراطور الجديد ثم جاء المغول. لم يكن التقاعد ليتحقق قبل سنة أخرى، على الأقل.

كـــشّر زهـــي زهونـــغ عـــندما وجد البرد طريقه إلى عظامه. تذكر أن المغول لا يشعرون بالبرد. كان يبدو أنهم قادرين على تحمّله مثل ثعلب بري، من دون شيء يحميهم ســـوى طـــبقة وحـــيدة من الفراء فوق جلودهم العارية. كانوا يثيرون اشمئزازه. لم يكونوا يبـــنون شـــيئاً، أو يحققوا شيئاً خلال حياتهم القصيرة. كان الإمبراطور القديم قد أبقاهم في مكـــانهم، لكـــن العـــالم قـــد تغير وقد تجرأوا الآن على تهديد بوابات المدينة العظيمة. لن يـــرحمهم عندما تنتهي المعركة. إذا سمح لرجاله بالعبث كما يحلو لهم في معسكرهم، فمن يبقـــى من القبائل سيربي ألف طفل ستلده نساؤهم بعد فترة. لن يسمح لهم بالتوالد مثل القمل لـــتهديد يتكيـــنغ مجدداً. لن يرتاح حتى يقع آخرهم ميتاً وتصبح الأرض خاوية. سيحرقهم جمـــيعاً، وفي المستقبل، إذا تجرأ عرق آخر على الوقوف ضد تشن، ربما سيتذكر المغول ويتخلـــى عن مكائده وطموحاته. كان ذلك ردّ الفعل الوحيد الذي يستحقونه. ربما تكون تلك هـــي الأسطورة التي سيتركها عندما يتقاعد، والثأر الدموي والنهائي الذي ستتردد أصداؤه عبـــر القرون القادمة. سيكون الموت لأمة بأكملها. كان الخلود من نوع ما هي الفكرة التي أســـعدته. تـــواردت الأفكـــار في ذهنه عندما كان المعسكر نائماً. قرر أن يترك المصابيح مشتعلة وتساءل إن كان سينام على الإطلاق.

عــندما ظهــرت خيوط الفجر الأولى خلف الجبال، نظر جنكيز إلى الغيوم التي لفّـت القمم العالية. كانت السهول في الأسفل لا تزال غارقة في الظلام وشعر بخفقان قلبه يــزداد لــرؤية ذلك المشهد. كان جيش الأسرى الذي سيدفعه عبر الممر يلتزم الــصمت. كــان شــعبه قــد تجمّع خلف فرسانه، وأياديهم تمسك بالرماح والأقواس منتظــرين أمره. لم يكن سيبقى سوى ألف فقط في الخلف لحماية النساء والأولاد في المعسكر. لم يكن هناك أي خطر. سيتم التصدي لأي تهديد على السهول وسحقه.

شــدّ جنكيــز يديه على لجام جواده البني. عند أول إشارة على بزوغ الفجر، بدأ الفتــيان بقرع الطبول ووصل صوت الحرب إلى أذنيه. انتظر ألف منهم في صفوف مــع طــبول مــربوطة إلى صدورهم. ترددت أصداء الصوت الذي صدر عنهم عن الجــبال وجعلــت نبضه يتسارع. كان شقيقاه في مكان ما متقدم، متجمدين تقريباً بعد رحلــتهما عبر الجبال العالية. كانت تقع خلفهم المدينة التي نثرت بذور تشن بين شعبه طــيلة ألــف سنة، ترشوهم وتذبحهم مثل قطيع من الكلاب عندما ترى ضرورة لذلك. ابتسم لنفسه من تلك الصورة، متسائلاً عن مكانة ابنه جوشي فيها.

كانــت الشمس مخفية عندما ارتفعت فوقهم، ثم خلال لحظة، أضاء السهول لون ذهبي وشعر جنكيز بالدفء يمس وجهه. ارتفع بصره عن الأرض. لقد حان الوقت.

# الفصل الثاني والعشرون



انتظــر كشيون بينما كان الفجر يرسم ظلالاً من الأشجار. كان جنكيز سيتحرك عبــر الممر بأسرع ما يستطيع، لكن الوصول إلى جيش تشن الرئيسي سيستغرق منه بعــض الــوقت. كــان الرجال حول كشيون يقومون بتجهيز أقواسهم ويفكّون السهام المربوطة بإحكام في كناناتهم. كان اثنا عشر رجلاً قد لقوا حتفهم في الممرات العالية، وانفجرت قلوبهم في صدورهم فيما كانوا يلهثون في الهواء الرقيق. كان ألف آخرون قــد ذهــبوا مع خاسار. حتى من دون هؤلاء، كان لا يزال ممكناً إطلاق تسعمئة ألف سهم على عدوهم عندما يحين الوقت.

كــان كــشيون قد بحث من دون جدوى عن مكان لا تكون فيه صفوف الرجال مــرئية لتــشن، لكنه لم يجده. سيكون رجاله مكشوفين في الوادي، وليس لديهم سوى وابل من السهام لصدّ أي هجوم عليهم. فامتعض كشيون من تلك الفكرة.

وبالكــاد كان النشاط قد دبّ في معسكر تشن في برد الفجر. كان الثلج قد أزال علامــاتهم الفارقة هناك، وبدت الخيم الباهتة جميلة ومتجمدة، والمكان هادئاً لا يوحي بعدد الرجال المقاتلين داخله. كان كشيون يفتخر بحدّة بصره، لكن لم يكن هناك إشارة على أن جنكيز قد تحرك أخيراً. تغير الحراس عند الفجر، واتجه المئات منهم عائدين إلى خيامهم لتناول الطعام والنوم فيما تمركز آخرون في مكانهم. لم يكن الذعر قد دبّ فيهم بعد.

كــان كشيون قد شعر باحترام ممزوج بالضغينة للقائد الذي نظّم المعسكر البعيد. قــبل الفجــر تمامــاً، تــم إرسال فرسان لاستطلاع الوادي، وساروا على امتداده إلى الجــنوب قــبل أن يعودوا. كان واضحاً أنهم لا يتوقعون أن يكون العدو قريباً، وكان كــشيون قد سمعهم يتنادون في أثناء انطلاقهم، من دون أن ينظروا إلى القمم وسفوح الجبال. لا شك أنهم كانوا يعتقدون أنها مهمة سهلة أن يقضوا الشتاء دافئين مطمئنين، محاطين بذلك العدد الكبير من السيوف.

فـزع كشيون عندما ربت أحد الضباط على كتفه ودفع بشطيرة من اللحم والخبز فـي يـده. كانـت دافئة ورطبة نتيجة التصاقها بجلد شخص ما، لكن كشيون كان قلقاً وأومـأ فقط شاكراً فيما كانت أسنانه تقضمها. كان سيحتاج إلى كل قوته. حتى بالنسبة لـرجال كانـوا قد ولدوا مع قوس، كان رمي مئة قوس بسرعة كبيرة سيترك أكتافهم وأذرعهم تضج ألماً. همس بأمر للرجال لتشكيل ثنائيات في أثناء انتظارهم، والاستفادة مـن ثقـل الـشخص الآخر لتليين العضلات وإبقاء البرد بعيداً. كان المحاربون كلهم يعرفون فائدة مثل ذلك العمل. لم يكن أحدهم يرغب بأن يفشل عندما تحين اللحظة.

كان معسكر تشن لا يزال هادئاً. ابتلع كشيون آخر قطعة خبز بعصبية، وملأ فمه بالـثلج حتى أصبح رطباً بما يكفي لينزلق الطعام عبر حلقه. كان عليه توقيت هجومه بـشكل ممـتاز. إذا انطلق قبل أن يصبح جنكيز تحت الأنظار، فسيتمكّن قائد تشن من تحـويل جزء من جيشه الضخم لسحق رماة كشيون. إذا تأخر في ذلك، سيفقد جنكيز ميزة الهجوم الثاني وربما يلقى حتفه.

بدأت عينا كشيون تؤلمانه من جهد التحديق إلى مسافة بعيدة. لم يكن يجرؤ على النظر بعيداً.

بـدأ الأسرى يتأوهون عندما تحركوا نحو الممر، مستشعرين ما ينتظرهم. كانت الصفوف الأولى من الفرسان المغول تسد طريق العودة ولهذا لم يكن لديهم خيار سوى الهـرولة إلـى الأمام. رأى جنكيز بعضاً من الشباب يندفعون بين اثنين من محاربيه. راقبت آلاف العيون محاولة الهرب باهتمام شديد، ثم أشاحت بأبصارها عندما تم قطع رؤوس الرجال بضربات سريعة.

ترددت أصداء الطبول، والجياد والرجال، من الأسوار العالية للممر عندما دخلوا إلـيه. بعـيداً في الأمام، كان مستطلعو تشن يتسابقون عائدين يحملون الأنباء لقائدهم. كان العدو سيعرف أنه قادم، لكنه لم يكن يعتمد على المفاجأة.

مـشى حشد الأسرى مجهداً إلى الأمام على الأرض الصخرية، ينتظر برعب الإشارة الأولـى مـن رماة تشن. كان التقدم بطيئاً مع وجود أكثر من ثلاثين ألف رجل يمشون أمام فرسان المغول وقد وقع بعضهم، واستلقوا مرهقين على الأرض عندما وصل إليهم الفرسان. طُعـنوا أيضاً بالرماح سواءً أقاتلوا أم لا. تم حثّ الآخرين على المضي قدماً بصرخات حادة مـن رجـال القـبائل، كما لو أنهم يزعقون ويصيحون على ماعز في الوطن. كان الصوت المألـوف غـريباً في مثل ذلك المكان. ألقى جنكيز نظرة أخيرة على صفوفه، ولاحظ موقع قادته الموثوقين قبل أن يحدّق بتوق إلى الأمام. كان طول الممر ميلين ولن يستدير عائداً.

رأى كشيون حركة تتسم بالذعر في معسكر تشن أخيراً. كان جنكيز يتحرك وكان النبأ قد وصل إلى الرجل في القيادة. قاد الفرسان جيادهم خبباً بين الخيام، وكانت تلك أفضل الجياد التي يراها كشيون حتى ذلك الوقت. ربما كان الإمبراطور يحتفظ بأفضل السلالات لجيشه الإمبراطوري. كانت الجياد أكبر من الجياد التي يعرفها وتلمع في شمس الفجر بينما كان فرسانها ينتظمون بالتشكيل في مواجهة ممر بادغر.

استطاع كشيون رؤية أفواج من حملة الأقواس والرمّاحين يسرعون إلى الصفوف الأولى وقد فزع من عددهم الكبير. قد يبتلع مثل ذلك الحشد الضخم شقيقه في هجوم واحد. كان تكتيكه المفضل في تطويق العدو مستحيلاً في ذلك المكان الضيق.

استدار كشيون إلى الرجال خلفه ووجد أنهم يحدّقون اتجاهه، ينتظرون الكلمة.

"عندما أصدر الأمر، اخرجوا من أماكنكم مسرعين. سنشكل ثلاثة صفوف عبر الوادي، ونقترب منهم قدر المستطاع. لن تستطيعوا سماعي من صوت الأقواس، لهذا أصدروا أمراً بإطلاق عشرين سهماً ثم التوقف. سأقف وأقوم بإنزال ذراعي لإطلاق عشرين أخرى".

قال رجل من وراء كتفه، وهو يحدق إلى ما وراء كشيون: "فرسانهم مدرعون. سيسحقوننا". كانوا جميعاً فرساناً. كانت فكرة وقوفهم وحيدين ضد هجوم تنافي كل ما كانوا يعرفونه.

قال كشيون: "لا. لا شيء في العالم يمكنه أن يقف أمام شعبي المسلح بالأقواس. ستجعل السهام العشرون الأولى الذعر يدب بينهم، ثم سنتقدم. إذا هجموا علينا، وسيفعلون ذلك، سنضع سهماً طويلاً في حنجرة كل رجل".

نظر مجدداً إلى وادي معسكر تشن. كان يبدو آنذاك كما لو أن شخصاً ركل جحر نمل. كان جنكيز قادماً.

تمتم كشيون: "انقلوا الأمر ليكون الرجال مستعدين". سال العرق على جبينه. كان ينبغي أن يكون تقديره ممتازاً. "سننتظر قليلاً. عندما ننطلق، سننطلق مسرعين".

في منتصف الطريق تقريباً داخل الممر، وصل الأسرى إلى مواقع رماة السهام الأولى. كان جنود تشن قد اتخذوا مواقع على مصاطب صخرية على ارتفاع خمسين قدماً فوق الأرض. رآهم الأسرى أولاً وابتعدوا عن الجانبين، وتباطأ الجميع عندما تمركزوا في الوسط. كانت إصابات جنود تشن محققة وأرسلوا سهاماً تطن على الحشد. عندما تعالت الصرخات، رفعت الصفوف الثلاثة الأولى مع جنكيز أقواسها.

كــان كــل منهم يستطيع إصابة جناح طائر، أو ثلاثة رجال في صف وهو يقود فرساً تعــدو بأقصى سرعتها. عندما أصبحوا في نطاق الرمي، اندفعت سهامهم في الهواء. وقــع الجنود على رؤوس أولئك المارين في الأسفل. ترك المحاربون الصدوع الدامية خلفهم وتابعوا طريقهم بعد أن أرغموا الأسرى الذين ينتحبون على الهرولة.

ظهــرت الثغــرة الأولى بين صدعين صخريين كبيرين بعد مسافة قصيرة داخل الممــر. تدافــع الأسرى نحوها، وترنحوا وهم يركضون بينما كان المغول يصرخون بوجــوههم ويدفعــونهم بــرماحهم. استطاعوا جميعاً رؤية الحصنين الكبيرين اللذين يهيمــنان على الممر الوحيد بينهما. كانت تلك أبعد نقطة استطاع أي مستطلع رؤيتها قــبل أن يعــود أدراجــه. بعــد ذلك، كانوا على أرض جديدة ولم يكن أحد يعرف ما ينتظرهم.

كـــان خاســـار يتصبب عرقاً. استغرق الأمر وقتاً طويلاً لهبوط ألف رجل باستعمال ثلاثــة حــبال فقــط، وكلما كان المزيد منهم يصل سالماً إلى الأرض المنبسطة، كان ذلك يغــريه بأن يترك الأخرين. كان الثلج عميقاً بما يكفي ليغوص الرجال حتى وسطهم عندما يتحــركون ولم يعد يعتقد آنذاك أن الدرب كان مسلك صيد للرجال في الحصن، إلا إن كان لــم ينتبــه إلــى درجات محفورة في الصخور. كان رجاله قد اكتشفوا طريقهم إلى مؤخّر الحــصن، لكــن فــي الظلام، لم يستطع رؤية طريق للدخول إليه. مثل نظيره إلى الجانب الآخــر مــن الممر، كان الحصن مصمماً ليكون منيعاً على أي شخص يعبر ممر بادغر. وفقاً لما يعرفه، كان يتم سحب أولئك الذين يتمكنون من ذلك إلى الأعلى بالحبال.

كــان ثلاثــة مــن رجاله قد وقعوا في أثناء نزولهم، وعكس كل التوقعات، كان أحــدهم قــد نجــا بعــد أن هبط على كتلة ثلج عميقة وكان ينبغي بمرافقي المحارب المذهول أن يسارعوا لإخراجه من ذلك المكان. لم يكن الأخران محظوظين واصطدما بــصخور مكشوفة. لم يصرخ أي منهما وكان الصوت الوحيد المسموع هو نعيب بوم الليل العائد إلى أعشاشه.

عــندما بــزغ الفجر، كان خاسار قد نقل الرجال عبر الثلج الكثيف، وكان أولهم يحقق تقدماً بطيئاً وهم يخوضون فيه. لاح الحصن أسودَ فوق رؤوسهم ولم يكن بوسع خاسار سوى أن يطلق اللعنات محبطاً، مقتنعاً أنه كان قد فصل عُشر قوة كشيون دونما سبب وجيه.

عــندما وصــل إلى درب على مساره، شعر بالإثارة. بالقرب منه، وجدوا كومة كبيــرة من الحطب، مخفية عن الممر في الأسفل. كان يبدو منطقياً أن يحصل محاربو

تــشن علـــى الحطب من المنحدرات الصخرية خلفهم، ويكدّسونه لاستعماله في الشتاء الطويل. وجد أحد رجال خاسار فأساً طويلة اليد مخفية في الحطب. كان النصل مطلياً بالزيت ولا تظهر عليه سوى بقع من الصدأ. ابتسم عندما رآها، وعرف أنه لا بد من وجود طريق للدخول إلى الحصن.

تجمد خاسار مكانه عندما سمع وقع أقدام وأصوات عويل الأسرى من بعيد. كان جنكيز قادماً وكان لا يزال في موقع لا يمكنه فيه مساعدة شقيقيه.

قال للرجال حوله: "لا مزيد من الحذر. ينبغي أن ندخل إلى ذلك الحصن. تقدموا إلى الأمام واعثروا على الباب الذي يستعملونه لإدخال الحطب".

اندفع مسرعاً ثم لحقوا به، يرفعون سيوفهم وأقواسهم في أثناء ذلك.

كان القائد زهي زهونغ في وسط دوامة من المبعوثين الذين يركضون من حوله، ويـــصدر أوامـــره بالسرعة التي يتلقى بها الأنباء. لم يكن قد نام، لكن ذهنه كان يتقد طاقة وسخطاً. على الرغم من أن العاصفة قد انتهت، إلا أن الهواء كان لا يزال شديد البـــرودة والجلـــيد يمتد على أرض الممر ويغطي المنحدرات حوله. كانت الأراضي المتجمدة ستجعل السيوف تنزلق. كانت الجياد ستقع وسيشعر كل رجل هناك بأن البرد يـــسرق قـــوته. نظر القائد بكآبة إلى حيث كان حطب الطهي معدّاً لكن أحداً لم يشعله بعـــد. كان سيأمر بتحضير الطعام الساخن، لكن الإنذار انطلق قبل أن يأكل جيشه ولم يكـــن لديـــه وقت لذلك آنذاك. لا أحد يذهب إلى الحرب في الشتاء، كما حدّث نفسه، وسخر من اليقين الذي شعر به في الليل.

كـــان قد استقر عند نهاية الممر طيلة شهور بينما نهب جيش المغول الأراضي التـــي خلفـــه. كان رجاله مستعدين. عندما يصبح المغول ضمن المدى، سيتلقون ألف ســـهم كـــل عشر دقات للقلب وكانت تلك هي البداية فقط. ارتعش زهي زهونغ عندما هبت الريح، وعصفت بالمعسكر. كان قد أحضرهم إلى المكان الوحيد الذي لا يمكنهم فـــيه استعمال تكتيكات حرب السهول. كان ممر بادغر سيحرس جناحي الجيش أفضل من أي قوة من الرجال. ليأتوا، كما اعتقد.

نظـــر جنكيز شزراً إلى الأمام عندما تدفق الأسرى تحت الحصنين. كان الممر مـــزدحماً بالـــرجال البعيدين جداً عن قومه وبالكاد كان يستطيع رؤية ما يحدث. من بعـــيد، سمع صرخات تعود مع الهواء المتجمد ورأى نيراناً تندلع فجأة. كان الأسرى في الخلف قد رأوها أيضاً وترنحوا في الحشد المجنون أمام فرسانه، خائفين. من دون

أمــر منه، نزلت الرماح وأرغمتهم على التحرك إلى الأمام نحو الفتحة بين الحصنين. بغض النظر عن الأسلحة التي يمتلكها تشن، كان من الصعب إيقاف ثلاثين ألف أسير. كــان بعضهم قد تجاوز الثغرة آنذاك واندفعوا وراءها. اندفع جنكيز على جواده وكان يأمــل فقــط بأنـــه فـــي الوقت الذي يصبح فيه تحت الحصنين، سيكون جنود تشن قد استنفدوا زيتهم وسهامهم. استلقت الجثث ساكنة على الأرض، وكان هناك المزيد منها كلما اقترب من المكان الضيق.

فــوق رأســـه، رأى جنكيــز رماة على الحصنين، لكن لدهشته، كان يبدو أنهم يسددون على الممر نفسه، يطلقون سهماً إثر آخر على رجالهم. لم يفهم الأمر وسيطر القلــق على أفكاره من ذلك التطور. على الرغم من أن الأمر بدا هدية، إلا أنه لم يكن يحــب المفاجــآت عندما يندفع إلى مثل ذلك المكان. شعر بالأسوار الصخرية تضغط عليه، وترغمه على متابعة الطريق.

سمع بالقرب من الحصنين ضربات مكتومة لمنجنيقات، وكان ذلك صوتاً يعرفه جــيداً ويفهمـــه. رأى سحابة دخان تنتشر في الهواء فوق الممر واندلعت النيران فوق أســوار الحــصن إلى يساره. سقط الرماة محترقين من منصاتهم وتعالت الهتافات من الجانــب الآخــر. شـــعر جنكيز بقلبه يقفز من مكانه. لم يكن هناك سوى تفسير واحد وجـــأر بأوامر لتقليص عرض الرتل حتى يمر من الطرف الأيمن لممر بادغر، بعيداً عن اليسار قدر ما يستطيع أفراده.

كــان كشيون أو خاسار قد استولى على الحصن. أياً يكن الشخص الموجود في الأعلى، سيكرّمه جنكيز عندما تنتهي المعركة، إذا بقي كلاهما على قيد الحياة.

كانــت الكثيــر مـــن الجثث تستلقي على أرض الممر، لهذا كان على جواده أن يخطــو علـــيها. وصـــهل بانزعاج. شعر جنكيز بقلبه يخفق خوفاً عندما اعترض ظل وجهـــه. كان أسفل الحصنين تقريباً، في قلب منطقة القتل التي صممها نبلاء تشن منذ أمــد طويل. كان آلاف من أسراه قد ماتوا وكانت هناك أماكن يصعب رؤية الأرض فـــيها مـــن الجـــثث. على الرغم من ذلك، كانت طليعة جيشه المرهقة قد اندفعت إلى الأمام، وأفرادها يركضون آنذاك مطلقين صرخات مرعبة. لم تكن قبائل المغول نفسها قــد خـــسرت رجــلاً واحداً وتهلل جنكيز فرحاً. مر أسفل الحصن إلى الجهة اليمنى، وصرخ عالياً بأفراد قومه الموجودين فيه والذين كانوا قد شقوا طريقهم بالقوة إليه. لم يكونوا يستطيعون سماعه، وبالكاد استطاع سماع نفسه.

انحنى إلى الأمام على السرج، يريد أن يحث فرسه على الجري عدواً. كان من الــصعب جعــل جواده يُهرول والسهام في الجو، إلا أنه سيطر على نفسه، ورفع يداً

مبسوطة الكف لجعل الرجال يقفون في أماكنهم. كان أحد الحصنين يحترق من الداخل، وألسنة اللهب تشتعل في فتحات الرماية. عندما نظر جنكيز إلى الأعلى، انهارت منصة خشبية اشتعلت بها النيران، وسقطت على الأرض أسفلها. صهلت الجياد خوفاً واندفع بعضها إلى الأمام، تجري في أعقاب الأسرى.

وقف جنكيز على السرج لينظر إلى الممر. ابتلع ريقه بعصبية عندما رأى خطاً داكناً يعبر نهايته. كان الممر هناك ضيقاً مثل الثغرة بين الحصنين، ويشكل دفاعاً طبيعياً ممتازاً. لم تكن هناك طريقة للمرور سوى بتدمير جيش إمبراطور تشن. كان الأسرى قد وصلوا عندها إلى هناك وسمع جنكيز آنذاك قرقعة وابل من السهام مثل الرعد، وكان صوتها عالياً في المكان المحصور لدرجة أنها أذت أذنيه مع كل ضربة.

اندفع الأسرى يتخبطون من خوفهم، والسهام تنهمر عليهم بينما كان كل رجل يتلقى المزيد والمزيد من الضربات، ثم يدور ويتمزق إرباً وهو يسقط. ركضوا نحو عاصفة من النصال وكشف جنكيز عن أسنانه، وكان يعرف أن دوره سيأتي.

كان مبعوث القائد شاحباً من الخوف، ولا يزال يرتعش مما رآه. لم يكن شيء في حياته العملية حتى تلك اللحظة قد جعله مستعداً لرؤية مذبحة الممر.

قال: "لقد استولوا على أحد الحصنين أيها القائد، وحوّلوا المنجنيقات على الآخر".

نظر القائد زهي زهونغ بهدوء إلى الرجل، منزعجاً من الخوف الذي أظهره.

ذكّر الرجل: "لا يمكن للحصنين سوى التخفيف من أعدادهم. سنوقفهم *هنا*". بدا أن المبعوث يستمد الثقة من القائد الرصين وأخرج زفيراً طويلاً.

انتظر زهي زهونغ أن يسيطر المراسل على نفسه، ثم أشار إلى أحد الجنود القريبين منه.

قال: "خذ هذا الرجل واجلده حتى ينسلخ الجلد عن ظهره". فغر المبعوث فمه عندما سمع الأمر. "عندما يتعلم الشجاعة، يمكنك أن تترفق به، أو عندما يتلقى ستين ضربة بالعصا، أيهما يأتي أولاً".

أحنى المبعوث رأسه خجلاً بينما كان يتم اقتياده بعيداً، وللمرة الأولى ذلك الصباح، أضحى زهي زهونغ وحيداً. أطلق لعنة بصوت خافت للحظة قبل أن يخرج من خيمته بخطوات واسعة، متعطشاً للمعلومات. كان يعرف آنذاك أن المغول يدفعون أسرى تشن أمامهم، وأنهم يتصدّون للدفاعات بأفراد من شعبه. كان زهي زهونغ

يستحـــسن التكتـــيك بصمت، حتى عندما كان يفكر بطريقة لمواجهته. يمكن أن يكون عــشرات آلاف الــرجال غيــر المــسلحين بخطورة جيش إذا وصلوا إلى خطوطه. سيـــسببون الإرباك لفرق رماة السهام التي كان قد نشرها على طول الممر. أمر جندياً ينتظر أن يرسل عربات جديدة من السهام إلى الجبهة وراقبه بينما كان يجري مبتعداً.

كـــان الخـــان ذكـــياً، لكن الأسرى سيشكلون درعاً حتى يموتوا فقط وكان زهي زهونـــغ لا يزال واثقاً من نفسه. كان ينبغي على المغول أن يقاتلوا من أجل كل قدم. من دون وجود مساحة للمناورة، سيتم سحبهم وذبحهم.

انتظـــر، متـــسائلاً إن كان ينبغي عليه الاقتراب أكثر من جبهة القتال. من مكانه البعـــيد عنها، كان يستطيع رؤية دخان أسود يرتفع من الحصن المستولى عليه وأطلق اللعـــنات مجدداً. كانت خسارة مذلة، لكن الإمبراطور لن يهتم عندما يموت آخر رجل من القبائل.

كان زهي زهونغ يأمل بقتل العديد منهم قبل أن يفتح الممر أمام جيشه، ويضغط عليهم أكثر. سوف يتسابقون إلى الأمام نحو الثغرة ويكتشفون أنهم عرضة للهجوم من كـــل جانب، وستضيع طليعة جيشهم في حشد من الجنود المتمرسين. كان ذلك تكتيكاً جـــيداً. كان البديل إغلاق الممر تماماً. كان قد خطط لكلا الأمرين ووازن بينهما. هدأ نـــبض قلـــبه المتسارع، وأظهر أنه واثق من نفسه للرجال من حوله. بيد ثابتة، تناول دورق ماء وسكب كوباً، وأخذ يرتشف بينما كان يحدّق إلى الممر.

مـــن طرف عينه، رأى حركة في الوادي المغطى بالثلج. نظر إلى هناك وتجمد للحظـــة. كانت خطوط داكنة من الرجال تخرج من بين الأشجار، تشكل صفوفاً بينما كان يراقب ما يجري.

ألقـــى زهـــي زهونغ الدورق جانباً بينما كان المبعوثون يتسابقون عبر المعسكر ليـــنقلوا إليه آخر التطورات. لم يكن من الممكن تسلق القمم. كان ذلك مستحيلاً. حتى في صدمته، لم يتردد، وأصدر أوامر قبل أن يصل المبعوثون إليه.

جـــأر: "لتنـــتظم فرق الفرسان من واحد إلى عشرين في التشكيل! حافظوا على الجـــناح الأيسر واكتسحوا تلك الصفوف". تسابق الفرسان لنقل الأوامر وبدأت نصف قـــوة فرسانه الانفصال عن الجيش الرئيسي. راقب تشكيل خطوط المغول، التي تخطو عبـــر الثلج نحوه. لم يسمح لنفسه بأن يشعر بالذعر. كانوا قد تسلقوا القمم سيراً على الأقدام وسيكونون مرهقين. سيقضي عليهم رجاله.

بـــدا أن الأمر يستغرق وقتاً طويلاً من عشرين ألف فارس إمبراطوري لتشكيل صـــفوف علـــى الجناح الأيسر، وعند ذلك، كانت خطوط المغول قد توقفت. شدّ زهي

زهونــغ قبــضتيه فيما كانت الأوامر تنتقل ذهاباً وإياباً على طول الصف وبدأ فرسانه يدفعــون جيادهم للجري هرولة نحو العدو، الذي يقف في الثلج. لم يكن يستطيع رؤية أكثر من عشرة آلاف منهم، على الأكثر. لم يكن المشاة يستطيعون الوقوف ضد هجوم منضبط. سيتم تدميرهم.

فــيما كــان القائــد يــراقب، زاد فرسانه من سرعتهم، ورفعوا سيوفهم لتحصد رؤوســاً. أرغــم نفسه على النظر إلى الخلف إلى الممر، وفمه جافّ. كانوا قد دفعوا الأسرى أمامهم، استولوا على أحد الحصنين والتفوا حوله من فوق القمم. إذا كان ذلك كل ما لديهم، سوف يستطيع على الرغم من ذلك تحطيمهم. للحظة، اهتزت ثقته بنفسه وفكر بإغلاق الممر. لا، لم يصل الأمر إلى ذلك الحدّ بعد. كان احترامه لخان المغول قــد ازداد كثيــراً، لكــن القائد بقي واثقاً فيما كانت صرخات فرسانه تتردد في أنحاء الوادي.

# الفصل الثالث والعشرون



علـــى بعد تسعمئة خطوة، دفع فرسان تشن جيادهم للجري بأقصى سرعة. كان ذلــك مبكـــراً للغاية، كما ظنّ كشيون. وقف بهدوء يراقب مع تسعة آلاف رجل كانوا برفقته. على الأقل لم يكن الوادي عريضاً جداً بحيث يمكن تطويقه بسهولة. كان يشعر بعـــصبية الرجال من حوله. لم يكن أحد منهم قد واجه أبداً هجوماً سيراً على الأقدام، وفهمـــوا ما يشعر به عدوهم بالتأكيد. لمعت أشعة الشمس على دروع تشن والسيوف التي رفعها الفرسان، مستعدين لسحق الصف.

صـــرخ كـــشيون: "تذكروا هذا! لم يقابلنا هؤلاء الرجال في الحرب من قبل. لا يعرفون ما يمكننا القيام به. سهم واحد لإيقاعهم أرضاً، ثم آخر لقتلهم. اختاروا رجالكم وعند إشارتي، أطلقوا عشرين!".

ســـحب قوســـه إلى الخلف حتى أذنه، وشعر بقوة ذراعه اليمنى. كان قد تدرب طـــيلة ســـنوات لهـــذا الغرض، وقام ببناء عضلات حتى أضحت مثل الحديد. لم تكن ذراعـــه اليسرى بقوة اليمنى وكانت كتلة العضلات على كتفه تجعله يبدو مائلاً عندما يكـــون عاري الصدر. شعر بالأرض تهتز بينما كان حشد الفرسان يقترب منهم. على بعـــد ســـتمئة خطوة، جال ببصره على صفوفه، وخاطر بإلقاء نظرة على الرجال في الخلـــف. كانوا قد شدّوا أقواسهم، مستعدين لإرسال الموت إلى العدو. كان جنود تشن يـــصرخون فـــي أثـــناء اقتـــرابهم، وصوتهم يملأ الوادي ويصل إلى خطوط المغول الـــصامتة. كانوا مسلحين جيداً ويرتدون دروعاً ستحميهم من العديد من السهام. لاحظ كـــشيون كـــل تفصيل عندما اقتربوا بسرعة مخيفة. كان أبعد مدى للقتل أربعمئة يارد وتـــركهم يقتربون من دون التعرض لهم. على بعد ثلاثمئة يارد، رأى من طرف عينه أن رجاله ينظرون إليه، منتظرين أن يطلق سهمه.

عـــند مئتي يارد، كان صف الفرسان يشكل سوراً. شعر كشيون بالخوف يزداد داخله بينما كان يصدر أمره.

صرخ مزمجراً بينما كان يطلق سهمه: "اقضوا عليهم!". انطلق تسعة آلاف سهم في لحظة، تطقطق في الهواء.

ترنح الهجوم كما لو أنه اصطدم بخندق. سقط رجال عن سروجهم ووقعت جياد. ارتطــم أولئك الذين في الخلف بهم وجيادهم تعدو بأقصى سرعتها، وعند ذلك، وضع كــشيون الــسهم الثانــي على الوتر وسحبه للخلف. انطلق وابل آخر من السهام على الرجال المهاجمين.

لــم يكــن فرســان تشن يستطيعون التوقف، حتى إذا كانوا قد فهموا ما يجري. انهــارت الــصفوف الأولى وتلقى أولئك الذين عبروا بجيادهم فوقها موجة أخرى من السهام، وأصيب كل رجل بسهمين أو ثلاثة كانت تنطلق بسرعة لا يمكن معها رؤيتها. أفلــت اللجــام من الأصابع، وحتى عندما أنقذهم الدرع أو الترس، إلا أن قوة الصدمة الكبيرة قذفت بهم إلى الأرض.

عــدّ كشيون بصوت عالٍ بينما كان يطلق السهام، مستهدفاً الوجوه المكشوفة لجنود تشن الذين كانوا يقتربون منه. عندما لم يكن يرى وجهاً، كان يصوب على الصدر ويعتمد على رأس النصل الثقيل ليخترق قطع الحديد. شعر بأن كتفيه بدأتا تــؤلمانه عــندما وصــل إلــى السهم الخامس عشر. كان الفرسان المهاجمون قد استنفدوا طاقتهم ولم يقتربوا منهم. مدّ كشيون يده إلى الأسفل ووجد أنه قد استعمل عشرين سهماً.

صرخ، وهو يجري ببطء: "عشرون خطوة إلى الأمام، معي!". مشى رجاله معه، يسحبون حزماً جديدة من السهام من كناناتهم. رآهم جنود تشن يتحركون وكان لا يزال هــناك آلاف يكافحــون عبر صفوف الموتى. كان العديد منهم قد سقطوا من دون أن يــصابوا بجروح، وتعثرت جيادهم بالموتى والحيوانات النافقة. صرخ الضباط بأوامر لاعتلاء الجياد مجدداً وصاح الجنود عندما رأوا المغول يتقدمون إلى الأمام.

رفــع كــشيون قبضة ذراعه اليمنى فتوقف الصف. رأى أحد ضباطه يلطم شاباً بقوة كانت كافية لجعله يترنح.

قــال الــضابط بحــدّة: "إذا رأيتك تضرب جواداً آخر، سأقتلك بنفسي!". ضحك كشيون بصوت خافت.

صـــرخ، وتـــردد الأمـــر علـــى طـــول الصف: "عشرون أخرى! صوّبوا على الـــرجال!". كـــان فرســـان تشن قد تعافوا من انهيارهم الأول واستطاع رؤية ضباط يعتمرون خوذات عليها ريش يحثّون جنودهم على التقدم إلى الأمام. سدّد كشيون على واحد منهم عندما استدار الرجل على جواده، يلوح بسيف في الهواء.

تبعت تسعة آلاف سهم آخر ذاك الذي أطلقه كشيون وأصاب الرجل في عنقه. عند ذلك المدى، كانوا يستطيعون انتقاء ضحاياهم وكان وابل السهام مدمراً. تحطمت الهجمة الثانية بفعل السهام التي أزّت في الجو وبدأ جنود تشن يشعرون بالذعر. استطاع بضعة رجال الخروج سالمين من تلك الفوضى، والسهام تبرز من دروعهم. على الرغم من أن إصدار الأمر كان مؤلماً، إلا أن كشيون جأر: "الجياد!" للرجال من حوله وسقطت الجياد وقد تحطمت عظامها.

كانت عشرة سهام تنطلق كل ستين دقة قلب ولم يكن هناك تأجيل. مات أكثرهم شجاعة بسرعة ولم يبقَ سوى الضعفاء والخائفين، وحاولوا الاستدارة بجيادهم للعودة إلى رجالهم. كانت الخطوط خلفهم مزدحمة بجياد سقطت بعد تلقيها السهام، وكان فرسانها معلقين على السروج والسهام تبرز من صدروهم.

كانت كتف كشيون تؤلمه عندما أطلق سهمه الأربعين وانتظر حتى ينتهي الرجال حوله من ضرباتهم. كان الوادي أمامهم مليئاً بالدماء والموتى، وكانت هناك بقع حمراء من حوافر الجياد وأقدام الجنود في الثلج. لم تكن لديهم فرصة لشن هجوم آنذاك وعلى الرغم من أن ضباط تشن كانوا لا يزالون يصرخون بجنودهم لشق طريقهم بالقوة، إلا أنهم لم يكونوا يستطيعون القيام بذلك مرة أخرى.

جرى كشيون إلى الأمام من دون إصدار أمر ولحق به رجاله. عدّ عشرين خطوة، ثم ترك إثارته تتغلب على حكمه الصائب، ومشى عشرين خطوة أخرى حتى أضحى قريباً بشكل خطير من مجموعة من الرجال والجياد المنهارة. كانت مئة يارد فقط تفصل القوتين عندما ألقى كشيون بعشرين سهماً آخر على الثلج الذي لم يمسه أحد وقطع العقدة التي تربطها معاً. انتحب جنود تشن خوفاً عندما رأوا ذلك وتم شدّ الأقواس مجدداً. كان الذعر ينتشر بين صفوفهم وأصابتهم المزيد من السهام مما جعلهم يتشتتون.

في البداية، كان الاضطراب بطيئاً ومات كثيرون كانوا يحاولون الهرب في أثناء دفعهم إلى الأمام من الخلف. أطلق المغول بشكل منهجي على أي شيء يمكنهم رؤيته. سقط الضباط بسرعة وصرخ كشيون بصوت عالٍ عندما رأى الاضطراب ينتشر. تنحّى أولئك الذين لم يكونوا قد اقتربوا من الصفوف الأولى جانباً وأصيبوا بالخوف.

صرخ كشيون برجاله: "ببطء الآن!". أطلق سهمه الخمسين بينما كان يناديهم وفكّر في الاقتراب من الجنود ليكتمل الاضطراب. حذّر نفسه عندها، على الرغم من أنه كان يريد الجري وراء الجنود الهاربين. كان هناك وقت، كما قال لنفسه. تباطأت الحركة كما كان قد أمر وازدادت الدقة بشكل أكبر، وسقط مئات الرجال

مـــع أكثـــر من سهم في كل منهم. ستون، وقد أضحت الكنانات آنذاك خفيفة على ظهورهم.

توقـــف كشيون. كان قد بعثر الفرسان والعديد منهم يفرّون عائدين. كان لا يزال باســـتطاعتهم تنظيم صفوفهم، على الرغم من أنه لم يكن يخاف من هجوم آخر، ورأى فرصــــة لإلحـــاق الهزيمة بصفوفهم الخلفية. كان يعرف أن الاقتراب منهم خطير. إذا وصـــل جنود تشن إلى رجاله، قد يستطيعون تحويل الهزيمة إلى نصر. نظر كشيون إلى الوجوه البشوشة حوله واستجاب لها بضحكة.

قـــال: "هـــل ستمـــشون معي؟". تهللوا فرحاً ومشى بخطوات واسعة إلى الأمام، يسحب سهماً آخر من كنانته. هذه المرة، أمسك به على الوتر فيما كانوا يسيرون نحو الـــصفوف الأولـــى من الموتى. كان العديد منهم لا يزال حياً واستولى بعض المغول على سيوفهم الثمينة، واستغرق الأمر منهم لحظات ليطعنوهم بها تحت حزام ملابسهم. كـــاد كـــشيون يقـــع أرضاً بسبب جواد ينطلق عبر الصف. مدّ يده ليمسك اللجام لكنه أخطـــأه، وأوقـــف الجواد اثنان من رجاله على بعد مسافة قصيرة. كانت هناك مئات الجـــياد التي فقدت فرسانها وقد أمسك بآخر بينما كان يجري، ويصهل فزعاً من صف الرماة الصلب. عمل كشيون على تهدئة الجواد بفرك أنفه وشاهد أن فرسان تشن بدأوا يعيدون تشكيل صفوفهم. كان قد أظهر لهم ما يستطيع شعبه فعله بالأقواس. ربما كان الوقت قد حان ليعرفوا ما يستطيعون فعله عن صهوة جواد.

صرخ: "خذوا السيوف وامتطوا الجياد!". مرة أخرى، تكرّر الأمر ورأى رجاله يـــندفعون فرحين فوق الموتى ليقفزوا على سروج جياد تشن. كان هناك عدد أكثر من كاف منها، على الرغم من أن بعضها كان لا يزال خائفاً وملطخاً بدماء فارسه الأخير. قفز كشيون إلى السرج، ووقف على الركاب ليرى ما يفعله العدو. تمنّى لو أن خاسار كـــان هـــناك لـــرؤية ذلـــك. كان شقيقه سيحب انتهاز فرصة الهجوم على جيش تشن باســـتعمال جيادهم. صرخ متحدياً وضرب بكعبيه ردفي جواده، وانحنى منخفضاً فوق السرج عندما انطلق جواده قافزاً إلى الأمام.

* * *

كانت الفوضى تعم نهاية الممر عندما مرّ جنكيز فوق جثث القتلى. كانت أقواس جنود تشن قد قتلت تقريباً أسراه كلهم، وتكدس نصف مليون سهم حديدي تحت الأقدام. علـــى الرغم من ذلك، كان بعض الأسرى قد هربوا إلى صفوف تشن مذعورين. كان جنكيز قد رآهم يمسكون بأسلحة ويقيمون متاريس بأيدٍ ملطخة بالدماء.

أضحى وابل السهام المنتظم متقطعاً عندما وصل آخر الأسرى إلى الصفوف. شق المئات طريقهم إلى ما خلف الصف الأول، وهم يضربون ويركلون بيأس. عندما كانوا يجدون سلاحاً، كانوا يستعملونه ليضربوا به على نطاق واسع حولهم حتى يتم القضاء عليهم.

عندما تقدم جنكيز إلى الأمام، شعر بالسهام من حوله وانحنى فوق سرجه عندما مرّ أحدها قريباً جداً منه. كان جيش تشن الكبير أمامه وقد فعل كل ما يستطيع. اتسعت الثغرة عندما وصل إليها وأدرك أن جانباً واحداً فقط كان سوراً من صخور. من مكان بعيد في الخلف، كان قد فكّر في الثغرة كبوابة عظيمة، لكن بالقرب منها، رأى أن تشن كانوا قد رفعوا جذع شجرة ضخمة عالياً إلى أحد الجانبين. كانت هناك حبال تمتد إلى الأعلى وأدرك جنكيز أنه يمكن إسقاطها على الممر نفسه، وشطر جيشه نصفين. إذا سقطت، سيُقضى عليه. بينما كان الذعر يسري فيه، تباطأ تقدمه حتى توقف أمام تل من جثث القتلى. صرخ جنكيز محبطاً، منتظراً أن يتلقى ضربة أو أن تسقط الشجرة. نادى رجالاً أمامه بأسمائهم، وأمرهم بالتقدم سيراً على الأقدام وأشار إلى الجذع الضخم الذي سيحطم في حال سقط كل آماله. كافحوا للوصول إلى الحبال وقطعوها.

خلف الثغرة، استطاع جنكيز رؤية حركة في خطوط تشن. كان هناك خطأ ما وخاطر بالوقوف على ركابه ليتحقق من ماهيته. كان آخر الأسرى يدفع المتاريس الضعيفة التي تحمي جنود تشن في أثناء تجهيزهم لأسلحتهم. حبس جنكيز أنفاسه عندما انضم جنوده إلى الأسرى المجهدين، وكانت سيوفهم مثل خطوط لامعة في الشمس. كانت الأقواس قد صمتت أخيراً واستطاع جنكيز رؤية أيد تطلب المزيد.

كانت السهام قد نفدت منهم أخيراً، كما كان يأمل. كانت الأرض قد أصبحت سوداء بسبب مسامير صغيرة حديدية كانت قد ملأت كل جثة ملقاة على الأرض. وإذا بقيت الشجرة في مكانها فسيحقّق اختراقاً في صفوف تشن. شهر جنكيز سيف والده، وشعر بضغط مفاجئ يشبه انهيار سدّ. خلفه، رفع المغول رماحاً أو سيوفاً طويلة وضربوا بأقدامهم على أرداف جيادهم، وأرغموها على القفز فوق الجثث. تم تحطيم المتاريس الباقية. مرّ جنكيز تحت ظل الشجرة الضخمة ولم يستطع التوقف بينما كان يواجه جيش إمبراطور تشن.

انتشر الفرسان بين جنود تشن، وأعملوا سيوفهم عميقاً بين صفوفهم. ازداد الخطر مع كل مسافة كانوا يقطعونها، وكانوا يواجهون رجالاً ليس أمامهم فحسب، وإنما على كلا الجانبين أيضاً. ضرب جنكيز أي شيء يتحرك، بأسلوب جزّار يمكنه

المواظـبة علـيه طيلة ساعات. أمامه، رأى صفاً من الفرسان المذعورين يصطدمون بخطـوط جنودهم، ويشتتونها. لم يستطع التوقف لحظة للنظر إلى الخلف إلى الشجرة وذلـك العـدد الكبيـر مــن السيوف يدور حوله. فقط عندما اصطدم صف آخر من المحاربـين بالفرسـان الذين يدفعون جيادهم للجري بأقصى سرعتها، رفع بصره إلى الأعلـى بعـد أن أدرك أن محاربـي قومه يمتطون جياد تشن. صرخ بصوت أجش عـندها، وشـعر بالذعـر والارتباك الكبيرين في صفوف أعدائه. خلفه، كان رجاله يدمـرون أفـواج النـشّاب الضعيفة فيما كانوا يشقون طريقهم عميقاً داخل الصفوف المحتـشدة. لـم يكـن ذلك كافياً من دون الهجوم الجانبي، لكن جنكيز رأى الفرسان ينـشرون الفوضـى في صفوف تشن، وكان أفضل فرسان العالم يندفعون بقوة وسط أعدائهم.

أصـاب سـيف جـواده في عنقه، وتسبب بجرح بليغ تدفق منه الدم على وجوه الجـنود المقاتلـين. شعر جنكيز بالجواد يترنح وقفز عنه، وأسقط رجلين أرضاً عندما سقط عليهما بكل ثقله.

كـان شـعوره بالمعركة غائباً في تلك اللحظة ولم يكن بوسعه فعل شيء سوى الاستمرار بالقتال على الأقدام، على أمل أن يكون ذلك كافياً. كان المزيد من محاربيه يـتدفقون خـارج الممر ويندفعون نحو المركز... كان جيش المغول يدخل مثل قبضة مدرّعة تجعل صفوف تشن تدور حول نفسها.

لم يسع زهي زهونغ سوى أن يراقب ما يجري فاغراً فمه بينما كان المغول يدمرون صفوفه الأمامية. كان قد رأى إيقاف فرسانه ثم دفعهم إلى الخلف نحو الجيش الرئيسي مما نشر الذعر في الصفوف. كان واثقاً من قدرته على جعلهم يثبتون في مكانهم، لكن المغول اللعيـنين لحقـوا بهـم بعد ذلك على جياد مسروقة. كانوا يمتطون الجياد بمهارة مدهشة، ويتوازنون عليها بشكل ممتاز فيما يطلقون وابلاً من السهام بسرعة كبيرة، ويفتحون ثغرة. رأى فوجاً من حملة السيوف ينهار ثم تراجعت الصفوف الأولى عند الممر واندفعت موجة جديدة منهم عبر جنوده كما لو أنهم أطفال يحملون سيوفاً.

فغر القائد فمه، وذهنه غير قادر على استيعاب ما يجري. كان ضباطه ينظرون إلـيه بانتظار أوامره، لكن أحداثاً كثيرة كانت تقع بسرعة كبيرة وتجمّد في مكانه. لا، كـان لا يزال بمقدوره استعادة زمام المبادرة. كان أكثر من نصف جيشه لم يلتحم بعد بالعـدو كمـا أن عشرين فوجاً من الفرسان كانوا ينتظرون على طول الصف. طلب إحضار جواده وامتطاه.

صـــرخ: "أغلقوا الممر!"، وتسابق مبعوثوه على طول الصف إلى المقدمة. كان لديـــه رجـــال جاهزون لتنفيذ الأمر، إذا كانوا لا يزالون على قيد الحياة. إذا استطاع إيقاف تدفق المغول عبر الممر، يمكنه محاصرة وتدمير أولئك الذين اخترقوا صفوفه. كان قد رفع الشجرة كملاذ أخير، لكنها أضحت الشيء الوحيد الذي يمكنه توفير وقت كاف له لإعادة تجميع قواته.

رأى تـــسوبودي جنكيـــز يندفع عبر نهاية الممر، وحصانه يعدو بسرعة كبيرة. شعر بضغط كبير يزداد حوله عندما بدأ المزيد من الرجال يتبعون خانهم عبر الثغرة. صرخت ذئاب تسوبودي الفتية من الإثارة. كان العديد منهم لا يزالون محاصرين بين رجـــال وجـــياد لا يمكـــنهم تحريكها. كان بعضهم قد استدار عائداً في الحشد المتدافع ويكافح للعودة إلى القتال في الأمام.

لـــم يعـــد تسوبودي يرى جنكيز عندما شاهد أحد الحبال فوق رأسه يشتد عندما تـــسلقه الـــرجال. نظر إلى الأعلى، وفهم في لحظة بأن الشجرة غير الثابتة يمكن أن تسقط وتفصله عن أولئك الذين عبروا الثغرة.

لـــم يلاحـــظ رجالـــه الخطـــر وركلوا جيادهم ليحثّوها على التحرك إلى الأمام، يـــصرخون كما ينبغي لشباب مثلهم. أطلق تسوبودي لعنة عندما اشتد حبل آخر. كانت الشجرة ضخمة، لكنها لا تتطلب الكثير لرميها إلى الأسفل.

جـــأر بـــرجاله، مشيراً إلى الاتجاه بينما كان يسحب سهماً ويطلقه بأسرع ما يـــستطيع: "صـــوبوا إلى هناك!". أصاب سهمه الأول أحد جنود تشن في حنجرته ووقـــع مبـــتعداً عـــن الحبل، لكن المزيد ركضوا لتنفيذ أمر زهي زهونغ وبدأت الـــشجرة تـــنقلب. ردت ذئـــاب تسوبودي الفتية بعاصفة من السهام، وقضت على عـــشرات الرجال. كان الوقت قد تأخر. دفع آخر جنود تشن الجذع الضخم فوقهم تماماً، وسقط محدثاً دوياً هائلاً في الممر. لم يكن تسوبودي بعيداً أكثر من عشرين خطوة عن السهل حيث سقط الجذع. تراجع جواده خوفاً وكان عليه أن يشدّ اللجام ليسيطر عليه مجدداً.

حتـــى الأســـرى الناجون تنبّهوا مما هم فيه نتيجة الصوت. بينما كان تسوبودي يحـــدّق خائفاً ومذهولاً، أطبق الصمت على الصفوف المزدحمة للحظة قبل أن تخرج صرخة واحدة مرعبة من محارب سُحقت ساقاه. كان جانب الشجرة يسد الممر بارتفاع رجـــل. لـــم يكـــن بمقدور أي جواد القفز فوقها. شعر تسوبودي بآلاف العيون تتحول تلقائياً نحوه، لكنه لم يكن يعرف ما ينبغي عليه فعله.

تقلـــصت معدتـــه عـــندما رأى صفوفاً من رمّاحي تشن تظهر خلف الحاجز. تم إرغـــام أولـــئك الـــذين تجـــرأوا على إظهار وجوههم على التراجع إلى الخلف، لكن أســـلحتهم بقـــيت، وكان هناك خط من حديد ثقيل ظهر مثل أسنان على طول الجذع. فابتلع تسوبودي ريقه الجاف.

صـــاح: "فؤوســـاً! أريد فؤوساً هنا!". لم يكن يعرف كم سيستغرق الأمر لتحطيم مـــثل ذلك الجذع الضخم. حتى ينجحوا في ذلك، كان خانه سيبقى عالقاً على الطرف الآخر.

# الفصل الرابع والعشرون



رأى جنكيز الشجرة تسقط فصرخ غاضباً، وبتر رأس رجل عن كتفيه بضربة قوية واحدة. كان في بحر من الرايات الحمراء والذهبية، التي ترفرف بأصوات مثل خفق أجنحة الطيور. كان يقاتل وحيداً، ويائساً. لم يكونوا قد أدركوا بعد من يكون. حاول أولئك القريبون منه فقط القضاء على المحارب الذي يقاتل ويزمجر في وجههم. كان يدور ويندفع بينهم، ويستعمل كل قطعة من الدرع كسلاح؛ وأي شيء يمكن أن يبقيه حياً. ترك خلفه الألم ولم يتوقف عن الحركة أبداً. كان التوقف يعني الموت في مثل ذلك الحشد من الرايات.

شعر مقاتلو تشن بالتردد المفاجئ الذي اعترى أعداءهم وجأروا بتحدٍّ، وقد عادت ثقتهم إليهم. استطاع جنكيز رؤية قوة كبيرة من الفرسان الجدد تندفع على طول الجناح ولم يعد يستطيع رؤية شقيقه كشيون. كان مترجلاً بين أعداء، والغبار في كل مكان وعرف أن الموت على بعد خطوة فقط.

عندما شعر باليأس، سحق فارس جنوداً في طريقه وسحب الخان خلفه بقوة كبيرة. كان المصارع تولي. لهث جنكيز بالشكر للمحارب الضخم فيما كانا يستعملان سيفيهما ضدّ أولئك الذين يصرخون بهما. قعقعت السهام على درعيهما.

صرخ تولي من فوق رؤوس جنود تشن المحتشدين مدافعاً عن الخان: "إلي". رأى جواداً من دون فارس ووجّه جواده نحوه. بينما كان جنكيز يمتطي السرج الفارغ، تلقى ضربة على فخذه وصرخ ألماً. ركل بقوة، وكسرت قدمه فك الرجل. جعله الجرح يتنبه من حالة اليأس التي كانت تسيطر عليه ونظر حوله بين الضربات، وأصبح لديه انطباع عن ساحة المعركة.

كانت الفوضى عارمة. بدا أن مقاتلي تشن يقاتلون دون تشكيلات، ربما ظنوا أن أعدادهم الكبيرة كافية. على الرغم من ذلك، كان قائدهم إلى الشرق يعيد تنظيمهم. كان الفرسان على طول الجناح سيصلون إلى رجال جنكيز بعد الانتهاء من قتال حشد

الجنود. هزّ جنكيز رأسه لإبعاد الدم عن عينيه. لم يتذكر أنه أصيب بجرح، لكن رأسه كـان مكشوفاً بعد أن وقعت خوذته بعيداً. استطاع تذوق الدم وبصق إلى الأسفل بينما كان يضرب عنق جندي آخر.

صـرخ تولي، ووصل صوته بعيداً: "الخان!". سمعه كشيون واستجاب له، وكان يلـوّح بـسيفه فـي يده. لم يستطع الوصول إلى شقيقه وكان العديد من رجاله قد لقوا حـتفهم آنـذاك، وسُـحقوا تحت الأقدام. ربما بقي معه خمسة آلاف رجل. كانت كل كناناتهم خاوية وكانوا بعيدين جداً عن ممر بادغر والخان.

لـوّح كشيون بسيفه وأحدث جرحاً بليغاً على طول ردف جواده. تدفق الدم بينما كان الحصان يصرخ وينطلق فوق الرجال، ويضربهم في طريقه. كرّر كشيون النداء اليائس لرجاله أن يلحقوا به، وبالكاد كان يستطيع قيادة الجواد المصاب. مرّ عبر جنود تشن، يضرب أي شيء يمكنه الوصول إليه. كان الجواد يجري بجنون وسمع كشيون عظـم قفـصه الصدري ينكسر عندما اصطدم بعقبة ما. اندفع من فوق رأس الجواد، وضـرب رجـلاً آخـر بدرعه. صرخ أحد محاربيه خلفه وقبض كشيون على ذراع منخفضة، مذهولاً يشعر بالألم بينما كان يجلس على السرج خلفه.

قاتل الخمسة آلاف كما لو أنهم فقدوا عقولهم، من دون تفكير بسلامتهم. جرح أولئك الـذين حوصـروا جيادهم كما فعل كشيون، وجعلوها تركل وتصهل فيما كانت تعدو نحو السهل المكشوف بين الجبال. كان عليهم الوصول إلى جنكيز قبل أن يلقى حتفه.

شعر كشيون بالجواد الثاني يتعثّر وكاد يقع مرة أخرى. استعاد توازنه بطريقة ما واندفع عبر الخطوط نحو أرض مكشوفة، وقد اتسعت عينا الجواد خوفاً. كانت الجياد التـي لا يمتطيها فرسان في كل مكان وقفز كشيون على أحدها من دون تفكير، وكاد يمزّق ذراعه اليمنى في فم الجواد بينما كان يمسك باللجام. خرج من ساحة المعركة ثم كافح للسيطرة على الجواد المذعور حتى هدأ مجدداً. كان رجاله قد جاؤوا معه، على الـرغم مـن أنه لم يكن هناك أكثر من ثلاثة آلاف بعد الهجوم القوي على قلب جيش تشن.

صـرخ كـشيون، وهو يهزّ رأسه ليكون صاحياً: "هجوم!". بالكاد كان يرى ورأسه يـضج ألماً من أثر السقوط الأول على الأرض. شعر بأن كل وجهه متورم بينما كان يدفع جـواده للجري بأقصى سرعته على طول جناح الجيش عائداً إلى شقيقه. على بعد نصف مـيل أمامه، كان مؤخّر صفّ فرسان زهي زهونغ المؤلّف من عشرين ألف جواد ورجل يُهاجم لإغلاق الممر. كان كشيون يعرف أن عددهم كبير جداً، لكنه لم يخفف سرعته. رفع سيفه بينما كان ينطلق، ووضع ألمه جانباً وأظهر أسناناً حمراء للرياح.

لـم يكـن أكثر من ألف قد تمكنوا من عبور الممر قبل أن تسقط الشجرة. كان نـصف هـؤلاء قد لقوا حتفهم وتجمّع الباقون حول خانهم، مستعدين للدفاع عنه حتى آخـر رجل. تحرك جنود تشن حولهم مثل دبابير، لكنهم قاتلوا مثل رجال مهووسين، وطـيلة الوقت، كان جنكيز يلقي نظرات إلى الخلف على الجذع الذي يسد الممر. كان رجالــه مولــودين للحرب، وكل منهم أكثر مهارة من جنود تشن الذين قاتلوا من فوق ركـاب جـيادهم وماتوا. كانت كل كناناتهم خاوية، لكن العديد من الرجال ناوروا مع جيادهم كما لو أنهم مخلوق واحد. كانت الجياد تعرف متى تتراجع عن سيف يلوح في الهواء ومتى تركل صدر أي شخص يجرؤ على الاقتراب كثيراً. مثل جزيرة في بحر هـائج، تحرك فرسان المغول أمام جيش تشن ولم يستطع أحد إسقاطهم أرضاً. قعقعت سهام الأقواس على دروعهم، لكن الأفواج كانت محاصرة ولم تستطع التسديد جيداً. لم يكـن أحد يرغب بالاقتراب من تلك السيوف المضرجة بالدماء والمحاربين الشرسين. كـان أولئك الذين يقاتلون مع جنكيز ملطخين بالدماء، وأيديهم تلتصق بسيوفهم. كانوا رجالاً يصعب قتلهم. كانوا يعرفون أن خانهم معهم وأن كل ما عليهم فعله هو الصمود حتـى تـتمّ إزالة الحاجز. حتى عندها، بدأ عددهم يتناقص، على الرغم من أنهم كانوا يقـضون على عشرة أو عشرين مقابل كل رجل يسقط منهم. بدأ المزيد ينظرون إلى الممر، وعيونهم متجهمة ويأسهم يزداد فيما يتابعون القتال.

وصــل جـيلم وأرسلان معاً إلى الممر المسدود، وشاهدا تسوبودي شاحباً. أومأ القائد الشاب إلى الرجلين.

قــال جـيلم بحدّة: "نريد المزيد من العمال مع الفؤوس. بهذا المعدل، سيستغرق الأمر ساعات".

حـدّق إلـيه تسوبودي ببرود. "القيادة لك أيها القائد. كنت فقط أنتظر قدومك إلى هـنا". أدار جـواده بعيداً عنهما من دون أن ينطق بكلمة أخرى، وسحب نفساً عميقاً ليصرخ من فوق رؤوس رجاله. قال بحدّة: "ترجلوا أيها الذئاب! أقواس وسيوف! على الأقدام! معي!".

فـيما كــان القائدان البارزان يتوليان مهمة الإشراف على فرق الفؤوس، تسلق تــسوبودي جــذع الــشجرة، ونظر إلى الأسفل على رمّاحي تشن قبل أن يركل أحد الأسـلحة جانباً ويقفز عليهم. تبعه رجاله باندفاع كبير جعل فرق الفؤوس تبتعد عنهم. لم يكونوا ليدعوا قائدهم الشاب يذهب وحيداً لإنقاذ الخان وكانوا نشيطين وغاضبين من خدع مقاتلي تشن.

نظـــر جنكيز عالياً عندما انضم الذئاب الفتية إلى المعركة. شقوا طريقهم ضمن جنود تشن المتفاجئين من الخلف، وفتحوا ثغرة كبيرة في صفوفهم. بدا أن أولئك الذين أصـــيبوا بجراح لم يشعروا بها لأن عيونهم كانت معلقة على تسوبودي بينما كان يشق طـــريقه إلـــى الأمـــام. كان قد رأى الخان وكانت ذراعه لا تزال مرتاحة ذلك اليوم. ضـــرب جنود تشن بصف لا يتعدى عدد أفراده الاثني عشر شخصاً، وكانوا محاربين شباباً يتحركون بسرعة كبيرة ولا يمكن إيقافهم. فتحوا ثغرة أوصلتهم إلى جنكيز فوق درب من القتلى.

نـــادى جنكيـــز تـــسوبودي: "لقـــد كنت أنتظركم! ماذا تريدون مني في هذا الوقت؟".

ابتـــسم القائـــد الـــشاب لرؤية خانه حياً، حتى عندما ابتعد عن سيف بتّار وطعن الـــرجل الذي يحمله. سحب السيف وهو يطلق تنهيدة كبيرة وتعثر بجثة عندما تراجع إلـــى الخلف. كان جنود تشن يدورون حولهم، لكنهم كانوا لا يزالون يحتشدون بأعداد كبيرة بدا معها أنه يمكن تطويق حتى الألف الذي يقوده تسوبودي. عند خاصرة جيش تـــشن الكبيـــر، صـــدحت أبواق الفرسان واستدار جنكيز على السرج عندما تراجعت صفوف تشن بانتظام، وفتحت طريقاً لشن هجوم. نظر المحاربون المغول بعضهم إلى بعـــض عندما دفع فرسان تشن جيادهم للجري بأقصى سرعتها انطلاقاً من صفوفهم. كشّر جنكيز، وكان يلهث فيما تجمّع رجاله حوله.

قـــال: "تلك جياد جيدة. سأكون أول من يختار منها عندما ننتهي". ضحك أولئك الـــذين ســـمعوه، ثم، كرجل واحد، دفعوا جيادهم للجري خبباً، وانحنوا فوق السروج. تـــركوا تـــسوبودي وحـــيداً للسيطرة على الأرض حول الممر ودفعوا الجياد للجري بأقصى سرعتها قبل أن تصطدم القوتان بعضهما ببعض.

لقـــي قائـــد فرسان تشن حتفه في أول لحظة من القتال مع فرسان المغول. على صـــوت الحوافـــر، كـــان رجالـــه يلقون حتفهم من فوق سروجهم. لوّح أولئك الذين اســـتطاعوا تفادي الضربة سيوفهم في الهواء عندما انخفض فرسان المغول أو تمايلوا جانـــباً. كانـــوا قد تدربوا على هذا طيلة حياتهم. دفع جنكيز جواده للانطلاق بأقصى ســـرعته، عميقاً بين صفوف الفرسان، وكانت ذراعه التي تحمل السيف تؤلمه. لم تكن هـــناك نهايـــة لهـــم وتلقى ضربة جديدة فوق ردفه حيث كان الدرع قد انكسر. جعلته ضـــربة أخـــرى يتـــراجع إلى الخلف ورأى السماء الشاحبة تهتز فوقه قبل أن يستعيد توازنه. لم يسقط؛ ولم يكن بمقدوره ذلك. سمع صرخات عندما اصطدمت جياد كشيون بفرســـان تـــشن من الخلف وتساءل إن كان سيلتقي شقيقه في الوسط أو سيموت أولاً.

كانــت هناك أعداد كبيرة من الأعداء. لم يكن يتوقع أن ينجو آنذاك وجعل ذلك مزاجه أفــضل ودفعه ليقود جواده بين أعدائه في لحظة فرح غامر. كان من السهل أن يتخيل والــده معــه. ربما سيكون الرجل العجوز فخوراً أخيراً. لم يكن أبناؤه ليختاروا نهاية أفضل.

خلفــه، كان قد تم تحطيم الشجرة أخيراً إلى ثلاثة أجزاء. قاد أفراد جيش المغول جيادهم ببطء إلى الساحات المغطاة بالجليد، متجهمين ومصممين على الثأر لخانهم. قاد جــيلم وأرسلان جواديهما في المقدمة وكان كل من الأب والابن مستعدين. نظرا إلى رايات وأعلام تشن التي ترفرف من بعيد.

نــادى أرسلان ابنه: "لن أغير حياتي يا جيلم إن استطعت العودة بالزمن. سوف أكون هنا".

رد جيلم بابتسامة: "أين ستكون غير هنا أيها الرجل العجوز؟". وضع سهماً على وتر القوس وسحب نفساً عميقاً قبل أن يطلق أول سهم على صفوف العدو.

كان زهي زهونغ يراقب ما يجري بإحباط عندما فُتح الممر وتدفق منه عشرون ألــف محارب، مستعدين للقتال. لم تكن الآلهة قد وضعت الخان بين يديه. كان فرسان زهي زهونغ يشتبكون مع قوة الخان الصغيرة، فيما اندفعت مجموعة أخرى بين جنود تــشن مــثل نمــر يمزق بطن ظبي يجري. لم يكن يبدو أن المغول يتواصلون في ما بيــنهم، وعلــى الــرغم من ذلك كانوا يعملون معاً عبر ساحة المعركة، بينما كان هو المركــز الوحيد للقيادة. فرك زهي زهونغ عينيه، وحدّق إلى سحب الغبار فيما كانت المعركة دائرة.

كــان رمّاحوه غارقين في فوضى وقد ترك بعضهم السهل، وكانت أشكالهم تــبدو آنــذاك مــثل بقع بعيدة بين التلال. هل يمكنه إنقاذ المعركة؟ كانت الخدع كلّهــا قــد انتهت. وصل الأمر إلى القتال على سهل منبسط وكان لا يزال متفوقاً بالعدد.

أصــدر أوامــر جديــدة لمبعوثيه وراقب فيما كانوا يدفعون جيادهم للجري بأقصى سرعتها عبر ساحة المعركة. كان المغول من الممر يمطرون رجاله بسهم إثر آخر، ويشقون طريقهم وسط الجيش الذي كان ينتظرهم. كانت الدقة المتناهية تــرغم صفوفه على التراجع على بعضها، مما جعلها تتجمع حيث ينبغي عليها أن تكــون متباعدة. مسح زهي زهونغ العرق عن جبينه عندما رأى فرساناً يندفعون عبر رمّاحيه كما لو أنهم غير مسلحين. لم يسعه سوى أن يراقب ما يجري متجمداً

عندما انفصلوا إلى مجموعات من مئات، هاجموا من كل الزوايا بأقواسهم، ومزّقوا جيشه شرّ تمزيق.

بدا أن الأمر استغرق لحظة فقط قبل أن تلاحظ إحدى مجموعات الغزو أنه يقف هناك، يوجّه المعركة. رأى زهي زهونغ وجوههم تشرق عندما شاهدوا رايات الحرب الــضخمة حول خيمة قيادته. بينما كان يحدّق، رأى اثني عشر قوساً مشدودة باتجاهه وآخرين يشدّون لجام جيادهم لتحويل اتجاهها. كان المدى بعيداً جداً بالتأكيد. كان مئات مــن حرسه الشخصي يقفون في طريقهم، لكنهم لم يستطيعوا منع السهام وشعر القائد فجأةً بالخوف. كانوا مثل شياطين، هؤلاء الرجال من السهول. كان قد جرّب كل شيء وتدفقــوا مع ذلك نحوه. كان العديد منهم قد تعرض لجروح في القتال، لكن بدا أنهم لا يــشعرون بــالألم بينما كانوا يسحبون أقواسهم بأيدٍ ملطخة بالدماء ويوجهون جيادهم نحوه.

انغــرس سهم في صدره، وبرز من درعه مما جعله يصرخ. كما لو أن الصوت حرّر خوفه، فقد أعصابه تماماً وصرخ بحارسه، سحب جواده بقوة وحشية وقفز محنياً ظهــره علــى السرج. طنّت سهام أخرى فوق رأسه، وقتلت رجالاً حوله. كان القائد زهــي زهونــغ قــد فقد رباطة جأشه في مواجهة موته، وتبعثرت ثقته بنفسه. ضرب بعقبيــه علــى ردفــي جواده الذي انطلق بأقصى سرعة عبر الصفوف تاركاً حراسه وراءه.

لــم ينظــر إلى الأسفل إلى وجوه جنوده الذين اتسعت عيونهم دهشة عندما رأوه يتخلــى عــنهم. ألقــى الكثيرون أسلحتهم وركضوا ببساطة، مقتدين به. سقط بعضهم أرضــاً عــندما اصــطدم بهم جواده فيما كانوا يتحركون ببطء شديد. أضحت رؤيته مشوشة في الريح شديدة البرودة ولم يعرف شيئاً سوى الحاجة للهرب من المغول قساة الوجــوه الــذين يلاحقونه. خلفه، أصيب جيشه بانهيار كامل واستمرت المذبحة. اندفع جــيش جنكيــز نحــو جنود الإمبراطور، وقتلوا منهم حتى أصيبت أذرعهم بالإرهاق وأضحت أفواه جيادهم بيضاء من اللّعاب.

حــاول ضباط بارزون ثلاث مرات تجميع رجالهم، وفشلت كل محاولة لأن جنكيز اســتطاع الاســتفادة مــن الأرض الواسعة لشن هجمات وسحقهم. عندما نفدت آخر سهام جــيلم، عملــت الــرماح جــيداً بسرعة كاملة، وجعلت رجالاً يسقطون صرعى من تأثير الصدمة. كان جنكيز قد رأى قائد تشن يهرب ولم يعد يشعر بالجروح الفظيعة التي أصيب بهــا. ارتفعت الشمس عالياً فوق ساحة القتال، وبحلول الظهيرة، تكدست قوات الإمبراطور في جبال من القتلى الملطخين بالدماء، وتبعثر الباقون في كل اتجاه مُطارَدين.

فـيما كـان زهي زهونغ يقود جواده، فقد ذهنه الخدر الذي كان قد حل به. تلاشت أصوات المعركة من بعيد بينما كان يقود جواده بأقصى سرعة على طول الطـريق إلـى ينكينغ. نظر إلى الخلف مرة فقط إلى الحشد المتشابك من الرجال المتقاتلـين، وكـان العار والغضب مريرين. كان بعض حرسه الخاص قد امتطوا جيادهم للحاق بقائدهم، متمسكين بولائهم له على الرغم من فشله. من دون كلمة، قادوا جيادهم في تشكيل حوله، وكانت هناك كتيبة من حوالى مئة فارس تقترب من بوابات مدينة الإمبراطور.

عرف زهي زهونغ رجلاً يقود جواده إلى جانبه، وكان ضابطاً بارزاً من باوتو. لـم يـستطع في البداية أن يتذكر اسمه ولم يسعه سوى أن يستغرب من الأفكار التي تـدور فـي ذهـنه. لاحت المدينة بسرعة أمامهم وتطلب الأمر جهداً وإرادة كبيرين ليـستعيد رباطة جأشه ويجعل قلبه الذي يخفق بقوة يهدأ. لوجان. تذكر أخيراً أن اسم الرجل كان لوجان.

كـان القائـد يتـصبب عرقاً في درعه عندما نظر إلى الأسوار العالية والخندق المحيط بالمدينة. بعد الفوضى وإراقة الدماء، بدت المدينة مسالمة ووادعة وهي تستيقظ بـبطء لاسـتقبال يوم جديد. كان زهي زهونغ قد سبق أي مبعوثين وبقي الإمبراطور غير مدرك للكارثة التي وقعت على بعد عشرين ميلاً فقط.

قال للرجل إلى جانبه: "هل تريد أن يتم إعدامك يا لوجان؟".

رد الرجل: "لدي عائلة أيها القائد". كان شاحباً، ويفهم ما يواجهونه.

رد زهي زهونغ: "إذاً، أصغ إلي واتبع أوامري".

تـم التعـرف على القائد من بعيد وإنزال البوابة الخارجية فوق مساحة من الأرض تغمـرها المياه. استدار زهي زهونغ على السرج لإصدار أوامر للرجال خلفه.

قال بسرعة: "ينبغي إخبار الإمبراطور. يمكننا القيام بهجوم مضاد مع حرس المديـنة". رأى أن للكلمات تأثيرها في الرجال المهزومين، وأنها جعلتهم يشدون قامـاتهم فـوق سروجهم. كانوا لا يزالون يثقون بقائدهم لإنقاذ شيء من الكارثة. جعـل زهـي زهونـغ وجهه يبدو مثل قناع بينما كان يدخل إلى المدينة، وكانت أصوات الحوافر على الطرقات الممهدة عالية في أذنيه. كان قد خسر؛ وأسوأ من ذلك، كان قد هرب.

كـان القـصر الإمبـراطوري بـناءً ضخماً داخل المدينة، محاطاً بحدائق فائقة الجمال. توجه زهي زهونغ نحو أقرب بوابة كانت ستقوده إلى غرفة الاستقبال. تساءل

إن كـان الإمبـراطور الشاب مستيقظاً في تلك الساعة. كان سيتنبّه خلال وقت قصير جداً، عندما يسمع الأنباء.

تـم إرغام الحرّاس على الترجل عند البوابة الخارجية، ومشوا بخطوات واسعة إلـى الـداخل علـى طول طريق عريض تحيط به أشجار الزيزفون. قابلهم خدم، ثم تفـرقوا عبـر سلـسلة من القاعات. قبل أن يلتقوا الإمبراطور، سدّ جنود من حرس الإمبراطور الخاص طريقهم.

لـم يظهر أي شيء على زهي زهونغ عندما سلّم سيفه وانتظر أن يتنحوا جانباً. كـان جـنوده سيبقون في القاعات الخارجية فيما يتابع هو طريقه. تخيل بأنه كان يتم إيقاظ الإمبراطور وي في تلك اللحظة، وعبيده يطوفون حوله حاملين الأنباء بأن القائد قد عاد. سيغرق القصر بالشائعات، لكنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً بعد. ستظهر الصورة الكاملة للمأساة لاحقاً، لكن ينبغي أن يعرف الإمبراطور أولاً.

مـرّ وقـت طويل قبل أن يرى زهي زهونغ أبواب حجرة الاستقبال تُفتح أمامه ومـشى بخطـوات واسعة على الأرض الخشبية نحو الشكل الجالس على كرسي في الطـرف الآخـر. كمـا كان يعتقد، كان وجه الإمبراطور منتفخاً من النوم، وقد مشّط شعره على عجل حتى أن خصلاً منه كانت تتمايل فوق رأسه.

قال الإمبراطور وي بصوت متكلف: "ما هي الأنباء المهمة جداً؟".

شعر القائد بالهدوء أخيراً وسحب نفساً عميقاً بينما كان يجثو على ركبتيه.

قـال: "لقـد منحنـي جلالة الإمبراطور شرفاً كبيراً". رفع رأسه عندها وجعلت العيـنان اللتان ظهرتا من الوجه المكتئب الإمبراطور الشاب يمسك رداءه خوفاً. كان هناك جنون فيهما.

وقـف زهـي زهونغ ببطء، ينظر حوله في القاعة. كان الإمبراطور قد صرف وزراءه لـسماع الرسالة الخاصة من قائد جيشه. وقف ستة عبيد في أطراف الغرفة، لكـن زهي زهونغ لم يكن يكترث لهم. كانوا سيحملون الأنباء للمدينة كما فعلوا دائماً. أخرج زفيراً طويلاً. كان ذهنه مشوشاً ذلك الوقت، لكنه كان صاحياً على الأقل.

قـال، أخيراً: "لقد دخل المغول عبر الممر. لم أستطع صدهم". رأى الإمبراطور يشحب، ولون جلده يصبح مثل الشمع في الضوء القادم من نوافذ عالية.

سـأل الإمبـراطور وي وهو ينهض ليقف أمامه: "الجيش؟ هل تم إرغامنا على الانسحاب؟".

"لقد تحطم يا جلالة الإمبراطور".

حدّقت عينا قائد الجيش إلى الشاب الذي يواجهه ولم ينظر أحدهما بعيداً هذه المرة.

"خـدمت والدك بإخلاص يا جلالة الإمبراطور. معه، كنت سأنتصر. معك، أيها الأقل شأناً، خسرت".

فغـر الإمبراطور وي فمه مذهولاً. "جئت إلي بهذا النبأ وتجرؤ على إهانتي في قصري؟".

تـنهد القائـد. لم يكن لديه سيف، لكنه سحب سكيناً طويلة من حيث كان يخفيها تحت درعه. شهق الإمبراطور الشاب لدى رؤيتها، وقد شعر بالخوف ينتابه فجأة.

"لم يكن والدك ليسمح لي بالمجيء إليه يا جلالة الإمبراطور. كان ينبغي ألا تثق بقائـد جـيش عائـد مـن هزيمة". هزّ زهي زهونغ كتفيه استخفافاً. "بعد أن خذلتك، أصبحت أستحق الموت. ما الخيار الذي لدي غير هذا؟".

سـحب الإمبراطور نفساً عميقاً لينادي حراسه. اندفع زهي زهونغ نحوه وأطبق يـداً حـول حنجرته، وأخمد الصرخة. شعر بيدين تضربان على درعه ووجهه، لكن الفتـى كـان ضعيفاً واشتدت قبضته عليه. كان يستطيع خنقه عندها، لكن تلك ستكون إهانـة لابـن رجل عظيم. بدلاً من ذلك، وجد مكاناً في صدر الإمبراطور بينما كان يتلوى ويقاوم، وغرس السكين في قلبه.

سقطت اليدان بعيداً وعندها فقط شعر بألم الخدوش على وجنتيه. بلل الدم الثوب حول السكين ورفعه القائد ليعيده إلى كرسيه.

كـان العبـيد يـصرخون وتجاهلهم زهي زهونغ، ووقف أمام جثة الإمبراطور الشاب. لم يكن هناك خيار، كما قال لنفسه.

فُـتح الـباب الخارجي على مصراعيه واندفع حرّاس الإمبراطور إلى الداخل. رفعوا أسلحتهم ووقف زهي زهونغ لمواجهتهم، ورأى أشكال رجاله يملأون الممر في الخلـف. كان لوجان قد التزم بالأوامر التي صدرت له وكان ملطخاً بالدماء آنذاك. لم يستغرق أمر الإجهاز على آخرهم وقتاً طويلاً.

وقـف لـوجان وصـدره يعلـو ويهـبط، يحـدّق مستغرباً إلى الوجه الأبيض للإمبراطور الميت.

قال خائفاً: "لقد قتلته. ماذا سنفعل الآن؟".

نظر القائد إلى الرجال المرهقين الملطخين بالدماء الذين نقلوا ساحة المعركة إلى مثل ذلك المكان. ربما سينتحب لاحقاً على كل ما كان قد خسره، وكل ما اقترفته يداه، لكن الوقت لم يكن مناسباً لذلك آنذاك.

"سـنقول للـشعب إن الإمبـراطور مات وإنه ينبغي إغلاق المدينة وتحصينها. المغول قادمون إلى هنا ولا يمكننا فعل شيء آخر".

قـــال لوجان: "لكن من سيكون الإمبراطور الآن؟ أحد أولاده؟". كان شاحباً جداً ولم ينظر مجدداً إلى الجسد المسجّى على العرش.

رد زهي زهونغ: "عمر أكبر أبنائه لا يتجاوز السادسة. بعد الانتهاء من الجنازة، اجلبه إلي. سأحكم كوصي عليه".

حـــدّق لوجان إلى قائده. وهمس: "يحيا الإمبراطور الجديد"، وردّد الكلمات أولئك الموجودون حوله. بذهول تقريباً، انحنى لوجان حتى مس جبينه الأرض الخشبية. تبعه الجنود الآخرون وابتسم القائد زهي زهونغ.

قال بلطف: "عشرة آلاف سنة. عشرة آلاف سنة".

# الفصل الخامس والعشرون



تحولت السماء إلى اللون الأسود فوق الجبال، ووصل الدخان إلى بعد أميال. كان العديـــد مـــن جنود تشن قد استسلموا في النهاية، لكن القبائل كانت قد فقدت الكثير من أفرادها ولم تُظهر أي رحمة. استمر القتل عدّة أيام حول الممر، وكان هناك محاربون يلاحقون كل ناجٍ من الجنود الهاربين ويذبحونهم مثل حيوانات الغرير في الوطن.

تـــم إشعال نيران عظيمة من عصيّ الرماح والرايات. كانت العائلات قد مرّت بـــبطء عبـــر الممر خلف المحاربين، وأحضرت معها عربات وأدوات الكير لتذويب رؤوس الـــرماح والحـــصول مـــنها على الفولاذ. تم سحب مؤن تشن إلى المنحدرات الثلجية حتى يتم الحفاظ عليها.

لـــم يقم أحد بتعداد جثث تشن، ولم تكن هناك حاجة لذلك. لم يكن بوسع كل من رأى جبال الجثث أن ينساها أبداً. ساعد الأولاد والنساء في تعرية الجثث من دروعها وكـــل شـــيء ذي قيمة. كانت الرائحة مريعة بعد يوم واحد فقط وامتلأ الهواء بالذباب الذي طقطق واحترق في دخان النيران.

علـــى حافـــة النار، انتظر جنكيز قادة جيشه. كان يرغب برؤية المدينة التي كانت قد أرسلت مثل ذلك الجيش ضده. جاء كشيون وخاسار للانضمام إليه، وحدّقا برهبة إلى الخلف إلى حقل الدم والنار الذي يمتد بعيداً. كانت النيران تلقي بظلال متحـــركة على جبال الوادي وحتى القبائل كانت خانعة وهي تغني بأصوات خافتة على قتلاها.

انتظـــر الأشقاء الثلاثة بصمت بينما كان الرجال الذين استدعاهم جنكيز يقودون جـــيادهم هرولة نحوه، وقاماتهم مشدودة. جاء تسوبودي أولاً، شاحباً وفخوراً بغرزات سوداء قبيحة على طول ذراعه الأيسر. جاء جيلم وأرسلان معاً، ولونهما داكن بسبب النيـــران. كان هو سا وليان البنّاء آخر الواصلين. لم يبقَ سوى تيموج في الخلف لنقل المعـــسكر إلـــى نهر على بعد عشرة أميال شمالاً. كانت ألسنة اللهب ستبقى مستعرة

أياماً، حتـى من دون قيام القبائل بتغذيتها. كان الذباب يصبح أسوأ وأضحى تيموج عليلاً من الطنين المستمر ورائحة القتلى العفنة.

لـم يكن جنكيز يستطيع أن يشيح بناظريه بعيداً عن السهل. كان واثقاً أن ما يراه يعنـي مـوت إمبراطورية. لم يكن قد اقترب من قبل من الهزيمة والدمار مثلما كانت علـيه الحـال في المعركة عبر الممر. كان ذلك قد ترك أثره فيه وعرف أن بمقدوره دائماً إغلاق عينيه واستحضار الذكريات. كان قد تم لف ثمانية آلاف من رجاله بقماش أبـيض وأخذهم إلى الجبال. نظر إلى حيث يستلقون مثل أصابع من عظام في الثلج، بعيداً عنه. آنذاك، كانت الصقور والذئاب تنهش لحمهم. كان قد بقي فقط ليشهد تقديمهم إلى السماء، وتكريمهم مع عائلاتهم.

قال للقادة: "تيموج يدير المعسكر. فلنرَ ينكينغ هذه وإمبراطورها". ضرب بعقبيه على ردفي جواده الذي اندفع يجري إلى الأمام. بينما تبعه الآخرون، كما كانوا يفعلون دائماً.

مبنية على سهل كبير، كانت ينكينغ آنذاك أضخم مدينة رآها أي منهم. فيما كانت تظهـر أمامهم، تذكر جنكيز كلمات وين تشاو، دبلوماسي تشن الذي كان قد التقاه قبل عـدّة سـنوات. كـان قد قال إن الرجال يستطيعون بناء مدن مثل جبال. كانت ينكينغ إحدى تلك المدن.

كانـت تنهض على صخرة رمادية داكنة ترتفع خمسين قدماً على الأقل من أساسـها إلى قمتها. أرسل جنكيز ليان وهو سا حول المدينة لعدّ الأبراج الخشبية التـي ترتفع أكثر من ذلك. عندما عادا، كانا قد قطعا أكثر من خمسة أميال وعدّا أكثـر من ألف برج تقريباً، وقد بدت مثل أشواك على طول الأسوار. كان الأسوأ وصـف أسلحة الأقواس الضخمة على الأسوار، والتي يقوم عليها جنود صامتون يراقبون ما يجري.

راقـب جنكيـز ليان بحثاً عن إشارة ما على أن البنّاء لم يكن خائفاً، لكن الرجل كـان يطأطئ رأسه بشكل واضح فوق السرج. مثل المغول، لم يكن قد زار العاصمة من قبل ولا يستطيع التفكير بطريقة لتحطيم أسوار بذلك الحجم.

علـى زوايا المستطيل الضخم، انتصبت أربعة حصون منفصلة عن الأسوار الرئيسية. كان هناك خندق عريض بين الحصون والأسوار ويوجد آخر يطوقها من الخـارج. كانـت قـناة كبيرة الثغرة الوحيدة في الأسوار نفسها، وتمر عبر بوابة ضـخمة مـن الحديـد والتـي كانـت بالمقابل محمية بمنصات عليها رماة سهام

ومنجنيقات. كانت القناة تمتد نحو الجنوب، إلى أبعد نقطة يمكن لأحدهم رؤيتها. كان كل ما يتعلق بينكينغ ضخماً جداً ولا يمكن تخيله. لم يستطع جنكيز التفكير بطريقة لفتح البوابات.

في البداية، بقي جنكيز وقادة جيشه قريبين مثلما كانوا من ينشوان، أو بعض مدن تشن الأخرى إلى الغرب. ثم صدح صوت صوت في هواء المساء وتجاوزهم شيء داكن جعل جواد كشيون يترنح من قوة تأثيره. كاد جنكيز يقع عندما تراجع جواده ولم يسعه سوى التحديق بذهول إلى سهم انغرس حتى منتصفه في الأرض الطرية، وكان مثل جذع شجرة أملس أكثر منه سهماً.

من دون أي كلمة، تراجع قادة جيشه إلى ما بعد مدى السلاح المخيف، وانخفضت معنوياتهم أكثر بعد أن فهموا جزءاً آخر من الدفاعات. كان الاقتراب أكثر من خمسمئة خطوة يعني دعوة المزيد من الأعمدة الضخمة برؤوسها الحديدية. كانت مجرد فكرة غوص أحدها في حشد من فرسانه تبث الرعب في القلوب.

استدار جنكيز فوق السرج إلى الرجل الذي كان قد حطّم أسواراً أقل ضخامة.

سأل: "هل يمكننا الاستيلاء على المكان يا ليان؟". لم ينظر البنّاء إلى عينيه وحدّق إلى المدينة. أخيراً، هزّ رأسه.

قال: "ليس لمدينة أخرى سور بهذا العرض في الأعلى. من ذلك الارتفاع، سيكون لديهم دائماً مدى أوسع مما يمكنني الوصول إليه. إذا بنينا متاريس حجرية، ربما أستطيع حماية المنجنيقات؛ لكن إذا كنت أستطيع الوصول إليهم، يمكنهم بالتأكيد الوصول إلي وتحويل المنجنيقات إلى حطب".

حدّق جنكيز بإحباط باتجاه ينكينغ. كان الوصول إلى ذلك الحد والتوقف على الرغم من ذلك عند العقبة الأخيرة يثير الحنق. قبل يوم واحد فقط، كان يهنئ خاسار على استيلائه على الحصن في الممر وكشيون على هجومه الموفق. كان يعتقد عندها أنه لا يمكن إيقاف شعبه، وأن النصر سيتحقق بسهولة دائماً. كان جيشه يعتقد ذلك بالتأكيد. كان محاربون يتهامسون أن العالم له ليستولي عليه. بمواجهة ينكينغ، كان يشعر بسخرية الإمبراطور من مثل ذلك الطموح.

لم يظهر على وجه جنكيز أي تعبير عندما استدار إلى شقيقيه.

"ستجد العائلات هنا أرضاً جيدة لجمع القوت. سيكون هناك وقت للتخطيط للهجوم على هذا المكان".

أومأ خاسار وكشيون متشككين. كانا يستطيعان أيضاً رؤية الفتح الكبير يتوقف عند قدمي ينكينغ. مثل جنكيز نفسه، كانا قد أصبحا معتادين على الإيقاع السريع

والمثير للاستيلاء على المدن. كانت عربات شعبهم آنذاك محمّلة بالذهب والثروة التي تكسر محاورها في أي رحلة طويلة.

سأل جنكيز فجأة: "كم سيستغرق تجويع مثل هذه المدينة؟".

لم تكن لدى ليان أي فكرة مثلهم، لكنه لم يرغب بأن يقر بجهله.

"كنت قد سمعت أن أكثر من مليون من رعايا الإمبراطور يعيشون في ينكينغ. من الصعب تخيل إطعام مثل ذلك العدد الكبير، لكن بالطبع لديهم صوامع ومخازن كبيرة. كانوا يعرفون أننا قادمون منذ شهور". رأى جنكيز يقطّب حاجبيه وتابع كلامه بسرعة. "يمكن أن يصل الأمر إلى ثلاث سنوات، أو حتى أربع، يا مولاي".

تأوه خاسار بصوت عالٍ من التقدير، لكن أصغرهم تسوبودي أشرق وجهه. "لم يعد لديهم جيش لفك الحصار يا مولاي. لا حاجة بك لإبقائنا جميعاً هنا. إذا لم نستطع تحطيم الأسوار، ربما ستسمح لنا بالانتشار في هذه الأرض الجديدة. نظراً للظروف الحالية، ليس لدينا حتى خرائط لما يوجد خلف ينكينغ".

نظر جنكيز إلى القائد، ورأى التعطش في عينيه. وشعر بمزاجه يتحسن.

"هذا صحيح. إذا كان علي الانتظار حتى يصبح هذا الإمبراطور جلداً وعظماً قبل أن يستسلم، على الأقل لن يتوقف قادة جيشي عن العمل". أشار بذراعه إلى أرض تبدو من بعيد شاسعة جداً بشكل لا يمكن لأي منهم أن يتخيله.

"عندما تستقر العائلات، تعالوا إلي من أي اتجاه وستكون الأرض لكم. لن نضيع الوقت هنا ونصبح بدينين وكسالى".

ابتسم تسوبودي، وحماسته تلهب الآخرين وتبدل مزاجهم السيئ الذي كان سائداً سابقاً.

رد: "كما تشاء يا مولاي".

بدرع أسود مصقول لامع، مشى القائد زهي زهونغ غاضباً بينما كان ينتظر وزراء الإمبراطور للانضمام إليه في قاعة التتويج. كان النهار هادئاً واستطاع سماع نعيب الغربان في الخارج. لم يكن هناك شك بأن الذين يأخذون بالإشارات سيستنتجون شيئاً من الطيور المزعجة، إذا رأوها.

كانت جنازة الإمبراطور وي قد انتهت منذ عشرة أيام، ومزّق نصف سكان المدينة ملابسهم ووضعوا الرماد على جلودهم قبل أن يتم حرق الجثة. كان زهي زهونغ قد تحمّل خطباً لا تنتهي من عائلات النبلاء. لم يكن أحد منهم قد ذكر طريقة موت الإمبراطور، ليس وزهي زهونغ يحدّق إليهم وحراسه يقفون وأيديهم على

مقـــابض سيوفهم. كان قد قضى على رأس الإمبراطورية، وأنهى الأمر بضربة واحدة إلا أن كل شيء آخر بقي على حاله.

كانت الفوضى عارمة في الأيام القليلة الأولى، لكن بعد إعدام ثلاثة وزراء رفعوا عقيـــرتهم بالكلام، انهارت أي مقاومة أخرى، ومضت الجنازة الكبيرة قدماً كما لو أن الإمبراطور الشاب كان قد توفي في أثناء نومه.

كـــان مفيداً اكتشاف أن النبلاء الحاكمين كانوا قد أعدوا خططاً للمناسبة قبل وقـــت طـــويل من وقوعها. كانت إمبراطورية تشن قد نجت من ثورة وحتى من مؤامرة لقتل الإمبراطور من قبل. بعد موجة الاعتداءات الأولى، عادت الأمور إلى مجراها وارتاح الجميع تقريباً. كان الفلاحون في المدينة لا يعرفون شيئاً سوى أن ابن السماء كان قد ترك جسده الفاني. انتحبوا بجهل في شوارع المدينة على غير هدى بهستيريا وأسى.

لـــم يكن ابن الإمبراطور الصغير قد بكى عندما سمع بموت والده. في ذلك على الأقـــل، كان الإمبراطور وي قد جعل عائلته تستعد جيداً. كان لدى والدة الفتى إدراك كـــافٍ لتعـــرف أن أي احتجاج سيعني موتها، وكانت قد بقيت صامتة خلال الجنازة، شـــاحبة وجميلة فيما كانت تراقب جثة زوجها تتحول إلى رماد. عندما انهارت محرقة الجنازة وارتفعت ألسنة اللهب، اعتقد زهي زهونغ بأن نظرتها تستقر عليه، لكن عندما نظر إلى الأعلى، كان رأسها منخفضاً تضرعاً لإرادة الآلهة. إرادته، كما اعتقد، على الرغم من أن النتيجة كانت نفسها.

صكّ القائد أسنانه غضباً بينما كان يمشي. أولاً، كانت الجنازة قد استغرقت وقتاً أطـــول مما كان يعتقد أنه ممكن ثم قيل له إن التتويج سيستغرق عدّة أيام أخرى. كان ذلك يثير الحنق. كانت المدينة مفجوعة ولا أحد من الفلاحين يعمل فيما تجري أحداث عظـــيمة أمـــامهم. كـــان قد تحمّل جلسات قياس لا تنتهي لتفصيل ملابس جديدة تليق بمنـــصبه كوصي. كان قد بقي صامتاً حتى عندما ألقى الوزراء بعصبية على مسامعه محاضـــرات عن مسؤولياته الجديدة. بالإضافة إلى كل ذلك، كان خان المغول يتجول مثل ذئب عند الباب، ويراقب المدينة.

فـــي ســـاعات فراغه، كان زهي زهونغ قد صعد الدرجات إلى اثني عشر مكاناً علـــى السور ليشاهد القبائل القذرة تستقر على الأرض الإمبراطورية. اعتقد أحياناً أنه يـــستطيع شمّ لحم ضأنهم العفن وحليب ماعزهم في النسيم. كان من المزعج أن يتغلب علـــيه رعـــاة الأغنام، لكنهم لن يستولوا على ينكينغ. كان الأباطرة الذين بنوا المدينة يرغبون بأن تكون استعراضاً لقوتهم. لن تسقط بسهولة، كما أخبر زهي زهونغ نفسه.

كان لا يزال يستيقظ في الليل من كوابيس يتصور فيها نفسه ملاحقاً، قرقعة سهام الأقواس مثل بعوض يطنّ في أذنيه. ما الذي كان يستطيع فعله غير ذلك؟ لم يكن أحد يعتقد أن المغول يستطيعون تسلق أعلى القمم لتطويقه. لم يعد زهي زهونغ يشعر بذل الهـزيمة. لقد كانت الآلهة ضده وعلى الرغم من ذلك منحته المدينة بين يديه كوصي. كـان سـيراقب جيش المغول يتحطم على الأسوار، وعندما تثخنهم الجروح، سيمسك رأس خانهم بيديه ويدفنه في أعمق حفرة غائط في المدينة.

جعلت الفكرة مزاجه يتحسن بينما كان ينتظر ظهور الإمبراطور الفتى. في مكان ما بعيد، كان يسمع أجراساً تُقرع، معلنة ظهور ابن السماء الجديد على الشعب.

فُـتحت الأبواب إلى قاعة التتويج لتكشف الوجه الذي يتصبب عرقاً لروين تشو، الوزير الأول.

قـال عـندما رأى زهي زهونغ: "مولاي الوصي! أنت لا ترتدي ثوبك! سيكون جلالة الإمبراطور هنا في أي لحظة". بدا كما لو أنه على وشك الانهيار، بعد أيام من تنظيم الجنازة والتتويج. وجد زهي زهونغ الرجل البدين مثيراً للغضب وأسعده التأثير الذي كانت كلماته ستتركه.

"لقد تركتها في غرفتي، أيها الوزير. لن أحتاج إليها اليوم".

"لقد تم التخطيط لكل لحظة من الاحتفال يا مولاي الوصي. ينبغي...".

قال زهي زهونغ بحدة: "لا تقل لي *ينبغي*. أحضر الفتى إلى هنا وضع التاج على رأسه. أنشدوا، غنّوا، أشعلوا البخور، افعلوا ما يحلو لكم، لكن قل كلمة واحدة لي بشأن ما ينبغي عليّ فعله وسأقطع رأسك".

فغر الوزير فمه دهشة، ثم أخفض عينيه، وكان يرتعش بشكل ظاهر للعيان. كان يعـرف أن الرجل الذي يواجهه قد قتل الإمبراطور. كان قائد الجيش خائناً قاسياً ولم يكـن روين تشو يشك بأنه سيريق المزيد من الدماء في يوم التتويج. أحنى رأسه بينما كـان يمـشي إلى الخلف، ويفتح الأبواب. سمع زهي زهونغ الخطوات البطيئة لسير شـخص وانتظـر بصمت بينما كان الوزير يلتقي القادم. ضحك بصوت خافت عندما سمع الخطوات تسرع.

عـندما فُـتحت الأبواب مجدداً، كانت هناك نظرة خوف مؤكدة في حاشية الفتى الـبالغ من العمر ست سنوات والذي سيصبح إمبراطوراً. رأى زهي زهونغ أنه كان يتحمل الموقف جيداً، على الرغم من أنه لم ينم كثيراً في الأيام الماضية.

تـباطأ التقدم مجدداً عندما تجاوز زهي زهونغ، متجهاً نحو العرش الذهبي. كـان الرهبان البوذيون يلوحون بأوعية بخور تملأ الهواء بدخانها. كانوا يشعرون

بالتوتر أيضاً لرؤية قائد الجيش مرتدياً درعه، والرجل الوحيد الذي يحمل سيفاً في الغـرفة. مـشى خلفهـم بينما كان ابن الإمبراطور وي يأخذ مكانه على العرش. كانـت تلـك بداية المرحلة النهائية فقط. كانت تلاوة الألقاب وحدها ستستمر حتى الظهيرة.

راقـب زهي زهونغ ما يجري بغضب بينما كان الوزراء يرتاحون في أماكنهم، ويجلسون مثل طواويس حول مركز الاحتفال. جعلته الرائحة يشعر بالنعاس ولم يسعه سوى أن يفكر بالمغول في السهول خارج المدينة. في البداية، كان قد شدّد على الحاجة لإجراء الطقوس، وكانت تلك طريقة للحفاظ على النظام بعد أن قتل الإمبراطور. كانت المديـنة ستثور من دون يد قوية تحكمها وكان من الضروري السماح للنبلاء ممارسة تقالـيدهم كمـا يحلو لهم. كما أنه كان متعباً آنذاك من الأمر. كانت المدينة هادئة في حـزنها والمغـول قـد بدأوا يبنون منجنيقات ضخمة، ويرفعون أسواراً من الحجارة لحماية أسلحتهم.

فـي إشـارة إلـى نفاد صبره، مشى زهي زهونغ بخطوات واسعة إلى الأمام، مقاطعـاً صـوت الـراهب الرتيب. تجمد الفتى الصغير عندما نظر إلى الشكل الذي يرتدي درعاً داكناً. أخذ زهي زهونغ التاج الإمبراطوري من حيث كان موضوعاً على وسـادة مـن الحرير المذهب. كان ثقيلاً بشكل مدهش، وللحظة، امتلأ رعباً من فكرة تسليمه. كان قد قتل الرجل الذي كان يضعه.

وضعه بإحكام على رأس الإمبراطور الجديد. قال: "كسوان، أنت إمبراطور، ابن الـسماء. لـيكن عهدك حكيماً". تجاهل الصدمة في وجوه الرجال حوله. "أنا الوصي علـيك، ويدك اليمنى. حتى تبلغ العشرين من العمر، ستطيعني في كل شيء، من دون نقاش. هل تفهم ذلك؟".

امـتلأت عيـنا الفتى الصغير بالدموع. لم يكن يدرك تماماً ما يحدث، لكنه تمتم رداً. "أنا... أنا أفهم".

"انتهى الأمر إذاً. ليسعد الشعب. سأذهب إلى السور".

تـرك زهـي زهونـغ الوزراء المذهولين خلفه في غفلتهم وفتح الأبواب على مـصراعيها ومـشى خارجـاً من القصر. كان البناء يشرف على بحيرة سونغي التي تغذي القناة الكبيرة، وسمح له الموقع من أعلى الدرجات بالنظر إلى المدينة بينما كان الرعايا ينتظرون الأنباء. كان كل جرس سيقرع وسيشرب الفلاحون طيلة أيام. سحب نفـساً عمـيقاً وارتعش بينما كان يقف هناك، ونظر إلى الأسوار الداكنة. خلفها، كان أعداؤه يبحثون عن نقطة ضعف. لكنّهم لن يدخلوا.

جلس تيموج يحدّق حالماً إلى ثلاثة رجال كانوا مرة زعماء بين قومهم. استطاع رؤية تغطرسهم في كل عمل يقومون به، وازدراؤهم له يكاد يظهر في نظراتهم. متى سيفهمون ألا سلطة لهم في النظام الجديد الذي كان شقيقه قد وضعه؟ لم يكن هناك سوى *غورخان* واحد، رجل واحد أعلى شأناً منهم جميعاً. كان شقيقه يجلس أمامهم، وعلى الرغم من ذلك كانوا يجرؤون على التكلم إلى تيموج كما لو أنهم أنداد له.

فيما كانت القبائل تنصب خيامها في السهل أمام ينكينغ، كان مصدر سعادة لتيموج إبقاء الرجال ينتظرون كما يرغب. كان جنكيز قد أظهر ثقته به بمنحه *لقب سيد التجارة* على الرغم من أن تيموج نفسه كان قد حدد طبيعة الدور بمواجهة معارضة فظّة. كان سعيداً بالسلطة التي يتمتع بها ويبتسم دائماً عندما يفكر في طول المدة التي أبقى فيها كوكشو ينتظر رؤيته قبل يوم. كان الكاهن العرّاف شاحباً من الغضب في الوقت الذي سمح له فيه تيموج أخيراً بالدخول إلى خيمة الخان. كان سماح الخان له باستعمال خيمته لإدارة عمله دليلاً على دعم جنكيز في إشارة لم يكن أحد غافلاً عنها. لم تكن هناك فائدة من اللجوء إلى جنكيز إذا لم يكونوا يقبلون بحكم صدر باسمه. كان تيموج قد تأكد من أنهم يفهمون ذلك. إذا كان كوكشو يرغب بجمع رجال لاستكشاف معبد على بعد مئة ميل، كان ينبغي أن تتم الموافقة على الطلب وطريقة توزيع الغنائم من قبل تيموج نفسه.

شبك تيموج يديه أمامه، وهو بالكاد يصغي إلى الرجال الذين كانوا زعماء. كان الأب ويلا يستند على اثنين من أبنائه، لأنه لم يكن قادراً على الوقوف وحده. كان من اللباقة أن يعرض عليه كرسياً، لكن تيموج لم يكن بالشخص الذي ينسى جروحاً قديمة. وقفوا وتكلموا عن الرعي والأخشاب، بينما كان ينظر بعيداً.

كان ويلا يقول: "إذا لم تسمحوا للقطعان بالانتقال إلى مراعٍ جديدة لا تحمل إحدى علاماتكم الصغيرة، فسنضطر إلى ذبح حيوانات موفورة الصحة بدلاً من أن تتضور جوعاً". كان جسده قد أصبح أضخم منذ قطع جنكيز وتري قدميه. كان تيموج يستمتع برؤية وجه الرجل يصبح أحمر اللون غضباً ونظر إليه متكاسلاً من دون أن يرد عليه. لم يكن أحدهم يحسن القراءة أو الكتابة، كما ذكّر نفسه بارتياح. كانت العلامات فكرة رائعة، وتحمل رمز ذئب ملتهب في ساحات من خشب الصنوبر. كان لديه رجال في المعسكر يطلبون رؤية مثل تلك العلامة إذا شاهدوا محاربين يقطعون أشجاراً، أو يتقاسمون ثروة من غنيمة، أو أي شيء آخر. لم يكن النظام مكتملاً بعد، لكن جنكيز كان قد دعمه بإعادة أولئك الذين يشتكون خالي الوفاض، ووجوههم شاحبة من الخوف.

عـندما أنهـى الـرجال خطبتهم المطوّلة، تكلم إليهم تيموج بلطف كما لو أنهم يناقـشون حالـة الطقـس. كان قد اكتشف أن نبرة الصوت الناعمة تساعد في تهدئة غضبهم وكان يسعده التعامل معهم بتلك الطريقة.

قـال وهو يهزّ رأسه مؤنباً: "في كل تاريخنا، لم نكن قد جمعنا هذا العدد الكبير مـن الـناس فـي مكان واحد. ينبغي أن نكون منظمين، إذا أردنا العيش برخاء. إذا سـمحت للجمـيع بقطـع الأشـجار كما يحلو لهم، فلن يبقى شيء للشتاء القادم. هل تفهمون؟ وفقاً لما تجري عليه الأمور الآن، نأتي بالأخشاب فقط من الغابات التي تبعد مـسيرة أكثر من ثلاثة أيام، ونجرّها إلى هنا. يستغرق ذلك وقتاً وجهداً، لكنكم سترون الفائدة السنة القادمة".

بقـدر مـا أغضبهم كلامه اللطيف، إلا أن الجزء البهيج كان أنهم لا يستطيعون نقض منطقه. كانوا رجال قوس وسيف وكان قد اكتشف أنه يستطيع نسج دوائر حولهم فيما هم مرغمون على الاستماع إليه.

سأل خان ويلا المقعد: "فكرة الرعي؟ لا يمكننا تحريك معزاة من دون أن يطلب أحـد رجالـك المـشوهين علامـة على موافقتك. يزداد قلق القبائل من يد حاكمة لم يعرفوها من قبل".

ابتسم تيموج للرجل الغاضب، ورأى كيف أن وزنه قد أصبح مجهداً لابنيه اللذين يقفان عند كتفيه.

"آه، لكـن لم يعد هناك قبائل يا ويلا. ألم يكن ذلك درساً تعلمته؟ كنت أعتقد أنك تتذكره كل يوم؟". أومأ بإشارة من يده ووضع خادم من تشن كوباً من الشراب الأسود في يده. كان تيموج قد عثر على كادره بين أولئك الذين سباهم جنكيز من المدن. كان بعضهم خدماً لعائلات نبيلة ويعرفون كيف يعاملون رجلاً في مكانته. كان يبدأ كل يوم بحمـام ساخن في حوض حديدي تم بناؤه خصيصاً لذلك الغرض. كان الرجل الوحيد فـي المعسكر الذي يفعل ذلك، وللمرة الأولى في حياته، استطاع أن يشم رائحة قومه. تغضّن أنفه من تلك الفكرة. كانت تلك هي الطريقة التي ينبغي أن يحيا عليها الإنسان، كما قال لنفسه، وهو يرتشف الشراب فيما كانوا ينتظرون.

"هـذه أيام جديدة أيها السادة. لا يمكننا الانتقال من هنا حتى تسقط المدينة، وهذا يعنـي أن نديـر عملـيات الرعي بحرص. لو أنني لم أضع بعض القيود، لأصبحت الأرض خالية من العشب بحلول الصيف وأين سنكون حينها؟ هل سيكون شقيقي بعيداً عـن قطعانه ألف ميل؟ لا أعتقد أن هذا ما تريدونه". هزّ كتفيه استخفافاً. "ربما نجوع قلـيلاً نهاية الصيف. ربما سنضطر لذبح بعض القطعان، إذا لم تستطع الأرض إطعام

الكثيـر مـنها. ألم أرسل رجالاً للبحث عن الملح لتقديد اللحم؟ سيتضور الإمبراطور جوعاً قبل أن نجوع نحن".

حـدّق إليه الرجال بإحباط صامت. كانوا يستطيعون المجاهرة بأمثلة عن قيادته فـي المعـسكر الشاسع. كان لديه جواب لكل منها. ما لم يستطيعوا التعبير عنه كان غـضبهم عند استدعائهم لتقديم فروض الطاعة عند كل مناسبة يصدر فيها حكم جديد من تيموج. لم يكن ينبغي إقامة مراحيض بالقرب من المياه الجارية. كان ينبغي تزويج الجياد فقط وفقاً للائحة سلالات الدم التي وضعها تيموج بنفسه، من دون استشارة أحد. لـم يعـد بمقدور رجل يمتلك مهرة وجواداً رائعين تزويجهما معاً من دون طلب إذن بذلك. كان ذلك يضايقهم جميعاً وكان صحيحاً أن الاستياء يعم المعسكر.

لم يجرؤوا على رفع عقيرتهم بالشكوى علانية، ليس وجنكيز يدعم شقيقه. لو أنه استمع إلى شكواهم، لكان قوّض سلطة تيموج وألغى المنصب الجديد. كان تيموج يفهم ذلك، ويعرف شقيقه أفضل بكثير مما يعرفونه. حالما منحه جنكيز ذلك الدور، لم يكن ليـتدخل فـي أي شيء. استفاد تيموج من الفرصة ليظهر ما يمكن لرجل ذكي تحقيقه عندما لا يكون مقيداً.

قـال تيموج: "إذا كان هذا كل شيء، لدي آخرون ينبغي أن أراهم هذا الصباح. ربما تفهمون الآن لماذا مقابلتي صعبة. أكتشف أن هناك دائماً بعض الأشخاص الذين يـتكلمون الـنهار بطـوله قبل أن يفهموا ما ينبغي بنا فعله هنا؛ وما ينبغي أن نصبح عليه".

لم يكن قد منحهم شيئاً وكان إحباطهم وغضبهم مثل شراب بارد بالنسبة إليه. لم يستطع مقاومة المضي قدماً في تعليقاته اللاذعة.

"إذا كـان هـناك شـيء آخر، أنا مشغول، لكن يمكنني تخصيص بعض الوقت للإنصات إليكم بالطبع".

قال الرجل المقعد متعباً: "أنت تنصت، لكنك لا تسمع".

مدّ تيموج يديه أسفاً.

"اكتشفت أن كل من جاء قبلي لم يستطع فهم المشكلات التي تعانون منها. هناك حتى أوقات تتم فيها التجارة في هذا المعسكر من دون دفع عُشر الخان وإرساله لي".

حـدّق إلـى الخان العجوز الذي كان يستند على ذراعي ابنيه وتكلم فيما اهتزت نظرة الرجل المتقدة. إلى أي مدى كانت معرفة تيموج واسعة؟ كانت هناك إشاعات أنه يدفع لجواسيس لينقلوا إليه أنباء كل التعاملات التي تحدث، وكل صفقة وتبادل للثروة. لم يكن أحد يعرف مدى نفوذه.

تنهد تيموج وهزّ رأسه كما لو أنه محبط.

"كـنت آمل أن تعلمني بالأمر من دون أن أطلب ذلك منك يا ويلا. ألم تبع اثنتي عـشرة جـواداً إلى أحد عمالنا من تشن؟". ابتسم مشجعاً. "لقد سمعت أن السعر كان جـيداً، علـى الـرغم من أن الجياد لم تكن من أفضل نوعية. لم أتلقَ بعد العُشر عن الجوادين والذي تدين به لشقيقي، على الرغم من أنني أفترض أنه سيصلني قبل مغيب الشمس. هل افتراض ذلك شيء معقول، برأيك؟".

تـساءل خـان ويـلا عمن يكون قد خانه. بعد مرور بعض الوقت، أومأ برأسه وابتسم تيموج.

"ممـتاز. ينبغـي أن أشكرك لابتعادك عن أولئك الذين ما زالوا يعتبرونك تمثّل السلطة. تذكر أنني هنا دائماً في حال كان أي شيء آخر بحاجة إلى اهتمامي".

لـم يقف عندما استداروا ليغادروا خيمة الخان. نظر أحد أولئك الذين لم يتكلموا إلـى الخلـف بغضب ظاهر وقرّر تيموج أن يراقبه. كانوا يخافون منه، لدوره ككاهن عـرّاف ومـن ظل شقيقه. كان كوكشو قد قال الحقيقة في ما يتعلق بذلك. ربما كانت رؤيـة الخوف في عيني رجل آخر أروع شعور ينتاب الإنسان. كان ذلك يجعله يشعر بالقوة والرشاقة اللتين لا يشعر بهما بخلاف ذلك سوى من العجينة السوداء التي يقدمها له كوكشو.

كان هناك رجال آخرون ينتظرون رؤيته، وكان قد استدعى بعضهم بنفسه. فكّر فـي قضاء فترة بعد الظهر معهم، وفي نزوة انتابته، قرر خلاف ذلك. أدار رأسه إلى الخادم.

قـال: "ربمـا كوب من الشراب الأسود الممزوج بملء ملعقة من دوائي". كانت العجينة السوداء ستجلب له رؤى ملونة ثم سينام طيلة بعد الظهر، ويتركهم ينتظرون. تمطّى عندما خطرت له الفكرة، سعيداً بعمل ذلك اليوم.

# الفصل السادس والعشرون



استغرق بناء متاريس من الحجارة والخشب لحماية أسلحة الحرب الكبيرة شهرين. كان قد تم بناء المنجنيقات التي صممها ليان في الغابات إلى الشرق. بعوارضها الكبيرة التي كانت لا تزال دبقة بالصمغ، انتصبت مثل وحوش ساكنة على بعد ميل كامل عن أسوار المدينة. عندما ينتهي بناء المنصّات، سيتم سحبها إليها لتكون في ظل حمايتها. كان عملاً بطيئاً ومجهداً، لكن بطريقة ما، كانت ثقة حشد المغول قد ارتفعت بمرور الوقت. لم يكن أي جيش قد خرج لمهاجمتهم، وكانت هناك بحيرة مياه عذبة إلى الشمال من المدينة وسواحلها مليئة بالطيور التي كانوا يستطيعون اصطيادها خلال شهور الشتاء. كانوا أمراء سهل تشن. على الرغم من ذلك، لم يكن هناك شيء يفعلونه سوى العيش على الرغم من أنهم كانوا معتادين على الغزو السريع وتحقيق الانتصارات، واكتشاف أرض جديدة كل يوم. كان التوقف فجأة قد بدأ يعطل الصداقة القوية بين القبائل. كانت هناك معارك بالسكاكين آنذاك تنتج عن ضغائن قديمة. تم العثور على رجلين وامرأة مقتولين على شاطئ البحيرة، من دون أن يعرف أحد من قتلهم.

انتظر الجيش بقلق أن تتضور المدينة جوعاً. لم يكن جنكيز يعرف ما إذا كان يمكن للمنصات الحجرية حماية المنجنيقات الثقيلة، لكنه كان بحاجة إلى شيء يبعد قومه عن الكسل. على الأقل، كان دفعهم للعمل حتى يصابوا بالإرهاق يجعلهم رشيقين فيما يبعدهم التعب عن الشجار. كان المستطلعون قد وجدوا تلاً من صخر الإردواز، على بعد مسيرة أقل من يوم من ينكينغ. تفحّص المحاربون الصخر بالحماسة التي ينفذون بها أي مهمة، وكسروه بالأسافين والمطارق، ثم دفعوا الكتل الصخرية فوق العربات. كانت خبرة ليان ضرورية هناك ولم يغادر موقع المقلع إلا نادراً في تلك الأسابيع. علّمهم كيف يلصقون الصخور ببعضها بعجينة من الجير المحروق، وكانت المنصات تكبر يومياً. لم يعد جنكيز يعرف كم ألف عربة كانت قد تجاوزت خيمته، إلا

أن تـيموج احـتفظ بـسجل دقـيق لما لديهم من مخطوطات حصلوا عليها في أثناء حروبهم.

كانـت الآلات التـي صـمممها ليان عبارة عن شبكات من الحبال تحمل حجارة ضخمة، والتي تتدلى من روافعها. كان هناك رجلان قد سحقا أيديهما في عملية البناء، وعانـيا ألمـاً مبـرحاً بينما كان كوكشو يبتر الأطراف المشوهة منهما. كان الكاهن العرّاف قد فرك عجينة كثيفة خشنة على لثتيهما للتخفيف من الألم، لكنهما على الرغم مـن ذلك بقيا يصرخان. مضى العمل قدماً، وكان دائماً محط أنظار أولئك الموجودين على أسوار ينكينغ. لم تكن لدى جنكيز حيلة لمنع أقواس الحرب الضخمة التي تتحرك أعلـى السور من مواجهة أسلحته. بنت فرق تصببت عرقاً من الحرس الإمبراطوري قواعد جديدة لها، وعملوا لساعات طويلة مثل المحاربين المغول تحتهم.

تطلـب الأمـر مئات الرجال الأقوياء لدفع المنجنيقات إلى أعلى المنصات أمام ينكينغ. مع تساقط ثلوج جديدة على السهل، وقف جنكيز محبطاً بينما كان مهندسو تشن يـشدّون أوتار سبعة أقواس كبيرة، والتي أرسلت أعمدة لها رؤوس حديدية اصطدمت بالمنـصات. ردّت المنجنيقات بصخرتين كبيرتين ارتطمتا بالأسوار، وتسببت بتطاير شظايا منها. بقيت أسلحة تشن سليمة من دون أن تُمس.

استغرق الأمر وقتاً طويلاً لتزويد روافع ليان الضخمة بالحجارة. في ذلك الوقت، دكّت أقواس السور المنصات بالسهام مراراً وتكراراً. قبل أن تصبح المنجنيقات جاهزة لـرمية ثانية على المدينة، ظهرت شقوق في المنصات التي كانت القبائل قد بنتها. بعد ذلك، حدث الدمار بسرعة. تطايرت الحجارة في الهواء مع كل ضربة، وأمطرت ليان ورجالـه بشظاياها. سقط العديد منهم يمسكون بأيديهم ووجوههم، وترنحوا إلى الخلف عندما استمر وابل القصف. بقي ليان نفسه سليماً ووقف يراقب بصمت كئيب منصّاته تتمزق إرباً وآلاته تتحطم.

لبعض الوقت، بدا أن المنجنيقات نفسها ربما تنجو، لكن إصابة مباشرة بعد ذلك فـرقعت عبـر السهل، وتبعها مباشرة تقريباً ثلاث أخرى. عندما أصيبت فرق السور بالـتعب، تـباطأ العمل، لكن كل ضربة كانت تتمتع بقوة مرعبة. مات محاربون وهم يحاولون سحب الآلات إلى خارج مدى الأقواس. في لحظة واحدة، كانوا يصلون إلى هـناك وهـم يتصببون عرقاً ويصرخون. في اللحظة التالية، يصبحون أشلاء ملطخة بالدماء على الخشب والهواء حولهم مليء بالثلج والغبار.

لـم يكن ممكناً إنقاذ شيء. همهم جنكيز بلطف من حنجرته بينما كان ينظر فوق أشـلاء الـرجال وقطـع الخـشب المكسورة. كان قريباً بما يكفي من المدينة لسماع

الهــتافات داخلهـا وأغضبه أن ليان كان محقاً. من دون حماية، لن يستطيعوا مجاراة مــدى أسلحة السور وسيتم تحطيم كل ما يبنونه. كان جنكيز قد ناقش بناء أبراج عالية يــتم دفعهـا علــى عجــلات نحو المدينة، وربما تغليفها بالحديد، لكن السهام الثقيلة ستــضربها مباشرة، تماماً كما تخترق سهامه الدروع الثقيلة. إذا صنع حدّادوه أبراجاً قوية بما يكفي لتحمل الضربات، ستكون ثقيلة جداً على تحريكها. كان الأمر جنونياً.

مــشى جنكيز جيئة وذهاباً فيما أرسل تسوبودي محاربين شجعان لجلب الجرحى وإخــراجهم من مدى الأسلحة. كان رجاله يعتقدون أنه يستطيع الاستيلاء على ينكينغ كمــا فعل مع مدن أخرى. لم تكن رؤية آلات ليان الاستثنائية تتحطم إلى قطع صغيرة لتساعد على رفع المعنويات في المعسكر.

فيما كان جنكيز يراقب الذئاب الفتية يخاطرون بحياتهم، اقترب كشيون وترجّل. لــم يكــن التعبير على وجه شقيقه واضحاً، على الرغم من أن جنكيز اعتقد أنه يرى الغضب الشديد نفسه من الفشل.

قــال كــشيون: "مهما يكن الذي بنى هذه المدينة فقد فكّر جيداً في دفاعاتها. لن نستولي عليها بالقوة".

قــال جنكيــز بحــدّة: "إذاً، سيتضورون جوعاً. لقد نصبت الخيمة السوداء أمام ينكينغ. لن تكون هناك رحمة".

أومــأ كــشيون برأسه، يراقب شقيقه الأكبر عن كثب. لم يكن جنكيز في أفضل حالاتــه عندما يتم إرغامه على عدم فعل شيء. كانت تلك أوقاتاً يسير فيها قادة جيشه بحــرص حوله. خلال الأيام الماضية، كان كشيون قد رأى جنكيز يفقد مزاجه السيّئ عــندما ارتفعــت المنصات، وبدا قوياً بشكل مدهش. كانوا جميعاً يتمتعون بالثقة، لكن كــان من الواضح أن قائد تشن قد انتظرهم فقط ليسحبوا الأسلحة الجديدة حتى تصبح ضــمن مــدى أسلحته. أياً يكن، كان الرجل صبوراً، والأعداء الصبورون هم الأكثر خطورة.

كــان كشيون يعرف أن جنكيز قد يندفع لاتخاذ قرارات متسرعة. نظراً للموقف آنذاك، كان لا يزال يستمع إلى قادة جيشه، لكن مع اقتراب الشتاء، ربما سيكون مغرياً لجنكيز أن يحاول تقريباً أي شيء وقد تعاني القبائل نتيجة لذلك.

ســأل جنكيز، مردداً أفكار كشيون: "ما رأيك بإرسال رجال لتسلق الأسوار في الليل؟ خمسون أو مئة منهم، لإشعال حرائق في المدينة".

رد كــشيون بحرص: "يمكن تسلق الأسوار. لكن دوريات تشن على القمة كثيفة، مثل الذباب. قلت إن ذلك سيكون خسارة للرجال، من قبل".

هزّ جنكيز كتفيه غاضباً.

"لدينا المنجنيقات إذاً. ربما لا يزال ممكناً تجريبها".

أدار جنكيز عينيه الشاحبتين إلى شقيقه. نظر إليه كشيون، وكان يعرف أن شقيقه يريد سماع الحقيقة.

قال كشيون: "قال ليان إن لديهم أكثر من مليون في المدينة. سيتم اصطياد كل من نرسلهم مثل كلاب برية ويصبح الأمر تسلية لجنودهم". تأفف جنكيز رداً على ذلك، مكتئباً وبائساً. فكّر كشيون في طريقة للتخفيف من حدّة مزاجه.

"ربما حان الوقت لإرسال قادة الجيش لشن غارات أخرى، كما قلت إنك ستفعل. لن نحقق انتصاراً سريعاً هنا وهناك مدن أخرى في هذه الأرض. دع أبناءك يذهبون معهم، حتى يتعلموا ما نقوم به".

رأى كشيون ارتياباً يظهر على وجه جنكيز واعتقد أنه يفهم ما يريد. كان قادة الجيش رجالاً يثق جنكيز بأنهم سيتصرفون كما ينبغي من دون إشراف منه. كانوا موالين تماماً، لكن كان يتم خوض الحرب حتى تلك المرحلة تحت عيني جنكيز. كان إرسالهم بتلك الطريقة، وربما بعيداً آلاف الأميال، أمراً لن يقره جنكيز بسهولة. كان قد وافق على الأمر أكثر من مرة، لكن على الرغم من ذلك وبطريقة ما، لم يكن الأمر الأخير قد صدر بعد.

سأل كشيون بلطف: "هل تخاف الخيانة؟ من أين ستأتي؟ من أرسلان وابنه جيلم اللذين كانا معنا منذ البداية؟ من خاسار، أو تسوبودي الذي لا يحب أحداً في هذه الدنيا أكثر منك؟ مني؟".

ابتسم جنكيز قليلاً من الفكرة. رفع بصره إلى أسوار ينكينغ التي كانت لا تزال سليمة أمامه. بتنهيدة، أدرك أنه لا يستطيع إبقاء الكثير من الرجال النشيطين في ذلك السهل لمدة تصل إلى ثلاث سنوات. سينقضّون بعضهم على بعض قبل ذلك بوقت طويل، وينفذون عمل إمبراطور تشن نيابة عنه.

"هل ينبغي أن أرسل الجيش كله؟ ربما سأبقى هنا وحيداً وأتحدّى جنود تشن أن يخرجوا إليّ".

ضحك كشيون بصوت خافت من تلك الصورة.

رد: "في الحقيقة، سيعتقدون على الأرجح أنها مكيدة ويتركونك هنا. على الرغم من ذلك، إن كنت الإمبراطور، سأدرب كل رجل يستطيع أن يصبح محارباً، وأبني جيشاً من الداخل. لا يمكنك ترك عدد قليل لمراقبة ينكينغ، وإلا سيرون فرصة لشن هجوم".

تأفف جنكيز.

"لا يمكـنك صنع محارب في بضعة شهور. ليتدربوا، هؤلاء الخبّازون والتجار. سأرحب بفرصة أن أظهر لهم ما يعنيه أن يكون المرء محارباً بالولادة".

قال كشيون بوجه صارم: "مع صوت مثل الرعد، وأشياء أخرى مثل البرق". بعد لحظة صمت، انفجر كلا الرجلين ضاحكين.

كـان مـزاج جنكيز السيئ الذي رافقه منذ تدمير المنجنيقات قد تحسن. استطاع كشيون تقريباً رؤية الطاقة تزداد فيه بينما كان يفكر بالمستقبل.

"لقـد قلـت إنني سأرسلهم يا كشيون، على الرغم من أن الوقت لا يزال مبكراً على ذلـك. لا نعـرف إن كانت مدن أخرى ستحاول إغاثة ينكينغ وربما نحتاج إلى كل رجل هنا". هزّ كتفيه استخفافاً. "إذا لم تسقط المدينة بحلول الربيع، سأرسل قادة الجيش للصيد".

كـان زهـي زهونغ مستغرقاً في أفكاره عندما وقف أمام نافذة عالية في حجرة استقبال القصر الصيفي. لم يكن قد تكلم كثيراً إلى الفتى الإمبراطور منذ قام بتتويجه. كان كسوان في مكان ما في متاهة الأروقة والغرف التي كانت تشكل مكان إقامة والده الرسمي وكان زهي زهونغ نادراً ما يفكر فيه.

كان الجنود قد حيّوا قائدهم عندما تم تدمير منجنيقات المغول ذلك الصباح. كانوا يتطلعون إلى زهي زهونغ للحصول على استحسانه والذي أظهره بإيماءة قصيرة إلى ضـابطه قـبل أن ينزل الدرجات إلى المدينة. استطاع في خلوته فقط أن يشد قبضته بنـشوة نصر صامت. لم يكن ذلك كافياً لمحو ذكرى ممر بادغر، لكنه كان نصراً من نـوع مـا وكان المواطنون الخائفون بحاجة إلى شيء ينتشلهم من يأسهم. تأفف زهي زهونـغ عـندما تذكـر تقاريـر حالات الانتحار. كان قد تم العثور على أربع فتيات شريفات النسب ميتات في غرفهن حالما انتشرت أنباء هزيمة الجيش في ينكينغ. كانت الأربـع يعـرفن بعضهن وبدا أنهن فضلّن نهاية جليلة على الاغتصاب والدمار الذي اعتبـرن ألا مفر منه. كانت إحدى عشرة أخريات قد سلكن الدرب نفسه في الأسابيع التـي تلـت ذلـك وأصيب زهي زهونغ بالقلق من انتشار الشكل الجديد للموت عبر المديـنة. شـبك يديـه خلف ظهره، ونظر من فوق البحيرة إلى منازل النبلاء. كانت ستـصلهم أنباء أفضل ذلك اليوم. ربما سيترددون بسكاكينهم العاجية وإبداء سخريتهم من مهارته. كانت ينكينغ لا تزال تقاوم الغزاة.

أدرك الوصـي أنـه كـان متعـباً وجائعاً. لم يكن قد تناول الطعام منذ الصباح وأمـضى النهار في عدد من الاجتماعات أكبر من أن يتذكره. بدا أن كل رجل سلطة في ينكينغ يحتاج إلى موافقته ونصيحته. كما لو أنه يعرف أكثر منهم ما سيحدث خلال

الشهور القادمة. تقطب حاجباه عندما فكر في إمدادات الطعام، وألقى نظرة على طاولة جانبيــة عليها لفائف من ورق البردي مثل هرم. كان مواطنو ينكينغ يستهلكون أنفسهم قبل الهزيمة. يمكن لذلك أن يجعل دفاعاته موضع سخرية، لكن زهي زهونغ نفسه كان قــد جــرّد مخــازن المدينــة لإطعام الجيش. كان يغيظه التفكير في المغول يأكلون الإمــدادات التي كان قد جمعها طيلة سنة عند الممر، لكن لم تكن هناك فائدة من إعادة النظــر فــي قــرارات سيئة. بالمحصلة، كان والإمبراطور قد اعتقدا أنه يمكن إيقاف المغول قبل أن يصبحوا في مرمى نظر المدينة الإمبراطورية.

زمّ زهــي زهونغ شفتيه. لم يكن تجار ينكينغ حمقى. كان توزيع حصص الطعام يتم بالقوة في المدينة. حتى السوق السوداء كانت قد انهارت عندما أدركوا أن الحصار ربما لن يُفك بسرعة. كان قلة فقط لا يزالون يبيعون الطعام بأرباح عالية. أما الباقون فكانوا يحصلون على المؤن لعائلاتهم. مثل كل طبقتهم، كانوا سيحاولون الانتظار حتى تمر العاصفة ثم يصبحون بدناء وأثرياء مجدداً بعد ذلك.

ســـجل زهي زهونغ ملاحظة ذهنية لجعل أغنى التجار يمثل أمامه. كان يعرف كـيف يضغط عليه لكشف مخازنه السرية. من دونها، كان الفلاحون سيأكلون القطط والكلاب خلال شهر وبعد ذلك...؟ طقطق عنقه غاضباً. بعد ذلك، سيكون محاصراً في مكان مع مليون شخص جائع. ستكون تلك جحيماً على الأرض.

كــان الأمــل الوحيد ألا ينتظر المغول خارج الأسوار إلى الأبد. قال في قرارة نفسه إنهم سيتعبون من الحصار ويذهبون إلى مدن أخرى تكون دفاعاتها أقل تحصيناً. فرك زهي زهونغ عينيه، سعيداً لعدم وجود أحد عدا العبيد لرؤية ضعفه. في الحقيقة، لــم يكن قد عمل بجد في حياته مثلما فعل في دوره الجديد. لم يكن ينام كثيراً وعندما كــان يــرتاح فعلاً، كانت أحلامه مليئة بالخطط والخدع الحربية. لم يكن قد نام طيلة الليل قبل أن يقف مع فرق الأقواس.

ابتــسم بتكلف عندما تذكر مجدداً تدمير آلات المغول. لو أنه استطاع فقط رؤية وجــه الخان في تلك اللحظة. كان يرغب باستدعاء الوزراء لعقد اجتماع أخير قبل أن يستحم وينام. لا، ليس وهم ينظرون إليه بشيء أكثر من الهزيمة في عيونهم. سيتركهم ينتظرون طيلة هذا اليوم، والذي كان قد حطّم فيه صورة خان المغول الذي لا يُقهر.

استدار زهي زهونغ مبتعداً عن النافذة وسلك طريقاً عبر أروقة مظلمة إلى حيث كــان الإمبــراطور وي يستحم كل مساء. تنهد بسعادة غامرة عندما وصل إلى الباب ودخــل غرفة في وسطها حوض استحمام. كان العبيد قد سخّنوا الماء استعداداً لحمامه وطقطق عنقه بينما كان يستعد للتخلص من أعباء النهار.

نــزع العبــيد ملابس زهي زهونغ بكفاءتهم المعتادة بينما كان ينظر إلى الفتاتين اللتــين تنتظـــران أن تفــركا جلــده بالــزيت فــي حوض الاستحمام. بصمت، هنّأ الإمبــراطور وي علـــى حـــسن ذوقــه. لم يكن ابنه ليستفيد من الجاريتين في البيت الإمبراطوري، على الأقل لبضع سنوات قادمة.

عاريــاً، غمــر زهي زهونغ نفسه في الماء، مستمتعاً بالمساحة في غرفة عالية الــسقف. سُكب الماء وترددت الأصداء في الغرفة وبدأ يسترخي فيما كانت الفتاتان تفركان جلده بالصابون بأيدٍ ناعمة. أنعشته لمساتهما...

بعــد ثــلاث لــيالٍ من تدمير منجنيقات المغول، نزل رجلان خلسة عن أسوار ينكينغ، وهبطا المسافة القصيرة الأخيرة من دون صوت. اختفت الحبال فوق رأسيهما، وسحبها حرّاس العاهل الوصي.

فــي الظلام، نظر أحد الرجلين إلى الآخر، مسيطراً على أعصابه. لم يكن يحب رفقــة القاتل وسيكون سعيداً عندما تفرّق بينهما السبل. كان قد نفّذ مثل مهمته من قبل للإمبــراطور وي واستساغ فكرة السرقة من رعايا تشن الذين كانوا يعملون من دون كلــل أو ملل لصالح خان المغول. بالنسبة لرجل، كان الخونة يستحقون الموت، لكنه سيبتسم لهم ويعمل بجد مثلهم فيما يجمع المعلومات. بطريقته الخاصة، كان يعرف أن مــساهمته ستكون قيّمة مثل أي جندي آخر على الأسوار. كان الوصي يحتاج إلى كل معلومة مهما كانت صغيرة عن القبائل ولم يقلل الجاسوس من أهميته لتحقيق ذلك.

لــم يكن يعرف اسم القاتل، والذي ربما كان محمياً جيداً مثله تماماً. على الرغم مــن أنهمـــا وقفا معاً داخل السور، إلا أن الرجل الذي يرتدي ملابس سوداء لم ينطق ببـــنت شـــفة. لـــم يستطع الجاسوس مقاومة النظر إليه بينما كان الرجل يتفقد أسلحته، يربط ويؤمن النصال الصغيرة اللازمة لتحقيق مهمته فيما كانا ينتظران. لم يكن هناك شك بأن زهي زهونغ قد دفع ثروة من الذهب مقابل خدمته، والتي كانت تعني بالتأكيد موت القاتل نفسه.

كـــان من الغريب أن يربض بجانب رجل يتوقع أن يموت الليلة التالية، من دون أن تظهــر علــيه علـــى الرغم من ذلك أي علامة على الخوف. هزّ الجاسوس كتفيه اســتخفافاً عمداً. لم يكن يرغب بأن يتبادل المواقع معه أو يفهم الطريقة التي يفكر فيها مثل ذلك الشخص. ما الدافع الذي يكمن خلف مثل ذلك الولاء الأعمى؟ على الرغم من أن مهمته خطيرة مثل أخرى قام بها في الماضي، إلا أنه كان يأمل بالعودة إلى أسياده، وإلى بيته.

بملابـسه الداكنة، **كان القاتل يشبه الظلّ**. كان رفيقه يعرف أنه لن يرد حتى إذا تجـرأ على الهمس بسؤال له. كان الرجل يركز على ما يفعله، وقد باع حياته. لم يكن ليـسمح لشيء بأن يشتت انتباهه. بصمت مطبق، صعدا قارباً خشبياً صغيراً واستعملا سـارية ليعبـرا الخـندق الأسود. كان هناك حبل مربوط إلى طرفه الآخر ليتم سحبه وإخفاؤه، أو إغراقه. لن يكون هناك أثر للرجلين يثير الشبهات في ضوء النهار.

على الطرف الآخر، جثم الرجلان عندما سمعا جلبة جواد. كان المستطلعون المغول ماهـرين، لكـنهم لا يـستطيعون التدقيق في كل بقعة مظلمة، وكانوا يراقبون ظهور أي علامة على وجود قوة، وليس رجلين ينتظران التسلل خلسة إلى معسكرهم. كان الجاسوس يعـرف أيـن أقام رعايا تشن خيامهم، مقلّدين بيوت أسيادهم الجدد من دون خجل. كانت هناك فرصة بأن يكتشفوه وأن يلقى حتفه أيضاً، لكن تلك كانت مخاطرة تتعلق بمهارته ولم يـسمح للفكـرة بأن تزعجه. نظر مجدداً إلى القاتل، وهذه المرة، رأى رأس الرجل يتجه نحوه. أشاح ببصره بعيداً، محرجاً. طيلة حياته، كان قد سمع بالفرقة، وهم رجال يتدربون طـيلة سـاعات اسـتيقاظهم على القتل. لم يكن لديهم شرف كجنود يفهمون الشرف. كان الجاسـوس قـد لعب دور جندي عدداً كافياً من المرات ليعرف عقيدتهم وشعر بالاشمئزاز لـدى التفكير برجل يعيش فقط ليقتل. كان قد رأى إخفاء قوارير السم التي بحوزة الرجل وسلك الخنق الذي كان قد لفّه بخبرة حول معصمه.

كـان يقـال إن ضـحايا القتلة يمثّلون قربانهم لآلهة الظلام. كان موتهم الإثبات الأخير على إيمانهم ويضمن لهم مكاناً مرموقاً على عجلة الحياة. هزّ الجاسوس كتفيه غير مبالٍ مجدداً، منزعجاً من أن عمله جعله رفيقاً لمثل ذلك المدمّر.

تلاشـت أصوات مستطلعي المغول واهتز الجاسوس متفاجئاً عندما شعر باللمسة الخفـيفة علـى ذراعه. دفع القاتل بجرة دبقة بين يديه. كانت رائحتها كريهة من دهن الضأن الفاسد ولم يسع الجاسوس سوى أن ينظر إليها بارتباك.

تمتم القاتل: "ضعه على جلدك. من أجل الكلاب".

عـندما فهـم الجاسوس الأمر، نظر إلى الأعلى، لكن الشكل الأسود كان يمشي مبتعداً آنذاك بخطوات صامتة، واختفى في الظلام. شكر الجاسوس أسلافه على الهدية وفـرك الدهن فوق جلده. فكّر في البداية أن ذلك لطف منه، على الرغم من أن القاتل علـى الأرجح لم يكن يرغب بأن ينهض المعسكر فيما يقوم بتنفيذ مهمته. احمرّ وجهه إذلالاً من الفكرة. لن تكون هناك مفاجآت أخرى تلك الليلة.

عندما استعاد رباطة جأشه، وقف وهرول عبر الظلام، متجهاً إلى المقصد الذي كان قد راقبه في أثناء النهار. من دون رفيقه المتجهم، شعر بأن الثقة بدأت تعود إليه.

خــلال وقت قصير، سيكون بين رعايا تشن، يدردش ويتكلم معهم كما لو أنه يعرفهم منذ سنين. كان قد فعل ذلك من قبل، عندما شك الإمبراطور بولاء حاكم أحد الأقاليم. وضـــع الفكرة جانباً، مدركاً أنه ينبغي أن يصل إلى المكان قبل أن ينفذ القاتل ضربته وإلا ســيتم اعــتقاله واستجوابه. مشى بهدوء عبر المعسكر النائم، وألقى التحية على محــارب مغولــي عــندما خرج الرجل ليتبول في الليل. رد عليه الرجل نعساً بلغته الخاصـــة مـــن دون أن يـــتوقع أنه يفهمه. رفع كلب رأسه عندما مرّ به، لكنه همهم بــصوت خافت فقط عندما شم رائحته. ابتسم الجاسوس غير المرئي في الظلام، وكان قد أصبح في الداخل.

اقترب القاتل من الخيمة الكبيرة للخان، وتحرك عبر المعسكر المظلم مثل شبح. كان قائد المغول أحمق لأنه كشف موقعه لكل شخص على أسوار ينكينغ. كان ذلك من نـــوع الأخطاء التي يقترفها الإنسان مرة واحدة فقط، عندما لا يكون يعرف شيئاً عن *الجمعية السوداء*. لم يكن القاتل يعرف إن كان المغول سيعودون إلى جبالهم وسهولهم عـــندما يمـــوت الخـــان. لم يكن يهتم لذلك. كان سيده قد منحه رقعة مربوطة بشريط حريري أسود في احتفال رسمي، ترهن حياته برباط الدم. بغض النظر عما يحدث، لن يعـــود إلـــى إخوانه. إذا فشل، سينتحر بدلاً من أن يتم إلقاء القبض عليه ويكشف ربما أســـرار نظامه. زمّ شفتيه بمتعة ظلامية؛ لن يفشل. كان المغول رعاة أغنام، ماهرين باستعمال القوس، لكنهم مثل الأطفال ضد رجل بمثل تدريبه. لم يكن هناك شرف كبير في اختياره لقتل خان رجال القبائل النتنين هؤلاء، لكنه لم يفكر في ذلك. كان الشرف يأتي من الطاعة والموت الكريم.

لـــم يـــرَه أحد عندما وصل إلى الخيمة الكبيرة على عربتها، والتي تضيء بلون أبيض في الظلام. لاحت فوقه بينما كان يزحف نحوها، وينظر بحثاً عن حراس. كان هناك رجلان بالقرب منها. استطاع سماع صوت أنفاسهما فيما كانا يقفان بثبات ممل، ينتظـــران الأوامر لينصرفا. من أسوار ينكينغ، كان مستحيلاً معرفة التفاصيل ولم يكن يعـــرف كـــم مـــرة يتم تبديلهم في الليل. كان ينبغي عليه التصرف بسرعة حالما ينقل الموت إلى ذلك المكان.

واقفـــاً بصمت كامل، راقب القاتل بينما كان أحد الرجلين يتحرك بعيداً ويطوف حـــول خيمة الخان. لم يكن المحارب متأهباً، وفي الوقت الذي شعر فيه بشخص يقف فـــي الظلال، كان الوقت قد فات. شعر الحارس بشيء يحزّ عنقه ويقطع حنجرته، مما خنق صرخته. خرجت تنهيدة من هواء ملطخ بالدماء من رئتيه وهمس الحارس الآخر

بـــسؤال، ولـــم يكـــن متأهباً بعد. وضع القاتل الحارس الأول أرضاً واقترب من حافة العـــربة، وقـــضى علـــى الثاني بسرعة عندما اقترب منه. مات الثاني أيضاً من دون صـــوت وتركه القاتل حيث سقط، وعبر بسرعة إلى الدرجات التي تقود إلى الأعلى. كان رجلاً صغيراً وبالكاد أصدر صوتاً تحت ثقله.

فـــي الظـــلام الداخلي، استطاع سماع أنفاس بطيئة لرجل يغط في نومه. زحف القاتـــل ببطء على الأرضية. بتوازن تام، وصل إلى الشكل النائم وجثم بجانب السرير المـــنخفض. كانا وحدهما. سحب سكيناً حادة، وكان معدنها أسود من سخام زيتي حتى لا تلمع.

دفـــع بيده إلى الأسفل نحو مصدر الأنفاس، وعثر على الفم. عندما اهتز النائم، أنزل السكين بسرعة إلى الحنجرة. وقد تمّ إخماد الأنين بالسرعة التي بدأ بها واستلقى الجـــسد الـــذي كـــان يختلج ساكناً من دون حراك. انتظر القاتل حتى عاد الهدوء إلى المكان، وكان يتنفس بصعوبة من رائحة الأمعاء الممزقة. في الظلام، لم يستطع رؤية وجه الرجل الذي كان قد قتله واستعمل أصابعه ليتبين المعالم، وتقطب حاجباه عبوساً. لـــم تكـــن رائحـــة الرجل مثل المحاربين في الخارج. ارتعشت يداه قليلاً عندما كانتا تستكشفان الفم المفتوح والعينين، وتنتقلان إلى الشعر.

لعـــن القاتـــل نفسه عندما مسّ الضفائر المدهونة بالزيت لأحد أبناء قومه. كان بالتأكيد خادماً، وشخصاً يستحق الموت شنقاً لمساعدته المغول بتقديم خدماته لهم. جلس القاتـــل على عقبيه بينما كان يفكر في ما ينبغي القيام به. سيكون الخان قريباً بالتأكيد، كما فكر. كان هناك عدد من الخيام المتناثرة حول الخيمة الكبيرة. كانت إحداها ستضم الرجل الذي يسعى خلفه. سيطر القاتل على نفسه، وتمتم كلمات من تدريبه كانت تجلب له السكينة مباشرة. لم يكن قد استحق الموت بعد.

# الفصل السابع والعشرون



استطاع القاتل سماع أصوات تنفس عندما دخل خيمة أخرى. كان الظلام حالكاً، لكنه أغلق عينيه وركّز على الأصوات. كان هناك خمسة أشخاص نائمين في تلك المساحة الصغيرة، غافلين جميعاً عن الرجل الواقف فوقهم. كان أربعة منهم يتنفسون بصعوبة وعبس مجدداً لأنه أيقن أن النيامَ أطفال. وربما كانت النائمة الأخيرة والدتهم، على الرغم من أنه لم يستطع التأكد من ذلك من دون ضوء. شرارة واحدة من ضرب صوان بفولاذ ستكون كافية، لكن كان في الأمر مجازفة. إذا أفاقوا، لن يستطيع قتلهم جميعاً قبل أن يصرخوا. فاتّخذ القرار بسرعة.

نجم عن ضربة سريعة واحدة وميض ضوء في الخيمة، وكان كافياً لإظهار خمسة أجساد نائمة. لم يكن أحدها كبيرة بما يكفي لرجل راشد. أين *كان* الخان؟

استدار القاتل ليغادر، قلقاً من نفاد الوقت. لم يكن سينقضي وقت طويل قبل أن يتم اكتشاف الحارسين الميتين. عندما سيتم العثور عليهما، سيتحطم سكون الليل.

شخر أحد الأطفال النائمين، وتغير إيقاع صوته. تجمّد القاتل. انتظر وقتاً بدا طويلاً حتى استعاد الطفل أنفاسه المعتادة، ثم تقدم بهدوء نحو باب الخيمة. كان قد دهن المفصلات بالشحم وفتح الباب من دون أن يصدر عنه صوت.

شدّ قامته بينما كان يغلق الباب خلفه، وأدار رأسه ببطء ليختار الخيمة التالية. ما عدا الخيمة السوداء المميزة التي تواجه المدينة وتلك الموجودة على العربة، كانت كل الخيام تبدو مثل بعضها تماماً.

سمع القاتل صوتاً خلفه واتسعت عيناه عندما أدرك أنه صوت سحب نفس، من النوع الذي يظهر قبل إطلاق صرخة أو صيحة. كان يتحرك حتى عندما انطلق الصوت، مبتعداً في الظلال الداكنة. لم يفهم الكلمات التي ترددت في الليل، لكن رد الفعل كان مباشراً تقريباً. خرج محاربون بسرعة من كل خيمة في مرمى النظر، وأقواسهم وسيوفهم جاهزة في أيديهم.

كــان جوشـــي من صرخ وقد أيقظه من نومه وجود رجل صامت في بيته. كان أشقاؤه الثلاثة قد استفاقوا مرتعشين من صرخته وبدأوا معاً يطرحون أسئلة في الظلام.

ســألت بــورت بــصوت أعلى من الضجيج، وهي ترمي البطانيات عنها: "ما الأمر؟".

كان جوشي يقف آنذاك في الظلام.

قال: "كان هناك شخص هنا. أيها الحرّاس!".

قالت بورت بحدّة: "ستوقظ المعسكر بأكمله. لم يكن سوى حلم سيّئ".

لم تستطع رؤية وجهه عندما رد. "لا. لقد رأيته".

نهــض تــشاغاتي لــيقف بجانب شقيقه. صدحت أبواق النفير من بعيد وأطلقت بورت لعنة بصوت خافت.

"تضرع أن تكون محقاً يا جوشي، وإلا سيسلخ والدك جلدك عن جسدك".

فــتح جوشـــي الباب على مصراعيه وخرج من دون أن يزعج نفسه بالرد. كان المحاربــون يــتدافعون حول الخيام، ويبحثون عن المتطفل حتى قبل أن يعرفوه. ابتلع ريقه بصعوبة متمنياً ألا يكون قد حلم بالرجل.

جاء تشاغاتي إليه في الخارج، عاري الصدر لا يضع سوى طماقات اتقاء البرد. كــان هــناك ضوء نجوم خافت في الخارج، لكن الفوضى كانت عارمة وأمسك بهما رجال مرتين وتركوهما يفلتان من قبضاتهم القوية فقط عندما عرفوهما.

رأى جوشـــي والده يمشي بخطوات واسعة بين الخيام، وقد شهر سيفه، لكنه كان يحمله كيفما اتفق بيد واحدة.

قـــال: "ما الذي يجري؟". توقفت نظرته عند جوشي، لاحظ عصبيته. ذبل الفتى بتأثيــر النظــرة القوية، وأدرك فجأة أنه قد أيقظهم جميعاً دونما سبب. على الرغم من ذلك، واجه الأمر بتحدٍّ ورفض أن يكون موضع سخرية أمام والده.

"كان هناك رجل في الخيمة. استيقظت ورأيته يفتح الباب ليغادر".

تأفف جنكيز، لكن قبل أن يردّ، صرخت أصوات جديدة في الليل.

"رجلان مقتولان هنا!".

فقــد جنكيز اهتمامه بأبنائه، وزمجر بصوت عالٍ من فكرة وجود عدو طليق في المعسكر.

صـــرخ: "جدوه!". رأى كشيون يأتي مسرعاً، وسيف طويل بين يديه. لم يكن خاسار بعيداً خلفه ووقف الأشقاء الثلاثة معاً فيما كانوا يحاولون فهم سبب تلك الفوضى.

قال كشيون عندما توقف، وكان وجهه لا يزال منتفخاً من النوم: "قل لي".

هزّ جنكيز كتفيه استخفافاً، مشدوداً مثل وتر قوس.

"رأى جوشي رجلاً في خيمته وهناك حارسان مقتولان. هناك شخص بيننا وأريد العثور عليه".

"جنكيز!".

سـمع بـورت تنادي باسمه واستدار نحوها. من طرف عينه، رأى شكلاً داكناً يتحرك لدى سماع الاسم.

استدار جنكيز حول نفسه ولمح القاتل يثب عليه. لوّح بسيفه وتنحّى الرجل جانباً، وتدحرج مثل البهلوان ووقف يحمل سكينين في يديه. رأى جنكيز أنه سيرمي بهما قبل أن يـستطيع ضربه مجدداً وقفز على الشكل الداكن، وأسقطه أرضاً. مست شرارة ألم حنجرته وأسرع شقيقاه بطعن القاتل، ودفعا سيفيهما عميقاً بقوة كبيرة حتى وصلا إلى الأرض تحته. ولم يصرخ الرجل.

حـاول جنكيـز الـنهوض، لكن العالم دار ببطء وأضحت رؤيته مشوشة بشكل غريب.

قـال وهو يشعر بدوار ويقع على ركبتيه: "لقد أصبت...". استطاع سماع قدمي القاتل تُسحب على الأرض ووضع شقيقاه ركبهما على صدره، وقاما بتحطيم أضلاعه. رفع جنكيز يده إلى عنقه وطرفت عيناه على الأشكال الملطخة بالدماء. كانت اليد ثقيلة جداً وسقط إلى الوراء على أرض جافة، وكان لا يزال مشوشاً.

رأى وجه جيلم يلوح فوقه، ويتحرك ببطء. حدّق جنكيز إلى الأعلى، ولم يستطع سـماع ما كان يقوله. رأى جيلم يمدّ يده ويمزّق القماش الذي يغطي الجرح في عنقه. عـندما تكلم مجدداً، بدا أن الصوت يدوي في أذني جنكيز، والذي تحول إلى همسات متسارعة جعلته لا يسمع شيئاً. التقط جيلم سكين القاتل وأطلق لعنة عندما شاهد المادة الداكنة على طول الحافة.

قـال جيلم، وانعكس خوفه على كشيون وخاسار اللّذين كانا يقفان مذهولين فوق شقيقهما: "السكين مسمومة". لم يتكلم القائد مجدداً، ووضع بدلاً من ذلك فمه على عنق جنكيـز ومـصّ الدم المتدفق منها. كان حاراً ولاذعاً جعله يتقيأ عندما بصقه إلى أحد الجانبـين. لـم يتوقف، على الرغم من أن يدي جنكيز لطمتا وجهه بضربات ضعيفة، وقد خارت قوته.

سمع جيلم أبناء الخان الصغار ينتحبون بأسى عندما شاهدوا والدهم يستلقي قريباً مـن الموت. التزم جوشي وتشاغاتي الصمت، وراقبا جيلم يبصق ملء فمه من الدماء حتى أصبحت مقدمة ردائه ملطخة به.

اندفع كوكشو عبر الحشد، وتوقف مصدوماً عندما رأى الخان على الأرض. جثا إلـــى جانـــب جـــيلم ومـــرّر يديه فوق صدر جنكيز متفقداً قلبه. كان يخفق بسرعة لا تُـــصدّق، ولـــبعض الوقت، لم يستطع كوكشو تمييز ضرباته. كان العرق يتصبب من جسد الخان كلّه وكان جلده أحمر وحاراً.

مـــص جـــيلم وبصق وتدفق الدم. كان القائد يشعر بأن شفتيه تصبحان خدرتين وتـــساءل إن كان السم سينتقل إليه. لم يكن ذلك مهماً. فكّر في الأمر كما لو أنه يشاهد شخصاً آخر. سال الدم على شفتيه بينما كان يلهث بين كل محاولة وأخرى.

حـــذّره كـــشيون، وكانت يداه النحيلتان لا تزالان على الصدر: "ينبغي ألا تريق الكثيـــر مـــن الدماء، وإلا سيصبح ضعيفاً جداً ليقاوم السم الذي يبقى". نظر إليه جيلم بعينـــين مليئتين بالدموع قبل أن يومئ موافقاً ويدفع وجهه بالجلد الممزق مرة أخرى. كانـــت وجنـــتاه قد احمرتا نتيجة التماس مع مثل تلك الحرارة وتابع عمله لأن التوقف كان يعني رؤية خانه يموت.

شـــعر كوكـــشو بالقلب الذي يخفق بسرعة ينتفض وخشي أن يتوقف تحت يديه. كـــان بحاجـــة للرجل الذي كان قد منحه ذلك الاحترام بين القبائل، خاصة أن تيموج آنـــذاك قد تخلى عنه. بدأ كوكشو يتضرع بصوت عالٍ، مستحضراً الأرواح بأسمائها القديمة. نادى على سلالة جنكيز نفسها بأصوات متلاحقة. نادى ياسوجي، وحتى بكتر، الـــشقيق الذي كان جنكيز قد قتله. كان بحاجة إليهم جميعاً لإبعاد الخان عن مملكتهم. شـــعر كوكشو أنهم يجتمعون بينما كان ينشد بأسمائهم، ويحتشدون حوله حتى امتلأت أذنيه بالهمسات.

انـــتفض القلب مجدداً وشهق جنكيز بصوت عالٍ، وعيناه المفتوحان تحدّقان إلى غيـــر هدى. شعر كوكشو بالنبض المتسارع يستقر، وتباطأ فجأة كما لو أن باباً أُغلق فـــي الداخل. ارتعش في البرد، وفكّر للحظات قليلة أنه كان يمسك بمستقبل القبائل في يديه.

قـــال بصوت أجش: "يكفي الآن، لقد أصبح قلبه أقوى". تراجع جيلم إلى الخلف. مثلما كان سيفعل مع جواد مصاب بجرح بليغ، صنع القائد عجينة من التراب والبصاق وضـــغط بهـــا على الجرح. انحنى كوكشو فوق جنكيز ليراقب العملية، وارتاح عندما رأى الـــدم يتـــباطأ إلى وشل. لم تكن أي من الأوردة الرئيسية قد قُطعت وبدأ كوكشو يبتهج لفكرة أن جنكيز لا يزال حياً.

مرة أخرى، بدأ كوكشو يتضرع بصوت عالٍ، مرغماً أرواح الموتى على العناية بالـــرجل الـــذي شكّل أمة. لم يكونوا ليرغبوا بانضمام مثل ذلك الرجل إليهم فيما يقود

شـــعبه قـــدماً إلى الأمام. كان متأكداً من ذلك بشكل أخافه. كان رجال القبائل يراقبون بأسى عندما مرّر كوكشو يديه فوق الجسد الممدد على ظهره، وأخذ يجمع خيوطاً غير مرئية كما لو أن الأصابع النحيلة تلف الخان بشبكة من الأرواح والإيمان.

نظـــر كوكـــشو إلى بورت التي كانت تقف محمرّة العينين وتترنح من الصدمة. كانت هولن هناك أيضاً، شاحبة ويائسة وهي تتذكر موت خان آخر قبل سنوات عديدة. أشار إليهما كوكشو بأن تقتربا.

قال لهما، وعيناه تلمعان: "لقد تركته الأرواح هنا، الآن. ياسوجي هنا، مع والده بارتـــان. بكتـــر هنا لدعم الخان، شقيقه". ارتعش في البرد، ولمعت عيناه للحظة. "لقد مصّ جيلم مقداراً كبيراً من السم، لكن قلبه ينتفض؛ ويكون أحياناً قوياً وأحياناً ضعيفاً. يحـــتاج إلى الراحة. إذا كان سيأكل، امنحوه دماً وحليباً ليسترجع قوته". لم يعد كوكشو يـــشعر آنذاك بالبرودة الشديدة للأرواح تتجمع حوله، لكنها كانت قد قامت بعملها. كان جنكيـــز لا يـــزال حياً. نادى شقيقَيْ الرجل ليحملاه إلى الخيمة. تنبّه كشيون من غفلته ليأمـــر المعسكر بالبحث عن أي عدو آخر لا يزال مختبئاً. بعد ذلك، رفع جسد شقيقه الرخو على كتفه مع خاسار وحمل جنكيز إلى خيمة بورت.

تـــركوا جيلم جاثياً، يهزّ رأسه حزناً. مدّ والده أرسلان يده إليه في اللحظة التي تقيأ فيها القائد الشاب على الأرض المليئة بالدماء.

أمر أرسلان وهو يدفع ابنه للوقوف على قدميه: "ساعدوني". كان وجه جيلم كئيباً وأرخى بكامل ثقله على والده قبل أن يتقدم محاربان ويضعان ذراعيه حول كتفيهما.

سأل أرسلان كوكشو: "ما خطبه؟". أشاح الكاهن العرّاف نظره عن خيمة جنكيز. اســـتعمل أصـــابعه ليفتح عيني جيلم عن آخرهما، ويحدق فيهما. كان البؤبؤان كبيرين وداكنين وأطلق كوكشو لعنة بصوت خافت.

"ربما يكون قد ابتلع الدم. لقد دخل إليه بعض السم أيضاً". دفع كوكشو بيده تحت رداء جيلم الرطب، متحسساً صدره.

"لـــيس بالـــشيء الكثيـــر وهـــو قوي. أبقِه مستيقظاً إذا استطعت. اجعله يمشي. سأحضّر جرعة من فحم الخشب ليشربها".

أومـــأ أرسلان برأسه. أشار إلى أحد المحاربين اللذين يسندان جيلم وأخذ مكانه، ووضع ذراع ابنه حول عنقه كما لو أنهما يتعانقان. مع الرجل الآخر، دفع جيلم للمشي بين الخيام، وتكلم إليه في أثناء ذلك.

لم يتحرك الحشد المتزايد من المحاربين، النساء والأطفال. لم يكونوا ليعودوا إلى الـــنوم حتـــى يتأكدوا أن خانهم سيعيش. استدار كوكشو عنهم، وكان بحاجة لتحضير

عجينة من فحم الخشب يمكنها امتصاص السم الذي ابتلعه جيلم. لن تكون العجينة ذات فائـدة كبيرة لجنكيز، لكنه سيجلب وعاءً ثانياً له أيضاً. عندما وصل إلى حلقة الوجوه التـي تحدّق مراقبةً ما يجري، أفسحوا المجال له وعندها فقط كان تيموج يشق طريقه عبرهم إلى المقدمة. واتّقد الحقد في عيني كوكشو.

قال كوكشو بهدوء عندما اقترب تيموج: "لقد تأخرت كثيراً على مساعدة الخان. قتل شقيقاه القاتل وأبقيته مع جيلم حياً".

هتف تيموج وهو يحدّق حوله إلى الوجوه الكثيرة البائسة والخائفة: "قاتل؟".

قال له كوكشو: "ينبغي معالجة بعض الأشياء بالوسائل القديمة. لا يمكن عدّها أو وضعها على لوائحك".

ردّ تيموج على إهانة الكاهن العرّاف كما لو أنها صفعته.

قـال: "كيف تجرؤ على التكلم معي؟". هزّ كوكشو كتفيه استخفافاً ومشى مبتعداً. لم يستطع مقاومة إبداء ملاحظة جارحة، على الرغم من معرفته بأنه سيندم عليها. تلك الليلة، كان الموت قد طاف بالمعسكر ووقف كوكشو له بالمرصاد.

ازداد حجم الحشد بينما كان الوافدون الجدد يضغطون على أولئك الموجودين في المقدمة، متلهفين للأنباء. تمّت إضاءة مشاعل في المعسكر فيما كانوا ينتظرون بزوغ الفجـر. كان جسد القاتل ممدداً مسحوقاً على الأرض وحدّقوا إليه برهبة بسيطة غير راغبين بالاقتراب كثيراً منه.

عندما عاد كوكشو مع وعاءين من شراب أسود كثيف، اعتقد أنهم يشبهون قطيعاً من الثيران في يوم الذبح، وكانوا يائسين وقد أضحت عيونهم داكنة لكنهم لا يستطيعون فهم ما جـرى. أمـسك أرسلان بفك ابنه وأمال الرأس بينما كان كوكشو يدفع السائل المرير في فمـه. غـصّ جيلم وسعل، وبصقَ قطيرات سوداء على وجه والده. كان قد استعاد بعض وعـيه فـي الـوقت الذي استغرقه طحن فحم الخشب ولم يتردد كوكشو معه. دفع بوعاء نصف فارغ في يد أرسلان وتابع طريقه حاملاً الوعاء الآخر. لا يمكن لجنكيز أن يموت، لـيس في ظل ينكينغ. شعر كوكشو برهبة وبرودة تسري في جسده عندما فكر بالمستقبل. تخلـى عن خوفه بينما كان يدخل الخيمة الصغيرة، وخفض رأسه ليمر تحت الحافة العليا. كانت الثقة جزءاً من صنعته ولن يدعهم يرونه خائفاً جداً.

عـندما اقترب بزوغ الفجر، خرج خاسار وكشيون، غير منتبهين لآلاف العيون التي تسمّرت عليهما. استعاد خاسار سيفه من حيث كان عالقاً في صدر الرجل الميت وركل الرأس المتراخي قبل أن يغمده.

صرخ أحدهم: "هل الخان حي؟".

ألقى خاسار نظرة غاضبة عليهم، من دون أن يعرف من كان قد تكلم.

قال: "إنه حي". ثم تكرار كلماته همساً حتى سمعوها جميعاً.

التقط كشيون سيفه من حيث كان قد وقع ورفع رأسه عندما سمع صوتاً. لم يكن يستطيع مساعدة شقيقه في الخيمة وربما لهذا السبب اتقد غضباً عندما رآهم.

قال كشيون بحدّة: "هل سينام أعداؤنا فيما نجتمع نحن هنا؟ لن يناموا. اذهبوا إلى خـيامكم وانتظـروا الأنباء". لدى رؤية نظرته الصارمة، استدار المحاربون مبتعدين أولاً، ومـرّوا عبر تجمّع النساء والأطفال. بدأ هؤلاء أيضاً التحرك بعيداً، وحدّقوا إلى الخلف كيفما اتفق.

وقـف كشيون مع خاسار كما لو أنهما يحرسان الخيمة التي يستلقي فيها جنكيز. كانـت زوجة الخان الثانية تشاكاهي قد جاءت، ووجهها قناع شاحب من الخوف. كان الـرجال كلّهم يتطلعون إلى بورت ليروا كيف ستتصرف، لكنها أومأت فقط إلى امرأة كزي كزيا بإشارة على قبول وجودها. في الصمت، استطاع كشيون سماع تمتمة إنشاد كوكشو في الخيمة. للحظة، لم يكن يرغب بالعودة إلى الداخل الكريه الرائحة، المزدحم بأولئك الذين يحبون شقيقه. كان يخفف من حزنه نوعاً ما وجود الآخرين. تنفس بعمق في الهواء البارد، وعمل على تنقية ذهنه.

قـال: "لا يوجد شيء آخر يمكننا فعله. الفجر على وشك أن يبزغ وهناك أشياء ينبغي أن نناقشها. تعال معي يا خاسار، لبعض الوقت".

تبعه خاسار إلى حيث لا يمكن سماعهما. كان قد مرّ وقت طويل قبل أن يخرجا من المعسكر، وأقدامهما تطأ أعشاباً متجمدة.

قـال خاسار أخيراً، بعد أن أوقف شقيقه بأن وضع يداً على ذراعه: "ما الأمر؟ ماذا تريد؟".

اسـتدار كـشيون إليه، ووجهه غاضب. "فشلنا الليلة. فشلنا في الحفاظ على أمن المعـسكر. كـان ينبغـي أن أفكر بأن الإمبراطور سيرسل قتلة. كان ينبغي أن أضع المزيد من الحراس لمراقبة الأسوار".

كان خاسار متعباً كثيراً لمناقشة ذلك الأمر.

قال: "لا يمكنك تغيير ذلك الآن. إن كنت أعرفك، لن يتكرر ذلك مجدداً".

قال كشيون بحدة: "مرة واحدة قد تكون كافية. إذا مات جنكيز، ماذا سنفعل عندها؟".

هـزّ خاسار رأسه. لم يكن يريد التفكير في ذلك. عندما تردّد، أمسك به كشيون من كتفيه، وهزّه تقريباً.

رد خاسار: "لا أعرف! إذا مات، سنعود إلى الوطن عند جبال خينتي ونقدمه للصقور والنسور. إنه خان، ماذا تتوقع مني أن أقول؟".

رفع كشيون يديه عنه.

"إذا فعلنا ذلك، سيدّعي الإمبراطور أنه حقق نصراً عظيماً ضدنا". بدا كما لو أنه يتكلم إلى نفسه ولم يقاطعه خاسار. لم يكن يستطيع أن يتخيل المستقبل إن لم يكن جنكيز موجوداً.

تابع كشيون بتجهم: "سيرى الإمبراطور جيشنا ينسحب. خلال سنة، ستعرف كل مدينة تشن أننا انسحبنا".

لم يقل خاسار شيئاً.

قال كشيون: "ألا ترى الأمر يا شقيقي؟ سنخسر كل شيء".

رد خاسار وهو يتثاءب: "يمكن أن نعود". هل نال قسطاً من النوم على الإطلاق. لم يكن متأكداً من ذلك.

تأفف كشيون.

"خلال سنتين، سوف يهاجموننا. لقد رأى الإمبراطور ما يمكننا فعله ولن نقترف الأخطاء نفسها مجدداً. إنها فرصة واحدة صنعناها بأنفسنا يا خاسار. لا يمكنك أن تجرح دباً ثم تهرب. سيلاحقك".

قال خاسار بعناد: "سيعيش جنكيز. إنه أقوى من أن يموت".

رد كشيون: "افتح عينيك يا شقيقي! يمكن أن يموت جنكيز مثل أي رجل آخر. إذا مات فعلاً، من سيقود القبائل، أم ستراهم يتمزقون مجدداً؟ كم سيكون الأمر سهلاً عندها على جيش تشن عندما يخرج للصيد؟".

رأى خاسار أول أضواء الفجر الوردية خلف ينكينغ من بعيد. رحب به في ليلة كان يعتقد أنها لن تنتهي أبداً. كان كشيون محقاً. إذا مات جنكيز، ستتحطم الأمة الجديدة إلى أشلاء. سوف يستعيد الزعماء القدماء سلطتهم على القبائل المتصارعة.

هزّ رأسه ليصحو.

قال لكشيون: "أفهم ما تقوله. لست أحمق. تريد مني أن أقبلك كخان".

وقف كشيون متسمراً لدى سماعه ذلك. لم تكن هناك طريقة أخرى، لكن إذا لم يكن خاسار يفهم الأمر، سيبدأ اليوم الجديد بإراقة دماء عندما تتقاتل القبائل لترحل أو تبقى موالية لهم. كان جنكيز قد كبّلها معاً. عند أول إشارة على الضعف، سيختبر الزعماء الحرية ويقاتلون للاحتفاظ بها.

سحب كشيون نفساً عميقاً، وكان صوته هادئاً.

"نعـم يـا شـقيقي. إذا مات جنكيز اليوم، ينبغي أن تشعر القبائل بيد قوية على أعناقها".

قال خاسار بلطف: "أنا أكبر منك. أقود العدد نفسه من المحاربين".

"لست من نوع الرجال الذين يقودون الأمة. تعرف ذلك". كان خفقان قلب كشيون يتـسارع وهو يحاول جعل خاسار يفهم. "إذا كنت تعتقد أنك *كذلك*، سأقطع عهدي لك. سيتبع قادة الجيش ما أقوم به ويرغمون الزعماء على فعل ذلك. لن أقاتلك على هذا يا خاسار، ليس وكل شيء على المحك".

صـرف خاسار التعب عن عينيه بينما كان يفكر في الأمر. كان يعرف ما تكبده كـشيون لـيقدم له ذلك العرض. كانت فكرة قيادة القبائل تجعله ينتشي، وهي شيء لم يكـن قـد حلم به من قبل. كانت الفكرة تغريه. على الرغم من ذلك، لم يكن الشخص الـذي يرى المخاطر التي تحيط بالأمة الهشّة. كانت تلك مثل شوكة في جسده تؤرقه. كـان القادة يأتون إليه متوقعين أن يحل مشكلاتهم، والعثور على طريق عبر الصعاب التـي لـم يكونوا يستطيعون تخطيها. كان عليه حتى أن يضع خططاً للمعارك، وكان النصر أو الهزيمة متعلّقين بكلمته.

كان اعتزاز خاسار بنفسه ممزوجاً بمعرفة أن شقيقه أفضل للقيادة. لم يكن يشك أن كشيون سيدعمه بالكامل إذا أصبح خاناً. كان سيحكم شعبه ولم يكن أحد ليعرف أبداً بـشأن تـلك المحادثـة. كما كان جنكيز، سيكون أب كل شعبهم. سيكون مسؤولاً عن الحفاظ على حياتهم ضد إمبراطورية قديمة انحنت أمام جبروتهم.

أغلق عينيه، وسمح للأفكار اللامعة بالخروج من ذهنه.

"إذا مات جنكيز، سأقطع عهدي لك يا شقيقي الأصغر. ستكون الخان".

تنهد كشيون بارتياح بعد الإرهاق. كان مستقبل شعبه متعلقاً بثقة خاسار به.

قـال كـشيون: "إذا مات، سأحرص على تدمير كل مدينة تشن بالنار، وأبدأ من ينكيـنغ". نظـر كلا الرجلين إلى أسوار المدينة التي تلوح أمامهما، وكانا موحدين في رغبتهما بالثأر.

وقـف زهي زهونغ على منصة رماة، عالياً فوق السهل ومعسكر المغول. كان نـسيم بارد يهب عليه وكانت يداه خدرتين على الحاجز الخشبي. كان يقف هناك منذ ساعات، يراقب القبائل بحثاً عن إشارة ما على أن القاتل نجح في مسعاه.

قـبل وقـت قصير فقط، كان سهره قد أتى أُكله. تحركت نقاط ضوء بين الخيام وكان زهي زهونغ قد أمسك بالحاجز بقوة أكبر، وابيضّت مفاصله بينما كان ينظر إلى

البعيد. تسابقت أشكال داكنة عبر بقع الضوء المتراقصة وارتفعت آمال زهي زهونغ، وتخيل انتشار الذعر بينهم.

همس، وحيداً في برج المراقبة: "كن ميتاً".

# الفصل الثامن والعشرون



فـتح جنكيـز عينـيه المحتقنتـين، ووجد كلتا زوجتيه ووالدته إلى جانبه. شعر بـضعف مروّع وكان عنقه ينبض ألماً. رفع يده فأسرعت تشاكاهي وأمسكت بمعصمه قـبل أن يفـسد الضمادة. دارت أفكاره ببطء وحدّق إليها، محاولاً أن يتذكر ما حدث. استعاد في ذهنه أنه كان يقف خارج الخيمة، ومحاربون يندفعون من حوله. كان الوقت ليلاً والظلام لا يزال حالكاً في الخيمة، مع مصباح صغير فقط يُبعد الدجنة. كم مرّ من الـوقت؟ طرفت عيناه ببطء، ضائعاً. كان وجه بورت شاحباً وقلقاً، وتبدو عليه دوائر سوداء تحت عينيها. ورآها تبتسم له.

ســأل: "لمــاذا... أســتلقي هنا؟". كان صوته واهناً ويلفظ الكلمات بصعوبة بالغة.

قالت هولن: "لقد تسممت. جرحك قاتل من تشن ومصّ جيلم الدم الفاسد منك. لقد أنقـذ حـياتك". لم تذكر ما قام به كوكشو. كانت قد تحملت إنشاده، لكنها لم تسمح له بالـبقاء، أو لأحد بدخول الخيمة. كان أولئك الذين سيدخلون سيتذكرون ابنها على تلك الحـال ممـا سيضعف من سلطته. كونها زوجة ووالدة خان، كانت هولن تعرف حق المعرفة كيف يفكر الرجال وتدرك أهمية ذلك.

بجهد كبير، كافح جنكيز للجلوس على مرفقيه. كما لو أنه كان ينتظر تلك اللحظة بالتحديد، شعر بصداع في رأسه.

تأوه وهو ينحني إلى الأمام: "دلواً". كانت هولن سريعة بما يكفي لتدفع دلواً جلدياً تحـت رأسه بينما كان يتقيأ سائلاً أسود من معدته بسلسلة من التشنجات المؤلمة. جعل ذلك صداعه لا يحتمل تقريباً، لكنه لم يستطع التوقف، حتى عندما لم يبقَ شيء يخرج مـنه. أخيراً، استلقى على السرير، ووضع يداً فوق عينيه لحجب الضوء الخافت الذي كان يزعجه.

قالت هولن: "اشرب هذا يا بني. لا تزال ضعيفاً من الجرح".

نظر جنكيز إلى الوعاء الذي رفعته إلى شفتيه. كان مزيج الدم والحليب مرّاً على لـسانه وابتلع منه مرتين قبل أن يدفعه بعيداً. شعر بأن عينيه تؤلمانه وقلبه يخفق بقوة في صدره، لكن أفكاره كانت صافية على الأقل.

"ساعدوني على النهوض وارتداء ملابسي. لا يمكنني الاستلقاء هنا، من دون أن أعرف شيئاً".

لغـضبه، دفعته بورت للنوم على السرير بينما كان يحاول النهوض. كان يفتقر للقـوة ليدفعها بعيداً وفكّر في استدعاء أحد شقيقيه. لم يكن سعيداً بعجزه ولن يتجاهل كشيون أوامره.

قال بصوت أجش: "لا أتذكر شيئاً. هل قبضنا على الرجل الذي فعل هذا بي؟".

تبادلت النساء الثلاث النظرات. كانت أمه من ردت.

"إنه ميت. لقد مرّ يومان يا بني. كنت قريباً من الموت طيلة ذلك الوقت". امتلأت عيـناها بالدموع فيما كانت تتكلم ولم يسعه سوى التحديق إليها بارتباك. طفا الغضب مـن دون سابق إنذار في ذهنه. لقد كان سليماً ومعافى، ثم أفاق فجأة ليجد نفسه على تلك الحال. كان شخص ما قد سبب له الأذى: ذلك القاتل الذي ذكرنه. تصاعد الغضب في نفسه مثل دخان وحاول النهوض مجدداً.

نادى: "كشيون!"، لكنها كانت مجرد همسة في فمه.

تحـركت النساء حوله، ووضعن قطعة قماش رطبة باردة على جبينه بينما كان يخفض رأسه على البطانيات وهو لا يزال يحدق إليهنّ. لم يستطع أن يتذكر وجود كلتا زوجتيه في الخيمة نفسها من قبل. وجد أن الفكرة غير مريحة، كما لو أنهما ستتبادلان الآراء بشأنه. كان بحاجة...

اسـتولى عليه النوم مجدداً من دون إنذار واسترخت النساء الثلاث. كانت المرة الثالـثة التـي يستيقظ فيها خلال يومين، وفي كل مرة، كان يطرح الأسئلة نفسها. كن ممتـنات لأنـه لـم يتذكر أنهن ساعدنه على التبول في دلو، أو قمن بتغيير البطانيات عـندما أفـرغت أمعاؤه ما بداخلها من أوساخ سوداء والتي حملت السم خارج جسده. ربمـا كان ذلك فحم الخشب الذي أحضره كوكشو، لكن حتى لون بوله كان داكناً أكثر ممـا سبق لأي من النساء أن شاهدن من قبل. كان هناك توتر في الخيمة عندما امتلأ الدلـو. لـم تتحـرك سواء بورت أو تشاكاهي لإفراغه، على الرغم من أنهما نظرتا باتجاهـه وتحدّتا بعضهما بعيونهما. كانت إحداهما ابنة ملك والأخرى الزوجة الأولى لجنكيـز نفـسه. لم تتنازل أي منهما. في النهاية، كانت هولن من حملته إلى الخارج بمزاج سيّئ وهي تحدّق إلى كلتيهما.

قالت تشاكاهي: "بدا أقوى قليلاً هذه المرة. إن عينيه صافيتان".

أومـأت هـولن برأسـها، ومسحت جبينها بيدها. كن جميعاً مرهقات، لكنهن لم يغادرن الخيمة سوى لقضاء حاجة أو إحضار أوعية جديدة من الدم والحليب.

"سـينجو. وسـيندم أولـئك الذين هاجمونا. يمكن أن يكون ابني رحيماً، لكنه لن يسامحهم على ذلك. كان من الأفضل لهم لو أنه مات".

تحـرك الجاسوس بسرعة في الظلام. كان القمر قد اختفى خلف الغيوم ولم يكن لديـه سوى القليل من الوقت. كان قد عثر على مكانه بين آلاف رعايا تشن. كما كان يأمل، لم يكن أحد يعرف إن كان الرجل من باوتو، أو لنهي أو أي مدينة أخرى. كان يـستطيع التحـرك بصفة مقيم في أي منها. لم يكن هناك سوى بعض الضباط المغول لـتدريب رجـال المدينـة على أن يصبحوا محاربين ولم يكونوا يعتبرون أن في تلك المهمـة شـرفاً عظيماً. كان في غاية السهولة بالنسبة إليه أن يتجول مع أي مجموعة ويتابع عمله. كان الضابط المغولي بالكاد قد نظر إليه عندما كان يسلّمه قوساً ويرسله للانضمام إلى اثني عشر آخرين من رماة السهام.

عندما شاهد العلامات الخشبية تنتقل من شخص إلى آخر في المعسكر، انتابه القلـق مـن أن تكون دليلاً على إجراء إداري صارم. لم يكن ممكناً أن ينضم إلى فوج من تشن بتلك الطريقة، أو حتى أن يقترب منه من دون أن يتم توجيه أسئلة له عدّة مرات. كان جنود تشن يفهمون خطر الجواسيس بينهم وطوّروا تقنيات للإيقاع بهم.

عبس الجاسوس عندما فكر في ذلك. لم تكن هناك كلمات سر أو رموز في ذلك المكان. كانت الصعوبة الوحيدة التي يلاقيها تتمثل في إرغام نفسه على إظهار المقدار نفـسه من الجهل مثل الآخرين. كان قد اقترف خطأ في اليوم الأول عندما أطلق سهماً أصـاب به وسط الهدف مباشرة. في ذلك الوقت، لم تكن لديه فكرة عن مزارعي تشن عديمـي الفائدة الذين كان يعمل معهم، وعندما أطلقوا السهام خلفه، لم ينجح أحدهم في إصـابة الهدف. كان الجاسوس قد أخفى خوفه عندما مشى الضابط المغولي بخطوات واسعة نحوه، وطلب منه إطلاق سهم آخر. كان حريصاً على إطلاق سهام طائشة بعد ذلك وفقد الضابط الاهتمام به، ووجهه يخفي بالكاد اشمئزازه من مهاراتهم.

علـى الرغم من أن الحرّاس كلّهم قد تذمروا من المناوبة في منتصف الليل، إلا أن القاتـل الفاشل كان قد أحدث تأثيراً كبيراً في المعسكر كله. أصرّ الضباط المغول علـى مـراقبة المحـيط الخارجي للمعسكر تحسباً من محاولة أخرى، حتى في قسم

المعسكر الذي يضم رعايا تشن. كان الجاسوس قد تطوع للحراسة في وقت متأخر، من منتصف الليل إلى الفجر. وضعه ذلك على حافة المعسكر وحيداً. حتى عندها، كان تَـرْكُ موقعه ينطوي على مخاطرة كبيرة، لكن كان عليه الاتصال بسيده، وإلا ستضيع جهوده كلّها. كان قد طُلب منه أن يجمع معلومات، وأن يكتشف كل ما يمكنه اكتشافه. كان يعود إليهم أن يفعلوا ما يرونه مناسباً بما يكتشفه.

جـرى حافي القدمين في الظلام، وأبعد عن ذهنه فكرة قيام ضابط بتفقد حرّاسه. لـم يكن يستطيع تقرير مصيره وكان بالتأكيد سيسمع الإنذار إن اكتشفوا أنه قد ذهب. كانت لديه بالفعل كلمة سر يمكنه استعمالها عند السور ولن تمر سوى لحظات قبل أن يرمي إليه قومه بحبل ويصل برّ الأمان مرة أخرى.

تحـرك شيء إلى يمينه واستلقى على الأرض، وسيطر على أنفاسه وبقي ساكناً تماماً بينـما كان يستنفر حواسه. منذ الهجوم على الخان، كان المستطلعون ينتشرون طـيلة اللـيل، فـي مناوبات، أكثر تأهباً مما كانوا عليه من قبل. كانت مراقبة المدينة المظلمة مهمة يائسة بالنسبة إليهم، لكنهم كانوا سريعين وصامتين، وفتّاكين إذا قبضوا علـيه. بيـنما كان مستلقياً هناك، تساءل الجاسوس إن كان هناك قتلة آخرون سيأتون بحثاً عن الخان إذا نجا من الأول.

أيـاً كان الفارس، لم يرَ شيئاً. سمع الجاسوس الرجل يصدر صوتاً خافتاً لفرسه، لكـن الأصـوات تلاشت ثم انطلق مجدداً مثل أرنب بري. كان كل شيء يعتمد على السرعة.

كانـت أسـوار المديـنة سوداء تحت السحب واعتمد على ذاكرته للوصول إلى المكـان المناسـب. عدّ عشرة أبراج مراقبة من الزاوية الجنوبية وركض مباشرة إلى الخـندق المائي. زحف على بطنه ليتحسس ما يوجد على طول الحافة، وابتسم عندما شـعر بخـشونة زورق القصب الذي كان مربوطاً من أجله. حاول ألا يصاب بالبلل وكـان حريـصاً في الظلام عندما جثم في الزورق، وعبر الماء ببضع ضربات. في الظـلام، كان يقوم بكل شيء باللمس، وخرج من الزورق وربط الحبل الرطب حول صخرة. لم يكن من المفيد أن يترك القارب الصغير يطفو بعيداً.

لـم يكـن الخـندق المائـي يصل إلى الأسوار التي تلوح فوقه. كان هناك ممر عـريض مـن الحجـارة يلـتف حول المدينة، وكان رطباً وزلقاً من التعفن. في أيام الصيف، كان قد رأى النبلاء يتسابقون على الجياد على طوله، ويراهنون بمبالغ كبيرة علـى أول رجل يعود إلى البداية. عبره بسرعة ومس مدينة ولادته، ووضع يده لوقت قصير على السور في إشارة إلى وصوله برّ الأمان في وطنه.

فـوق رأسه، ربما كان هناك اثنا عشر رجلاً يجثمون على قمة السور بصمت. على الرغم من أنهم لن يتكلموا، إلا أنهم سيفهمونه، وفي تلك اللحظات القليلة، تضاءل التوتر الذي عاش معه حتى تلاشى تماماً ولم يعد له وجود.

مـرت يـداه بـسرعة على الأرض، يبحث عن حصاة. عالياً فوق رأسه، كانت الـسحب تمر مسرعة على المدينة. قدّر موقع القمر بحرص شديد. ستكون هناك فتحة فـي الغـيوم لوقت قصير فقط وينبغي أن يكون بعيداً عن السور بحلول ذلك الوقت. ضـرب الحجر على السور، وكان الصوت عالياً في صمت الليل. سمع صوت الحبل ينـزل إلـيه قبل أن يراه. بدأ يتسلق عليه، وفي الوقت نفسه، سحبوه عالياً مما جعله يرتفع بسرعة كبيرة.

بعـد بـضع لحظات فقط، كان الجاسوس يقف على قمة أسوار ينكينغ. كان أحد أفـراد فرق الأقواس يلف الحبل، ويستعد لإنزاله مجدداً. وكان رجل آخر يقف هناك وانحنى الجاسوس أمامه.

قال الرجل وهو ينظر إلى معسكر المغول: "تكلم".

"لقـد أصيب الخان. لم أستطع الاقتراب كثيراً، لكنه لا يزال حياً. المعسكر مليء بالإشاعات ولا أحد يعرف من سيتولى القيادة إذا مات".

رد الرجل بهدوء: "أحد أشقائه"، وتوقف الجاسوس متسائلاً عن عدد الرجال الذين يقدمون تقاريرهم لهذا الشخص.

"ربما، أو سينفرط عقد القبائل ليعود حكم الزعماء القدامى. إنه وقت الهجوم".

أطلق سيده صوتاً خافتاً من الغضب.

"لا أريـد سـماع استنتاجاتك، وإنما ما تعرفه فقط. لو أن لدينا جيشاً، هل كنت تعتقد أن الوصي كان سيقنع بالجلوس داخل الأسوار؟".

رد الجاسوس: "أنا آسف. لديهم مؤن تكفيهم عدّة سنوات، مع ما حصلوا عليه من مخـازن الجيش في ممر بادغر. كنت قد اكتشفت أشخاصاً يتمنّون أن يحاولوا مجدداً استعمال المنجنيقات ضد الأسوار، لكنهم قلة فقط وليس لأحدهم نفوذ".

قـال سـيده، وهـو يمـسك بكتفه بإحكام: "ماذا أيضاً؟ زوّدني بشيء أنقله الوصي".

"إذا مـات الخـان، سـيعودون إلى الجبال. كل الرجال يقولون ذلك. إذا عاش، يمكنهم البقاء هنا لسنوات".

أطلق سيده لعنة بصوت خافت، وشتمه. تحمّل الجاسوس ذلك، ونظر إلى قدَميه. كان يعرف أنه لم يفشل. كانت مهمته نقل ما يعرف بصدق وكان قد قام بها.

"اعثر لي على شخص يمكننا الوصول إليه. بالذهب، بالخوف، بأي شيء. اعثر لـي علـى شخص في هذا المعسكر يمكنه أن يجعل الخان يفكك الخيمة السوداء. إذا بقيت على حالها، لا يمكننا فعل شيء".

رد الجاسـوس: "حاضـر يـا سـيدي". اسـتدار الـرجل مبتعداً عنه وأذن له بالانـصراف، وكـان الحبل يتدلى آنذاك من أعلى السور. نزل بالسرعة نفسها تقريباً التـي صعد بها وبعد لحظات كان يربط الزورق الصغير على الطرف الثاني ويجري مسرعاً عبر الأعشاب إلى موقعه. كان شخص آخر سيتكفل بالأمر ولن يعرف المغول شيئاً.

كان من الصعب مراقبة الغيوم والانتباه في الوقت نفسه للأرض التي حوله. كان الجاسـوس ماهراً في عمله، وإلا لما كان الاختيار قد وقع عليه. تابع الجري وعندما ظهـر القمر من بين الغيوم وأضاء السهل، كان قد استلقى على الأرض آنذاك مختبئاً بـين الـشجيرات خارج المعسكر الرئيسي. في الضوء الفضي، فكّر في الرجال حول الخـان. ليس خاسار أو كشيون. ليس أحد قادة جيشه. لم يكونوا يرغبون بشيء أكثر مـن رؤيـة تدمير ينكينغ، حجراً إثر آخر. فكّر في تيموج للحظة. لم يكن على الأقل محارباً. لم يكن الجاسوس يعرف الكثير عن *سيد التجارة*. جعلت الغيوم الأرض داكنة مـرة أخرى واندفع إلى الحلقة الخارجية لنقاط الحراسة. عاد إلى موقعه كما لو أنه لم يغـادره أبـداً، وأمسك بقوسه وسكينه وانتعل خفين مصنوعين من الحبال. تسمّر فجأة عندما سمع شخصاً يقترب منه، وقف منتصباً مثل أي حارس آخر.

صرخ تسوبودي في الظلام بلغة تشن: "هل لديك ما تبلّغ عنه يا ما تسن؟".

تطلب الأمر منه جهداً كبيراً ليسيطر على تنفسه ويرد.

"لا شـيء أيها القائد. إنها ليلة هادئة". عندها، تنفس الجاسوس عبر أنفه بصمت، وانتظر إشارة تدل على اكتشاف غيابه.

تفـوه تسوبودي بكلام غير مفهوم، ومشى مبتعداً لتفقد الرجل التالي في الصف. بقي الجاسوس وحيداً، وتصبب العرق على جلده. كان المغولي قد استعمل الاسم الذي زوّدهـم به. هل كان مشبوهاً؟ لم يكن يعتقد ذلك. لا شك أن القائد الشاب كان قد تفقد الأوضاع مع ضابطه قبل أن يبدأ جولاته. سيشعر الحرّاس الآخرون بالدهشة من تلك الذاكـرة القـوية، لكن الجاسوس ابتسم فقط في الظلام. كان يعرف الجيوش جيداً ولا يمكن أن يتأثر بخدع الضباط.

فـيما كـان يقف في مناوبته ويسمح لخفقان قلبه بأن يهدأ، فكّر في السبب الذي يكمـن خلف ذلك الأمر. لا يمكن أن يكون سوى الاستسلام. ما الذي قد يريده الوصي

من تفكيك الخيمة السوداء إذا لم يكن عرض الجزية عن ينكينغ؟ على الرغم من ذلك، إذا سمع الخان، فسيعرف أنهم قريبون من تحقيق اختراق ويبتهج لأن الحصار اقترب مـــن نهايـــته. هزّ الجاسوس رأسه خائفاً عندما فكّر في الأمر. كان الجيش قد استولى على مخازن المدينة وخسرها جميعها للعدو عند الممر. كانت ينكينغ جائعة منذ البداية تقريباً وكان زهي زهونغ أكثر يأساً من أي شخص عرفه.

ظهـــر كبـــرياؤه عندها. كان قد تم اختياره لتلك المهمة لأنه كان ماهراً مثل أي قاتـــل أو جـــندي، وأكثر فائدة من أي منهما. كان لديه وقت للعثور على شخص يحب الـــذهب أكثر من خانه. لطالما كان ذلك الشخص موجوداً. خلال بضعة أيام فقط، كان الجاسوس قد عرف بأمر الزعماء الساخطين الذين تم تجريدهم من السلطة. ربما يمكن دفـــع أحدهم ليعتبر أن الجزية أفضل من التدمير. فكّر في تيموج مرة أخرى، متسائلاً لمـــاذا تـــشير أحاسيسه إلى الرجل. أومأ لنفسه في الظلام، مستسيغاً التحدّي وواضعاً مهارته على المحك.

عـــندما استفاق جنكيز مجدداً في اليوم الثالث، كانت هولن في الخارج تجلب الطعام. طـــرح الأسئلة نفسها، لكنه لم يستلقِ على ظهره هذه المرة. كانت مثانته مليئة إلى حدّ الألم وأخـــرج ســـاقيه مـــن تحت البطانيات، وثبّت قدميه على الأرض قبل أن يحاول الوقوف. ســـاعدته تشاكاهي وبورت في الوصول إلى العمود المركزي للخيمة، ولف أصابعه حوله حتى تأكدتا أنه لن يقع. وضعتا الدلو حيث سيصل بوله وتراجعتا إلى الخلف.

طرفت عيناه على زوجتيه مستغرباً رؤيتهما معاً.

قـــال: "هـــل ســـتراقبانني أنـــتما الاثنتان؟". لسبب ما كان يجهله، ابتسمت كلتا المـــرأتين. قـــال لهما: "اخرجا"، وبقي متمسكاً بالعمود حتى غادرتا الخيمة واستطاع إفراغ مثانته. تغضن أنفه من رائحة البول الكريهة، والذي لم يكن لونه طبيعياً أبداً.

نادى فجأة: "كشيون! تعال إلي!". سمع صرخة فرح وابتسم. لا شك أن الزعماء كانـــوا يـــراقبون الموقف تحسباً لموته. أمسك بالعمود الخشبي بإحكام بينما كان يفكر بأفضل الخطط للسيطرة على المعسكر مرة أخرى. كان هناك الكثير مما ينبغي فعله.

فُتح الباب على مصراعيه عندما دخل كشيون الخيمة على الرغم من احتجاجات زوجتَيْ شقيقه.

كـــان كشيون يقول وهو يندفع بينهما بلطف: "سمعته يناديني". صمت عندما رأى شقيقه واقفاً أخيراً. لم يكن جنكيز يضع سوى طماقات وسخة وكان شاحباً ونحيلاً أكثر مما سبق ورآه من قبل.

سأل جنكيز: "هل تساعدني على ارتداء ملابسي يا كشيون؟ يداي أضعف من أن تفعلا ذلك لوحدهما".

امتلأت عينا كشيون بالدموع ونظر جنكيز إليه.

سأل بذهول: "لست تبكي؟ بحق الأرواح، أنا محاط بالنساء".

ضحك كشيون، ومسح عينيه قبل أن تراه تشاكاهي أو بورت.

"جيد أن أراك واقفاً يا شقيقي. كدت أصاب باليأس مما أصابك".

تأفف جنكيز. كان لا يزال ضعيفاً ولم يترك العمود تحسباً لأن يتسبب بالعار لنفسه ويقع.

"أرسل شخصاً يجلب لي درعي وطعاماً. لقد جعلتني زوجتاي أتضور جوعاً بإهمالهما".

في الخارج، كانوا جميعاً يستطيعون سماع الأنباء تنتقل عبر المعسكر، والأصوات تعلو شيئاً فشيئاً. لقد أفاق. إنه حي. تعالت الأصوات حتى تحولت إلى صرخات وصلت إلى أسوار ينكينغ وقاطعت زهي زهونغ في مجلسه مع الوزراء.

تجمد قائد الجيش في وسط النقاش عندما سمع الصوت وشعر بكتلة باردة تستقر في معدته.

عندما خرج جنكيز أخيراً من خيمة مرضه، اجتمعت القبائل لتحيته، وضرب المحاربون بأقواسهم على دروعهم. بقي كوكشو خلفه تحسباً لتعثره، لكن جنكيز مشى بثبات إلى الخيمة الكبيرة على عربتها، وصعد الدرجات من دون إشارة على أي ضعف.

حالما أصبح في الداخل، كاد يقع عندما أفلت قبضة إرادته عن جسده الواهن. جمع كشيون قادة الجيش بينما كان شقيقه يجلس منتصباً بشكل مؤلم لوحده.

حالما أخذوا مواقعهم، رأى كشيون أن جنكيز لا يزال شاحباً بشكل غير طبيعي، والعرق يتصبب من جبينه على الرغم من البرد. كان عنق جنكيز ملفوفاً بضمادات جديدة، مثل طوق. على الرغم من أن وجهه كان نحيلاً بما يكفي لرؤية شكل جمجمته، إلا أن عينيه كانتا تلمعان بسطوع متقد بينما كان يرحب بكل رجل.

ابتسم خاسار لرؤية تعبير الصقر بينما كان يأخذ مكانه إلى جانب أرسلان وتسوبودي. كان جيلم آخر من وصل وأشار إليه جنكيز بأن يقترب منه. لم يكن يعتقد أن قدميه ستحملانه إذا نهض، لكن جيلم جثا على ركبة واحدة أمامه وأمسك به جنكيز من كتفه.

قال جنكيز: "قال كشيون إنك عانيت من السم الذي أخرجته مني".
هزّ جيلم رأسه وقال: "لم يكن شيئاً ذا أهمية".
لم يبتسم جنكيز لذلك، على الرغم من أن خاسار فعل.
قال: "لقد اشتركنا بالدم، أنت وأنا. هذا يجعلك شقيقي، مثل خاسار أو كشيون أو تيموج".
لـم يرد جيلم. وارتعشت اليد على كتفه ورأى كيف تتقد عينا خانه، غائرتين في الجمجمة. على الرغم من ذلك، كان حياً.
"سـتأخذ خُمـس قطعاني، مئة قطعة من الحرير واثني عشر قوساً وسيفاً رائعاً. سأكرمك في القبائل يا جيلم، لما قمت به".
أحنـى جيلم رأسه، وشعر بنظرة أرسلان الفخورة به. رد جنكيز يده إليه ونظر حوله إلى الرجال الذين كانوا قد اجتمعوا لديه.
"لو أنني مت، من منكم كان سيقود القبائل؟". استدارت العيون إلى كشيون وأومأ لـه شقيقه. ابتسم جنكيز، متسائلاً عن الأحاديث التي فوّتها بينما كان نائماً مثل الميت. كـان يعتقد أنه ربما يكون خاسار، لكن لم يكن هناك خزي في نظرته. كان كشيون قد تعامل معه كما ينبغي.
قال لهم جنكيز: "لقد كنا حمقى لأننا لم نخطط لشيء من هذا القبيل. اعتبروا مـا حـدث إنـذاراً. يمكن لأي منا أن يسقط، وإذا حدث ذلك، سيشعر جنود تشن بضعفنا ويهاجموننا. ينبغي بكل منكم أن يسمّي رجلاً يثق به ليأخذ مكانه. ورجلاً آخر يأخذ مكان من اخترتم. سنقوم بإنشاء هيكلية للقيادة حتى أصغر جندي ليعرف كل رجل من يقوده، بغض النظر عن عدد الأشخاص الذين يموتون حوله. لن نقع في هذا مجدداً".
توقف قليلاً ليسمح بمرور موجة من الضعف سرت في جسده. ينبغي بالاجتماع أن يكون قصيراً.
"بالنـسبة لي، سأقبل إرادتكم وأعين كشيون خليفة لي، حتى يكبر أبنائي. سيتبعه خاسار في ذلك. إذا متنا، سيحكم جيلم القبائل ويضرب باسمنا".
واحـداً إثـر آخـر، أحنى الرجال الذين ذكرهم رؤوسهم في إشارة على قبولهم النظام الجديد وراحتهم له. لم يكن جنكيز يعرف مدى الفوضى التي كانوا قريبين منها عـندما كان يستلقي مصاباً. كان كل رجل من الزعماء القدامى قد جمع رجاله حوله، وكان الولاء القديم قد تقدم على الضباط وقادتهم. بضربة واحدة، كان القاتل قد أعادهم إلى صلات الدم القديمة.

علـى الـرغم مـن أن جسده تعرض لإصابة، إلا أن جنكيز كان لا يزال يفهم القـبائل. كـان يستطيع تسمية خمسين رجلاً سيرحبون بالحرية من حكمه إذا مات. لم يـتكلم أحـد بينما كان يفكر بالمستقبل، وكان يعرف أن عليه إعادة بناء هيكلية الجيش الذي كان قد منحهم مدن تشن. أي شيء آخر سيجعلهم يتفرقون ويتعرضون للدمار في نهاية المطاف.

"كـنت وكشيون قد ناقشنا إرسالكم بعيداً من هنا عدّة مرات. لقد كنت متردداً من قبل، لكن ينبغي أن نفصل القبائل الآن. سيكون بعضهم قد نسي العهد الذي قطعوه لي ولقادتهم. ينبغي تذكيرهم به". نظر حوله إلى وجوه قادة جيشه. لم يكن أحدهم ضعيفاً، لكـنهم كانوا لا يزالون بحاجة إليه لقيادتهم، ومنحهم سلطته. ربما كان كشيون يستطيع إبقاءهم معاً إن كان قد لقي حتفه، لكنه لا يستطيع أن يكون واثقاً من ذلك.

"عندما تغادرون هذا المكان، شكّلوا الأفواج في السهل، على مرأى من الأسوار. لـنجعلهم يـشاهدون قوتـنا ثـم ازدراءنا لهم عندما ترحلون. اجعلوهم يخافون ممّا سـتحققونه عـندما تـستولون على مدن أخرى". استدار إلى تسوبودي، ورأى إثارة واضحة في عينيه.

"ستأخذ جوشي يا تسوبودي. إنه يحترمك". فكّر جنكيز للحظة. "لا أريد أن يُعامل كأمير. إنه فتى حسّاس ومتغطرس وينبغي نزع ذلك منه. لا تخف من معاقبته باسمي".

رد تسوبودي: "كما تشاء يا مولاي".

سأل جنكيز بفضول: "إلى أين ستذهب؟".

لم يتردد تسوبودي. كان قد فكر في الجواب عدّة مرات منذ معركة ممر بادغر.

"شمالاً يا مولاي. سأقطع أرض صيد قبيلتي القديمة، يوريانخي، وأرى ما يوجد خلفها".

"حسناً. كشيون؟".

رد كشيون: "سأبقى هنا يا شقيقي. سأرى هذه المدينة تسقط".

ابتـسم جنكيـز مـن التعبير الصارم على وجه شقيقه. "رفقتك موضع ترحيب. جيلم؟".

رد جيلم: "شرقاً يا مولاي. لم أرَ المحيط أبداً ولا نعرف شيئاً عن تلك الأراضي".

تـنهد جنكيـز مـن تلك الفكرة. كان قد وُلد أيضاً في بحر من الأعشاب وكانت الفكرة مغرية. على الرغم من ذلك، كان سيرى تدمير ينكينغ أولاً.

"خـذ ابني تشاغاتاي يا جيلم. إنه فتى رائع وربما يصبح خاناً عندما يكبر". أومأ القائـد بوقار، وكان لا يزال متأثراً بالشرف الذي أصبغه عليه جنكيز. قبل يوم واحد

فقط، كانوا جميعاً متوترين، ينتظرون رؤية ما سيحدث في القبائل عندما تصل الأنباء بأن جنكيز قد مات. أعاد سماعهم لأوامره الثقة إلى نفوسهم. كما كانت القبائل تهمس، كـــان من الواضح أن جنكيز محبوب من الأرواح. شعر جيلم بكبريائه يتعاظم وفشلت محاولته في عدم إظهار أي تعبير على وجهه عندما ابتسم.

تابـــع جنكيـــز قـــائلاً: "أريدك هنا معي يا أرسلان عندما تتضور المدينة جوعاً وتستـــسلم. ربما بعدها ستسلك طريقك ببطء إلى وطنك وتستمتع لعدّة سنوات بالتجوال في السهول بسلام".

استهجن خاسار الأمر بصوت خافت.

"ذلـــك كلام رجل مريض يا شقيقي. عندما تصبح بصحة جيدة سترغب بأن تلحـــق بي جنوباً وتستولي على مدن تشن مثل فاكهة ناضجة، واحدة إثر الأخرى. هل تتذكر السفير وين تشاو؟ سأتجه نحو كيفنغ والجنوب. سأود رؤية وجهه عندما يراني مجدداً".

"إلى الجنوب يا خاسار. عمر ابني أوجيدي عشر سنوات، لكنه سيتعلم منك أكثر مما إذا بقي هنا وحدّق إلى الأسوار. سيبقى تولي الصغير فقط معي. إنه يحب الراهب البوذي الذي أحضرته مع هو سا وتيموج".

رد خاسار: "إذاً، سآخذ هو سا أيضاً. في الواقع، يمكنني أخذ تيموج معي حتى لا يتسبب بأي مشكلات أخرى".

فكّـــر جنكيـــز في الفكرة. لم يكن أصمّ كما كان يدّعي بشأن الشكاوى التي تطال شقيقه الأصغر.

"لا. إنـــه مفـــيد بمـــا فيه الكفاية. إنه يقف بيني وبين ألف سؤال من حمقى ويـــستحق ذلك شيئاً بالمقابل". تأفف خاسار عندها، وكانت مشاعره واضحة. تابع جنكيـــز وهـــو مستغرق بالتفكير، وكان يختبر أفكاراً جديدة كما لو أن مرضه قد حرّر ذهنه.

"لطالمـــا أراد تـــيموج إرســـال مجموعات صغيرة لمعرفة ما يوجد في أراضٍ أخـــرى. ربما كان محقاً بأن المعلومات التي سيجلبونها ستكون مفيدة. انتظار عودتهم ستخفف على الأقل من رتابة موقعه اللعين". أومأ لنفسه. "سأختار الرجال وسيغادرون أيـــضاً عندما ترحلون. سننتشر في *كل* الاتجاهات". عندها، شعر بأنه قد استنفد طاقته فجأة كما جاءت، وأغلق عينيه عندما شعر بموجة دوار.

"اتركونـــي الآن، مـــا عدا كشيون. شكّلوا أفواجكم وودّعوا زوجاتكم وخليلاتكم. سيكونَنّ بأمان معي، إلا إن كن جذّابات للغاية".

ابتسم بضعف عندما نهضوا، وكان سعيداً لرؤيتهم أكثر ثقة مما كانوا عليه عندما وصــلوا. عندما وقف كشيون وحيداً في الخيمة الكبيرة، فقد جنكيز حيويته، وبدا فجأة أكبر عمراً.

"ينبغـــي أن أرتاح يا كشيون، على الرغم من أنني لا أريد العودة إلى تلك الخيمة التـــي تعبق بروائح المرض. هل يمكنك وضع حارس على الباب حتى أستطيع النوم والأكل هنا؟ لا أريد أن يراني أحد".

"ســأفعل يا شقيقي. هل يمكنني إرسال بورت لتنزع عنك ملابسك وتُطعمك؟ لقد رأت الأسوأ حتى الآن".

هزّ جنكيز كتفيه استخفافاً، وكان صوته ضعيفاً.

"ربمـــا من الأفضل أن ترسل كلتا زوجتيّ. لن يستمر الهدوء الذي عاشتا فيه إذا فــضلت واحدة على الأخرى". كانت عيناه مشوشتين آنذاك. كان الجهد الذي بذله في ذلــك الاجتماع الوحيد قد أوصله إلى حافة الإجهاد، واهتزت يداه عندما وضعهما في حجره. واستدار كشيون ليغادر.

تمتم جنكيز من خلفه: "كيف جعلت خاسار يقبل بأن تخلفني؟".

رد كشيون: "قلت له إن بمقدوره أن يكون الخان. أعتقد أن ذلك قد أرعبه".

# الفصل التاسع والعشرون



استغرق الأمر من القادة ستة أيام أخرى لجمع رجالهم في ساحات ضمت كل منها عشرة آلاف محارب، مستعدين للرحيل. في الجوهر، كان كل فوج فرقة غزو على نطاق واسع، وهو شيء يعرفه جميعهم جيداً. على الرغم من ذلك، كان ذلك الحشد يتطلب تنظيماً وكان تيموج وكادره من الرجال المشوهين مشغولين بالإمدادات، الجياد، الأسلحة ولوائحهم. مرة فقط، لم يتذمر الضباط من التدخل. كانت تقع أمامهم أراض لم يرَها أحد من شعبهم. كان حب السفر قوياً في الرجال فيما كانوا يحدّقون إلى الاتجاهات التي كان قادتهم قد اختاروها.

كان أولئك الذين تخلّفوا أقل ابتهاجاً واعتمد جنكيز على كشيون للحفاظ على الانضباط حتى يستعيد عافيته. حقق ذلك التكتيك نجاحاً مدهشاً ولم يكن على شقيقه سوى أن ينظر إلى خيمة الخان الكبيرة حتى يصمت الرجال المتخاصمون. لم يكن أحد يرغب بإزعاج جنكيز في الوقت الذي يستعيد فيه قوته. كانت الحقيقة البسيطة بأنه لا يزال حياً قد قضت على القوة المتزايدة للزعماء القدامى في المعسكر. حتى عندها، كان والد ويلا الشخص الذي طلب رؤية جنكيز، غافلاً عن العواقب. كان كشيون قد زار الرجل في خيمته، وبعد ذلك، لم ينبس خان ويلا ببنت شفة لأحد. كان أبناؤه سيتجهون جنوباً مع خاسار وسيتركونه وحيداً مع خدمه فقط لحمله كل يوم.

كان الثلج قد تساقط في الليلة السابقة، لكن الصباح كان مشرقاً والسماء زرقاء صافية فوق ينكينغ. في الساحات الضخمة على السهل المتجمد، انتظر المحاربون الأوامر، ووقفوا جاهزين لامتطاء جيادهم التي كانت ترعى في الثلج. كان ضباطهم مشغولين بتفقد الصفوف والمعدات على الرغم من أنه لم يكن هناك مهملون كُثر ليتركوا شيئاً خلفهم، ليس وحياتهم تعتمد على ذلك. ضحك الكثير من الرجال وتبادلوا الدعابات مع بعضهم. كانوا قد تحركوا فوق سطح الأرض طيلة حياتهم ولم يكن التوقف الإلزامي عند ينكينغ طبيعياً بالنسبة إليهم. ستكون هناك مدن أقل تحصيناً على طريق رحلتهم، وكان كل فوج يسافر

مـــع منجنـيقات فـــي اثنتـــي عشرة عربة ورجال مدربين على استعمالها. كانت العربات ستجعلهم بطيئين، بالطبع، لكن كل رجل هناك كان يتذكر نشوان في مملكة كزي كزيا. لم يكونـــوا مـــضطرين للصراخ خارج أسوار بعيدة. بدلاً من ذلك، كانوا سيحطمون بوابات المدينـــة ويلقـــون بملـــوك صـــغار من ارتفاعات عالية. كان ذلك احتمالاً بهيجاً وغمرتهم السعادة كما لو أنهم في يوم وليمة صيفية.

كانـــت المواد الأخيرة التي قدّمها تيموج ليستعملها كل قائد خياماً بيضاء، حمراء وســـوداء. اســـتمد المحاربون الشجاعة من رؤيتها تُطوى ويتم تحميلها، وتُربط بحبال طويلة. كان وجود الخيام يدل على نيتهم في قهر كل أولئك الذين يقفون ضدهم. كانت قوتهم تمنحهم الحق في ذلك.

إضـــافة إلى الأفواج، كان جنكيز قد جمع عشر مجموعات تتألّف كل واحدة منها من عشرين محارباً لاستطلاع أراضٍ جديدة. في البداية، فكّر فيهم كمجموعات غزو، لكن تيموج كان قد حثّه على منحهم حمولة عربات من الذهب والهدايا. كان تيموج قد تكلـــم إلى ضابط كل مجموعة، وتأكد من أن الرجل يفهم بأن مهمته المراقبة والتعلم، وحتـــى تقديم الرشى. كان تيموج قد دعاهم دبلوماسيين، وهي كلمة كان قد تعلمها من ويـــن تـــشاو، قبل عدّة سنوات. في ما يتعلق بذلك، كما هي حال كل شيء آخر، كان تـــيموج قد ابتكر شيئاً جديداً للقبائل. كان يعرف قيمتهم على الرغم من أنهم أنفسهم لم يكونوا يعرفونها. كان أولئك الرجال أقل ابتهاجاً بكثير من الذين عرفوا أنهم سيفتحون المدن التي تقع في طريقهم.

كـــان جنكيـــز قد أزال الضمادات عن عنقه، وظهرت خثرة سميكة فوق كدمات صـــفراء وســـوداء. تـــنفس بعمق في الهواء البارد، وسعل في يده عندما شعر بموجة ضـــعف. لـــم يكن قريباً من تمام عافيته، لكنه تمنّى أيضاً أن يكون مع الآخرين، حتى أولئك الذين يُتوقع منهم أن يتكلموا ويتجسسوا لا أن يقوموا بالغزو. ألقى نظرة غاضبة على ينكينغ عندما خطرت له تلك الفكرة، وكانت المدينة تجثم مثل ضفدع على السهل. لـــم يكن هناك شك بأن إمبراطور تشن كان على الأسوار في تلك اللحظة، يراقب تلك الحـــركة الغريبة للرجال والجياد. بصق جنكيز على الأرض باتجاه المدينة. كانوا قد اختـــبأوا خلف الجنود عند ممر بادغر وأضحوا يختبئون آنذاك خلف الأسوار. تساءل عن عدد المواسم التي يمكنهم فيها تحمل ذلك وأصبح مزاجه أفضل.

قـــال كشيون، بعد أن اقترب على صهوة جواده وترجل عنه: "الرجال جاهزون. لا يستطيع تيموج التفكير في شيء آخر لإثارة غضبهم، شكراً للأرواح. هل ستنفخ في البوق بنفسك؟".

نظر جنكيز إلى بوق الاستطلاع اللامع الذي يتدلى من عنق شقيقه. هزّ رأسه.

قال: "سأودّع أبنائي أولاً. أحضرهم إلي". أشار إلى بطانية كبيرة على الأرض، مع قارورة من الشراب اللاذع الأسود وأربعة أكواب على القماش.

أحنى كشيون رأسه ووثب عائداً إلى السرج، وركل الحيوان ليعدو بأقصى سرعته عبر الساحات المليئة بالرجال المنتظرين. كان الطريق طويلاً للوصول إلى أبناء شقيقه. كان كل محارب هناك يمتلك جوادين آخرين ما شكّل قطيعاً ضخماً من الجياد وكان الصباح مليئاً بضوضاء صهيلها.

انتظر جنكيز بصبر حتى عاد كشيون مع جوشي، تشاغاتي، وأوجيدي تنحّى شقيقه جانباً للسماح للأبناء بالاقتراب. راقب كشيون من طرف عينه بينما كان جنكيز يجلس وقد وضع ساقاً على ساق والأبناء الثلاثة يواجهونه على بطانية خشنة. بصمت، سكب لكل واحد منهم كوباً من الشراب الناري فتناول كل منهم كوبه بشكل رسمي باليد اليمنى، وأمسكوا مرافقهم بأيديهم اليسرى لإظهار أنهم لا يحملون أسلحة.

لم يستطع جنكيز العثور على شيء ينتقده في سلوكهم بينما كان ينظر إليهم. كان جوشي يرتدي درعاً جديداً، أكبر قليلاً من جسده. كان لا يزال لدى تشاغاتي الدرع الذي كان قد منحه إياه. وحده أوجيدي كان يرتدي الثوب المبطّن التقليدي، وكان صغيراً جداً بعمر العاشرة على ارتداء درع رجل، حتى مع ما كانوا قد كسبوه عند ممر بادغر. كان الفتى الصغير ينظر إلى كوب الشراب بشيء من الريبة، لكنه ارتشف منه مع الآخرين، ولم يظهر على وجهه أي تعبير.

قال جنكيز مبتسماً: "ذئابي الصغار. ستكونون جميعاً رجالاً عندما أراكم مجدداً. هل تكلمتم إلى والدتكم؟".

رد جوشي: "فعلنا ذلك". نظر إليه جنكيز وتساءل عن عمق الخصومة في عيني الفتى. ما الذي كان قد فعله ليستحق ذلك؟

رداً على نظرة جوشي العابسة، تكلم جنكيز إليهم جميعاً.

"لن تكونوا أمراء بعيداً عن هذا المعسكر. كنت قد أوضحت ذلك لقادتكم. لن تكون هناك معاملة خاصة لأبنائي. ستسافرون مثل أي محارب آخر من الشعب وعندما تُدعون للقتال، لن يكون هناك أحد لإنقاذكم بسبب من تكونون. هل تفهمون؟".

لقد بدا أن كلماته قد نزعت الإثارة منهم، وتلاشت ابتساماتهم. واحداً إثر الآخر، أحنوا رؤوسهم. وأفرغ جوشي كوبه ووضعه على البطانية.

تابـع جنكيـز: "إذا رقيتُم إلى رتبة ضابط، سيكون ذلك فقط لأنكم أظهرتم بأنكم سـريعو التفكير، ماهرون وشجعان *أكثر* من الرجال حولكم. لا أحد يرغب بأن يقوده أحمق، حتى وإن كان ذلك الأحمق ابني".

توقف قليلاً، وسمح لذلك بأن يتغلغل فيهم فيما كانت نظرته تستقر على تشاغاتي. "بـأي حال، أنتم أبنائي وأتوقع أن أرى دمائي تجري في كل منكم. سيفكر المحاربون الآخرون في المعركة التالية، أو الأخيرة. أنتم ستفكرون في الأمة التي يمكنكم قيادتها. أتوقـع منكم العثور على رجال يمكنكم أن تثقوا بهم وأن يرتبطوا بكم. أتوقع منكم أن تـضغطوا على أنفسكم وتقسوا عليها أكثر مما يفعله أي شخص آخر. عندما تشعرون بالخـوف، أخفـوه. لن يعرف أحد غيركم بذلك، ومهما كان السبب، سيزول. سيتذكر الجميع كيف تحتفظون برباطة جأشكم".

كـان هـناك الكثير ليقوله لهم. كان من المفرح أنّ حتى جوشي انتبه لكل كلمة، لكن من يمكنه أن يقول لهم كيف يحكمون إذا لم يكن والدهم؟ كانت تلك مهمته الأخيرة للفتية قبل أن يصبحوا رجالاً.

"عـندما تتعـبون، لا تتكلموا عن ذلك أبداً وسيعتقد الآخرون أنكم من حديد. لا تسمحوا لمحارب آخر أن يسخر منكم، حتى على سبيل المزاح. إنه شيء يفعله الرجال ليروا من يمتلك القوة ليقف ضدهم. أظهروا لهم أنكم لن تخافوا وإذا كان ذلك يعني أن تقاتلوا، حسناً، هذا ما ينبغي عليكم فعله".

قال جوشي بهدوء: "ماذا إن قام أحد الضباط بالسخرية منا؟".

نظر إليه جنكيز بحدّة.

"لقد رأيت رجالاً يحاولون تفادي مثل تلك الأمور بابتسامة، أو بخفض رؤوسهم، أو حتـى المـزاح لجعل الآخرين يضحكون بقوة أكبر. إذا فعلتم ذلك، لن تقودوا أبداً. نفذوا الأوامر التي تصدر إليكم، لكن حافظوا على كرامتكم؟". فكّر للحظة.

"مـنذ هذا اليوم، لم تعودوا أطفالاً. أنت أيضاً يا أوجيدي. إذا كان عليكم أن تقاتلوا، حتى إذا كان صديقاً، اطرحوه أرضاً بأسرع وأقوى ما تستطيعون. اقتلوه إذا كنـتم مضطرين لذلك، أو اصفحوا عنه. لكن، احذروا من ترك دين لأي رجل في أعناقكم. من بين كل الأشياء، يثير ذلك الاستياء. ينبغي أن يعرف أي محارب يرفع قبضته لكم أنه يغامر بحياته وأنه *سيفقدها*. إذا لم تستطيعوا تحقيق النصر في البداية، اثأروا إذا كان ذلك آخر شيء تفعلونه. ستسافرون مع رجال لا يحترمون سـوى الأقوى منهم، رجال أقسى منهم. إضافة إلى كل شيء آخر، هم يحترمون النجاح. تذكروا ذلك".

جال ببصره الحاد عليهم وارتعش أوجيدي بعد أن شعر ببرودة الكلمات. لم يبتسم جنكيز لرؤية ذلك عندما تابع كلامه.

"لا تــسمحوا لأنفسكم أبداً بأن تصبحوا رقيقين، وإلا سيأتي رجل يوماً ما ويأخذ كل شيء منكم. استمعوا إلى أولئك الذين يعرفون أكثر منكم وكونوا آخر من يتكلم في كــل محادثة، حتى ينتظروا منكم أن ترشدوهم إلى الطريق. واحذروا الرجال الضعفاء الذين يأتون إليكم بسبب اسمكم. اختاروا أولئك الذين يتبعونكم بعناية مثل الزوجات. إذا كنت أتمتع بمهارة واحدة جعلتني أحكم شعبنا، ستكون تلك. يمكنني أن أرى الفرق بين محارب متبجح ورجل مثل تسوبودي، أو جيلم، أو خاسار".

لاحت علامات سخرية على فم جوشي قبل أن ينظر بعيداً ورفض جنكيز السماح لغضبه بالظهور.

"شيء واحد بعد قبل أن تغادروا. احرصوا على عدم إراقة بذوركم". احمرّ وجه جوشي خجلاً عندها وفغر تشاغاتي فمه دهشة. وحده أوجيدي بدا مرتبكاً. تابع جنكيز الكلام.

"يــصبح الفتــية الــذين يقــضون كل ليلة يلعبون بأعضائهم ضعفاء، مهووسين بحاجــات أجسادهم. أبعدوا أيديكم عنها وعاملوا الرغبة مثل أي نقطة ضعف أخرى. ستجعلكم العفة أقوياء. ستكون لديكم زوجات وخليلات في الوقت المناسب".

فيما كان الفتية الثلاثة يجلسون هناك بصمت محرجين، وضع سيفه في غمده. لم يكن قد خطط لذلك، لكن الأمر بدا صحيحاً وأراد أن يفعل شيئاً يتذكرونه.

قــال: "خــذه يــا تشاغاتي". رمى الغمد بين يدي ابنه. تحسّسه تشاغاتي بسعادة ممــزوجة بالدهــشة. راقب جنكيز الفتى بينما كان يرفع قبضة رأس الذئب لتلمع في الــشمس، ثــم شهر السيف الذي كان والده قد حمله طيلة شبابه. كانت عيون الآخرين على المعدن اللامع، ممتلئة حسداً.

قال جنكيز بهدوء: "كان والدي ياسوجي يحمله معه في اليوم الذي مات فيه. كان *والــده* قــد أمــر بصنعه في وقت كانت فيه الذئاب عدواً لكل قبيلة أخرى. لقد أزهق أرواحاً وشهد ولادة أمة. احرص على عدم تدنيسه".

أحنى تشاغاتي رأسه حيث كان جالساً، وقد غمرته السعادة.

رد: "لن أفعل يا مولاي".

لم ينظر جنكيز إلى وجه جوشي الأبيض.

"اذهــبوا الآن. عندما تعودون إلى قادتكم، سأنفخ في البوق. سنرى بعضنا مجدداً عندما تصبحون رجالاً ويمكننا الالتقاء كأنداد".

قال جوشي فجأة: "أتطلع قدماً إلى ذلك اليوم يا أبي".

رفـــع جنكيـــز بصره الشاحب إليه، لكنه لم يقل شيئاً. لم يتكلم الفتية بعضهم مع بعض عندما انطلقوا مبتعدين على الأرض القاسية ولم ينظروا إلى الخلف.

عندما أصبح جنكيز لوحده مرة أخرى مع كشيون، شعر بشقيقه يحدّق إليه.

سأل كشيون: "لماذا لم تمنح السيف لجوشي؟".

قال جنكيز بحدّة: "لوغد تتاري. أرى والده ينظر إلي كلما التقينا".

هـــزّ كشيون رأسه، وأحزنه أن يكون جنكيز أعمى في تلك المسألة وبصيراً في كل ما سواها.

قال: "نحن عائلة غريبة يا شقيقي. إذا تركتنا وحدنا، نصبح ضعفاء ورقيقين. إذا تحدّيتـــنا، تجعلـــنا نكـــره، ونـــصبح أقوياء بما يكفي لنرد الضربة". نظر إليه جنكيز مستفسراً وتنهد كشيون.

قـــال كـــشيون: "إذا أردت حقـــاً إضعاف جوشي، كان ينبغي أن تمنحه السيف. سيعتبرك الآن عدواً ويجعل نفسه حديداً، تماماً كما فعلت. هل ذلك ما تريده؟".

طرفت عينا جنكيز، مندهشاً من الفكرة. كان كشيون يرى الأشياء بوضوح مؤلم ولم يستطع الحصول على رد.

تنحـــنح كشيون وقال: "كانت تلك نصيحة مثيرة للاهتمام، خاصة الجزء المتعلق بإراقـــة بـــذورهم". تجاهله جنكيز، وراقب الأشكال التي تبتعد للانضمام إلى ساحات المحاربين.

قـــال كشيون: "لا يبدو أن ذلك تسبب بالأذى لخاسار أبداً". ضحك جنكيز بصوت خافـــت، ومـــدّ يده طلباً لبوق كشيون. نهض على قدميه ونفخ نغمة عميقة طويلة عبر الـــسهل. قبل ان تتلاشى، قعقعت الأفواج وهي تتحرك، وكان شعبه يتجه نحو النصر. كان يتوق للتواجد معهم، لكن كان عليه رؤية ينكينغ تسقط أولاً.

تـــأوه تيموج عندما دلّك خادمه كتفيه مزيلاً عنهما هموم اليوم. بدا أن شعب تشن يمـــتلك فكرة عن الحضارة لا يمكن لأحد في القبائل أن يجاريها. ابتسم نعساً من فكرة الطلـــب إلى محارب أن يدهن عضلاته بالزيت. كان إما سيعتبرها إهانة له، أو يعمل عليها مثل جزّ الصوف.

في البداية، كان قد ندم على خسارة خادمه الأول. نادراً ما كان الرجل يتكلم ولم يكـــن يعرف حقاً شيئاً من لغة المغول. على الرغم من ذلك، كان قد عمل على تنظيم يـــوم تـــيموج، حتى بدت الأحداث تجري بسلاسة حوله من دون توتر. كان تيموج قد

أضحى معتاداً على الاستيقاظ بعد الفجر والاستحمام. كان خادمه يقوم بعد ذلك بإلباسه وتحضير إفطار خفيف له. كان يقرأ التقارير من رجاله حتى ينقضي الصباح، ثم يبدأ العمــل المناســب لذلك اليوم. بدت خسارة مثل ذلك الرجل بفعل سكين قاتل مأساة في البداية.

تنهد تيموج سعادة بينما كان الخادم الجديد يعمل على العضلات، وإبهاماه تفركان بقــوة. ربما لم تكن بالخسارة الكبيرة، بالمحصلة. لم يكن سن العجوز يعرف شيئاً عن الــزيوت والتدليك، وعلى الرغم من أن وجوده كان مريحاً، إلا أن الرجل الجديد كان يتكلم كلما سمح له تيموج بذلك، ويشرح له أي مظهر يلفت انتباهه في مجتمع تشن.

تمتم: "ذلك جيد جداً يا ما تسن. كاد الوهن يختفي".

رد الجاســوس: "علــى الــرحب والسعة يا مولاي". لم يكن يستمتع بفرك ظهر الــرجل، لكــنه كان قد أمضى مرة حوالى السنة كحارس دورية ويعرف كيف تجعل الفتيات زبائنهن يسترخون.

قــال بلطــف: "رأيــت الجيوش تتحرك بعيداً هذا الصباح يا سيدي. لم يسبق أن رأيت مثل ذلك العدد الكبير من الجياد والرجال في مكان واحد".

تأفف تيموج.

"ابتعادهم يجعل حياتي أبسط. لقد اكتفيت من شكواهم وشجارهم. أعتقد أن شقيقي اكتفى منهم أيضاً".

تابع الجاسوس كلامه: "سيجلبون الذهب للخان عندما يعودون. لا أشك بذلك". بدأ يربت على عضلات ظهر تيموج الثقيلة، قبل أن يجد عقدة أخرى يعمل عليها بأصابع قوية.

تمتم تيموج: "لسنا بحاجة للمزيد منه. لدينا عربات من النقود ووحدهم رعايا تشن يبدون مهتمين بها".

توقف الجاسوس للحظة. كانت تلك إحدى سمات ذهنية المغول التي تربكه. كان تيموج مسترخياً آنذاك، لكنه تابع العمل، محاولاً أن يفهم.

سأل: "هل صحيح إذاً أنك لا تسعى لتكديس ثروة؟ لقد سمعت مثل ذلك القول".

"مــاذا ســنفعل بها؟ لقد جمع شقيقي الذهب والفضة لأن هناك بعض الأشخاص الذين ينظرون بجشع إلى مثل تلك الأشياء. لكن ما فائدتها؟ الثروة الحقيقية لا توجد في المعادن".

تابــع الجاســوس: "يمكنك شراء جياد بها، وحتى أسلحة أو أراض". تحت يديه، شعر تيموج يهز كتفيه لا مبالياً.

"ممــن؟ إذا كانت كومة من النقود ستجعل رجلاً آخر يعطينا جياده، يمكننا أخذها منه. إذا كانت لديه أرض، ستكون لنا بأي حال، لنجول فيها كما يحلو لنا".

طرفت عينا الجاسوس غضباً. لم يكن لدى تيموج سبب ليكذب عليه، لكن الرشوة لن تكون سهلة إذا تكلم الصدق. حاول مجدداً، معتقداً بأن الأمر ميؤوس منه.

"فــي مدن تشن، يمكن للذهب شراء بيوت كبيرة إلى جانب بحيرة، طعام شهي، وحتى آلاف الخدم". كافح لتقديم المزيد من الأمثلة. بالنسبة إلى شخص كان قد ولد في مجــتمع يــستعمل الــنقود، كان من الصعب أن يفسر الماء بالماء. "يمكنه حتى شراء الــنفوذ والتعاطف من رجال أقوياء يا مولاي. قطع فنية نادرة، وربما هدايا لزوجاتك. يجعل كل شيء ممكناً".

رد تيموج غاضباً: "أفهم ذلك. اصمت الآن".

استــسلم الجاسوس تقريباً. لم يستطع شقيق الخان استيعاب المفهوم. في الحقيقة، جعله ذلك يدرك الطبيعة المزيفة لعالمه. *كان* الذهب ليناً جداً على أي استعمال حقيقي. لماذا كان يعتبره قيّماً؟

"مــاذا إن أردت جــواد رجل في القبائل يا سيدي؟ لنقل إنه جواد أفضل من كل الجياد الأخرى".

قال تيموج بحدة: "إذا كنت تقدّر يديك، لن تتكلم مجدداً". عمل الجاسوس بصمت لــبعض الوقت وتنهد تيموج. "سأمنحه خمسة جياد من سلالة أدنى، أو عبدين، أو ستة أقــواس، أو سيفاً صنعه رجل ماهر، أي شيء يريده وفقاً لما احتاجه". ضحك تيموج بصوت خافت، وهو يكاد ينام. "إذا قلت له إن لدي حقيبة من معدن نفيس سيشتري له جواداً آخر، سيقول لي أن أحاول مع أحمق آخر".

جلس تيموج عندها. كانت سماء المساء صافية وتثاءب. كان يوماً حافلاً بترتيب مغادرة ذلك العدد الكبير من الرجال.

"أعتقد أنني سأتناول جرعات من دوائي الليلة يا ما تسن، لتساعدني على النوم".

ســاعد الجاسوس تيموج على ارتداء ثوب حريري. كانت خيلاء الرجل تسليه، لكــنه لم يستطع التخلص من الإحباط الذي شعر به. كانت سلطة الزعماء الصغار قد انتهت عندما أصدر جنكيز الأمر بتشكيل الأفواج. لم تكن تلك خسارة. لم يكن لأحدهم نفــوذ حقيقــي في المعسكر. كان الجاسوس قد خفف من خسائره وعمل بسرعة ليحل محــل الخــادم الذي لقي حتفه على يدي القاتل. كان التحرك بمثل تلك السرعة يجلب مخاطــر عديدة وشعر بأن الجهد الذي يبذله يزداد يومياً. كان لا يزال يعتقد أن تيموج رجــل فاشل وسطحي، لكنه لم يكن قد وجد شيئاً ربما يغريه على الخيانة، كما لم يجد

مرشحاً أفضل منه. كان ينبغي تفكيك الخيمة السوداء، لكن ينبغي ألا يعرف جنكيز بالصراع المرير في ينكينغ. فكّر الجاسوس في أن الوصي قد أرسله لتنفيذ مهمة شبه مستحيلة.

ضائعاً في أفكاره الخاصة، حضّر الجاسوس الشراب الساخن اللاذع الطعم وأضاف ملعقة من عجينة الكاهن العرّاف السوداء، بعد أن كشطها من قدر. عندما لم يكن تيموج ينظر إليه، شمّ رائحتها، متسائلاً إن كانت مخدراً. كان النبلاء يدخنون الأفيون في المدن ويبدون متعلقين بمشاربهم، تماماً كما يبدو تيموج متعلقاً بشرابه.

قال: "كادت الكمية تنفد لدينا يا مولاي".

تنهد تيموج. "إذاً، ينبغي أن أطلب المزيد من الكاهن العرّاف".

"سأذهب إليه يا سيدي. لا ينبغي أن تزعج نفسك بأشياء صغيرة".

رد تيموج سعيداً: "ذلك صحيح". تناول الكوب وارتشف منه، وأغلق عينيه بسعادة. "اذهب إليه، لكن لا تخبره شيئاً عما تفعله لي. ليس كوكشو رجلاً لطيفاً. تأكد من عدم إخباره بأي شيء كنت قد رأيته أو سمعته في هذه الخيمة".

قال الجاسوس: "سيكون الأمر أسهل إن استطعت شراء العجينة منه بالنقود الذهبية يا سيدي".

"لا يريد كوكشو ذهبك. أعتقد أنه مهتم بالسلطة فقط". أفرغ الكوب، وكشّر من الرواسب المرّة، لكنه استمر في تحريكه لشرب كل قطرة. كانت فكرة الوعاء الفارغ تزعجه بشكل غريب. كان سيحتاجه مجدداً في الصباح.

"قابله الليلة يا ما تسن. إذا استطعت، حاول اكتشاف كيف يصنع العجينة، حتى تتمكن من تحضيرها بنفسك. لقد سألته من قبل، لكنه أخفى الأمر عني. أعتقد أنه يستمتع بحقيقة أنه ما زالت لدي حاجة عنده. إذا استطعت العثور على السر، فلن أنسى ذلك".

رد الجاسوس: "كما تشاء يا مولاي". كان ينبغي به العودة إلى السور تلك الليلة، لتقديم تقريره. كان هناك وقت لرؤية الكاهن العرّاف قبل أن يذهب إلى هناك. أي شيء وكل شيء يمكن أن يكون مفيداً، ونظراً لطبيعة الموقف، لم يكن قد حقق الكثير في المعسكر، فيما كانت ينكينغ تتضور جوعاً.

# الفصل الثلاثون



كـــان ذلك الصيف الأكثر هدوءاً وفقاً لذاكرة جنكيز. لولا الحضور الطاغي للمدينــــة الـــذي يمـــلأ العـــين كل يوم، لكان ذلك الوقت مخصصاً للراحة. أعاق محـــاولات الخـــان لاســـتعادة لياقته سعال متواصل كان يتركه يلهث وقتاً طويلاً، والذي أضحى أسوأ من ذي قبل عندما أصبحت السنة أكثر برودة. كان كوكشو قد أصـــبح زائراً منتظماً لخيمته، يحضر معه أشربة من العسل والأعشاب المرّة جداً التـــي لـــم يكن جنكيز يستطيع بلعها إلا بصعوبة بالغة. كانت تجعله يشعر براحة مؤقـــتة فقط وخسر جنكيز وزناً بشكل ينذر بالخطر، وظهرت عظامه بيضاء تحت الجلد الذي بدا شاحباً وعليلاً.

خلال شهور البرد، جثمت ينكينغ في مرمى بصره متينة على حالها، وتسخر من حـــضوره فـــي تلك الأرض. كانت قد انقضت سنة تقريباً منذ انتصر في معركة ممر بادغـــر. مـــرّت علـــيه أوقات كان فيها على استعداد للتخلي عن أي شيء للسفر إلى الوطن واستعادة قوته في التلال والجداول النظيفة.

في قبضة الخمول الذي أثّر فيهم جميعاً، بالكاد نظر جنكيز إلى الأعلى عندما سدّ كـــشيون باب الخيمة الكبيرة. عندما رأى تعبير وجه شقيقه، أرغم نفسه على الاعتدال في جلسته.

"أنت محمل بالأنباء يا كشيون. قل لي إن شيئاً مهماً قد حدث".

رد كشيون: "أعتقد ذلك. يقول المستطلعون من الجنوب إن هناك رتل إغاثة يتجه نحونا. يبلغ عدد رجاله حوالى خمسين ألف جندي ومعهم قطيع كبير من الماشية".

رد جنكيـــز وقد ارتفعت معنوياته: "لم يقابلهم خاسر إذاً. أو جاؤوا من مكان ما ليس على طريقه". كان كلا الرجلين يعرفان أن الجيوش يمكن أن تتجاوز بعضها فقط إذا كان هناك واد يفصلها. كانت الأرض شاسعة بما يفوق الخيال، وتلون أحلام رجال اضطروا للبقاء في مكان واحد لمدة أطول مما فعلوا من قبل.

ارتـــاح كـــشيون لرؤية شرارة السعادة القديمة في جنكيز. كان شقيقه الأكبر قد عانـــى مـــن الضعف نتيجة السم الذي سرى في دمه، وكان بمقدور أي شخص رؤية ذلـــك. حتـــى عندما حاول أن يرد، تقطّع صوته بنوبة سعال جعلت لون وجهه أحمر وتشبث بالعمود المركزي للخيمة.

قـــال كـــشيون بـــصوت غطّى على السعال: "ستكون المدينة بأمس الحاجة إلى دخولهم. أتساءل إن كنا سنندم على إرسال نصف رجالنا بعيداً من هنا؟".

هـــزّ جنكيز رأسه بصمت قبل أن يسحب نفساً عميقاً في النهاية. مشى متجاوزاً كشيون إلى الباب وبصق كمية من البلغم على الأرض، وفزع عندما حاول أن يتنحنح.

قـــال بصوت أجش وهو يتناول أحد أقواس تشن التي كانوا قد حصلوا عليها عند ممـــر بادغـــر: "انظر إلى هذا". تبع كشيون نظرة أخيه إلى هدف من القش على بعد ثلاثمـــئة يارد في أحد الطرقات. كان جنكيز يطلق سهاماً طيلة ساعات النهار لاستعادة قـــوته وكـــان مندهشاً من تقنيات أسلحة تشن. بينما كان كشيون يراقب، سدد بحرص وســـحب القـــوس، وأطلـــق سهماً أسودَ يطن في الهواء. وقع قبل أن يصل إلى هدفه، وابتـــسم كشيون وقد فهم مباشرة. من دون كلمة، التقط أحد أقواس شقيقه واختار سهماً من كنانة، سحبه إلى الخلف نحو أذنه قبل أن يطلقه بشكل لا يخطئ إلى مركز الترس المصنوع من القش.

كان الدم قد اختفى من وجنتي جنكيز وأومأ لشقيقه.

"ســـيكونون بطيئين بالإمدادات إلى المدينة. خذ رجالك وقم بإشغالهم، ولا تقترب منهم بما يكفي ليصلوا إليك. أنهكهم قليلاً وسأتكفل بالباقي عندما يصلون".

فيما كان كشيون يدفع جواده للجري بأقصى سرعة عبر المعسكر، كان النبأ من المستطلعين قد انتشر بسرعة أكبر. كان كل محارب هناك مستعداً خلال بضع لحظات تكفي للوصول إلى جواده والتقاط أسلحته من على جدران خيمته.

أصـــدر كشيون أوامره لكبار ضباطه الذين نقلوا كلامه، واصطدموا بالعديد من الرجال في طريقهم. كان التشكيل الجديد للعمليات الحربية لا يزال موضع تجريب من قبل الفرق المختلفة، لكن هيكلية القيادة كانت متينة لتتلقى المجموعات العشر تعليماتها. كان على الكثيرين العودة إلى خيامهم لجلب كنانة أخرى تتسع لخمسين سهماً بناءً على أمر كشيون قبل أن يتسابقوا للوقوف في تشكيل الساحة الكبيرة التي تضم عشرة آلاف محارب. تفقّد كشيون بنفسه الصف الأبعد وقاد جواده جيئة وذهاباً أمامه، وكانت راية حرب طويلة من الحرير الذهبي ترفرف خلفه.

اجتمع مرة أخرى مع المستطلعين الذين كانوا قد رأوا جيش الإغاثة ومرّر الراية التــي تخفق إلى المبعوث في الصف الأمامي، وكان فتى لا يتجاوز الثانية عشرة من العمــر. نظــر كشيون على طول الصفوف فيما كانت تتشكل وكان راضياً عمّا يراه. كــان كل رجل يحمل كنانتين ثقيلتين مربوطتين إلى كتفيه. لم يكونوا بحاجة إلى مؤن من أجل غارة سريعة، ولم يكن هناك سوى أقواس وسيوف على أفخاذهم وسروجهم.

جأر، وهو يدير جواده في مكانه: "إذا سمحنا لهم بالوصول إلى المدينة، سننتظر سنة أخرى لنراها تسقط. أوقفوهم وستكون جيادهم وأسلحتهم لكم، بعد عُشر الخان".

صــرخ أولئك الذين استطاعوا سماعه إعجاباً بذلك ورفع كشيون ذراعه اليمنى وأنــزلها، آمــراً بالــتقدم. تحركت الصفوف إلى الأمام بتشكيل رائع، وكان ذلك نتاج شهور من التدريب على السهل أمام المدينة عندما لم يكن هناك أعداء يقاتلونهم. أصدر الضباط أوامرهم على غير العادة، لكن في الواقع، لم يكن هناك أخطاء في الصفوف. كانوا قد أطلقوا أخيراً العنان لحماسهم للحرب، حتى بعد انتظار طويل.

كان الرتل على بعد أربعين ميلاً إلى الجنوب من ينكينغ عندما رآه المستطلعون. فــي الوقت الذي استغرقه كشيون للتحرك، كان الحشد البطيء من الرجال والحيوانات قــد قصّر المسافة إلى اثني عشر ميلاً فقط. بعد أن عرفوا أن المغول رأوهم، كانوا قد دفعــوا القطعان للسير بأسرع ما يمكن، لكن لم يكن هناك الكثير مما يستطيعون فعله قبل أن يشاهدوا سحابة غبار المحاربين الذين يقتربون منهم.

هــسّ الــضابط القائد، سونغ لي سن، بصوت خافت استهجاناً عندما رأى العدو للمــرة الأولى. كان قد قاد حوالى خمسين ألف محارب شمالاً وشرقاً من كيفنغ لإنقاذ مديــنة الإمبــراطور. كــان الرتل ضخماً وثقيلاً، مع عربات وثيران تمتد على طول الطريق. جال ببصره على تشكيلات الفرسان التي تحمي خاصرتيه وأومأ لقائدهم من فوق رؤوس الرجال. كانت تلك معركة متوقعة منذ وقت طويل.

قــال بحدّة، وتكرر أمره عبر الصفوف التي تمشي مجهدة: "التشكيل الأول!". كانت الأوامــر التــي صدرت واضحة تماماً. لن يتوقف حتى يصل إلى ينكينغ. إذا اشتبك معه العــدو، كــان علــيه أن يخوض معركة استنزاف على طول الطريق وصولاً إلى المدينة ويتفادى التأخير في المناوشات. تقطّب حاجباه عبوساً من تلك الفكرة. كان سيفضل إصدار أمر شامل بسحق رجال القبائل ويقلق بشأن ينكينغ بعد أن يصبحوا عظاماً.

علــى طــول الأفعى الممتدة من الرجال، رفع الجنود رماحاً طويلة مثل الشعر المنتــصب. قــام ألف جندي بتحضير أقواسهم وأومأ سونغ لي سن لنفسه. كان يرى

صــفوف الغزاة المغول بوضوح أكبر آنذاك واستجمع قواه على السرج، وكان يعرف أن الــرجال ينظرون إليه كمثال على الشجاعة. لم يكن الكثيرون منهم قد سافروا تلك المسافة شمالاً من قبل وكل ما يعرفونه عن رجال القبائل الهمجيين هؤلاء يتعلق بطلب الإمبــراطور الدعم من مدنه الجنوبية. شعر سونغ لي سن بفضوله يتعاظم عندما غيّر الفرســان اتجــاههم على طول خط ظاهر للعيان، كما لو أن رتله كان رأس رمح لا يجــرؤون على الاقتراب منه. رأى أنهم سيمرّون من أحد جانبيه وابتسم بتكلف. كان قيامهم بذلك يناسب أوامره. كان الطريق مفتوحاً إلى ينكينغ ولن يتوقف.

قام كشيون بتأخير الانطلاق بأقصى سرعة حتى اللحظة الأخيرة الممكنة قبل أن ينحنــي فــي الريح ويصرخ لدفع الجياد للجري عدواً. كان يحب صوت الرعد الذي يــنطلق مــن حوله عندما يقف على الركاب. من مثل تلك المسافة، بدا أنهم يقتربون بــبطء، ثــم اندفــع كل شيء فجأةً نحوه. خفق قلبه بقوة عندما وصل إلى رتل تشن، وأطلــق أول سهامه يطن في الهواء. شاهد سهام رماة تشن تنطلق نحوهم، وتقع دونما فائــدة على العشب. كانت قيادة الجياد على طول ذلك الصف الذي لا ينتهي تعني أنهم لــن يتعرضوا لخطر، وضحك كشيون عالياً فرحاً بذلك، وهو يرسل سهماً إثر الآخر. لم يكن عليه أن يسدد بدقة مع وجود خمسة آلاف رجل على الطرف الآخر من الرتل، وكان يطلق سهامه عليهم بضربات سريعة.

لــم يستطع فرسان تشن دفع جيادهم للانطلاق بأقصى سرعتها قبل أن يتعرضوا للهجوم، ويلقوا حتفهم على متن جيادهم. ابتسم كشيون عندما رأى أن جياد العدو كلها بقــيت ســليمة. كــان رجاله حريصين، خاصة بعد أن شاهدوا آنذاك العدد القليل من الفرسان الذين كان تشن قد أحضروهم إلى الميدان.

عــندما تــم ســحق الفرسان، اختار كشيون أهدافه بدقة، وسدّد على أي ضابط اســتطاع رؤيــته. خلال ستين دقة قلب، أطلق فوجه مئة ألف سهم على الرتل. على الــرغم مــن دروع تشن المصقولة، سقط الآلاف على الدرب، وتعثر بهم أولئك الذين كانوا خلفهم.

اســتطاع كــشيون سماع الأبقار تخور بأسى وذعر، ولسعادته، رأى القطيع يفر بــشكل جماعــي، ويسحق أكثر من مئة جندي من تشن، ويفتح ثغرة في الرتل قبل أن يتجمع بعيداً. كان قد وصل إلى نهاية الذيل وقطع مسافة أبعد عنه استعداداً للهجوم من جديــد. قعقعت سهام الأقواس على صدره، وهي تكاد تقع من تلقاء نفسها. بعد شهور مــن التدريب المضني، كان من الرائع أن يشنوا هجوماً على عدو، وأفضل من ذلك،

أنــه لــم يكن يستطيع المساس بهم وإنما الموت فحسب. تمنّى لو أنه كان يعرف ذلك لإحــضار المزيد من الكنانات. كانت أصابعه الجشعة قد وجدت الكنانة الأولى فارغة وبدأ يسحب من سهامه الخمسين الأخيرة، وأسقط حامل راية تشن بالسهم الأول.

طرفت عينا كشيون وخرجت الدموع التي تسببت بها الرياح خارجهما. كان قد أخذن الرتل بما يكفي ليستهدف الخمسة آلاف رجل الآخرين على الجانب الشرقي. كانوا يقودون خــيولهم بشكل أخرق أيضاً، ويطلقون سهامهم كيفما اتفق. ستون ضربة قلب أخرى وطار مــئة ألــف سهم نحو الفرسان الباقين. لم يستطع فرسان تشن الاختباء وبدأ الرتل المنضبط بالتفكك. ألقى الرجال الذين كانوا يمشون مجهدين قرب العربات أنفسهم تحتها طلباً للحماية بيــنما كــان زملاؤهم يموتون من حولهم. صدر عويل خوف من الرمّاحين ولم يكن هناك ضباط على قيد الحياة لتجميعهم أو إبقائهم على الدرب إلى ينكينغ.

بــدأ كــشيون جولــته الثانية، ولم يكن بعيداً جداً هذه المرة عن الرتل ليُضيع سهماً. هاجمــت الصفوف مطمئنة نتيجة ساعات متواصلة من التدريب وتم إفراغ الكنانات الجديدة بــسرعة. قــاد كــشيون جواده للانطلاق بأقصى سرعة على طول الصفوف، ونظر إلى الخلــف إلى القتلى الذين تركهم خلفه بينما كان الرتل يندفع إلى الأمام عبر العاصفة. كان الجــنود قــد حافظــوا على انضباطهم، على الرغم من أن الحركة تباطأت. أصدر رجال آخرون الأوامر مكان الضباط الموتى، وكانوا يعرفون أن تفشّي الذعر يعني دماراً كاملاً.

همهــم كشيون لنفسه بإعجاب ممزوج بالضغينة. كان قد رأى قوات كثيرة تتفكك قــبل ذلــك. وصــل إلى رأس الرتل وانعطف عائداً إلى الصف الداخلي مرة أخرى، وشعر بكتفيه تؤلمانه عندما شد القوس مجدداً وجواده يعدو بأقصى سرعته. تخيل وجه شــقيقه عــندما يصل الباقون إلى مكان الترحيب الذي كانوا قد أعدوه لهم عند ينكينغ. أطلــق كــشيون ضحكة عندما فكر في ذلك، وكانت أصابعه متقرحة عندما تحسست الكــنانة التي كانت تفرغ بسرعة. كان هناك عشرة سهام على الأكثر، لكن الرتل بدا يترنح عندما انتشر الذعر بين صفوفه. لم تكن سهام أقواس العدو قد توقفت وكان على كــشيون أن يتخذ قراراً. كان يشعر برجاله ينظرون إليه بانتظار الأمر الذي سيجعلهم يــشهرون سيوفهم ويمزقون الرتل إلى أشلاء. كانت السهام قد بدأت تنفد منهم جميعاً وعندما يتم إطلاق آخر وابل منها، يكون عملهم قد انتهى. كانوا يعرفون الأوامر مثله، لكنهم على الرغم من ذلك أبقوا عيونهم عليه، على أمل.

تحــسس كشيون فكّه. كانت ينكينغ بعيدة جداً وسيسامحه جنكيز بالتأكيد إذا قضى علــى الرتل لوحده. كان يشعر بمدى اقترابهم من الانهيار. كان كل شيء تعلمه خلال سنوات الحرب قد جعل ذلك شيئاً يكاد يتحسسه.

عبس وهو يمعن التفكير فيما كانت اللحظة تطول حوله. أخيراً، هزّ رأسه ورسم دائـرة واسـعة فـي الهـواء بقبضته. كرر كل ضابط في الموقع الإشارة وتراجعت الصفوف عن بقايا الرتل المبعثرة.

شـاهد كشيون رجاله يشكلون صفوفاً وهم يلهثون، مبتهجين. أولئك الذين كان لا يـزال لـديهم سهام أطلقوها بعناية كبيرة، وقضوا على رجال كيفما أرادوا. استطاع كشيون رؤية إحباطهم فيما كانوا يكبحون جماح جيادهم خلف الرتل ويراقبونه يتحرك مبـتعداً عـنهم. ربت العديد منهم على أعناق جيادهم وحدّقوا إلى ضباطهم، غاضبين لمـنعهم مـن القـتل. لم يكن ذلك يبدو منطقياً وكان على كشيون أن يصمّ أذنيه عن صرخات الشكوى الصادرة من كل الاتجاهات.

عـندما ابـتعد الرتل عنهم، نظر العديد من الجنود إلى الوراء خائفين، مقتنعين بـأنهم سيتعرضون لهجوم من الخلف. ترك كشيون الفجوة تتسع، ثم دفع جواده للسير إلـى الأمـام. أصـدر أمـراً للجناحين الأيمن والأيسر بالسير قدماً، حتى يستطيعوا محاصرة الرتل وسوقه إلى الأمام نحو ينكينغ.

خلفهم، تركوا أثراً من الرجال القتلى يمتد أكثر من ميل، مع رايات خفّاقة ورماح فـي أكـوام. أرسـل كشيون مئة محارب لسلب الجثث والإجهاز على الجرحى، لكن نظرته لم تغادر الرتل بينما كان يشق طريقه إلى شقيقه الذي ينتظره.

اسـتغرق الأمر من الرتل المثخن بالجروح حتى بعد الظهيرة ليرى المدينة التي كان قد جاء لإغاثتها. في ذلك الوقت، كان جنود تشن الذين نجوا من المذبحة يسيرون ورؤوسـهم مطأطـأة إلـى الأسـفل، وقد تحطمت معنوياتهم من الموت الذي خلّفوه وراءهـم. عـندما رأوا عـشرة آلاف آخرين يسدّون طريقهم، وكانوا رجالاً نشيطين يحملـون حراباً وأقواساً، تأوهوا ببؤس مطلق. اضطرب الرتل مجدداً عندما ترددوا، وكانـوا يعرفون أنهم لا يستطيعون شق طريقهم بالقتال. من دون إشارة، توقفوا أخيراً ورفـع كـشيون قبـضة لإيقـاف رجاله الذين كانوا يتبعونهم عن قرب. في الظلمة المتـزايدة، انتظـر أن يقترب منه شقيقه. كان سعيداً لأنه لم يسلب جنكيز هذه اللحظة عـندما رآه يقـود جـواده لوحده بعيداً عن فوج المحاربين ويدفعه للجري خبباً فوق العشب.

راقـبه جـنود تشن بعيون باهتة، وهم يلهثون مرهقين من طريقة السير التي تم إرغامهم على اتّباعها. كانت عربات السلع قد تراجعت إلى الخلف عبر الصفوف التي تـسير مـسرعة وتركوها خلفهم، وقام كشيون بالقضاء على الرجال الذين يحرسونها للتدقيق في محتوياتها.

بتفكير متأن، عرف جنكيز مزاج الرتل واقترب مباشرة من حافته. سمع كشيون رجالـــه يتمتمون بسعادة لعرض الشجاعة الذي يقدمه الخان. ربما كان لا يزال هناك خطر من إصابته بسهام وإيقاعه عن السرج، لكن جنكيز لم ينظر إلى جنود تشن عندما مـــرّ بهـــم، ولم يكن يبدو أنه يكترث لآلاف الرجال الذين استداروا ليراقبوه من تحت جباههم التي أحنوها خنوعاً.

قـــال جنكيز: "لم تترك لي الكثير يا شقيقي". رأى كشيون أنه كان شاحباً ويتعرق من ركوب الجواد. فجأة، ترجل كشيون وجعل رأسه يمسّ قدم شقيقه.

رد كـــشيون: "تمنّـــيت لو أنك كنت هناك لترى وجوه الضباط. كنا ذئاباً حقاً في عالم من الأغنام يا شقيقي".

أومأ جنكيز برأسه، وكان تعبه يمنعه من مشاركة كشيون مزاجه الطيب.

قال: "لا أرى أي إمدادات هنا".

"لقـــد تـــركوها كلها خلفهم، تركوا بما في ذلك قطيعاً رائعاً من الثيران كما سترى".

انتعش جنكيز عندما سمع ذلك.

"لم آكل لحم بقر منذ وقت طويل. سنشويها أمام ينكينغ ونطلق رائحة اللحم فوق الأســـوار. لقـــد أبليت حسناً يا شقيقي. هل نُجهز عليهم؟". نظر كلا الرجلين إلى رتل الجنود المتجهمين، والذي لم يبقَ منه أكثر من نصف حجمه الأصلي.

هزّ كشيون كتفيه غير مبال. "هناك الكثير من الأفواه التي ينبغي إطعامها، إلا إن منحتهم الإمدادات التي جاؤوا بها إلى هذا المكان. دعني أحاول نزع أسلحتهم أولاً، أو يمكنهم الاستمرار في القتال".

ســـأل جنكيز: "هل تعتقد أنهم سوف يستسلمون؟". تألقت عيناه من اقتراح شقيقه، وتأثـــر بكبرياء كشيون الواضح. من بين كل الأشياء، كانت القبائل توقر قائداً يمكنها تحقيق انتصار معه من دون استعمال العنف.

هزّ كشيون كتفيه غير مبال. "لنر".

اســـتدعى اثني عشر رجلاً يمكنهم تكلم لغة تشن وأرسلهم لقيادة جيادهم على طـــول الـــرتل وقريبين منه، مثل جنكيز نفسه، لعرض شروط سلام إذا تخلوا عن أسلحتهم. لا شك أن ما كان ذا فائدة أن الرجال كانوا قريبين من الإجهاد بعد يوم مـــن مطاردتهم من قبل عدو يضربهم بقوة مرعبة من دون أن يمسه سوء. كانت معنوياتهم قد تدنت في المسير وابتسم جنكيز عندما سمع صوت الأسلحة التي كان يتم إلقاؤها أرضاً.

كان الظلام قد بدأ يحل عندما تم نزع الرماح، والأقواس، والسيوف من الصفوف الصامتة. كـان جنكيز قد أرسل كنانات جديدة إلى كشيون والمغول الذين ينتظرون بترقب هادئ فيما كانت الشمس تصبغ السهول بلون ذهبي.

قـبل أن يتلاشى آخر أضواء النهار، صدح بوق عبر السهل وشُدّ عشرون ألف قـوس. صرخ جنود تشن برعب من الغدر الذي حاق بهم، واختنقت الأصوات عندما انهمر وابل السهام مراراً وتكراراً حتى لم يعد ممكناً الرؤية في الظلمة.

عـندما ارتفـع القمر، تم ذبح مئات الثيران وشويها على السهل؛ وعلى أسوار المديـنة، تذوق زهي زهونغ لعابه المرّ، وكان اليأس يتملكه. في ينكينغ، كانوا يأكلون الموتى.

عـندما كانـت الوليمة في ذروتها، شاهد الجاسوس الكاهن العرّاف ينهض ويمشي مترنحاً وثملاً بين الخيام. نهض مثل ظل ليلحق به، وترك تيموج لينام بعد أن تناول فخذاً من لحم الثيران الملطخ بالدماء. كان المحاربون ينشدون ويرقصون حـول النيـران وفتـيان الطـبول يقرعون أنغاماً قوية أخفت وقع خطواته. أبقى الجاسـوس الـرجل الأكبر سناً في مرمى بصره عندما توقف كوكشو ليتبول على الدرب، وفقد السيطرة على نفسه وأطلق لعنة في الظلام عندما أصاب بوله قدميه. لم يعد الجاسوس يرى طريدته عندما انسل الرجل في الظلام الدامس بين عربتين. لم يسرع الخطى، وظن أن الرجل كان عائداً إلى فتاة تشن التي يحتفظ بها كجارية فـي بيته. بينما كان يمشي، فكّر في ما يمكن أن يقوله للكاهن العرّاف. في رحلته الأخيـرة إلـى الأسوار، سمع أن الوصي كان قد أطلق مسابقة موت في المدينة، وكان يتم إرغام فلاح من كل عائلة على مدّ يده في وعاء طين بعمق ذراعه. كان يتم قتل أولئك الذين كانوا يسحبون قطعة آجر أبيض لإطعام الآخرين. كان كل يوم يحفل بمشاهد ألم وأسى لا يمكن تخيلها.

مـستغرقاً في الأفكار، شاهد ظلاً يتحرك عندما اقترب من إحدى الخيام وأطلق صـرخة صدمة وألم عندما تلقى ضربة جعلته يتراجع إلى الخلف على جدارها. صرّ الباب عندما تم إغلاقه خلفه وشعر بنصل بارد على حنجرته أعاق تنفسه.

عـندما تكلـم كوكشو، كان صوته خافتاً وحازماً، من دون أي إشارة على ثمالة كان الجاسوس قد لاحظها من قبل.

"لقـد كـنت تراقبني طيلة الليل أيها العبد. وتبعتني الآن إلى بيتي. صه!". أطلق كوكشو الصوت بينما كان الجاسوس يرفع يديه تلقائياً من الخوف.

همس كوكشو في أذنه: "إذا تحركت، سأجزّ عنقك. قف مثل تمثال أيها العبد فيما أقوم بتفتيشك". فعل الجاسوس ما طُلب منه، وتحمل اليدين النحيلتين اللتين كانتا تمرّان فـوق جـسده. لم تستطع يدا الكاهن العرّاف الوصول إلى كاحليه وكان لا يزال يضع الـسكين على عنقه. وجد بالفعل سكيناً صغيرة وألقى بها بعيداً في الظلام من دون أن ينظر إليها. لم ينتبه للسكين الموجودة في الحذاء وأطلق الجاسوس تنهيدة ارتياح ببطء.

وقفا في ظلمة حالكة بين الخيام، متواريين عن القمر والمحاربين الذين يحتفلون.

"لماذا سيتبعني عبد، أتساءل؟ جئت إلي طلباً لعجينة سيدك وكانت عيناك تجولان فـي كل مكان، وأسئلتك بريئة جداً. هل أنت جاسوس لتيموج، أم قاتل آخر؟ إذا كنت كذلك، ستكون خياراً سيئاً".

لـم يـرد الجاسوس، على الرغم من أنه أمسك بفكه حتى لا تظهر الدهشة على وجهه. كان يعرف أنه لم ينظر إلى الكاهن العرّاف كثيراً ذلك المساء ولم يسعه سوى أن يتـساءل عن تلك الذهنية التي تساورها مثل تلك الشكوك المستمرة. شعر بالسكين تضغط بقوة أكبر على عنقه وتفوّه بأولى الكلمات التي خرجت من بين شفتيه.

قال: "إذا قتلتني، لن تعرف شيئاً".

بقـي كوكشو صامتاً لوقت طويل، يحاول استيعاب ذلك. حرك الجاسوس عينيه في رأسه لرؤية تعبير وجه الرجل ووجد أن فضوله يمتزج بالضغينة.

سأل كوكشو: "ما الذي ينبغي أن أعرفه أيها العبد؟".

رد الجاسوس: "لا شيء سترغب بأن يسمعه غيرك". تجاهل حذره المعتاد، وكان يعـرف أن حـياته على المحك تلك اللحظة. كان كوكشو يستطيع أن يقتله فقط ليحرم تيموج من نصير. "دعني أتكلم ولن تندم".

شـعر بدفعـة وتعثر إلى الأمام. حتى في الظلام، أحس بأن كوكشو خلفه. فكّر الجاسـوس فـي وسـيلة لنزع سلاح الرجل من دون أن يقتله، لكنه أرغم نفسه على الاسترخاء. وضع يديه على رأسه، وسمح لكوكشو بأن يقوده إلى خيمته.

تطلـب الأمـر شـجاعة ليخفض رأسه عند الباب والكاهن العرّاف يحمل سكيناً وراءه، لكن الجاسوس كان قد قطع شوطاً طويلاً ليعتبر كلماته دعابة سيئة. كان يعرف العرض الذي عليه أن يقدّمه. كان الوصي نفسه قد التقى به على السور في أثناء تقديم تقريره الأخير. سحب نفساً عميقاً ودفع الباب الصغير ليفتحه.

كانـت فـتاة فائقة الجمال تجثو على الأرض عند الباب المفتوح. كشف الضوء معالمهـا عندما رفعت بصرها إليه وشعر الجاسوس بصدره يشتد لأن مثل تلك الفتاة الرقيقة كانت مرغمة على انتظار الكاهن العرّاف مثل كلب. أخفى غضبه عندما أشار

كوكشو إليها لتتركهما وحدهما. تبادلت نظرة واحدة أخيرة مع مواطنها عندما كانت تغلق الباب وضحك كوكشو بصوت خافت.

"أعتقد أنك أعجبتها أيها العبد. لقد بدأت أتعب منها. ربما سأمنحها لضباط تشن. يمكن أن تحصل على دور عندما ينتهون من تعليمها التواضع". تجاهل الجاسوس الكلمات، وجلس على السرير المنخفض، ونزلت يداه بشكل طبيعي قرب كاحليه. إذا لم يجر الاجتماع على ما يرام، فيمكنه قتل الكاهن العرّاف والعودة إلى الأسوار قبل أن يشعر به أحد. منحته تلك الفكرة ثقة شعر بها كوكشو الذي تقطب حاجباه عبوساً.

"نحن وحدنا أيها العبد. لست بحاجة إليك، أو إلى أي شيء تقوله لي. تكلم بسرعة، أو سأطعمك للكلاب غداً صباحاً".

سحب الجاسوس نفساً طويلاً وبطيئاً، وجهّز الكلمات التي ربما كانت تعني الموت تعذيباً قبل أن تشرق الشمس. لم يكن قد اختار تلك اللحظة. كانت الجثث في ينكينغ قد فعلت ذلك. آنذاك، كان إما محقاً بشأن الكاهن العرّاف، أو ميتاً.

شد من قامته ووضع يداً على ركبته، ونظر بجفاء إلى كوكشو وكان الاستنكار بادياً على محياه. حملق الكاهن العرّاف في التغير الذي أصاب الرجل، وتحوله من عبد خائف إلى محارب موقر خلال لحظة فقط.

قال الرجل بهدوء: "أنا رجل من ينكينغ. رجل الإمبراطور".

اتسعت عينا كوكشو. أومأ الجاسوس له.

"حياتي بين يديك حقاً الآن". دفعه شعور مفاجئ لإخراج الخنجر من حذائه ووضعه على الأرض عند قدميه. أومأ كوكشو موافقاً على تصرفه، لكنه لم يضع سكينه جانباً.

قال كوكشو بهدوء: "لا بد أن الإمبراطور يائس، أو مجنون من الجوع".

"الإمبراطور فتى في السابعة من العمر. القائد الذي هزمه خانكم يحكم المدينة الآن".

سأله كوكشو بفضول كبير: "هل أرسلك إلى هنا؟ لماذا؟". قبل أن ينطق بحرف، أجاب كوكشو عن سؤاله. "لأن القاتل فشل. لأنه يريد أن تغادر القبائل قبل أن يتضور شعبه جوعاً حتى الموت، أو يتم حرق المدينة في أعمال شغب".

أكّد الجاسوس: "الأمر كما تقول. حتى إذا كان القائد يريد دفع الجزية عن المدينة، إلا أن الخيمة السوداء تنتصب أمام الأسوار. ما الخيارات التي لديه سوى الصمود لسنتين أخريين، أو حتى لوقت أطول؟". لم يظهر أثر على كذبة يائسة على وجه الجاسوس. كانت ينكينغ ستسقط بعد شهر، أو ثلاثة على أبعد تقدير.

أخيـراً، وضــع كوكـشو سـكينه جانباً. لم يعرف الجاسوس كيف يفسر ذلك. كان الوصـي قد ألقى به إلى الذئاب لتقديم العرض. كان لديه حدس بأن كوكشو كان في القبائل لكـنه ليس منها، وأنه رجل منفصل عنها. كان مثل هؤلاء الرجال ناضجين للقطاف، لكنه كـان يعـرف أن حـياته لا تزال على الرغم من ذلك على المحك. نوبة وفاء واحدة من الكـاهن العـرّاف، وصـرخة واحدة قد تنهي كل شيء. كان جنكيز سيعرف أنه قد حطم ينكيـنغ وستـضيع جوهرة الإمبراطورية إلى الأبد. شعر الجاسوس بالعرق يتصبب على جلده على الرغم من الهواء المتجمد. تابع كلامه قبل أن يستطيع كوكشو الرد.

"إذا قامـوا بنصب الخيمة البيضاء مرة أخرى، سيدفع إمبراطوري جزية تجعل مـئة ملـك يبكـي. حرير يكفي لتغطية الطرقات إلى وطنكم، جواهر، عبيد، أعمال مكـتوبة عـن سـحر عظيم، علم وطب، عاج، حديد، خشب...". كان قد رأى عيني كوكشو تشعان لذكر السحر، لكنه لم يتلعثم في أثناء العدّ. "... ورق، جياد، آلاف آلاف العربات المحملة. ما يكفي لبناء مدن خاصة به".

تمتم كوكشو: "سيحصل على كل ذلك بأي حال عندما تسقط المدينة".

هـزّ الجاسـوس رأسـه بحزم. "في نهاية المطاف، عندما تكون الهزيمة محتومة، سـتحترق المديـنة من الداخل. أعرف أنني أتكلم الحقيقة عندما أقول إن خانك لن يحصل سوى على رماد وسنتين أخريين من الانتظار في هذا السهل". توقف قليلاً، محاولاً أن يرى تأثير كلماته لكنه فشل. وقف كوكشو مثل تمثال، وبالكاد كان يتنفس في أثناء سماعه ذلك.

سأل كوكشو: "لماذا لم تقدم هذا العرض للخان نفسه؟".

هزّ ما تسن رأسه، وقد انتابه القلق فجأة.

"لسنا طفلين أيها الكاهن العرّاف، أنت وأنا. دعني أتكلم بصراحة. كان جنكيز قد نـصب خيمـته السوداء وكل رجاله يعرفون أنها تعني الموت. سيكلفه القبول بجزية الإمبــراطور كبرياءه، ومما كنت قد رأيته، سيدع ينكينغ تحترق أولاً. لكن إذا استطاع رجـل آخـر، رجل يثق به، نقل النبأ إليه في خلوة؟ قد يقترح إظهار الرحمة، ربما، لهؤلاء الأبرياء في المدينة الذين يعانون".

لدهشته، أطلق كوكشو ضحكة عندما سمع تلك الفكرة.

"رحمـة؟ سيعتبر جنكيز ذلك ضعفاً. لن تقابل أبداً رجلاً يفهم الخوف في الحرب مثل الخان الذي أتبعه. لن تستطيع إغراءه بمثل ذلك العرض".

رغمـاً عــن أنفـه، شـعر الجاسوس بالغضب يعتمل في نفسه من نبرة الكاهن العـرّاف الـساخرة. "إذاً أخبرنـي كيف يمكن ردّه عن ينكينغ، أو اقتلني هنا وارمني لكلابك. لقد أخبرتك بكل ما أعرفه".

قال كوكشو بهدوء: "يمكنني ردّه عنها. لقد أظهرت له ما يمكنني القيام به".

رد الجاسوس بسرعة، وهو يمسك بذراعه النحيلة: "أنت مهاب الجانب في المعسكر. هل أنت الرجل الذي أحتاجه؟".

رد كوكشو: "أنا كذلك". تلوّن وجهه عندما رأى وجه الرجل الآخر يرتاح. "كل ما يتبقى هو أن تضع سعراً لمساعدتي على هذا الشيء الصغير. أتساءل، كم تساوي مدينتك لإمبراطورك؟ ما السعر الذي ينبغي أن أضعه مقابل حياته؟".

رد الجاسوس: "أي شيء تريده سيكون جزءاً من الجزية التي سيتم دفعها للخان". لم يكن يجرؤ على الاعتقاد بأن الرجل يتلاعب به. ما الخيار الذي كان يملكه سوى الوصول إلى حيث يقوده الكاهن العرّاف؟

كان كوكشو عندها صامتاً لبعض الوقت، يتأمل الرجل الذي جلس منتصباً على السرير.

قال أخيراً: "هناك سحر حقيقي في العالم أيها العبد. لقد شعرت به واستعملته. إذا كان شعبك يعرف شيئاً عن ذلك الفن، سيكون لدى إمبراطورك الفتى في مدينته الثمينة. لا يمكن لرجل أن يتعلم ما يكفي في مئة حياة. أريد أن أعرف كل سر كان شعبك قد اكتشفه".

"هناك العديد من الأسرار أيها الكاهن العرّاف: من صنع الورق والحرير إلى المسحوق الذي يحرق البوصلة، والزيت الذي لا ينفد. ماذا ترغب بأن تعرف؟".

تأفف كوكشو. "لا تساومني. أريد كل شيء. هل لديك رجال يعملون بهذه الفنون في المدن؟".

أومأ الجاسوس برأسه.

"كهنة وأطباء من كل المراتب".

"اجعلهم يجهّزون أسرارهم لي، كهدية بين زملاء. قل لهم ألا ينسوا شيئاً أو سأنقل لخاني رؤية مليئة بالدماء وسيعود ليحرق أراضيكم كل الطريق إلى البحر. هل تفهم؟".

تحرّرت عقدة لسان الجاسوس وأجاب، واهناً ومرتاحاً. كان يسمع أصواتاً مرتفعة في مكان ما قريب واندفع بكلامه، وكان بأمس الحاجة إلى قول كل ما لديه.

همس: "سأجعلهم يفعلون ذلك. عندما ترتفع الخيمة البيضاء، سوف يستسلم الإمبراطور". فكّر للحظة، ثم تكلم مجدداً. كانت الأصوات في الخارج عالية.

"إذا كانت هناك خيانة أيها الكاهن العرّاف، سيحترق كل ما ترغب بمعرفته في ألسنة اللهب. هناك ما يكفي من المسحوق الحارق في المدينة لتحويل الحجارة إلى غبار".

رد كوكشو ساخراً: "تهديد شجاع. أتساءل إن كان شعبك يتمتع بالإرادة حقاً لفعل مثل ذلك الشيء. لقد سمعتك أيها العبد. لقد قمت بعملك. الآن، عد إلى مدينتك وانتظر الخيمة البيضاء مع إمبراطورك. سيحدث ذلك في الوقت المناسب".

كان الجاسوس يرغب بمواصلة الجدال مع الكاهن العرّاف، لجعله يفهم أن عليه التحـرك بسرعة. أوقف الحذر فمه وفكّر أن ذلك سيؤدي فقط إلى إضعاف موقفه. لم يكن الكاهن العرّاف ببساطة يهتم إن كان شعب المدينة يموت كل يوم.

قـال كوكشو بحدّة، منزعجاً من الصراخ والنداء خارج خيمته: "ما الذي يحدث فـي الخارج؟". أشار للجاسوس بأن يغادر ولحق به إلى ضوء القمر في الخارج. كان كل من حولهم يحدّق إلى المدينة وأدار كلا الرجلين ناظريهما إلى الأسوار.

كانـت الـشابات يـصعدن الدرجات الحجرية ببطء، وكن يرتدين الأبيض، لون الموت. كن نحيلات مثل الهياكل العظمية وحافيات الأقدام، لكنهن لم يكن يرتعشن. لم يكن يبدو أن البرد يؤثر فيهنّ على الإطلاق. تراجع الجنود عن الأسوار برهبة وتطيّر ولـم يقـف أحـد في طريقهن. بالآلاف، تجمّعن فوق المدينة. بعشرات الآلاف. حتى الريح تحوّلت إلى نسيم فوق ينكينغ وأطبق الصمت على المكان.

كـان الممـر حول المدينة أبيض متجمداً، تحت المكان الذي يقفن عليه بخمسين قـدماً. كشخص واحد تقريباً، تقدمت شابات ينكينغ إلى طرف الحافة. كانت كلّ واحدة منهنّ تمسك بيدي من تقفان بجوارها، فيما وقفت أخريات لوحدهن، يحدّقن في الظلام. على امتداد أميال السور، كن يقفن هناك، ينظرن إلى الأسفل على ضوء القمر.

التقط الجاسوس أنفاسه، وهمس بابتهال لم يكن قد تذكره منذ سنوات، من قبل أن يكون قد نسي اسمه الحقيقي. انفطر قلبه على شعبه ومدينته.

علـى طول السور، كانت أشكال بملابس بيضاء قد صعدت إليه مثل صف من الأشـباح. رأى المحاربـون المغـول أنهن كن نساء ونادوهنّ بأصوات جشّة، وكانوا يضحكون ويسخرون من الأشكال البعيدة. هزّ الجاسوس رأسه لإبعاد الأصوات الفظّة، وكانـت الدمـوع تنهمر من عينيه. أمسكت العديد من الفتيات بأيدي بعضهن فيما كن يحدّقن إلى الأسفل إلى العدو الذي كان قد وصل إلى بوابات مدينة الإمبراطور.

فيما كان الجاسوس يراقب ما يجري بأسى، تقدمن إلى الأمام في الهواء. صمت المحاربـون الـذين كانـوا يراقبون مندهشين مما يجري. من بعيد، كن يتساقطن مثل تويجات بيضاء وحتى كوكشو هزّ رأسه، مندهشاً. أخذت آلاف غيرهن مواقعهن على

السور وألقين بأنفسهن إلى حتفهن من دون أي صرخة، وكانت أجسادهن تتحطم على الصخور القاسية في الأسفل.

همس الجاسوس للكاهن العرّاف، وكان صوته أجشّ من الأسى: "إذا كانت هناك خيانة، فسيتمّ تدمير المدينة وكل ما فيها بالنار".

لم يعد كوكشو يشك بذلك.

# الفصل الحادي والثلاثون



عـــندما حـــل فصل الشتاء، ولد أطفال في الخيام، وكان العديد منهم أبناء لرجال بعـــيدين مع قادة الجيش أو إحدى المجموعات الدبلوماسية التي كان تيموج قد أرسلها. كان الطعام متوفراً بكثرة بعد الاستيلاء على رتل الإمدادات واستمتع المعسكر الشاسع بمـــدة مـــن السلام والازدهار لم يعرفها من قبل. حافظ كشيون على لياقة المحاربين بالتدريب المستمر في السهل حول ينكينغ، لكنه كان سلاماً زائفاً وكان قليل من الرجال لا يشخصون بأبصارهم إلى المدينة عدّة مرات كل يوم، ينتظرون.

عانـــى جنكيـــز من البرد للمرة الأولى في حياته. لم تكن لديه شهية كبيرة على الطعـــام، لكنه كان قد أضاف طبقة من الدهن إلى جسده بإرغام نفسه على تناول لحم البقـــر والأرز. علـــى الـــرغم من أنه أضحى أقل نحولاً، إلا أن سعاله استمر، وكان يخطـــف أنفاسه ويجعله يشعر بالحنق. بالنسبة إلى رجل لم يكن قد عرف المرض من قـــبل، كان من المحبط للغاية أن يخونه جسده. من بين كل الرجال في المعسكر، كان أكثر من يحدّق إلى المدينة، ويرغب بأن تسقط.

جـــاءه كوكشو في منتصف ليلة عاصفة بالثلج. لسبب ما، كان السعال أسوأ في الليل وقـــد اعـــتاد جنكيز على قيام الكاهن العرّاف بزيارته قبل الفجر يحمل شراباً ساخناً. نظراً لاقتراب الخيام بعضها من بعض، كان يمكن لكل أولئك الذين حوله سماع نوبات سعاله.

جلـــس جنكيـــز عندما سمع الحرّاس يعترضون كوكشو. لن يكون هناك تكرار لمحاولـــة الاغتيال بعد وضع ستة رجال حول الخيمة الكبيرة في مناوبات طيلة الليل. حـــدّق إلـــى الدجـــنة بينما كان كوكشو يدخل ويضيء مصباحاً يتدلى من السقف. لم يـــستطع جنكيـــز أن يتكلم معه للحظة. كان البلغم قد أرهق صدره حتى أصبح وجهه أحمر اللون. انقضى ذلك، كما هي العادة، تاركاً إياه يلهث لالتقاط أنفاسه.

همـــس بإرهـــاق: "أهـــلاً بك في بيتي يا كوكشو. ما هي الأعشاب الجديدة التي ستجربها الليلة؟".

ربما كان ذلك من نسج خياله، لكن الكاهن العرّاف بدا عصبياً بشكل غريب. كان جبين كوكشو يلمع من العرق وتساءل جنكيز إن كان يشعر بالمرض أيضاً.

قال: "لا شيء لدي سيجعلك أفضل يا مولاي. لقد جرّبت كل شيء أعرفه. كنت أتساءل إن كان هناك شيء آخر يمنع عنك المرض مجدداً".

سـأل جنكيـز: "شيء آخر؟". شعر بحنجرته تدغدغه بشكل أغاظه وابتلع ريقه بصعوبة، وكان قد اعتاد على ذلك الشيء، ويغصّ بشكل مستمر.

"لقـد أرسـل الإمبـراطور قاتلاً يا مولاي. ربما لديه وسائل أخرى لمهاجمتك، وسائل لا يمكن رؤيتها والتخلص منها".

فكّر جنكيز في ذلك باهتمام. "هل تعتقد أن لديه سحرة في مدينته؟ إذا كان أفضل ما يستطيعون فعله هو السعال، لن أخشاهم".

هزّ كوكشو رأسه. "يمكن للعنة أن تقتلك يا مولاي. كان ينبغي أن أفكر بذلك من قبل".

تراجع جنكيز على سريره مرهقاً. "ماذا يدور في ذهنك؟".

أشار كوكشو لخانه بأن يقف وأشاح بنظره بعيداً بدلاً من أن يرى جنكيز يعاني.

"إذا جـئت إلى خيمتي يا مولاي، سأستدعي الأرواح وأرى إن كنت هدفاً لعمل شرير من المدينة".

ضاقت عينا جنكيز، لكنه أومأ برأسه.

"حسناً. أرسل أحد حرّاسي إلى تيموج لينضم إلينا".

"ذلك ليس ضرورياً يا مولاي. شقيقك ليس معتاداً على هذه الأمور...".

سعل جنكيز بصوت حوّله إلى همهمة غاضبة من جسده الضعيف.

قـال: "افعـل مـا أقوله لك أيها الكاهن العرّاف، أو اخرج". زمّ كوكشو شفتيه وانحنى قليلاً.

تـبع جنكيـز كوكـشو إلى الخيمة الصغيرة، وانتظر في الثلج والريح فيما ولج الكاهن العرّاف إلى الداخل. لم يتأخر تيموج في الوصول، يرافقه المحارب الذي كان قد أيقظه من نومه. نحّى جنكيز شقيقه جانباً حيث لا يمكن لكوكشو سماعهما.

"يبدو أنني مضطر لتحمّل دخانه وطقوسه يا تيموج. هل تثق بالرجل؟".

قال تيموج بحدّة، وكان لا يزال غاضباً من إيقاظه: "لا".

ابتـسم جنكيز من نزق شقيقه في ضوء القمر. "كنت أعتقد أنك ربما لا تثق به، ولهـذا السبب أنت هنا. سترافقني يا شقيقي، وتراقبه طيلة الوقت الذي أكون فيه داخل خيمته". أشار إلى المحارب الذي يقف بالقرب منهما وجاء الرجل بسرعة.

"ستحرس خيمته يا كيوك ضد كل من يحاول إزعاجنا".
رد المحارب وهو يحني رأسه: "كما تشاء يا مولاي".
قال جنكيز: "وإذا لم أخرج أو تيموج، ستكون مهمتك قتل الكاهن العرّاف". شعر بنظرة تيموج إليه وهزّ كتفيه غير مبال. "لست رجلاً يثق بالآخرين يا شقيقي".
سـحب تيموج نفساً عميقاً من الهواء المتجمد، وسيطر جنكيز على حنجرته التي تـرتعش بقـوة ودخل خيمة الكاهن العرّاف، وشقيقه خلفه. كانت هناك بالكاد مساحة لـثلاثة أشخاص في ذلك المكان الصغير، لكنهما جلسا على الأرض المكسوة بالحرير وركبتاهما متلاصقتان، ينتظران ليشاهدا ما يمكن لكوكشو أن يفعله.
أشـعل كوكـشو مساحيق في أطباق ذهبية على الأرض والتي أطلقت شرارات، ونـتج عـنها سحابة كثيفة من دخان مخدّر. عندما وصلت أولى الخيوط الرفيعة من الـدخان إلى جنكيز، تكوّم على نفسه في نوبة سعال. كان كل لهاث يجعل الأمر أسوأ وانـتاب كوكشو قلق شديد من أن ينهار الخان. أخيراً، سحب جنكيز نفساً عميقاً وشعر بحنجـرته المجروحة تهدأ، وكان الأمر مثل ماء جدول في يوم حار. سحب نفساً آخر وآخر، مبتهجاً من الخدر الذي سرى في جسده.
أقرّ وهو يحدّق إلى الكاهن العرّاف بعينين محتقنتين: "هذا أفضل".
كان كوكشو في محيطه الخاص به، على الرغم من نظرة تيموج القاسية إليه. حضّر وعاءً من عجينة سوداء ومدّ يده إلى فم جنكيز. اهتز عندما أمسكت يد جنكيز بمعصمه.
قال جنكيز، متشككاً: "ما هذا؟".
ابـتلع كوكشو ريقه. لم يكن قد رآه يتحرك. "سيساعدك على كسر حواجز الجسد يا مولاي. من دونه، لا يمكنني اصطحابك على الدروب".
قال تيموج فجأة، وعيناه تلمعان أكثر من ذي قبل: "لقد تناولته. إنه غير مؤذٍ".
رد جنكيز، متجاهلاً خيبة أمل شقيقه: "لن تفعل الليلة. أريدك أن تراقب ما يجري يا تيموج، وهذا كل ما ستفعله".
فتح جنكيز فمه وتحمل أصابع الكاهن العرّاف ذات الأظافر السوداء وهي تفرك العجيـنة علـى لثته. في البداية، لم يكن هناك تأثير، لكن عندما بدأ جنكيز يشعر به، لاحـظ أن الضوء الخافت لمصباح الكاهن العرّاف قد أصبح أكثر سطوعاً. حدّق إليه باستغراب وانتشر الضوء حتى ملأ الخيمة الصغيرة، وغمرهم جميعاً بلون ذهبي.
همس كوكشو: "خذ يدي، وسر معي".
راقب تيموج بعدم ثقة فيما كانت عينا شقيقه تدوران في رأسه ويسقط فجأة. كان كوكـشو قد أغلق عينيه وشعر تيموج بأنه لوحده. فزع عندما فغر جنكيز فمه، والذي

أضحى أسود من العجينة. طال الصمت وفقد تيموج بعضاً من توتره عندما تذكر رؤاه الخاصة في تلك الخيمة الصغيرة. اندفع بصره إلى وعاء العجينة السوداء، ومع وجود رجلين مغشياً عليهما، استبدل الوعاء وأخفاه داخل ردائه. كان خادمه ما تسن يجلب له بانتظام كمية منه قبل أن يختفي. كان تيموج قد توقف منذ وقت طويل عن التساؤل إلى أيــن ذهــب، على الرغم من أنه كان يشك بأن كوكشو له يد في ذلك. كان هناك خدم آخــرون يمكن العثور عليهم بين جنود تشن الذين أسرهم جنكيز، على الرغم من ألا أحد منهم كان بمثل مهارته.

لم يكن لدى تيموج طريقة لتقدير مرور الوقت. جلس وقتاً طويلاً ساكناً من دون حراك، ثم صحا من أحلام يقظته على صوت كوكشو، المتعب والبعيد. ملأت الكلمات الخيمة ثم تنبّه تيموج لتدفق المقاطع الصوتية غير المفهومة. استفاق جنكيز أيضاً على الصوت، وفتح عينين لامعتين بينما كان كوكشو يتكلم بصوت أعلى وأسرع.

ومن دون سابق إنذار، انهار الكاهن العرّاف، وسقط جسده بين يدي جنكيز. شعر جنكيز بالأصابع تنسل بعيداً وطرفت عيناه ببطء، وكان لا يزال متأثراً بعمق بالأفيون.

اســتلقى كوكشو إلى جانبه، يبصق لعاباً من فمه. حدّق إليه تيموج من بعيد. من دون إنــذار، هدأ هذيان الكلمات الغريبة وتكلم كوكشو من دون أن يفتح عينيه بصوت خافت وحاسم.

"أرى خــيمة بيــضاء تــرتفع أمام الأسوار. أرى الإمبراطور يتكلم إلى جنوده. رجال يشيرون ويناشدونه. إنه فتى صغير وهناك دموع في وجهه".

صمت الكاهن العرّاف وانحنى تيموج مقترباً منه، قلقاً من أن يكون سكونه يعني أن قلــب الــرجل قد توقف. مس كتف الكاهن العرّاف بلطف، وعندما فعل ذلك، اهتز كوكــشو، تلوّى، وأصدر أصواتاً لم يكن لها معنى. مرة أخرى، صمت وتكلم الصوت الخافت مجدداً.

"أرى كــنوزاً، جــزية. *آلاف* العــربات والعبــيد. حريراً، أسلحة، عاجاً. جياداً بالآلاف، تكفي لتملأ السماء. ما يكفي لبناء إمبراطورية. إنها تلمع!".

انتظــر تــيموج المزيد، لكنه لم يأت. كان شقيقه قد أسند نفسه مجدداً على جدار الخــيمة المــصنوع من أغصان الصفصاف وكان يشخر بهدوء. هدأت أنفاس كوكشو واســترخت قبــضتاه القويــتان عــندما نام هو أيضاً. مرة أخرى، كان تيموج وحيداً ومندهــشاً ممــا كان قد سمعه. هل سيتذكر أي من الرجلين الكلمات؟ كانت مجموعة رؤاه الخاصة مشوشة بأفضل الحالات، لكنه تذكر أن كوكشو لم يكن قد وضع العجينة السوداء داخل فمه. لا شك أنه سيخبر الخان بكل ما رآه.

كـــان تيموج يعرف أنه لا يستطيع إيقاظ شقيقه. كان سينام عدة ساعات تمتد إلى مـــا بعـــد اســـتيقاظ المعسكر بكثير. هزّ تيموج رأسه متعباً. كان جنكيز منزعجاً من الحـــصار مع اقتراب السنة الثانية من نهايتها. ربما يتشبث بأي فرصة. ابتسم تيموج. إذا كانت رؤية كوكشو صحيحة، سيلجأ جنكيز إليه في المستقبل، في كل الأشياء.

فكّر تيموج في قطع عنق كوكشو في أثناء نومه. بالنسبة إلى رجل يعمل بالسحر الأســـود، لن يكون تفسير ذلك صعباً للغاية. تخيل تيموج أنه يقول لجنكيز كيف ظهر خط أحمر على حنجرة كوكشو بينما كان يراقب ما يجري مذعوراً. سيكون تيموج من يخبر جنكيز عمّا كان الكاهن العرّاف قد رآه.

ســـحب تـــيموج سكينه ببطء، من دون أن يصدر صوتاً. اهتزت يده قليلاً، حتى عندما كان يحث نفسه على القيام بذلك. انحنى فوق الكاهن العرّاف، وفي تلك اللحظة، فتح كوكشو عينيه بسرعة، متنبهاً بطريقة ما. هزّ ذراعه لوضع السكين جانباً، وأخفاها بين طيات ردائه.

تكلم تيموج بسرعة. "أنت حي إذاً يا كوكشو؟ اعتقدت للحظة أن شيئاً قد تملكك. كنت مستعداً لقتل الروح التي كانت قد سلبتك من جسدك".

جلس كوكشو، يقظاً وعيناه حادتان. ظهر تعبير ساخر على وجهه. "تخاف كثيراً يا تيموج. ليست هناك روح يمكنها أن تؤذيني". كان كلا الرجلين يعرفان الحقيقة تلك اللحظة، لكن لأسباب تتعلق بكل منهما، لم يكن أحدهما يرغب بأن يفصح عنها علانية. حدّقا بعضهما إلى بعض مثل عدوين، وأخيراً، أومأ تيموج برأسه.

قال: "سأجعل الحارس يحمل شقيقي إلى خيمته. هل سيتوقف سعاله، برأيك؟".

هـــزّ كوكـــشو رأســـه. "ليست هناك لعنة يمكنني العثور عليها. خذه، كما تشاء. ينبغي أن أفكر بما كشفته الأرواح لي".

كـــان تـــيموج يـــريد أن يحطم غرور الرجل بملاحظة جارحة، لكنه لم يستطع التفكير بواحدة وخرج زحفاً من الباب ليجلب الحارس لشقيقه. كان الثلج يعصف حوله عـــندما دفع المحارب الضخم جنكيز فوق كتفيه وكانت المرارة تبدو على وجه تيموج. كان واثقاً ألا فائدة ترجى من ازدياد نفوذ كوكشو.

نهـــض زهـــي زهونغ فجأة على وقع أصوات أحذية على الأرض القاسية. هزّ رأســـه ليصحو من النوم وتجاهل تشنجات الجوع التي تنتابه طيلة الوقت. حتى بلاط الإمبراطور كان يعاني من المجاعة. قبل يوم، كان زهي زهونغ قد تناول الطعام مرة واحدة فقط، طبقاً من الحساء. كان قد قال لنفسه إن قطع اللحم الصغيرة كانت من آخر

جـياد الإمبراطور، التي تم ذبحها قبل عدّة شهور. كان يأمل بأن يكون ذلك صحيحاً. كجندي، كان قد تعلم ألا يرفض وجبة أبداً، حتى إذا كان اللحم فاسداً.

وقف، ورمى جانباً بطانياته ومدّ يده إلى سيفه عندما دخل خادم.

ســأل زهــي زهونغ: "من أنت لتزعجني في هذه الساعة؟". كان الظلام لا يزال حالكــاً في الخارج وكان لا يزال مجهداً من النوم المتقطع. أخفض سيفه عندما رمى الخادم نفسه على الأرض، ووضع رأسه على الحجارة.

قال الرجل من دون أن ينظر إلى الأعلى: "مولاي الوصي، يستدعيك ابن السماء للمثول بين يديه". تقطب حاجبا زهي زهونغ دهشة. لم يكن الفتى الإمبراطور كسوان قــد تجــرأ علــى استدعائه من قبل. كبت الغضب الذي شعر به حتى يعرف المزيد، ونادى عبيده لتجهيز ملابسه وحمّامه.

ارتعــش الخــادم بــشكل ظاهــر للعــيان عندما سمع النداء. "يا مولاي، طلب الإمبــراطور أن تأتي حالاً". قال زهي زهونغ بحدّة زادت من خوف الرجل: "سينتظر كــسوان مسروراً! انتظرني في الخارج". زحف الخادم على قدميه وفكّر زهي زهونغ بأن يجعله يسرع بركلة على قفاه.

دخل عبيده، وعلى الرغم من ذلك الجواب، إلا أن زهي زهونغ جعلهم يسرعون. قــرر ألا يستحم وعقد فقط شعره الطويل خلف رأسه بمشبك برونزي حتى تدلى على ظهره فوق درعه. كان يشم رائحة عرقه وتعكّر مزاجه أكثر بينما كان يتساءل إن كان وزراء الإمبراطور خلف ذلك الاجتماع.

عندما غادر غرفته، هرول خادمه أمامه، واستطاع رؤية خيوط الفجر الأولى من كــل نافــذة مفــتوحة. كان ذلك الوقت المفضل لديه من النهار، وإن كانت معدته قد تقلصت.

وجد الإمبراطور في حجرة الاستقبال حيث كان زهي زهونغ قد قتل والده. بينما كــان الوصــي يمــر بين الحرّاس، تساءل إن كان أحد قد أبلغ الفتى أنه يجلس على الكرسي نفسه.

كــان الوزراء حاضرين مثل سرب من الطيور الملونة. كان روين تشو، الأول بيــنهم، واقفــاً إلــى يمين كسوان فيما الفتى جالس على العرش الذي يبدو كبيراً على جسده الصغير. بدا الوزير الأول متوتراً وجريئاً في الوقت نفسه وانتاب زهي زهونغ الفضول بينما كان يقترب ويجثو على ركبة واحدة.

قــال بوضوح في الصمت: "استدعاني ابن السماء وقد أتيت". رأى عيني كسوان تــستقران علــى السيف الذي يضعه على ردفه وظنّ أن الفتى يعرف جيداً ما كان قد

حـدث لوالده. إذا كان الأمر كذلك، لا بد أن اختيار الحجرة كان متعمداً وسيطر زهي زهونغ على نفاد صبره حتى يعرف ما منح طيور الإمبراطور تلك الثقة الجديدة البادية على وجوههم.

لدهـشته، كـان كسوان نفسه من تكلم. قال: "مدينتي تتضور جوعاً أيها العاهل الوصـي". ارتعش صوته قليلاً، لكنه أصبح حازماً عندما تابع. "مع الانتقاء العشوائي، ربما يكون الخُمس قد ماتوا، بما في ذلك أولئك اللواتي رمين أنفسهن عن الأسوار".

كـاد زهـي زهونـغ يتفوه بجواب لدى تذكيره بتلك الحادثة المؤسفة، لكنه كان يعرف أنه لا بد من وجود المزيد حتى يتجرأ كسوان على استدعائه للمثول بين يديه.

تابـع الإمبـراطور: "لـم يتم دفن الموتى، بوجود الكثير من الأفواه التي ينبغي إطعامها. بدلاً من ذلك، ينبغي أن نتحمل عار تناول لحومهم، أو الانضمام إليهم".

قال زهي زهونغ فجأة، متعباً من كلام الفتى: "لماذا تم استدعائي إلى هنا؟". شهق رويـن تـشو لوقاحته في مقاطعة الإمبراطور. ألقى زهي زهونغ نظرة متعالية باتجاه الرجل، من دون أن يهتم به.

انحنى الفتى على العرش إلى الأمام، مستجمعاً شجاعته.

"لقد رفع خان المغول خيمة بيضاء مرة أخرى على السهل. حقق الجاسوس الذي أرسلته النجاح ويمكننا دفع جزية أخيراً".

شـد زهي زهونغ قبضته اليمنى، مندهشاً. لم يكن ذلك النصر الذي أراده، لكن المديـنة سرعان ما ستصبح قبراً لهم جميعاً. على الرغم من ذلك، تطلب الأمر جهداً وإرادة كبيرين لدفع ابتسامة على وجهه.

"إذاً، سـينجو جلالته. سأذهب إلى الأسوار وأرى تلك الخيمة البيضاء، ثم أبعث برسالة إلى الخان. يمكننا أن نتكلم مجدداً".

رأى ازدراءً على وجوه الوزراء وكرههم لأجل ذلك. كرجل، كانوا ينظرون إليه كمهـندس الكارثـة التي حلّت ببينكينغ. كان خزي الاستسلام سينتشر عبر المدينة إلى جانب الشعور بالراحة. من البلاط الأعلى مرتبة إلى الصيادين الأدنى طبقة، سيعرفون أنه تم إرغام الإمبراطور على دفع جزية. على الرغم من ذلك، سيعيشون وينجون من مصيدة الجرذان التي أضحت عليها ينكينغ. حالما يتم دفع النقود اللعينة للمغول، يمكن للبلاط السفر جنوباً وجمع قوة واستدعاء حلفاء في المدن الجنوبية. ربما سيلقون الدعم حتى من إمبراطورية سونغ في أقصى الجنوب، ويدعونهم برباط الدم لسحق الغازي. سـتكون هـناك معـارك أخرى مع حشد المغول، لكنهم لن يسمحوا أبداً بأن يُحاصر الإمبراطور مجدداً. بكلتا الحالتين، سوف يعيشون.

كانت غرفة الاستقبال باردة وارتعش زهي زهونغ، مدركاً أنه كان يقف بصمت فيما الإمبراطور والوزراء ينظرون إليه. لم تكن لديه كلمات يمكنها تهدئة الألم المرير لما ينبغي أن يقوم به وحاول الاستخفاف من فداحة الأمر. لم تكن هناك فائدة من رؤية المدينة كلها تتضور جوعاً حتى الموت، ويمكن عندها للمغول تسلق الأسوار والعثور فقــط على رجال موتى. في الوقت المناسب، سيكون جنود تشن أقوياء مجدداً. رفعت فكرة الوصول إلى طرف الجنوب معنوياته قليلاً. سيجدون طعاماً وجيشاً هناك.

قال وهو ينحني كثيراً قبل أن يغادر الغرفة: "إنه القرار الصائب يا ابن السماء".

عــندما غــادر، تقدم أحد العبيد الذين كانوا يقفون عند الجدار إلى الأمام. أشار الإمبراطور الفتى له بعينيه وكان الحقد والغضب ظاهرين آنذاك حيث كان التوتر فقط من قبل.

شــد العبد قامته، وبدّل الطريقة التي كان يقف بها. لم يكن على رأسه شعر أبداً، حتى الحاجبان والرموش، وكان يلمع من مرهم كثيف عليه. حدّق الرجل خلف العاهل الوصي كما لو أنه يستطيع الرؤية عبر الأبواب الكبيرة للحجرة.

قــال كسوان: "اتركه يعيش حتى يتم دفع الجزية. بعد ذلك، ينبغي أن يموت ميتة مؤلمة للغاية. من أجل فشله ومن أجل والدي".

انحنــى ســيد الجمعية السرية السوداء احتراماً للفتى الذي يحكم الإمبراطورية. "سيكون الأمر كذلك يا مولاي الإمبراطور".

# الفصل الثاني والثلاثون



كـــان من الغريب رؤية بوابات ينكينغ تُفتح أخيراً. شد جنكيز قامته فوق السرج بيــنما كـــان يـــشاهد أول عـــربة محملة تخرج نحوه. أظهرت حقيقة أن رجالاً كانوا يـــسحبونها وليس حيوانات جر حالة المدينة من الداخل. كان من الصعب ألا يضرب بعقبـــيه على ردفي جواده ويهاجم، بعد أن قضى شهوراً عديدة يحلم بتلك اللحظة. قال لنفسه إنه كان قد اتخذ القرار الصائب، ونظر إلى كوكشو إلى يمينه، يمتطي جواداً من أفضل السلالات الموجودة في القبائل.

لـــم يستطع كوكشو إخفاء ابتسامة بينما كان توقّعه يصبح حقيقة واقعة. كان قد أخبر جنكيـــز عـــن تفاصـــيل رؤيته، عندما كانت الخيمة السوداء لا تزال تنتصب أمام المدينة، ووعـــده جنكيـــز أن ينتقـــي من الجزية ما يشاء إذا تحقق ذلك. لم تكن قد ازدادت سلطته ونفـــوذه فـــي القبائل فحسب، وإنما سيصبح أغنى مما كان يحلم. كان ضميره مرتاحاً بينما كان يراقب كنز الإمبراطورية يخرج من المدينة. كان قد كذب على خانه وربما حرمه من تحقـــيق نـــصر دموي، لكن ينكينغ قد سقطت وكان كوكشو مهندس انتصار المغول. هتف ثلاثـــون ألـــف محارب للعربات التي تقترب منهم حتى بُحّت أصواتهم. كانوا يعرفون أنهم ســـيرتدون حريـــراً أخضر قبل أن ينتهي اليوم، وبالنسبة لرجال عاشوا لكسب الغنائم، كان ذلـــك شـــيئاً يقولـــونه لأحفادهم. كان قد تم إرغام الإمبراطور على الخضوع لهم ولم يكن بمقدور المدينة الحصينة سوى أن تلفظ ثروتها بعد هزيمتها.

بعد فتح الأبواب، كان بمقدور قادة الجيش إلقاء نظرة خاطفة على ما يوجد داخل المديـــنة للمـــرة الأولى، وشاهدوا طريقاً يمتد إلى ما لا نهاية. سعل جنكيز في قبضته فـــيما كانت الجزية تخرج مثل لسان، مع رجال يتهامسون حول الرتل بينما كان يشبه عملـــية عسكرية. كان الكثير منهم يبدون مثل هياكل عظمية بسبب الجوع. ترنحوا في أثـــناء عملهم، وعندما حاولوا أخذ قسط من الراحة، ضربهم ضباط تشن بوحشية حتى تحركوا أو ماتوا.

تـم إخراج مئات العربات إلى السهل، ووضعها في صف أنيق فيما عادت فرقها التـي كانـت تتـصبب عرقاً إلى المدينة لجلب المزيد. كان تيموج قد عيّن محاربين لحـساب العـدد الإجمالي، لكن الفوضى كانت عارمة آنذاك وضحك جنكيز بصوت خافـت عـندما رآه يهرول في الأنحاء أحمر الوجه، يصدر الأوامر وهو يسير على طول شوارع جديدة من الثروة.

سأل كشيون إلى جانبه: "ماذا ستفعل بالجزية؟".

رفع جنكيز بصره بعد أن كان مستغرقاً في أفكاره. هزّ كتفيه استخفافاً. "كم يمكن للرجل أن يحمل من دون أن يكون بطيئاً في القتال؟".

ضحك كشيون. "يريدنا تيموج أن نبني عاصمة خاصة بنا، هل أخبرك بذلك؟ إنه يرسم خططاً للمكان الذي يشبه كثيراً مدينة تشن".

تأفـف جنكيـز مـن ذلك، ثم انحنى إلى الأمام فوق سرجه في نوبة من السعال تركته يلهث طلباً للهواء. تكلم كشيون مجدداً كما لو أنه لم يرَ ضعفه.

"لا يمكننا دفن الذهب فحسب يا شقيقي. ينبغي أن نفعل به شيئاً".

عـندما أصـبح جنكيز قادراً على الرد، كان قد أضاع الجواب الحاد الذي كان سيقوله.

"لقـد مـشيت معك في شوارع تشن يا كشيون. هل تتذكر الرائحة؟ عندما أفكر في البـيت، أفكر في جداول نظيفة وأودية مليئة بالأعشاب النضرة، وليس في فرصة للتظاهر بأننا نبلاء تشن خلف أسوار. ألم نثبت أن الأسوار تجعل الآخرين ضعفاء؟". أشار إلى رتل من العربات كان لا يزال يخرج من ينكينغ لتوضيح مقصده. كانت أكثر من ألف عربة قد غادرت المدينة وكان لا يزال يرى الصف يمتد على طول الطريق في الداخل.

قـال كـشيون: "إذاً، لـن نبني أسواراً. ستكون أسوارنا المحاربين الذين تراهم حولك، وهم أقوى من أي بناء من الصخر والحجر الكلسي".

نظر إليه جنكيز ساخراً وقال: "أرى أن تيموج كان مقنعاً".

أشاح كشيون بنظره بعيداً، محرجاً.

"لا أهتم لرؤاه عن ساحات الأسواق والحمامات. أتكلم عن أماكن للتعليم، وعن رجال طـب يـتدربون لمداواة جروح المحاربين. إنه يتطلع إلى وقت لا نكون فيه في حرب. لم يسبق أن كانت لدينا مثل تلك الأشياء من قبل، لكن هذا لا يعني أنه لا ينبغي بنا ذلك".

حـدق كلا الرجلين إلى صفوف العربات لبعض الوقت. بالاستفادة من كل جواد متوفـر مـن الأفواج، كان من الصعب للغاية حتى تحريك مثل تلك الأشياء. كان من الطبيعي أن يحلموا بالاحتمالات.

قـال جنكيز: "لا يمكنني أن أتخيل السلام. لم أعرفه أبداً. كل ما أريده هو العودة إلـى الـوطن والتعافـي من هذا المرض الذي أصابني. أن أقود حصاني طيلة اليوم وأصبح قوياً مجدداً. هل تريد مني بناء مدن على سهولي؟".

هـزّ كشيون رأسه. "ليس مدناً. نحن فرسان يا شقيقي. سنكون كذلك دائماً. لكن ربمـا عاصمة، مدينة واحدة للأمة التي صنعناها. بالطريقة التي أخبرني عنها تيموج، يمكننـي أن أتخيل ساحات تدريب رائعة لرجالنا، مكاناً يعيش فيه أولادنا ولا يعرفون أبداً الخوف الذي عرفناه".

قـال جنكيز: "سيكبرون رقيقين. سيجعلهم ذلك ضعفاء وعديمي الفائدة مثل جنود تـشن أنفـسهم، ويـوماً مـا، سيأتي شخص على صهوة جواده، ويكون قاسياً ونحيلاً وخطيراً. عندها، أين سيكون شعبنا؟".

نظـر كـشيون إلى العشرة آلاف محارب الذين يمشون أو يقودون جيادهم عبر المعسكر الشاسع. ابتسم وهزّ رأسه. "نحن ذئاب يا شقيقي، لكن حتى الذئاب بحاجة إلى مكـان تـنام فـيه. لا أريد شوارع تيموج الحجرية، لكن ربما يمكننا صنع مدينة من الخيام، مدينة يمكننا نقلها كلما أردنا إلى مراع جديدة".

أصغى جنكيز باهتمام. "هذا أفضل. سأفكر بالأمر يا كشيون. سيكون هناك وقت كاف في رحلة العودة إلى الوطن، وكما تقول، لا يمكننا دفن كل هذا الذهب".

كـان آلاف العبـيد قـد خـرجوا مع العربات في أثناء ذلك، ووقفوا بائسين في صـفوف. كـان الكثيـر منهم شباباً يافعين، والذين منحهم الإمبراطور الشاب للخان المنتصر.

قـال كشيون، وهو يشير إليهم بهزّة من يده: "يمكن أن يبنوها لنا. وعندما نطعن أنا وأنت في السن، سيكون لدينا مكان هادئ نموت فيه".

"لقد قلت إنني سأفكر بالأمر يا شقيقي. من يعرف الأراضي التي اكتشفها وفتحها تسوبودي، جيلم أو خاسار؟ ربما سنذهب معهم ولا نحتاج أبداً إلى مكان ننام فيه".

ابتسم كشيون من كلمات شقيقه، وعرف أن عليه ألا يضغط عليه أكثر.

قـال: "انظـر إلـى هذا كله. هل تتذكر عندما كنا لوحدنا؟". لم يكن بحاجة إلى إضـافة تفاصـيل. كـان هناك وقت بالنسبة إلى كليهما لم يكن الموت بعيداً أكثر من خطوة وكان كل رجل عدواً.

قـال جنكيـز: "أتذكـر". مقارنـة بصور طفولتهما، كان منظر السهل بعرباته وبالمحاربـين المحتـشدين فيه مثيراً للدهشة. بينما كان يحدّق إلى المشهد الذي أمامه، رأى جنكيز شكل وزير الإمبراطور الأول يهرول نحوه. تنهد لنفسه من فكرة الدخول

فـــي حـــديث مجهد آخر مع الرجل. كان ممثل الإمبراطور يتظاهر بالود، لكن كرهه للقبائل كان واضحاً في كل نظرة مرتعشة. كان يشعر أيضاً بالتوتر من التواجد بجانب الجياد وهو كان يصيبها بالتوتر بالمقابل.

فيما كان جنكيز يراقبه، انحنى وزير تشن كثيراً له قبل أن ينشر رقعة.

ســـأل جنكيــز بلغـــة تـــشن قبل أن يستطيع روين تشو الكلام: "ما هذا؟". كانت تشاكاهي قد علّمته، وكافأت تقدمه بوسائل مبتكرة.

بدا الوزير مرتبكاً، لكنه استعاد السيطرة على نفسه بسرعة. "إنها لائحة بالجزية يا مولاي الخان".

"سلّمها لشقيقي تيموج. سيعرف ماذا يفعل بها".

احمرّ وجه الوزير وبدأ يلف الرقعة بشكل محكم. قال: "كنت أعتقد أنك سترغب بتفقد الجزية يا مولاي".

تقطـــب حاجبا جنكيز عبوساً منه. "لم أكن أعتقد أن أي شخص سيكون أحمق بما يكفي حتى لا يفي بما وعد به يا روين تشو. هل تقول إن شعبك لا يتمتع بالشرف؟".

تمتم روين تشو: "لا يا مولاي...".

لوح جنكيز بيده لإسكاته. "إذاً، سينظر فيها شقيقي". فكّر للحظة، وهو يحدق من فـــوق رأس الوزيـــر إلى صف العربات المحمّلة. "لم أرَ سيدك بعد لعرض الاستسلام الرسمي يا روين تشو. أين هو؟".

أضحى لون وجه روين تشو أكثر احمراراً بينما كان يفكر كيف سيجيب. لم يكن القائد زهي زهونغ قد نجا تلك الليلة وقد تم استدعاء الوزير الجليل إلى مقره عند الفجر. ارتعش عندما تذكر الجروح والعلامات على جسده. لم يكن ذلك موتاً سهلاً.

قال أخيراً: "لم ينجُ القائد زهي زهونغ من تلك الأوقات الصعبة يا مولاي".

نظر إليه جنكيز دونما أي انفعال. "لماذا سأهتم بأي من جنودكم الآخرين؟ لم أرَ إمبـــراطوركم. هل يعتقد أنني سآخذ هذا الذهب وابتعد من هنا من دون حتى أن أنظر إليه؟".

زم روين تشو فمه، على الرغم من أنه لم يخرج منه أي صوت.

تقـــدم جنكيـــز منه. "عد إلى ينكينغ أيها الوزير، واجعله يخرج. إذا لم يكن هنا بحلول الظهيرة، كل كنوز العالم لن تنقذ مدينتكم".

ابـــتلع روين تشو ريقه بصعوبة، وكان من الواضح أنه خائف. كان قد تمنّى بألا يطلـــب خـــان المغـــول رؤية الفتى البالغ من العمر سبع سنوات. هل سينجو كسوان

الصغير من الاجتماع؟ لم يكن روين تشو واثقاً من ذلك. كان المغول قساة ولم يكونوا يهتمون بشيء. على الرغم من ذلك، لم يكن هناك خيار فانحنى أكثر من ذي قبل.
"كما تشاء يا مولاي".

عندما ارتفعت الشمس في السماء، تم إيقاف قطار الكنوز العظيم للسماح بخروج محمل الإمبراطور إلى السهل. جاء معه مئة رجل يرتدون دروعاً، ويمشون إلى جانبي المحمل الذي يحمله عبيد. جاؤوا صامتين متجهمين وصمت المغول أيضاً عندما شاهدوهم، وبدأوا يندفعون وراء المجموعة فيما كانت تشق طريقها إلى حيث كان جنكيز ينتظر مع قادة جيشه. لم يتم نصب خيمة خاصة للإمبراطور، وعلى الرغم من ذلك، لم يسع جنكيز سوى أن يشعر بالأسى فيما كانت الصفوف تتحرك نحوه. كان من الصحيح أن الفتى لم يكن قد لعب دوراً في تاريخ القبائل. على الرغم من ذلك، كان الرمز الوحيد لكل ما اجتمعوا لمقاومته. أنزل جنكيز يده إلى قبضة أحد سيوف أرسلان على خصره. عندما تم صنعه، كان خاناً لأقل من خمسين رجلاً في معسكر من الثلج والجليد. لم يكن ليجرؤ على الحلم حينها بأن يخرج إمبراطور تشن لملاقاته بناءً على أمر منه.

لمع المحمل في الشمس بينما كان يتم إنزاله على الأرض بلطف كبير. شد العبيد قاماتهم، يحدقون أمامهم مباشرة. راقب جنكيز بذهول بينما كان روين تشو يفتح ستائر صغيرة جانبية وفتى صغير يخطو على العشب. كان يرتدي سترة خضراء طويلة مرصعة بالجواهر، فوق طماقات سوداء. كانت ياقة عالية قد جعلت الفتى يرفع رأسه عالياً. لم تكن عيناه خائفتين عندما التقت بعيني الخان وشعر جنكيز بالإعجاب من شجاعة الفتى.

تقدم جنكيز خطوة إلى الأمام وشعر بنظرة الجنود القاسية إليه.

قال بلطف: "اجعل هؤلاء الرجال يتراجعون إلى الخلف يا روين تشو". أحنى الوزير رأسه وأصدر الأمر. وقف جنكيز بثبات بينما كان الضباط يحدّقون إليه قبل أن يتراجعوا مسافة قصيرة. كانت فكرة قيامهم بحماية الفتى الصغير في قلب معسكر المغول مثيرة للسخرية، لكن جنكيز شعر بولائهم الشديد. لم يكن يرغب بإفزاعهم وجعلهم يشنون هجوماً عليه. حالما تحركوا، لم يعد يفكر في وجودهم واقترب من الإمبراطور.

قال بلغة تشن: "أهلاً بك في معسكري".

حدّق إليه الفتى الصغير من دون أن يرد، ورأى جنكيز أن يديه ترتعشان.

قال كسوان فجأة بصوت عالٍ وحاد: "حصلت على كل ما تريده".

رد جنكيز: "كنت أريد وضع حدٍّ للحصار. هذه نهاية واحدة". رفع الفتى رأسه أكثر، وكان يقف مثل تمثال عرض يلمع في الشمس.

"هل ستهاجمنا الآن؟".

هزّ جنكيز رأسه. "لقد قلت إن كلمتي حديد أيها الشاب. أعتقد ربما أنه إذا كان والدك واقفاً أمامي الآن، كنت سأفكر بالأمر. هناك كثيرون بين شعبي سوف يستحسنون هذه الاستراتيجية". توقف ليبتلع ريقه عندما آلمته حنجرته ولم يستطع منع نوبة سعال انتابته حينها. لغضبه، بقي صفير مسموع عندما تابع كلامه.

"لقد قتلت ذئاباً. لن أصطاد الأرانب".

رد الفتى الصغير: "لن أبقى صغيراً دائماً يا مولاي الخان. ربما تندم على الإبقاء على حياتي".

ابتسم جنكيز من عرض التحدي المبكر، حتى عندما فزع روين تشو. بحركة سلسة، شهر جنكيز سيفه ووضع مقدمة النصل على كتف الفتى، ومس بها ياقته.

"كل الرجال العظماء لديهم أعداء أيها الإمبراطور. سيسمع أعداؤك أنك وقفت وسيفي على عنقك من دون أن تكون كل جيوش ومدن تشن قادرة على رفعه. في الوقت المناسب، ستفهم لماذا يجعلني ذلك راضياً أكثر من قتلك". تسبب سعال آخر بجعل حنجرته تنقبض ومسح فمه بيده الحرة.

"لقد عرضت عليك السلام أيها الفتى. لا يمكنني القول إنني لن أعود، أو أن أبنائي وقادة جيشهم لن يقفوا هنا في السنوات القادمة. لقد اشتريت السلام لسنة، وربما لسنتين أو لثلاث. هذا أكثر مما كان شعبك قد منحه لي على الإطلاق". مع تنهيدة، أغمد سيفه.

"شيء واحد أخير أيها الفتى، قبل أن أعود إلى الوطن حيث أراضي طفولتي".

رد كسوان: "ما الذي تريده بعد؟". كان قد أصبح شاحباً آنذاك بعد أن تم رفع السيف عن عنقه، لكن عينيه كانتا باردتين.

قال جنكيز: "اجثُ لي أيها الإمبراطور، وسأغادر". لدهشته، امتلأت عينا الفتى بدموع غاضبة.

"لن أفعل ذلك!".

اقترب روين تشو، يتحرك بعصبية وراء الإمبراطور.

همس: "ابن السماء، ينبغي أن تفعل ذلك". لم يتكلم جنكيز مجدداً، وأخيراً، استرخت كتفا الفتى دلالة على الهزيمة. حدّق من دون أي انفعال بينما كان يجثو أمام الخان.

وقــف جنكيــز في النسيم واستمتع بلحظة طويلة من الصمت قبل أن يشير إلى روين تشو ليساعد الفتى على النهوض على قدميه.

قــال جنكيــز بهدوء: "لا تنسَ هذا اليوم أيها الإمبراطور، عندما تكبر". لم يرد الفتــى بينما كان روين تشو يقود خطواته عائدين إلى المحمل ويراه بأمان في الداخل. تشكل الرتل حوله وبدأ السير عائداً إلى المدينة.

راقــبهم جنكيز يذهبون. كان قد تم دفع الجزية وجيشه ينتظر أمره بالتحرك. لم يكن هناك شيء يربطه بالسهل اللعين الذي سبب له الضعف والإحباط من اللحظة التي وطئته فيها قدماه.

قــال لكــشيون: "لــنذهب إلى الوطن". صدحت الأبواق عبر السهل وبدأ الحشد الضخم لشعبه بالتحرك.

ســاء المــرض في صدر جنكيز في الأسابيع الأولى من السفر. كان جلده حاراً عند مسه ويتعرق بشكل مستمر، ويعاني من طفح جلدي عند فخذيه وإبطيه، حيثما كان الــشعر يــنمو بكــثافة. كانت أنفاسه تخرج مجهدة، حتى إنه كان يصفر كل ليلة ولا يــستطيع أن يتنحــنح. كان يحن إلى الرياح الباردة النظيفة في جبال وطنه، وبخلاف المنطق، كان يقضي كل يوم على السرج، ينظر إلى الأفق.

كان قد مضى شهر منذ غادروا ينكينغ، وكانت ضواحي مملكة الصحراء في مرمى النظــر وتوقفت القبائل عند نهر للتزوّد بالماء اللازم للرحلة. هناك، جاء آخر المستطلعين الــذين كــان جنكيــز قد تركهم خلفه إلى المعسكر. لم ينضم اثنان منهم إلى زملائهم حول نيران المعسكر، وبدلاً من ذلك، قادا جواديهما مباشرة إلى خيمة الخان على العربة.

كان كشيون وأرسلان هناك مع جنكيز وخرج الرجال الثلاثة لسماع التقرير النهائي. راقــبوا بينما كان المستطلعان يترجلان عن فرسيهما. كان كلاهما مغطيين بالغبار والتراب وتبادل جنكيز نظرة مع شقيقه، وابتلع ريقه ليخفف من وخز حنجرته المجروحة.

شــرع أحــد المــستطلعين يقول: "مولاي الخان". ترنح بينما كان واقفاً وتساءل جنكيز عما يكون قد دفع الرجل لإجهاد نفسه.

"لقد ترك الإمبراطور ينكينغ يا مولاي، ويتجه جنوباً. خرج أكثر من ألف معه".

سأل جنكيز غير مصدق: "هل هرب؟".

"جــنوباً يا مولاي. لقد تركوا المدينة مفتوحة، وهجروها خلفهم. لم أبقَ لأرى كم عــدد الأشخاص الذين نجوا في الداخل. أخذ الإمبراطور العديد من العربات والعبيد، وكل وزرائه".

لــم يــتكلم أحد آخر بينما كان جنكيز يسعل في قبضته المغلقة، ويحاول جاهداً التقاط أنفاسه.

قــال جنكيــز أخيراً: "لقد منحته السلام. على الرغم من ذلك، يصرخ للعالم أن كلمتي لا تعني شيئاً له".

قــال كــشيون: "ماذا يهمنا من ذلك يا شقيقي؟ خاسر في الجنوب. لن تجرؤ أي مدينة على منحه ملاذاً...".

أســكته جنكيز بإيماءة غاضبة. "لن أعود إلى ذلك المكان يا كشيون. لكن هناك ثمــن لكــل شــيء. لقد خرق السلام الذي منحته إياه بهربه إلى جيوشه في الجنوب. ستريه الآن النتيجة".

سأل كشيون: "شقيقي؟".

"لا يــا كــشيون! لقــد اكتفيت من الألعاب. عد برجالك إلى ذلك السهل واحرق ينكينغ عن آخرها. ذلك هو الثمن الذي سآخذه منه".

نظراً لغضب شقيقه، لم يستطع كشيون سوى أن يحني رأسه.

قال: "كما تشاء يا مولاي".

# ملاحظات تاريخية



**"كانت الطبيعة قد تركت هذه السمة في الدم،**
**بأن كل الرجال سيصبحون طغاة إذا استطاعوا".**
*– دانييل ديفو*

لا يمكن سوى تقدير تاريخ ولادة جنكيز. نظراً للطبيعة البدوية لقبائل المغول، لم يتم تحديــد سنة وموقع ولادته أبداً. إضافة إلى ذلك، كانت القبائل الصغيرة تدوّن السنوات وفقاً لأحداث محلية، مما يجعل توافقها مع التقويم السائد اليوم صعباً. لم تصبح الأوقات معروفة علــى وجــه الدقة سوى عندما أضحى جنكيز على احتكاك بالعالم الخارجي. غزا منطقة كــزي كزيا جنوب غوبي سنة 1206 ميلادية ونودي به خاناً لكل القبائل في السنة نفسها. بحــسب التقويم الصيني، كانت تلك سنة *النار والنمر*، في نهاية حقبة تيهي. ربما كان آنذاك بعمــر الخامسة والعشرين، أو كان قد بلغ الثامنة والثلاثين عندما وحّد شعبه. لم أُسهب في تقديم سنوات الحرب والتحالفات بينما كان يوحد القبائل معاً تحت قيادته. المثير للاهتمام أن لقصته دائماً مجالاً واسعاً. أوصي بقراءة **التاريخ السري للمغول** *The Secret History of Mongols*، ترجمة آرثر ويلي، لكل من يتمنى معرفة المزيد عن تلك الحقبة.

كــان تحالف النيمنز آخر ائتلاف رئيسي يقاوم تشكيل الأمة الجديدة. صعد خان النيمنــز بالفعل جبل ناخو، وصعد المنحدرات مبتعداً عن جيش جنكيز الذي كان يتقدم نحــوه. عرض جنكيز الإبقاء على فرسانه، لكنهم رفضوا وقتلهم حتى آخر رجل. تم استيعاب باقي المحاربين والعائلات ضمن قواته.

كان كوكشو كاهناً عرّافاً قوياً، ومعروفاً أيضاً باسم تب-تنجري. لا يُعرف الكثير بــشأن كــيف أصبح نافذاً. اشتكت هولن وبورت إلى جنكيز عدّة مرات بشأن الكاهن

العرّاف. أصبحت قدرة تأثيره على جنكيز مصدراً كبيراً لقلق أولئك الذين كانوا حول الخـان. كـان جنكيز نفسه يعتقد بأن سماء واحد: الذات الواحدة المؤيدة بعالم أرواح الكهـنة. بقي كوكشو شخصاً غامضاً. كان أحد قوانين القبائل يحظّر إراقة دم ملكي أو دم الكهنة. لم أنتهِ بعد من سرد قصته.

فـيما كانـت القبائل تجتمع استجابة لنداء جنكيز، كتب خان اليوغر إعلان ولاء مطابقـاً تقريباً لما أوردته هنا. بأي حال، كانت حادثة تعرض خاسار للضرب وإرغام تيموج على الجثو مع أبناء عشيرة خونغخوتان وليس ويلا.

قـام جنكيـز بالفعل بغمر سهل كزي كزيا بالماء واضطر للانسحاب أمام المياه التـي ارتفـع منسوبها. على الرغم من أن ذلك كان محرجاً، إلا أن دمار المحاصيل أرغـم الملك على الحضور إلى طاولة المفاوضات وحصل جنكيز أخيراً على أراض للـشعب المغولـي. لم تكن تلك أول مواجهة لجنكيز مع فكرة دفع جزية. كان معروفاً عن القبائل المغولية إجراؤها المفاوضات بتلك الطريقة، على الرغم من أن ذلك لم يكن علـى نطاق واسع. من المثير للاهتمام التفكير بينما كان جنكيز قد فعله بثروات كزي كـزيا، ولاحقـاً، مديـنة الإمبراطور. لم يكن يستفيد من الممتلكات الشخصية التي لا يـستطيع حملهـا على حصانه. لا بد أن الجزية أثّرت في القبائل وأكّدت هيمنته، لكن بخلاف ذلك لم يكن لها فائدة عملية كبيرة.

ربمـا كان مصير كزي كزيا مختلفاً لو أن الأمير وي من إمبراطورية تشن قد أجـاب نـداء الاسـتغاثة. كانت رسالته مترجمة: "إن من مصلحتنا أن يهاجم أعداؤنا بعضهم. أين يكمن الخطر في ذلك علينا؟".

عـندما دار جنكيـز حول سور الصين العظيم، فعل ذلك صدفة فقط. ابتعد دربه إلى ينكيـنغ عبـر أراضي كزي كزيا عن السور. بأي حال، من المهم أن نفهم أن السور كان عقـبة صلبة فقط في الجبال حول ينكينغ التي عُرفت لاحقاً باسم بكين، ثم بيجين اليوم. في أمـاكن أخرى، كان السور مهدّماً، أو ليس أكثر من متراس من الأرض مع نقطة حراسة عادية. في قرون لاحقة، تم بناء السور بأكمله ليصبح فاصلاً متواصلاً ضد الغزو.

مـن المهـم ملاحظـة أن لفظ أسماء الأماكن باللغة الصينية تقريبي دائماً، ويتم استعمال أبجدية غربية لكتابة الحرف نفسه. لهذا، تُلفظ كزي كزيا أحياناً تسي-تسيا، أو

هــسي-هــسيا، وتُكــتب تــشن أحــياناً جن أو حتى كن. تُكتب سونغ سنغ في بعض النــصوص. كــنت قــد استطعت العثور على واحد وعشرين لفظاً لجنكيز، من الاسم الغــريب جنتشيسكان وتشن-كس إلى الاعتيادي مثل جنجيز، تشنكيز، جنكز، وجنجز. الكلمــة المغولية *أوردو* أو *أردو* تعني المعسكر أو مقر القيادة العامة. اشتققنا من هذه الكلمــة كلمــة *الحــشد*. تقول بعض المعاجم إن *العرّاف* كلمة من أصل مغولي، وإن غوركاس نيبال ربما اشتقوا اسمهم من *غورخان* أو خان الخانات.

كــان لجنكيــز أربعة أبناء شرعيين. كما هي حال كل الأسماء المغولية، هناك اخــتلافات فــي التهجــئة، تماماً كما تُكتب كلمة شكسبير أحياناً شكسبر، أو بواديسيا بــوديكا. يكون اسم جوشي أحياناً جوجي، وتشاغاتي جاغاتي، وأوجيدي أوجادي. كان آخر أبنائه تولي، والذي يُكتب أحياناً تول.

إضافة إلى أميرة كزي كزيا، كان جنكيز يتزوج غالباً من أعدائه الذين يهزمهم. جعــل أحد آخر قراراته كل الأبناء شرعيين، على الرغم من أن ذلك لم يكن له تأثير في حق الميراث بين أبنائه.

لطالمــا كانــت المدن المسوّرة مشكلة لجنكيز. في الوقت الذي هاجم فيه ينكينغ، كانــت المديــنة محاطة بقرى محصّنة تحتوي صوامع وترسانات أسلحة. كانت هناك خنادق مائية حول أسوار المدينة وكان عرض الأسوار نفسها حوالى خمسين قدماً عند القاعــدة، ومثل ذلك ارتفاعاً. كان للمدينة ثلاث عشرة بوابة مبنية بإحكام وما كان يعد أطول قناة في العالم، والتي تمتد أكثر من ألف ميل جنوباً وشرقاً إلى هانغزهو. كانت معظــم عواصــم العــالم قد نشأت على ضفاف نهر عظيم. تم بناء بيجين حول ثلاث بحيــرات كبيــرة؛ بيهي إلى الشمال، زهونغهي (أو سونغهي) في الوسط ونانهي إلى الجــنوب. ربما تكون أقدم مستعمرة مأهولة في العالم، لأنه تم العثور على دلائل تثبت وجود بشر فيها قبل نصف مليون سنة مضت؛ إنسان بكين، كما يُعرف أحياناً.

في الوقت الذي شن فيه جنكيز هجومه عبر ممر بادغر، كانت ينكينغ قد شهدت مــدة من النمو نجم عنها بناء أسوار قطرها خمسة أميال وزيادة عدد سكانها إلى ربع مليون أسرة، أو ما يقارب المليون شخص. من الممكن أن نتخيل نصف مليون آخرين لــم يكونــوا يظهرون في أي سجل رسمي. حتى عندها، لم يكن قد تم بعد بناء *المدينة المحرّمة* الشهيرة داخل الأسوار وقصر الإمبراطور الصيفي (دمره الجنود البريطانيون والفرنــسيون سنة 1860). اليوم، يبلغ عدد سكان المدينة حوالى خمسين مليون نسمة

ويمكـــن قيادة سيارة في الممر الذي كان مرة مسرحاً لواحدة من أشرس المعارك في الـــتاريخ. تـــاريخ ذلك معروف أيضاً: سنة 1211 ميلادية. كان جنكيز قائد شعبه منذ خمس سنوات في ذلك التاريخ. كان في أوج قوته الجسدية وقاتل مع رجاله. من غير المحـــتمل أن يكـــون عمـــره آنذاك أكثر من أربعين سنة، لكن ربما يكون شاباً بعمر الثلاثين، كما كنت قد كتبت هنا.

تعد معركة ممر بادغر واحدة من أعظم انتصارات جنكيز. كان رجاله أقل عدداً ولم يكـــن قـــادراً على المناورة، لكنه أرسل محاربين لتطويق العدو، وتسلقوا جبالاً اعتقد أبناء تـــشن أنها غير سالكة. تم إرغام فرسان تشن على التراجع نحو خطوطهم من قبل الخيّالة المغـــول، وحتى بعد عشر سنوات، كانت الهياكل العظمية تملأ الأرض حول ذلك المكان لمـــسافة *ثلاثين ميلاً*. نتيجة المشكلات المعتادة لفظ الكلمات الصينية باللغة الإنكليزية، كان الممر معروفاً في أعمال سابقة باسم يوهونغ، والذي يُترجم إلى بادغر.

بعـــد خسارته المعركة، عاد القائد زهي زهونغ بالفعل أدراجه وذبح الإمبراطور الشاب، وعين آخر بينما كان يحكم كوصي.

كان قد تم بناء مدينة ينكينغ لتكون منيعة وكان هناك ما يقارب ألف برج حراسة علـــى الأسوار. كان كل منها مزوداً بأقواس ضخمة يمكنها إطلاق سهام كبيرة مسافة ثلثـــي الميل. إضافة إلى ذلك، كان لديها منجنيقات يمكنها إطلاق حمولات ثقيلة مئات الياردات من فوق الأسوار. كان لديها بارود وقد بدأت استعماله للتو في الحرب، على الرغم من أنه كان في ذلك الوقت يشكل جزءاً من الدفاعات. كانت منجنيقاتها تستطيع إطـــلاق أوعـــية فخارية مليئة بزيت معالج؛ بنزين. كان الهجوم على مثل تلك المدينة المحـــصّنة سيقـــصم ظهر جيش المغول، لهذا اختاروا تدمير الأراضي حولها وجعل ينكينغ تتضور جوعاً حتى تستسلم.

اســـتغرق الأمر أربع سنوات وكان سكان ينكينغ يأكلون موتاهم في الوقت الذي فتحوا فيه البوابات واستسلموا سنة 1215. قبل جنكيز الاستسلام مقابل جزية لا يمكن تخـــيلها. ســـافر بعدها عائداً إلى مراعي شبابه، كما كان يفعل طيلة حياته. مع انتهاء الحـــصار، هـــرب الإمبراطور جنوباً. على الرغم من أنه لم يعد بنفسه، إلا أن جنكيز أرسل جيشاً إلى المدينة ليثأر منه. احترقت أجزاء من ينكينغ طيلة شهر.

على الرغم من كراهيته لتشن، إلا أن جنكيز لم يكن الشخص الذي أنهى احتلال أراضـــيهم وإخـــضاعهم أخيـــراً. سيقع ذلك على عاتق أبنائه وحفيده كوبلا. في ذروة

نجاحــه، غــادر الصين واتجه غرباً. صحيح أن الحكام المسلمين رفضوا الاعتراف بــسلطته، لكن جنكيز كان صاحب رؤية ولم يكن يتصرف من دون تفكير. إنها حقيقة غــريبة، والتي غالباً ما تكون غائبة عن التاريخ، لقد غادر الصين عندما كانت جاهزة لتسقط عند قدميه.

كــان يفهــم فكرة الأمم والقوانين، وطوّر ببطء نظامه الخاص، المعروف باسم *ياسا*.

"إذا لــم يتقــيد العظيم، قادة الجيش والقادة من سلالة الحاكم الذين سيولدون في المــستقبل بياســا، عندها ستتحطم قوة الدولة وتنتهي. بغض النظر عن الطريقة التي يبحثون فيها عن جنكيزخان، لن يجدوه". جنكيزخان.

نــرى فــي هذا النص رؤية الشخص الذي شكّل أمة من قبائل متناثرة وفهم ما يتطلبه الأمر ليحكم أرضاً شاسعة.

اســتعمل جنكيــز نظام الخيمة البيضاء، والخيمة الحمراء، والخيمة السوداء كما وصــفت. كانــت دعاية من نوع ما، مصممة لجعل المدن تسقط بسرعة من الخوف. نظراً إلى أن الرعي كان دائماً قضية تشغل القبائل المغولية، كان ينبغي تفادي الحصار المطــوّل متى كان ذلك ممكناً. لم يكن ذلك يناسب سواء مزاجهم أو أسلوب جنكيز في العملــيات القتالية التي كانت فيها السرعة والحركة عاملين رئيسيين. بطريقة مشابهة، كــان دفــع عدو نحو مدينة لاستنفاد موارده أمراً قاسياً شائعاً. بطريقة ما، كان جنكيز عملــياً جــداً، لكن هناك ميزة لحروب المغول تستحق أن أذكرها هنا: الثأر. كان يتم اســتعمال جملــة *لقــد خسرنا الكثير من الرجال الطيبين* لتبرير شن هجوم شامل بعد الهزيمة.

كــان أيضاً مستعداً لتجريب تقنيات وأسلحة جديدة، مثل الحربة الطويلة. كان القوس دائمــاً الــسلاح الــذي يخــتاره الفرسان المغول، لكنهم استعملوا الحراب بأسلوب فرسان العصور الوسطى بالضبط، كسلاح هجومي ناجح ثقيل ضد المشاة والخيّالة الآخرين.

الخداع ميزة رئيسية أخرى لفهم العديد من الانتصارات التي حققها المغول. كان جنكيــز والرجال الذين يعملون تحت قيادته يعتبرون أن القتال المباشر يضر بسمعتهم.

كانـت الانتصارات التي يتمّ تحقيقها بالدهاء تجلب شرفاً أكبر لهم وكانوا دائماً يبحثون عــن طــريقة لخـــداع العدو الذي يواجهونه، سواء أكان ذلك انسحاباً زائفاً، أم قوات احتياطــية متوارية عن الأنظار أو حتى دمى مصنوعة من القش موضوعة على جياد إضـــافية للإيحاء باحتياطيات لم يكونوا يمتلكونها عادة. ربما يهم البعض أن يفكر بأن بـــادن-بـــاول اعتمد المقاربة ذاتها تماماً في دفاعه عن مافكينغ بعد سبعة قرون، مع حقــول ألغـــام وهمية، وإرسال رجال لوضع أسلاك شائكة ظاهرة للعيان وكل أنواع الخدع والحيل. بعض الأشياء لا تتغير.

حادثـــة قيام جيلم بمص الدم من عنق جنكيز مثيرة للاهتمام. لم يكن معروفاً أن أحـــداً قد نجا من السم من قبل، لكن كيف يمكن تفسير ذلك؟ ليس ضرورياً مص الدم المتخثـــر مـــن جرح في العنق. لا يساعد ذلك على الشفاء، وفي الحقيقة، يمكن لذلك الفعـــل أن يضر بالشرايين الضعيفة أساساً من الجرح. وقعت الحادثة تاريخياً في وقت أبكـــر مما ذكرته هنا، لكنها كانت استثنائية للغاية حتى إنني لم أستطع التغاضي عنها. إنهـــا مـــن نوع الأحداث التي تتم إعادة كتابتها في التاريخ، إذا كانت محاولة الاغتيال الناجحة جزئياً تُعدّ ربما شائنة.

هناك حادثة تاريخية لم أوردها وتتعلق بقيام أحد رجال القبائل المنفيين والجائعين بالإمـــساك بأصغر أبناء جنكيز تولي وتهديده بسكين. لا يمكننا أن نعرف ما كان ينويه لأن جيلم وآخرون قتلوه على الفور.

لـــم يكـــن جنكيـــز ذلـــك الرجل الذي لا يُقهر وأُصيب بجروح عدة مرات في المعـــارك. على الرغم من ذلك، كان الحظ دائماً إلى جانبه ونجا مراراً وتكراراً. ربما يستحق ما كان رجاله يعتقدون بشأنه من أنه كان مباركاً والنصر حليفه.

ملاحظـــة عن مسافات السفر: كانت إحدى الميزات الرئيسية لجيش المغول أنه كـــان يـــستطيع التحول إلى أي مكان تقريباً بهجوم مفاجئ. هناك سجلات مؤكدة عن قطعـــه مـــسافة ستمئة ميل في تسعة أيام، أي بمعدل سبعين ميلاً في اليوم، أو رحلات أطـــول مـــسافة قطعوا فيها مسافة 140 ميلاً في اليوم وكان لا يزال بمقدور الفارس متابعة الطريق. كانت أعظم الرحلات تتضمن تغيير الجياد، لكن ماركو بولو سجّل أن المبعوثـــين المغول كانوا يقطعون مسافة 250 ميلاً بين شروق الشمس وحلول الظلام. في الشتاء، كان يتم إطلاق سراح الجياد المرهقة. كانت تأكل ما يكفي من الثلج لإرواء عطـــشها وتـــبحث فيه للعثور على الأعشاب تحته. عندما عبر الراهب الفرنسيسكاني

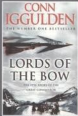
جـــون دو بلان كاربيني السهول لزيارة كوبلا خان، ثم إلى كاراكورم، نصحه المغول باســتبدال جياده بجياد مغولية، وإلا سيراها تتضور جوعاً حتى الموت. لم تكن لديهم مثل أسباب القلق تلك بشأن الجياد. كان يتم تربية الجياد الغربية من سلالات تتمتع إما بقـــوة كبيرة مثل جواد مقاطعة سوفولك بنش، أو لسرعتها في السباقات. لم يتم تربيتها أبداً لقدرتها على التحمل.

حادثة سقوط التويجات صحيحة. ألقت ما يصل إلى ستين ألف شابة أنفسهن عن أسوار ينكينغ بدلاً من رؤيتها تسقط في يدي الغزاة.

«أنا الأرض وعظام التلال. أنا الشتاء».

تحـوَّل تيموجن الذئب إلى جنكيزخـان، رجل عليه توحيد أكثر القبائل فرقة وأشدها تعطشاً للحرب على الأرض. عقد العزم على تشكيل أمة جديـدة من براري وجبال منغوليا المقفرة. ستكون ولادة دموية تجعل قارة بأسرها تجثو على ركبتيها.

طيلـة آلاف السنـين، أبقت إمبراطورية تشن القويـة والمسيطرة، والتي تمتلـك أرضاً ثرية وجيوشـاً جـرَّارة شعبـه ممزقاً ومشتتاً. لم يكـن لدى محاربيه سـوى القوس، والحصان، وانضبـاط شديـد جـاء مـن أرض الجليـد، والجـوع، والمـوت. كانت الجـدران الحجريـة تلقي بظلالهـا على المحاربين المغـول، فتوجّب على جنكيـز إما تحطيم جيش الامبراطوريـة المهيمـن أو رؤية شعبه يتبعثر وأحلامه تتحطم.

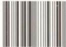



إضافـة إلى هـمّ التعاطي مع العـدو التاريخي، كان علـى جنكيز تسوية الخلافات المستمـرة بين جنرالاته، والتوفيق بـين أشقائه الطموحين، والتأقلـم مـع ردّات فعـل أبنائـه الذين اشتـد ساعدهم. وهكـذا تحـوّل المحـارب الشـاب إلى قائد عسكري مظفَر: وقـد آن الاوان لتحقيق المجد لشعبه.

«سـادة البـراري» قصـة رائعة ملحمية في مداهـا، مقنعة ومذهلة في سردهـا. الأهم من ذلك، استمرار جنكيزخان في الهيمنة على المشهد فيما يتحول من شاب يافع في «ذئب السهول» إلى قاهرٍ للأمم.




اقرأ للمؤلف أيضاً:
الجزء الأول من هذه
الملحمة التاريخية

ISBN 978-9953-87-575-0



جميع كتبنا متوفرة على
شبكة الإنترنت
على
نيل وفرات كوم
www.neelwafurat.com


الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com
ص. ب. 5574-13 شوران 2050-1102 بيروت – لبنان
هاتف: 785107/8 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb